الآخر في الثقافة العربية

صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط

شمس الدين الكيلاني

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٨

مُقَدِّمَة

مسالك الاتصال والانفصال العربيين
بإفريقيا السوداء

بقيت المعرفة العربية بإفريقية، في العصر الوسيط، وما رافقها من تخيُّل، يشوبها في بعض جوانبها ومواضيعها النقص، ويكتنفها الغموض والالتباس، وتغلفها الأسرار، ويحيطها المجهول العصي على الاختبار، ولا سيما فيما يتعلق بأجزائها الجنوبية، تحت خط الاستواء، حيث تفاوتت عمقاً ووضوحاً كلما اتجهنا جنوباً، فمن الوضوح الموثوق به، وهو ما وسم معرفة العرب الجغرافية والبشرية لبلاد شمال القارة، أو المغرب العربي، باعتبارها جزءاً من أرض العرب، أو من دار الإسلام، إلى الدراية الممزوجة بالتخمين والالتباس فيما يخص معرفتها للصحراء الكبرى، ثم لجنوب الصحراء الكبرى ذاتها: بلاد السودان، والزنج، إلى الحدود الجنوبية القصوى للقارة التي شاب معرفتها الغموض، والمجهول، فتم التغلب على ذلك بقوة الخيال، والتحليق الأسطوري، فطغى عليها "العجيب" و"المعجز". فلم يظهر من تلك المناطق سوى ما رشح من معلومات متفرقة نقلها التجار والمغامرون، والرحالة والجغرافيون العرب، الذين دفعتهم المغامرة أو الحاجة أو الطموح إلى الثروة، أو الفضول المعرفي، أو الغرض السياسي: السفارة، أو الجاسوسية، لاقتحام مجاهيل الصحراء، والحواف الجنوبية لبلاد السودان، والزنج. على الرغم من اصطدامهم بالعقبات الموضوعية، إذ لم يكن باستطاعة الملاحين الأوائل الانتصار على التيارات البحرية الشديدة الرياح، التي لا تهدأ بين الرأسين الأبيض والأخضر، متجهة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي "وأنهم تبعاً لذلك لم يتمكنوا من أن يصلوا أبعد من رأس جوبي في الجنوب"[١]. فضلاً عن أن التجار العرب الذين اخترقوا (بلاد السودان)، جنوب الصحراء الكبرى، حجب عنهم أدلاؤهم ووسطاؤهم الأفارقة السود أسرار البلاد الجنوبية (بلاد السافانا)، وهي المصدر الرئيسي لتجارة الذهب، وثروتهم، وبادلهم الحرص نفسه أصحاب البلاد أنفسهم، خوفاً على ثروتهم من الضياع. لهذا حدثنا الجغرافيون والرحالة العرب عن "التجارة الصامتة" التي كانت تقوم بين هؤلاء الجنوبيين وبين التجار الأجانب: العرب وسود غرب إفريقيا، دون أن يلتقوا وجهاً لوجه. لكن العقبات التي واجهوها لم تمنع من تقدم معرفتهم بإفريقيا السوداء، قياساً إلى ما يقابلها من معرفة عند اليونان والرومان الذين سيطروا على الحافة الشمالية لإفريقيا، فامتزجت معارفهم بالأساطير، والتصورات الفلكية الرياضية، وبقيت معرفة جغرافييهم تنتهي عند الحدود الجنوبية للصومال، الذين أطلقوا على رأسها اسم (رأس براسيوم)، بينما انحدرت معرفتهم بساحلها الغربي إلى مستوى الخرافة، وساد الاعتقاد لديهم على أنه من غير الممكن التطواف حول ذلك الساحل لأن قاع المحيط الأطلسي، إذا ما ذهبنا جنوباً، ضحل للغاية، وكثير الطين والحشائش، فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة التي تكفي لإحراق السفن، وقد روج لهذه الأفكار جغرافيون كبار أمثال هيرودوت وبطلميوس، كما ساد الاعتقاد عندهم بأن الجزء الجنوبي للقارة قفر يابس وأن البحر الأحمر يتصل بالمحيط الهندي مكوناً بحيرة مغلقة، وهو ما يمنع الملاحة حول القارة السوداء[٢].

---

(١) جوزيف كي زيربو Zerbo Joseph Ki: تاريخ إفريقيا السوداء، القسم الأول، ترجمة يوسف شلب الشامات، وزارة الثقافة ١٩٩٤، ص١٤٦.

(٢) د.شاكر خصباك: الجغرافية عند العرب، في موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، الجزء الأول، المؤسسة العربية للدراسات

فقدم العرب - المسلمون، والحالة هذه، معلومات أكثر اتساقاً مع الواقع، بعد أن استطاعوا بناء حضارة كونية لها امتدادات قارية، سمحت لهم بإقامة علاقات واسعة مع حضارات العالم القديم، إذ شكل الفتح الإسلامي حادثاً تاريخياً مسَّ مصير القارات الثلاث: آسيا وإفريقية وأوربة. وسمح بقيام إمبراطورية كونية عند التقاء تلك القارات، ولقد أعطى العرب إفريقيا السوداء إحدى دياناتها الرئيسية: الإسلام، فضلاً عن المسيحية من قبل، وغيروا في أجزاء كاملة من بنيتها الاجتماعية والثقافية، لهذا يعيد بعض الباحثين إلى العرب، من جغرافيين ومؤرخين ورحالة، الفضل الكبير في أنهم قدموا لإفريقيا السوداء خدمة لا تقدَّر، بكتاباتهم التي اكتشفوا فيها الإنجازات الاجتماعية والسياسية لبلاد السودان[١].

وقد كانت رقعة العالم العربي - الإسلامي أوسع مساحة من الإمبراطورية الرومانية في أعز أيامها، فهيأ ذلك لجغرافييها ورحالتها ومفكريها مادة غنية عن جهات واسعة من العالم القديم، وصاحب اتساع النفوذ الإسلامي نشاط تجاري عظيم، امتد إلى ماوراء حدود الإمبراطورية الإسلامية، فبالإضافة لاحتكاكهم ومعرفتهم لجوانب مهمة من القارتين الأوربية والآسيوية، فقد عبر التجار العرب الصحراء الكبرى، وأقاموا صلات تجارية مع جهات إفريقيا الغربية، ووصلوا لغاية خط عرض عشرة، كما تجولت مراكبهم على امتداد السواحل الشرقية حتى مدغشقر (= جزيرة القمر)[٢]، فضلاً عن اختراق رحالتهم الكبار للقارة ووصولهم إلى عمقها. لذا كانت معرفة الجغرافيين العرب بإفريقيا السوداء متفوقة بدرجة ملحوظة على معرفة الإغريق والرومان. ولا سيما إذا عرفنا أن شمال القارة، أو النطاق الممتد ما بين الساحل الأطلسي والبحر الأبيض، الذي تحده جنوباً الصحراء العربية الكبرى، غدا بعد الفتح الإسلامي جزءاً من العالم العربي، وقد اجتاز نفوذ العرب حافته الصحراوية فيما بعد باتجاه الجنوب إلى عمق القارة.

ومما ساعد على ذلك، أن العلاقات العربية - الإفريقية تضرب جذورها حتى قبل الإسلام، واتخذت لها أشكالاً متباينة، من التجارة إلى التنافس على حافتي البحر الأحمر، ونقلت الحبشة المسيحية إلى اليمن، ثم أتى إلى الحبشة مهاجرون مسلمون في عهد الرسول، طلباً للأمان من عاهلها، ثم توسعت الاتصالات في العهد الراشدي، ولقد اتخذ التأثير الإسلامي، مع دخول الإسلام إلى مصر والمغرب العربي، مسالك سلمية إلى غرب إفريقيا (السودان) عبر التجارة، والتبشير الديني الذي قاده بعض الوعاظ والأقطاب الصوفية. وأصبح للعرب، بالإضافة إلى صلاتهم التجارية والعقيدية، وجود بشري كثيف في الحياة العامة والإدارة والنشاط الاقتصادي لبلاد السودان، واختلطوا أيضاً بالأفارقة السود، وتزاوجوا وتناسلوا، ونقلوا تأثيرهم إلى الحياة الإفريقية، حيث أنشؤوا المؤسسات الثقافية، ونشروا لغتهم العربية، وأدخلوا اللغات الإفريقية، في مجال التدوين والكتابة عن طريق الحرف العربي. ونشأ تبعاً لذلك أجيال من العلماء الأفارقة السود، جنباً إلى جنب مع العلماء العرب المسلمين[٣].

استطاع الإسلام أن يزدهر في غرب إفريقيا حتى بعد تقهقر الخلافة العربية في المشرق وضعفها، مكوناً إمبراطوريات إسلامية جنوب الصحراء. فاخترقت الثقافة العربية-الإسلامية الحاجز الصحراوي لتساهم في البناء الثقافي للإمبراطوريات الإسلامية الإفريقية التي اقتبست الثقافة العربية، حيث أصبحت اللغة العربية في أكثر مدنها لغة الإدارة والثقافة والتعليم والتجارة. وتزاوجت اللغة العربية باللغات الإفريقية في غرب إفريقيا وشرقيها بصفة خاصة، فكانت ثمرة ذلك ازدهار لغتين كبيرتين بتأثير من اللغة العربية: اللغة السواحلية في

والنشر، بيروت-دار فاس، عمان ١٩٩٥، ص٥٢٦.

(١) زيربو، المصدر السابق، ص١٦٥.

(٢) خصباك، المصدر السابق، ص٥١٠.

(٣) محي الدين صابر: العلاقات الثقافية بين إفريقيا والعرب، في "العرب وإفريقيا"، ندوة: مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت ١٩٨٧، ص٤٩٧.

إفريقيا الشرقية (في الصومال وموزامبيق)، أما الثانية فهي "الهوسا"، التي شكلت لغة تفاهم في أفكار إفريقيا الغربية (السنغال، غينيا، ليبيريا، والكميرون)[٤].

ولم تكن العلاقة العربية بالسود تتسم بالصدامية، أو النفور والعدائية، كما هي عليه علاقتهم بأوربا، فأينما ذهب العربي - المسلم جنوب الصحراء الإفريقية أو جنوب مصر، أو الحافة الشرقية لإفريقيا، وجد أمامه جاليات عربية منتشرة في كل مكان، وتسرُّباً لخطوط التجارة، ووجد من يستضيفه ويأويه ويرحب به، كما سيجد الجامع، والطقس الإسلامي، فتتضاءلت لديه أحاسيس الغربة، لا سيما بعد أن تحول الشمال الإفريقي إلى جزء من النطاق العربي ومن "دار الإسلام"، وعلى هذا سنقصر بحثنا هذا على "إفريقيا الشمالية السوداء" وحدها، أي تلك الأقاليم الممتدة جنوب الصحراء الكبرى، لأن إفريقيا اعتبرت في التصور والواقع جزءاً من العالم العربي، حيث سماها الجغرافيون العرب "بلاد المغرب العربي"، لذا لا نستطيع النظر إليها على أنها "الآخر"، وذلك لأنها جزء من الذات عرفها الجغرافيون العرب وغيرهم من أصحاب المصنفات بقدر معرفتهم لبلاد العرب والمسلمين، حيث تمثلت الصحراء الكبرى لديهم كبرزخ للاتصال والانفصال بين عالمهم (الشمال الإفريقي - المغرب العربي) وبلاد السودان، والزنج.

وقد تشابكت العلاقات بين العرب - المسلمين، بما فيهم بلاد شمال إفريقيا، وعرب الجزيرة العربية واليمن، وبين بقية أقطار إفريقيا جنوب الصحراء، وفي شرق الساحل الإفريقي وغربه، والتي أطلق عليها الجغرافيون العرب وغيرهم من ممثلي الثقافة العربية من رحالة ومؤرخين وأصحاب المدونات الأدبية، اسم "بلاد السودان"، حيث قصدوا به الشعوب الإفريقية ذات اللون الأسود، وأرض أجناس السود الأفارقة، ولقد شملوا بمفهومهم هذا: الزنوج، والسودانيين والأحباش والنوبيين، وقد حدّدوا مواقع استيطانها في إفريقيا جنوب الصحراء، الممتدة من الحبشة شرقاً إلى الأطلسي غرباً، كما أنهم خصّوا اسم "الزنج" (لعل هذه التسمية أتت من مصدرها زنجبار) بالأقوام التي تقطن الأجزاء الشرقية من إفريقية حول خط الاستواء، وماورائها جنوباً؛ أي تلك التي سمّوها: سفالة الزنج، والممتدة على أطراف بحر الزنج، الذي يفصل البر الإفريقي عن جزيرة القمر (= مدغشقر). وخصّوا اسم الحبشة أحياناً بالبلاد الواقعة بين وادي النيل غرباً والبحر الأحمر (القلزم) شرقاً، وهو ما يُعرف الآن بالقرن الإفريقي. كما أطلقت بعض المصنفات الجغرافية والتاريخية العربية أحياناً اسم "بلاد التكرور" (وهو اسم لدولة قامت على ضفتي نهر السنغال) على مجمل بلاد السودان[٥]. ويمكن القول، بصورة عامة، إن العرب أطلقت اسم "بلاد السودان"، مقابل "البيضان" أو "السمر" في شمال إفريقيا، لتسمية الأقطار الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، والممتدة ما بين الأطلسي إلى نهر النيل[٦]. و"بلاد الزنج" على الشعوب القاطنة للساحل الشرقي الإفريقي، حيث نلاحظ بوضوح أنه على الرغم مما تصوره الجغرافيون والمؤرخون والرحالة العرب من وحدة غامضة للقارة الإفريقية فإنهم شعروا دائماً بنوع من "الاختلاف" أو التمييز بين شمالها (العربي-الأسمر-الأبيض) وبين شعوب جنوب الصحراء (السوداء)، ووضعوا الشعوب السوداء في إطار جغرافي لا يتعدى سواحل (بحر الزنج) والحبشة والسودان الغربي[٧]. فكلمة "سودان" أطلقوها على الشعوب ذات البشرة السوداء بصفة عامة، ويشمل هذا المصطلح جغرافياً ما عُرف بالحزام السوداني الممتد في قلب القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب، فأحياناً يضيق ليشمل فقط "سكان غربي أفريقية"، ويتسع أحياناً

---

(٤) د.عبدو بدوي: السود في الحضارة العربية، دار قبا للطباعة، القاهرة ٢٠٠١، ص٢٣١. وراجع أيضاً عز الدين عمر موسى، الإسلام وإفريقيا، في "العرب وإفريقيا"، المصدر السابق، ص٨١.

(٥) زيربو، المصدر السابق، ص١٦٧.

(٦) مادهو بانيكار.ك: الوثنية والإسلام، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، القاهرة ١٩٩٨، ص١٥.

(٧) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، الجزء الأول، القسم الأول، ترجمة إبراهيم خوري، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥، ص١٩٩.

أخرى ليشمل بلاد السود جميعها، بما فيها بلاد الزنج، والجنوب، وذلك إذا عرفنا أن الجغرافيين العرب وأصحاب المصنفات الآخرين قرنوا السواد بأوصاف أخرى، على سبيل التخصيص، والتفريع للجنس الأسود، أو على سبيل التدرج في السواد[٨]، فالأصطخري (ت ٣٤٠هـ-٩٥١م) مثلاً، يصف بلاد السودان (ويقصد السودان الغربي) بأن سكانها ليسو "بنوبة ولا بزنج، ولا بحبشة ولا من البجة، إلا أنهم جنس على حدة أشد سواداً من الجميع وأصفى"[٩]، ويصف أبو الفداء (٧٧٢هـ-١٣٣١م) أهل التكرور بأنهم "أشبه الناس بالزنوج"، وكذلك يفعل ياقوت الحموي (٦٢٣هـ-١٢٢٧م) وغيرهم.

ويبدو تبعاً لهذا التصور، أنهم رأوا في بلاد النوبة شمال الحبشة وبعض المدن الصحراوية في الغرب مثل سجلماسة وأودغست، مناطق تخوم، انتقالية، ما بين مجالين بشريين وجغرافيين. وقد ساعدت مجاورة العرب للأفارقة السود، إن كان في الشمال، حيث كانوا جزءاً من القارة، أو من الغرب عبر البحر الأحمر، على ترابط علاقاتهم وتوثقها على كل الصعد، الاقتصادية والثقافية وحتى البشرية، مع اندفاع الهجرات والاختلاطات فيما بينهم. حيث تميزت علاقاتهم بهم بنوع من الانسياب والتداخل، على النقيض مما تميزت به علاقتهم بأوربا التي طغى عليها طابع التحدي، وامتزجت بها العداوة بالإعجاب، والخصومة بالمنافسة؛ فلم تنقطع هجراتهم إلى شرق إفريقيا، أو إلى وسطها عبر الصحراء الكبرى، ومعها تجارتهم، وتأثيرهم الثقافي والاجتماعي، إذ لم يجد العربي ما يمنعه من عبور الصحراء إلى ماوراءها، أو إلى اجتياز بحر عمان أو البحر الأحمر إلى الساحل الشرقي لإفريقيا، فأينما ذهب وجد أمامه جالية عربية، مسلمة، تمنع عنه الإحساس بالغربة أو الشعور بالخطر، الذي يمكن أن يحسه عند اقترابه آنئذ من الحدود الأوربية، وقد تعامل التاجر العربي المسلم، هنا، تعاملاً مباشراً، مع بلاد السودان والزنج، على النقيض من تجارته مع أوربة التي اعتمد فيها على الوسيط الأوربي، أو على تجار غرباء من اليهود أو الأرمن.

لم تتسم علاقة العرب بالشعوب السوداء بالخوف، أو بالتحدي، أو بخصومة الجوار، فقد انفتح إليها العرب ومعهم الإسلام، عن طريق التجارة تارة، أو عن طريق الطرق الصوفية تارة أخرى، أو الهجرة مرة ثالثة. إذ لعب التاجر العربي دور الوسيط التجاري الذي لا يستغنى عنه ما بين شرق إفريقيا وبلاد الصين والهند، وما بين البيوت التجارية في جنوب الصحراء، ودار الإسلام، ومنها إلى بلاد أوربا الشمالية. فكانت سواحل إفريقيا الشرقية، قبالة اليمن، مصدراً أساسياً للعنبر الأشهب (غير الأصفر) الذي استعمل لأغراض طبية. وكانت في عهد هارون الرشيد مورداً هاماً من موارد الخراج يعادل اللؤلؤ[١٠]. كما أن العرب-المسلمين استوردوا من شرق إفريقية، أيضاً، قرون الكركدن التي كان لها استعمالات طبية، إلى جانب العبيد، والذهب من سفالة الزنج (موزامبيق)، والنوبة في شرق إفريقية[١١]. وكانت الموانئ في شرق إفريقية تلعب وظيفة مزدوجة للسفن التجارية، حيث تشتري منها ما تحمله من سلع، وتبيعها سلعاً مصدرها في أغلبها من داخل القارة. فبالإضافة إلى استقبالها المنتجات أو السلع التجارية من الأسواق العربية والآسيوية، كان لها دوراً رئيساً آخر، هو جلب منتجات داخل القارة إلى الساحل وأهمها: العاج وأصداف السلاحف، والذهب، وغيرها. وغالباً ما ترك الأفارقة للعرب النشاط التجاري مع العالم الخارجي، واقتصر دورهم على جلب المواد التجارية من داخل إفريقيا نفسها.

وبهذا حدث نوع من تقسيم العمل، يجلب الإفريقيون بموجبه السلع من الداخل، ثم يصدِّرها العرب، الذين

---

(٨) إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص٥.

(٩) أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (الأصطخري): المسالك والممالك، تحقيق: د.محمد جابر عبد العال الحسيني، وزارة الثقافة، مصر ١٩٦١، ص٣٥.

(١٠) إغناطيوس بوليانوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان، سينا للنشر، القاهرة ١٩٩٥، ص١٣٢.

(١١) عزيز العظمة: العرب والبرابرة - المسلمون والحضارات الأخرى، رياض الريس، بيروت ٢٠٠١، ص٣٠-٣١.

يستوردون بدورهم ما تحتاجه إفريقيا من العالم الخارجي، ليقوم الأفارقة بعدها بنقله إلى العمق الإفريقي؛ فلم يحاول العرب التغلغل داخل القارة، وبقيت وظيفتهم تقتصر على التعامل مع المدن المحاذية لساحلها الشرقي. بالمقابل لم يحاول الأفارقة عبور المحيط(١٢).

ورافق ذلك هجرات عربية متتالية، وأحياناً فارسية إلى شرقي إفريقيا، نتج عنها اختلاطاً وتزاوجاً، ولَّد بدوره ثقافة سواحلية واحدة، تمَّ تدوين كتبها بأحرف عربية، حيث دخلها الكثير من مفرداتها؛ كما نقل العرب إليها الكثير من مزروعاتهم، حيث زرعوا النخيل والذرة والبقول والأرز، وذلك للاستهلاك المحلي، واستمرت السلع الإفريقية المألوفة كالعاج والرقيق والذهب بالتدفق، والتصدير إلى العالم الخارجي عن طريق التجار العرب(١٣). لهذا فقد رأى البرتغاليون عند وصولهم المنطقة تجارة بحرية نشطة للغاية، موضوعها الذهب والحديد والعاج والخز والنحاس، وجلود السلحفاة، والأقمشة القطنية، والرقيق والفخار الصيني، وعثروا على عالم تجاري "أوسع من عالمهم وأكثر ثراء من بلادهم الأوربية"(١٤).

لقد ازدهرت كثير من المدن التجارية على الساحل الشرقي لإفريقية، لم تخلُ أي منها من جالية عربية، ففي "مالندي" جنوب مقديشو استقر كثير من العمانيين عملاً بالتجارة، وبالقرب منها "منبسة" من المدن التجارية الهامة، بالإضافة إلى مدينة "كلوة" ذات الشهرة الواسعة بتجارة الذهب، حيث يرجع تاريخها إلى القرن العاشر، والتي لعب المهاجرون العرب دوراً في تأسيسها، وكان يتبعها "سفالة" وكويليمان Qwliman، وأنجوش Angoch؛ وتجمعت في "كلوة" البيوتات التجارية العربية والفارسية، حيث كانت بمثابة نهاية لخط القوافل المتصلة بداخل إفريقية. وإلى جانب هذه الموانئ كانت هناك جزيرة القمر (مدغشقر)، المركز التجاري الهام، إلى جانب موانئ زيلع، وبربرة، وزنجبار، وبراو، التي اشتهرت بمغاص اللؤلؤ(١٥).

أما عن بلاد السودان، جنوب الصحراء، فقد استطاع العرب، وفي مقدمتهم التجار إيجاد مسارب لاختراق حاجز الصحراء إلى مناطق السودان، والتي يمكن النظر إليها كقسمين غربي وشرقي، يفصل بينهما بحيرة تشاد، أو كما كانت تسمى "كوري".

يمتد القسم الشرقي من بحيرة تشاد حتى الحدود المصرية، أما القسم الغربي فقد سماه الجغرافيون العرب (الساحل)، وهو استعمال مجازي، يقيس الصحراء الواسعة برمالها وكثبانها، بالبحر الواسع، بالإضافة إلى المناطق السهلية الممتدة من نيجيريا إلى المحيط، وهي مناطق سهول ومراع، اعتبرت بمجملها مع الصحراء بحراً رملياً، أما المنطقة الواقعة جنوب (الساحل) هذا، فهي منطقة الغابات المدارية الكثيفة، وتتصل بخليج غينيا على الأطلسي، ومن هذه المناطق المدارية ينقل الذهب إلى الساحل (السودان الغربي) وهناك يُقايض بالملح الذي كان يأتي من مناطق الساحل من (أوليل) و(تغازي) في الجزء الشمالي من الصحراء.

وكان التجار من العرب والبربر ينقلون الملح من بحيراتها الملحية تلك إلى حيث يقايضونها بالذهب مع بلاد السودان، ثم ينقلون الذهب إلى موانئ وحاضرات الشمال الإفريقي العربية - الإسلامية، ليبادلونه بحاجات أهل السودان من أدوات وآلات وعطور وأقمشة، ومع أن أمر هذه التجارة كان ضعيفاً في العهد الروماني إلاَّ أنها نشطت وتوسعت مع الفتح العربي لشمال إفريقية، وكان الجمل حديث العهد في تلك الديار، فدفع العرب به إلى

---

(١٢) د.شوقي عبد القوي عثمان: تجارة المحيط الهندي-عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت (١٥١)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠، ص٨٥.

(١٣) المصدر نفسه، ص٤٤.

(١٤) بازل دافيدسون: إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة: جمال حمدان، بيروت، ص٢٦٣-٢٦٤.

(١٥) عثمان، المصدر السابق، ص١٦٨-١٧١.

الصحراء، فزادوا من حرارة جريان النشاط التجاري، إلى أن غدت عاملاً مهماً في قيام التكتلات السياسية في الصحراء، وفي السودان الغربي، لحماية تلك التجارة[١٦] أو لتراكم الثروة التي جنوها من جراء تدفقها المتزايد، فما بين عامي ٩٠٠-١٥٠٠م كانت القوافل التجارية تجتاز الصحراء الكبرى ناقلة سلع شمال إفريقيا، إضافة إلى سلع من أوربا إلى "بلاد السودان"، عائدة من هناك بما تدفعه أسواق تلك البلاد من سلع إلى أسواق المغرب العربي، فكانت القوافل تحمل من السودان الغربي الذهب والرقيق وريش النعام، بالمقابل كانت تأتي إلى مدنه بالزجاج والثياب والأقمشة والتمور والزيوت والملح والمصنوعات المعدنية والأسلحة؛ واستطاعت تلك القوافل أن ترسم لها عبر الصحراء العديد من الطرق باتجاه مدن السودان، وكان أهمها: أولاً الطريق الموصل من المغرب الأقصى (طنجة وأصيلا)، عبر فاس وسجلماسة، إلى أودغست إلى مالي. وثانيها الطريق الذي يبدأ بوهران ويمر بتلمسان وسجلماسة، ويخترق تغازي إلى ولاتة منتهياً إلى تمبكتو. وثالثها الطريق الذي يصل تونس بـ(غوا) ماراً بالقيروان وتدمكة. ورابعها الذي يبدأ بطرابلس ويعبر غدامس إلى غوا. فضلاً عن طرق أخرى تجتاز الصحراء الكبرى من الغرب إلى الشرق، ولا سيما الطريق الذي يحاذي أطراف الصحراء في الجنوب مخترقاً (الساحل)، فيبدأ من أوليل ويمرّ بتكرور، وغانة أوكومبي صالح، أو يبدأ من أرغوين ويمرّ بودان، إلى ولاتة (ولاطة) ثم تمبكتو فغاو، إلى مصر[١٧].

وهكذا، فبعد أن استقر العرب في شمال إفريقية توغلوا في المناطق الصحراوية إلى "بلاد السودان"، وكانت المراكز المدينية الرئيسية التي تنطلق منها تجارتهم إلى قرب: طرابلس الغرب من الجهة الشرقية، والقيروان في الوسط، ومراكش في الغرب. وتستغرق الرحلة أحياناً الستة أشهر، يحملون معهم الملح والتمر والمرجان والحرير والسكر والتوابل، ويجلبون من بلاد السودان التبر والجلود والعاج وريش النعام، وفي المقابل فقد توسع العرب على سواحل إفريقية الشرقية وأسسوا مدينة مقديشو في الصومال، ومباسة في ساحل كينيا. وانطلقوا من الجزر الموجودة قرب باب المندب مثل سوقطرة في حركتهم السلمية تجاه شرق إفريقيا، وعرفوا روديسيا أو زيمبابوي الحالية، ولامسوا جزيرة مدغشقر[١٨]، التي سمّوها جزيرة القمر. وكانت عدن المركز التجاري الكبير بين إفريقية وبلاد العرب "ونقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر، فيسميها المقدسي مثلاً دهليز الصين"[١٩]. وكما يقول غوستاف لوبون Gustave Lebon، فقد "كان لعرب المغرب صلات تجارية بأصقاع إفريقيا الغربية على الخصوص، وكان لعرب مصر صلات بأصقاع إفريقيا الشرقية والوسطى.." ويتابع القول "لم يكن أقل من هذا تأثير القرآن في إفريقيا الوسطى.. وكان ما أقامه العرب في الساحل الشرقي يسهل عليهم ولوج داخل إفريقيا"[٢٠].

لم تقدم تلك التجارة الواسعة للعرب وباحثيهم فرص الاحتكاك المباشر بشعوب السودان فحسب، بل حملت معها الدين الإسلامي، ورافقها الوعاظ ورجال الدين والمتصوفة، وبالنهاية استقرت جاليات عربية مهمة في مدن السودان، مما دفع إلى تأثيرات ثقافية واسعة بين الطرفين. لهذا يتحدث (زيربو) عن نهضة عرفتها إفريقيا منذ بداية القرن ١٢ حتى نهاية القرن ١٦ ميلادي، تستحق أن يطلق عليها بحق "عصر إفريقيا السوداء العظيم"، فبعد مرحلة من "حركات الهجرات ومن الاحتكاكات، والمبادلات المفيدة مع الخارج، عن طريق العرب، بلغت البلاد الإفريقية

(١٦) نقولا زيادة: إفريقيات، دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، دار الريس، بيروت ١٩٩١، ص٣٤٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص٤٩.

(١٨) د.عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤، ص٦٣.

(١٩) آدم متز Adam Mez: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة ١٩٤٨، ص٣٢١.

(٢٠) غوستاف لوبون Gustave Lebon: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٦، ص٥٥٦-٥٥٨.

السوداء طوراً جديداً تمثل في نهضة سكانية كثيفة نسبياً، وفي نوع من التوازن تمثل في منجزات سياسية واجتماعية متقدمة جعلت هذه البلاد تتساوق مع العالم. ولكن هذا التقدم المندفع المرتكز على أسس ثابتة واثقة ما لبث أن تحطم فجأة على أقدام القرن السادس عشر"[٢١] مع التوسع الغربي في القارة السوداء.

تلك العلاقات برمتها هي التي أهّلت العرب لأن يعرفوا عن إفريقيا السوداء أكثر من اليونانيين والرومانيين، وكانت صورتهم أكثر وضوحاً، وموقفهم الإدراكي والسلوكي أكثر انفتاحاً على الآخر الأسود، وأكثر إنصافاً بالتفهم، لذا فإن دراساتهم عن إفريقيا، في العصر الوسيط، لا يمكن لأي باحث أن يتجاهلها في دراسته لهذه الحقبة، وكما يقول دونالد ويونر "وكانت إفريقية جنوب الصحراء غير معروفة بالفعل لأي حضارة في العصور القديمة والوسيطة باستثناء الحضارة العربية"[٢٢]، ويشير كراتشكوفسكي إلى "الاتساع الهائل في مدى المعلومات الجغرافية لدى العرب عند مقارنته بما عرفه العالم القديم"، أما فيما يخص أفريقيا "فقد عرفوا إفريقيا الشمالية إلى خط عرض ١٠ درجات شمالاً، وساحل إفريقية الشرقية إلى رأس كرينتس قرب مدار الجدي.. ولأول مرة يظفر فيها جوف إفريقيا بوصف مفصل، وكان ذلك في مؤلفاتهم، وقد استمرت معلوماتهم تمثل القول الفصل في هذا الصدد لحين ظهور المستكشفين الجغرافيين الأوربيين في القرن الثامن عشر"[٢٣].

ولقد تضافرت الرحلات العديدة التي قام بها الرحالة العرب إلى أنحاء مختلفة من القارة، مع المعلومات الجغرافية والتاريخية، لتلقي الأضواء أكثر فأكثر على أحوال الشعوب السوداء، بالإضافة إلى المعلومات المتناثرة التي جمعها سفراء ملوك العرب والمسلمين في الشمال والشرق لسلاطينهم وملوكهم، فانتقل هذا كله إلى المدونات الجغرافية وغيرها، أو في الصفحات التي تركها الرحالة وراءهم. فزخر التأليف العربي بالحديث عن بلاد السودان، والزنج، امتزجت بها المعلومة (المعرفة) بأحكام القيمة (معايير خلقية وثقافية) وبالغريب والعجيب (المتخيل الثقافي الأنثربولوجي)، لذا، فإننا سنعمد في بحثنا هذا داخل أروقة الثقافة العربية-الإسلامية، ولا سيما في التأليف الجغرافي والرحلي من هذه الثقافة، أو الجغرافي-التاريخي، إلى تفحص الجانب المعلومي (المعرفي) والقيمي (المعايير الأخلاقية والسلوكية)، والتخيلي (المتخيل الثقافي) في ذلك التأليف، أو تلك الثقافة عن الشعوب السوداء، لسبر طريقة معرفة العرب ـ المسلمين، وماهية أحكامهم، وأسلوبهم التخييلي لتلك الجماعات السوداء، وهو ما يعكس بالنهاية (موقف) العرب من الآخر الأسود، وحدود معرفته له في العصر الوسيط، الذي هو موضوع دراستنا هذه، التي سنحاول فيها تفحص مقطع هام للغاية من الثقافة العربية يتعلق بموقفها من "السودان" بلاداً وبشراً: موقع هؤلاء من الترتيب الكوني والبشري، وتخيلهم لخصائصهم النوعية في إطار الوحدة الإنسانية (فضائلهم ومثالبهم، أحوالهم وما تتميز به بلادهم من خصائص بيئية، وما تزخر به من نباتات وحيوانات وثروات معدنية متميزة، وبالنهاية مدى ما وصلت إليه الثقافة العربية من معرفة لواقع القارة الإفريقية وأحوالها.

ولقد كان التأليف الجغرافي العربي، بالإضافة إلى الرحلة، بمثابة المحرق [illegible]
مواقف الثقافة العربية وتخيلاتها، وحدود معارفها، وأحكامها، وخطوطها الرمزيه، والمفهوميه عن الاخر المحيط بدار الإسلام، أو في العالم بما فيه إفريقيا السوداء. وإذا كانت الجغرافية العربية قد حملت في تأليفها الصورة الأكثر ثباتاً ومحافظة ونمطية، عن الآخر بما فيه الآخر الإفريقي الأسود، حيث امتصت في تخيلاتها

---

(٢١) زيربو، المصدر السابق، القسم الأول، ص٢٠٣.

(٢٢) دونالد ويرنر: تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البرادي، مكتبة الوعي العربي، الفجالة ـ مصر، بلا تاريخ، ص١٠.

(٢٣) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٢٣.

وأحكامها التأليف الجغرافي القديم، ولا سيما تصورات بطلميوس وجالينوس واللذان لم تتحرر منهما إلا في فترات متقطعة، وخاصة مع أصحاب المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية في القرن العاشر الميلادي، فإن الرحلة كانت الأكثر ثورية، والأكثر تجديداً بالمعلومة والأحكام، على الرغم من أن الرحالة أنفسهم هم أبناء الثقافة العربية نفسها، اختزنوا أحكامها ومسمياتها ورموزها عن الآخر في وجدانهم وعقولهم، إلا أن الوقائع التي قدموها سهَّلت اختراق الصورة النمطية عن جغرافية إفريقيا، وعن أهلها أنفسهم.

وعلى هذا فقد قسمنا نصَّنا إلى العديد من الأقسام، بدأناه بالقسم الأول وفيه نتفحص: المعايير التي حكمت موقف الثقافة العربية ـ الإسلامية من الشعوب السوداء، وفي مقدمتها المعيار الديني، ثم عامل العمران والحضارة، والمعيار الاجتماعي التاريخي، فضلاً عن التصورات والأحكام العامة الناتجة عن المعيار البيئي ـ الكوكبي، والسلالي.

وخصصنا القسم الثاني لتفحص المتخيل العربي عن موقع إفريقية الجغرافي في العالم المعمور، تخومها وحدودها، والجانب الغرائبي والواقعي في هذا المتخيل، وخاصة فيما يخص حدودها الغربية والجنوبية والشرقية، بحارها وأنهارها وبالأخص نهر النيل وما أحاط بهذه الظواهر من تصورات وما استطاعت الرحلات المتعددة من اختراق بعض الصور النمطية السائدة عنها.

أما القسم الثالث فنخصصه للدراسات الميدانية التي خصتها الثقافة العربية في اهتمامها ولا سيما الرحلية والجغرافية، حيث تتبعنا المتخيل العربي في تقسيمه لمجالات القارة من الشمال إلى الجنوب، بادئين بالصحراء الكبرى وبلاد النوبة، باعتبارهما كانتا تعادلان بصورة مخففة مفهوم التخم ـ الثغر فيما يخص علاقة "دار الإسلام" بالآخر، وهو الذي كان حاضراً في علاقتهم ببلاد بيزنطة شمال بلاد الشام وبغداد، وبلاد الفرنجة والجلالقة شمال الأندلس، لتضيء معالم الصحراء الكبرى، كما عرفها مؤلفونا العرب، بكل ما تختزنه من أسرار، وصلات ربطت شعوب الشمال الإفريقي بالشعوب السوداء، وشكلت برزخاً لتسرّب التجارة والتبشير الديني، والهجرات السكانية. ثم ننتقل بعدها لنتقرى في القسم الرابع، المتخيل العربي لبلاد السودان، جنوب الصحراء ولبلاد الحبشة والبجة والزنج، وذلك بالاقتراب أكثر من ممالكها التي قامت، وإمبراطورياتها التي شهدت، لنتفحص الكيفية التي نظر فيها العرب لهذه العوالم، ولطريقتهم الإدراكية، ولمدى معرفتهم لأحوال معاشهم وسلوكهم الأخلاقي، ولأشكال الملك، ولحياتهم الزراعية والتجارية، ونمط بناء ثروتهم، وما زخرت به هذه المعرفة من تخيل وأحكام، وهو ما يجعلها تقترب من الدراسة الإثنوغرافية.

إلى أن ننتهي، في القسم الخامس، إلى تفحص المتخيل العربي عن أطراف القارة السوداء، وعلى الأخص أطرافها الجنوبية القصوى، حيث اختلطت المعرفة بالجهل، والغريب بالمعجز.

القسم الأول

السودان والزنج في الثقافة العربية
(المعايير والأحكام)

أ- (السود) في الخطاب الإسلامي

ب- العمران والحضارة

ج- العامل الاجتماعي والسياسي والتاريخي

د- تصورات وأحكام عامة صادرة عن العامل البيئي، والكوكبي، والسلالي

هـ- تضاريس يلفها الغموض

و- إفريقيا السوداء في مصنفات الجغرافية والرحلات العربية الوسيطة

كـان الجغرافـي والرحالـة والمـؤرخ العربـي، ابـن ثقافتـه العربيـة-الإسـلامية التـي نسـجت لـه شـبكة مـن التصـورات والتخيلات، والرمـوز والدلالات والأحكـام، والمعـايير حـول نفسـه، وحـول العـالم المحيط بـه، وعـن الآخر الذي يشاركه عمارة الأرض، فكان لا بد له أن يتأثر بها في تأليفه الجغرافي أو التاريخي أو الأدبـي، وفيمـا يدونـه من ملاحظات فـي رحلاتـه فـي كنـف بـلاد السـودان، فكانـت هـذه الشـبكة الثقافيـة بمثابـة قبـة معنويـة محملـة بالرموز والدلالات، شكلت الأطر المعرفية والتخيلية عن هؤلاء السود والزنج، واحتوت على الكثير من المعايير المتداخلة، على شكل حزمة من المواقف الوجدانية والعقلية، والرمزية التخيلية، التي نظر العربي من خلالها إلـى هذا الآخر "الإفريقي الأسود"، أو لغيره من الأمم والثقافات، ورسمت للجغرافـي أو الرحالـة صـورة عن شـعوب السودان والزنج، ومناطقهم، ولكل ما تذخر به بلادهم من حيوانات ونباتات وعجائب، وملامح وأوصـاف خاصـة، وأصدرت أحكاماً انعكست بطريقة أو بأخرى على تأليف هؤلاء، وعلى الممارسة المعاشية الفعلية للعرب مع هذه الشـعوب، والتـي أثـرت بـدورها علـى تعـديل تلـك الصـور والتمـثلات، أو سـاهمت فـي تنمـيط بعـض جوانبهـا، وأحكامها.

ولا شك أن الأحكام العامة التي بشَّر بها الدين الإسلامي عن العلاقة مع الآخر، بمـا فيهـا الإنسـان الأسـود، تشكل قلب هذه الأحكام، والمحرك الأهم فيها، دون أن يخفى تأثير المعايير الأخرى من الميـدان الإدراكـي، فمنهـا من تعايش مـع "أحكـام الإسـلام" وتـآلف معهـا جنبـاً إلـى جنـب، كــ"معيـار العمـران" الـذي لعلـه نـتج مباشـرة عـن اعتـراف "الإسـلام" بـالآخر الـديني والجنسـي ضـمن تصـوره لوحـدة الـوحي، ولوحـدة الجـنس البشـري. ثـم هنـاك معايير أخرى تسرَّب تأثيرها إلى الثقافة العربية الإسلامية عن طريق الترجمة عن اليونانية، أو للتـأليف الفارسـي والهندي، وقد تجلى ذلك فـي الأخذ بـالنظريـات الفلكيـة التـي تحـددت مـن خلالهـا مواقـع الشـعوب السـوداء بالنسـبة لدوران النجوم والفلك، ولتأثيراتها، أو تبعاً لموقعها من الأقاليم التي تخيلهـا الجغرافيـون الأوائـل علـى أنهـا تؤلـف العالم المعمور؛ كما لا يمكن إغفال تأثير الجانب المعرفي على أحكام جغرافيينا ورحالتنـا، وهـي التـي تعكـس مـدى اقتراب العرب معرفياً من العالم المدروس وهو هنا إفريقيا السوداء كما هي فعلاً، علـى ضـوء تقـدم المعرفـة علـى حساب ما بقي أو ما انحسر من مجهول. وإلى جانب ذلك فقد تأثروا بـالجانـب السـلالي؛ وكثيـراً مـا أخـذ الجغرافـي والرحالة والمؤرخ العربي تلك المعايير حزمة واحدة مجتمعة، وأحياناً يطغـى عنـد أحـدهم المعيـار الـديني، وعنـد آخر معيار مقابل.

أ- (السود) في الخطاب الإسلامي

الإيمان:

لقد مزج التصور القرآني للشعوب، ولعلاقاتها ببعض، بين الوحدة والتنوع، فهناك أرومة واحدة تجمع البشر، وأصل واحد ينطلقون منه، كما أن هناك تنوع عميق داخل هذه الوحدة؛ وقد قابل هذا التصور النظري اعتراف عملي بالتنوع (العرقي والديني والثقافي) الذي زخرت به "دار الإسلام" وانطوت عليه، فلم ير المسلمون فيه عائقاً للوحدة؛ بالمقابل هناك تنوع واختلاف بينهم وبين الآخر لم يدفعهم إلى القطيعة أو الحذر من التواصل، لأنهم تعلموا من الإسلام أن هناك بالأساس اختلافاً بين الكائنات والناس واللغات والأديان، وهو شرط للتعاون، فالله خلق البشر من ذكر وأنثى ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾ (النجم: ٤٥) وأيضاً ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض **واختلاف ألسنتكم وألوانكم**﴾ (الروم: ٢٢) ودينياً ﴿هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾(التغابن: ٢) وخلقهم مختلفين ليتعارفوا، إذ ناداهم بقوله: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣)، وهذا الاختلاف بين الشعوب يبدو ضرورياً، في هذا التصور، لإغناء التجربة البشرية ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ (الحج: ٤٠).

وقد كان الناس في الأصل أمة واحدة، تفرع التنوع عنها، حيث مرجعهم جميعاً إلى آدم ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة (الأنعام: ٩٨) ثم تفرقت إلى شعوب، إلاَّ أن هذا التفرّق يجب أن لا ينسينا ما يجمع بيننا من وحدة، فقد أتى الإسلام كتذكِرة واستعادة غير مسبوقة لهذه الوحدة، التي يزخر بها هذا التنوع، وذكَّر الجميع أن مجال التفاخر الوحيد هو طريق التقوى، وليس التفاخر بالأنساب ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣).

وقد ذكر النبي محمد (ص) في خطبة الوداع: ﴿أيها الناس.. إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عن الله أتقاكم، ليس لعربي على أعجمي فضل إلاَّ بالتقوى﴾[1]. وقد شملت هذه الدعوة إلى المساواة والأخوة الإنسانية جميع الناس، بما فيهم البيض والسود، فالفضائل تمأسست هنا على قاعدة قرابة الفرد إلى الله وإلى جماعة المؤمنين، عن طريق إظهار ورعه وتقواه، أما اللون والجنس والمراتب الاجتماعية فهي مسائل ثانوية أمام هذا القياس الجديد للقيمة.

من هنا، فقد تبوأ الكثير من الشخصيات السوداء أو الحبشية في العهدين النبوي والراشدي مرتبة روحية فائقة في إطار تاريخ نهضة الإسلام الروحية والخلقية، واحتلت مركزاً صلباً للغاية داخل الجماعة المؤمنة، وأضحت رموزاً لا يُستغنى عنها في الرواية الدينية لبزوغ الإسلام، بما فيه السيرة النبوية، أمثال بلال مؤذن الرسول، وسعيد بن جبير الذي قال فيه الناس "كلنا محتاج إليه"، وعطاء بن رباح، وآل ياسر الذين خاطبهم النبي أثناء اضطهاد قريش لهم: "صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة". وهؤلاء كانوا جميعهم عبيداً عند قريش، آمنوا بالإسلام، ودفعوا ثمناً باهظاً دفاعاً عن إيمانهم أمام اضطهاد قريش لهم قبل أن يتحرروا.

ولقد تكررت تلك النزعة المساواتية، التي آخت بين السود وغيرهم، عن طريق التأليف النظري ولا

---

(١) محمد الخضري: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، القاهرة ١٩١٠، ص٣٢٥.

سيما عند أبرز الفقهاء المسلمين، الذين عكسوا وجهة النظر الدينية تجاه السود والجنس الأسود، ولا سيما الأحباش الذين كانوا الأسبق في الاحتكاك بهم من غيرهم من السود في غرب إفريقيا ووسطها أو جنوبها؛ فظهرت العديد من المؤلفات التي عدَّدت فضائل السود، ومن أبرزها: "تنوير الغبش في فضل السودان والحبش" لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ-١١٩٣م) و"رفع شأن الحبشان" للإمام السيوطي (ت ٩١١هـ-١٥٠٥م) حيث اقتبسه من ابن الجوزي، وأعقبه برسالته الأخرى "أزهار العروش في أخبار الحبوش"، ثم برسالة ثالثة بعنوان "نزعة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر"، كما وضع محمد عبد الباقي البخاري (ت ٩٩١هـ-١٥٨٧م) رسالة باسم "الطراز المنقوش في محاسن الحبوش" اعتمد فيها على "أزهار العروش" للسيوطي.

وكان الجاحظ (١٥٠-٢٥٥هـ) المؤلف الموسوعي الكبير، الذي جمع بين الجغرافية والتاريخ والفلسفة والعلوم الأخرى، قد ألَّف رسالة باسم "فخر السودان على البيضان"، أبرز فيها فضائل السود ومحاسنهم وصفاتهم الإيجابية، وتبعه ابن المرزبان في الحقبة نفسها برسالة "فضل السودان على البيضان". ويجمع الجاحظ في رسالته "فخر السودان على البيضان" بين دور السود الروحي الإسلامي، وإعزاز النبي والصحابة لهم، وبين فضائلهم الحضارية الأخرى، أي بين دورهم في تاريخ التقوى الدينية، ودورهم في مجال العمران؛ فدوَّن ما سمع من أقوال عن السودان، أو محاورات ومناظرات عنهم، أو أحاديث وقصص، وما يروى عنهم من نوادر، وقد قدَّم ذلك كله بما يُروى عن النبي والصحابة من أقوال عنهم. ولقد اقتدى بتأليفه هذا فقهاء كبار كابن الجوزي والسيوطي اللذان غلّبا الجانب الديني على ماعداه، للنظر في موقع هؤلاء السودان في تاريخ انبعاث الإسلام، ورأي القرآن والنبي في دورهم الإنساني والروحي.

فيذكر الجاحظ أن "لقمان الحكيم منهم"، كذلك "سعيد بن جبير" الذي كان "أورع الخلق وأتقاهم، وأعظم أصحاب ابن عباس"، كما كان "منهم بلال الحبشي رضي الله عنه" الذي قال فيه عمر بن الخطاب "وهو ثلث الإسلام"، ومنهم مهجع و"هو أول قتيل في سبيل الله" إذ قتل في غزوة بدر، ومنهم أيضاً المقداد بن أسود الكندي "وهو أول من عذبته قريش في سبيل الله"، ومنهم مكحول الفقيه الكبير، ومنهم أيضاً "جليب" الذي قال عنه النبي، بعد مقتله "(هذا مني وأنا منه)، ثم حمله على ساعديه، حتى حفروا له.. ماله سريرٌ غير ساعدي رسول الله"[٢٤].

كما يذكر بأن من الحبشة عُكيم الحبشي.. كان علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع بن نبهان[٢٥]. ولقد حرص كل من ابن الجوزي (ت ٢٥٥هـ-٨٦٩م)، والسيوطي، والبخاري (ت ٩١١هـ-١٥٠٩م) في رسائلهم عن فضائل السود، تبيان وإظهار الدور الكبير للسودان - الأحباش في التجربة التقوية الإسلامية، وفي رفع شأن الإسلام، ومظاهر الرفعة التي خصَّها نبي الإسلام لرجالهم، في سياق دفاعه عن المساواة بين الأجناس والأمم؛ ويروي كل منهم الأحاديث عن النبي التي لن نتعامل معها أو نعرضها من ناحية كونها صحيحة أو منتحلة، أي كمنهج المحدث، بل سننظر إلى تداولها بين الرواة نظرة الأنثربولوجي، أي كأحد مقاييس اتجاهات الوعي الاجتماعي، باعتبار أن تناقلها على لسان المسلمين يعكس بحد ذاته جانباً من الوعي الاجتماعي، أو رأي شريحة من المسلمين بمعاني تلك الأقوال ودلالاتها.

---

(٢٤) أبو عثمان عمر بن بحر (الجاحظ): رسائل الجاحظ، الجزء الأول، كتاب فخر السودان على البيضان، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٨٤هـ، ص٦٤.
(٢٥) المصدر نفسه، ص١٩٨.

فالسيوطي ينسب إلى النبي قوله: بأن "الخلافة في قريش، والحكم في الأنصار، والدعوة في الحبشة"[٢٦]، فالدعوة التي تُنسب وظيفتها، هنا، إلى السودان - الأحباش هي شأن خطير في الدين الإسلامي، تتعلق بمصيره ذاته، وبمدى انتشاره، وبالدعوة يرتبط مباشرة "الأذان" الذي لا بد أن يذكِّر الجميع بمؤذن الرسول الحبشي-الأسود "بلال"، فالوظيفتان الأساسيتان في مسجد المدينة المنورة كانتا "الإمامة" و"الأذان"، الأولى للنبي والثانية لبلال بن رباح الحبشي، وله الفضل في الأذان فوق ظهر الكعبة في مكة، كما أنه أذن في بيت المقدس عند دخول المسلمين إليها في عهد عمر بن الخطاب[٢٧].

ويروى أن النبي قال لرجلين-أحدهما حبشي وثانيهما قبطي- كانا يتنابذان، ويعيّر واحدهما الآخر بجنسه: "إنما أنتما من آل محمد"[٢٨] ناكراً التفرقة التي يعلنونها لصالح أخوة الإيمان الإسلامي. كما يروى عن النبي أنه بشَّر بالجنة كل من: عمار بن ياسر وبلال، بعد أن قرن اسمهما باسم علي بن أبي طالب حين قال: "اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: إلى علي، وعمار (ابن ياسر)، وبلال.. وإن بلال سيبعث على ناقة من نوق الجنة، فينادي بالأذان، فإذا بلغ (وأشهد أن محمد رسول الله) شهدت بها جميع الخلائق"[٢٩].

وروى المحدثون أنه عندما دخل المسلمون مكة فاتحين، أذن بلال على ظهر الكعبة، فقال بعض الناس (يستكبرون الأمر على بلال): "هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة!؟ فأنزل الله الآية (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)" [٣٠].

كما يذكر الرواة أن أبو بكرة نفيع بن مسروح وهو أسود حبشي، مولى الحارث "كان من فضلاء الصحابة وصالحيهم، روى عن النبي (ص)ماية واثنين وثلاثين حديثاً"[٣١]؛ كما أن أحباشاً من الصحابة المقربين، مثل "الصحابي نايل الحبشي، وأبو لغيط الحبشي مولى النبي، وذي مخبر الحبشي وكان يخدم النبي، وأم أيمن حاضنة النبي (ص)، ومولاته واسمها (بركة) روت عن النبي، وروى عنها أنس بن مالك"[٣٢]، ومعهم أيضاً عطا بن رباح، الذي ولد في خلافة عمر بن الخطاب، واشتهر بعلمه؛ قال عنه ربيعة: "فاق (عطا) أهل مكة في الفتوى.. وكان بني أمية يأمرون في الحج صائحاً يصيح: لا يفتى إلاَّ عطا بن أبي رباح"[٣٣]. وكان (سغف الحبشي) من كبار مشايخ الصوفية، وأيضاً الزاهدين الشهيرين (ريحان الحبشي) و(عنبر الحبشي) والأخير كان يعمل على ستر الكعبة كل سنة[٣٤].

ويروى أن رجلاً من الأحباش سأل النبي: أرأيت إن آمنت بمثل ما آمنت به، وعملت بمثل ما عملت به أني لكائن معك في الجنة؟ فقال النبي: نعم... فمن قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله، فقال الحبشي: وهل ترى عيني في الجنة ما ترى عينيك؟ قال النبي (ص): نعم. فبكى الحبشي حتى فاضت نفسه..." [٣٥]، ويروي ابن عمر كيف رأى النبي يحمل الرجل الحبشي "ويدليه في حفرته".

---

(٢٦) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر محمد الخضري (السيوطي) ٩١١هـ-١٥٠٥م: رفع شأن الحبشان، مركز المخطوطات والوثائق-الجامعة الأردنية، رقم المتسلسل ٣٧٣، (صورة)، ص١٥.

(٢٧) المصدر نفسه، ص١٩.

(٢٨) المصدر نفسه، ص١٢٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٣١.

(٣٠) المصدر نفسه، ص١٣٨.

(٣١) المصدر نفسه، ص١٥٣.

(٣٢) المصدر نفسه، ص١٥٦ و١٦٨.

(٣٣) المصدر نفسه، ص١٨٨.

(٣٤) المصدر نفسه، ص٢٠٥ و٢٠٨.

(٣٥) المصدر نفسه، ص١٧.

كما يروى عن أنس ابن مالك، أنه سمع الرسول (ص) يقول لأبي ذر الغفاري: "اسمع وأطع ولو لحبشي كان رأسه زبيبة"، وهو قول فسَّره البعض بأنه يجيز تنصيب الحبشي الأسود الإمامة[٣٦]، وعندما عيَّر أبو ذر الغفاري بلالاً مؤذن الرسول بقوله: "يا ابن السوداء، فأتى بلال النبي وأخبره. غضب النبي من أبي ذر، وقال له: أنت الذي تعيِّر بلالاً بأمه!. والذي أنزل القرآن على محمد ما لأحد على أحد بفضل إلا بعمل"[٣٧].

وذكروا أن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري عيَّر عمر بن الخطاب إذ قال له: يا ابن السوداء، فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ (الحجرات: ١١)[٣٨]. ويروى عن النبي قوله: "سادة السودان أربعة: لقمان، والنجاشي، وبلال، ومهجع".

تجربة الهجرة / الرحلة إلى النجاشي - الحبشي:

لقد احتلت هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة، التي كانت بمثابة الرحلة الروحية الأولى للمسلمين خارج مكة، ومقابلتهم للنجاشي (ملك الحبشة)، مكاناً راسخاً في الذاكرة الإيمانية الجماعية للمسلمين، لأنها تتعلق بالأساس بتاريخ انبثاق الإسلام الأول من قلب الصعوبات الخارقة التي اعترضته، إذ كرَّست هذه الذاكرة صورة زاهية للنجاشي الراعي والمنقذ والمتفهم لهؤلاء المسلمين ولإيمانهم الديني الحق، فخضعت هذه الرحلة للعديد من الروايات والتأويلات، أجمعت كلها على تبجيل دور النجاشي، والإعلاء من مكانته.

فقد ذكر أهل السير، أنه كانت هناك هجرتين إلى الحبشة، وذلك لمَّا كثر المسلمون في مكة، أقبل أهل قريش على تعذيب المسلمين الأوائل لردِّهم عن إيمانهم، فقال النبي لهم: "تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم، قالوا: إلى أين نذهب؟ قال: ههنا. وأشار بيده إلى أرض الحبشة"[٣٩]، وفي رواية أخرى قال لأصحابه: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل لكم مخرجاً مما أنتم فيه"[٤٠].

ولم تكن لهذه الرحلة أن تتم بطريقة عشوائية، بل أتت بعد تفكير عميق، إذ كانت أرض الحبشة متجراً، وكانوا يجدون فيها، كما يقول الطبري "رفاغاً من الرزق، وأمناً ومتجراً حسناً"[٤١]، فكانت استمراراً لعلاقات بين جانبي البحر الأحمر، فلم يجد المهاجرون عثرات تمنع وصولهم إليها. وكان أول من هاجر من المسلمين إليها: عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت النبي، وكانت جملة مهاجري الهجرة الأولى أحد عشر رجلاً، وقيل اثنا عشر، وقيل عشرة؛ ثم هاجر ثانية ثلاثة وثمانون رجلاً ومعهم جعفر بن أبي طالب، فبعثت قريش من يتعقبهم إلى النجاشي، وكان عمرو بن العاص رئيس وفد قريش في المرتين[٤٢] قد أعطى الهدايا إلى البطارقة، وهدية إلى النجاشي، وقال له عند مقابلته: "إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا في دين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردَّهم إليهم، فهم أعلم بهم"، فقال

---

(٣٦) المصدر نفسه، ص٢٠ و٢٢.

(٣٧) المصدر نفسه، ص١٤٠-١٤١.

(٣٨) د.عبده بدوي: السود في الحضارة العربية، دار قبا للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠٠١، ص٦٦.

(٣٩) السيوطي، رفع شأن الحبشان، المصدر السابق، ص٤٦.

(٤٠) عبد السلام هارون: تهذيب سيرة بني هشام، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص٦٨.

(٤١) أبو جعفر بن جرير (الطبري) القرن الثالث الهجري: تاريخ الملوك والرسل، مجلد أول، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦١، ص١١١.

(٤٢) السيوطي، رفع شأن الحبشان، المصدر السابق، ص٤٦.

بطارقتـه: "صـدِّق أيهـا الملـك، قـومهم أعلـم بهـم.. فأسـلمهم إلـيهم"[٤٣]؛ وتنـوِّه الروايـة الإسـلامية بعظمـة النجاشي، الذي رد بغضب: "لا ها الله (= لا والله) لا يقاد قوم جاوروني، ونزلوا بـلادي فاختـاروني علـى من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم"، فلما جاء المهاجرون من المسلمين، تـولى جعفـر بـن أبـي طالـب الـرد على تساؤلات النجاشي عن حقيقة الدين الإسلامي، وموقفه من المسيح ومريم، فجاء في رده: إن النبـي "أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانـا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله. وعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبدة الأوثان، عن عبادة الله.. فخرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك!".

فقال له النجاشي: هل معك ما جاء به عن الله من شيء. فقال له جعفر: نعم. فقرأ عليه صدراً من آي القرآن "فبكى النجاشي حتى اخضلَّت لحيته من الدموع، وبكت الأساقفة حتى اخضلَّت مصاحفهم حين سمعوا ما تلاه عليهم"، ثم قال لهم النجاشي: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم"[٤٤].

وعلى أساس هذه التجربة، أحاط المسلمون النجاشي وصحبه الأحباش بهالة من الاحترام والتبجيل، تجلَّت في العديد من الروايات حول استجابته لدعوة النبي إلى الإسلام، والرسائل المتبادلة بين النبي وبينه، بالإضافة إلى ما خصَّه النبي نفسه من تبجيل، فجاء في إحدى الروايات أن النبي بعث إلى النجاشي عمر بن أمية الضمري في شأن المهاجرين المسلمين إليه، وكتب معه كتاباً جاء فيه ".. فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المهيمن.. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت عيسى.. وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته.."؛ ثم جاء في رد النجاشي، اعترافاً بدين محمد، وإيماناً به: ".. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه. فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لرب العالمين"[٤٥].

واستمراراً في تبجيل ذكرى النجاشي الحبشي، يروي الرواة أن النجاشي زوَّج "أم حبيبة"، التي توفي زوجها في أرض الحبشة، إلى النبي، ومهرها من عنده أربعة آلاف، وبعثها إلى النبي مع شرحبيل بن حسنة[٤٦]. ويذكر بعض المفسِّرين أنه نزلت في النجاشي الآية الكريمة "ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى"[٤٧]. ويروى عن أنس أنه لما جاء نبأ نعي النجاشي، أي موته، قال النبي: "صلوا عليه. قالوا: أيا رسول الله، نصلي على عبد حبشي!؟ فأنزل الله الآية (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين..)، وفي رواية أخرى، أن النبي قال عند سماعه وفاة النجاشي: "استغفروا لأخيكم"[٤٨].

---

(٤٣) هارون، المصدر السابق، ص٦٨-٦٩.
(٤٤) المصدر نفسه، ص٦٩-٧١.
(٤٥) السيوطي، رفع شأن الحبشان، المصدر السابق، ص١٠٣-١٠٤.
(٤٦) المصدر نفسه، ص٧٤.
(٤٧) المصدر نفسه، ص٢٣.
(٤٨) (السيوطي)، عبد الرحمن أبو بكر جلال الدين: أزهار العروش في أخبار الحبوش، تحقيق عبد الله محمد عيسى الغزالي، منشورات مركز مخطوطات التراث والوثائق، (٥٦)، الكويت ١٩٩٥، ص٤١.

ويحصي السيوطي ما يقارب العشرين لفظاً ذات أصول حبشية وردت في القرآن[٤٩]، كما يحصي ومعه ابن الجوزي أبناء الحبشيات من الصحابة والتابعين، والخلفاء، وأبنائهم، فمن الصحابة: صفوان ابن أمية ابن خلف الجمحي، وعمرو بن العاص، ومن أبناء الخلفاء: عيسى وجعفر ابني أبي جعفر المنصور[٥٠].

وهكذا صارت الحبشة والأحباش مادة أثيرة في التأليف العربي، فكثير ما نجد أصحاب المصنفات الجغرافية والتاريخية والأدبية يعلون من شأن الحبشة وناسها، فقد انغرز في اللاوعي الجمعي للعرب المسلمين قيمتها، باعتبارها أرض الهجرة التي قصدها المسلمون هرباً من ظلم ذوي قرباهم، وهي التي عبدوا فيها بأمان، دون خوف ولا وجل. ويخص ابن الجوزي الأحباش بكثير من الخصال المجيدة، إذ يذكر من صفاتهم: الكرم الوافر، وحسن الخلق، وقلة الأذى، وكثرة ضحك السن، وطيب الأفواه، وسهولة العبارة، وعذوبة الكلام[٥١].

ب- العمران والحضارة

لم تقتصر نظرة العربي المسلم إلى الآخر الأسود على المقياس الديني وحسب، بل اتخذ له معايير أخرى في مقدمتها المعيار العمراني-الحضاري، فواقع التنوع الثقافي والقومي الذي زخر به الاجتماع السياسي الإسلامي، والمفاهيم المساواتية الدينية وقبولها لفكرة التعايش بين المسلمين وأهل الكتاب دينياً، وللأجناس الأخرى "العجمية" أفضت إلى سيادة موقف نسبي من الآخر الداخلي، وبالتالي الآخر الخارجي، والمبدأ الأساسي الذي وجه تلك النظرة النسبية إلى الآخر، داخلية كانت أم خارجية، هو أن الفضائل والمثالب موزعة على الأمم، لا تخلو منها أمة من الأمم[٥٢].

لهذا نجد أمامنا الكثير من كتب الجغرافية الإقليمية: المسالك والممالك، والمصنفات البلدانية، ولا سيما تلك التي اختصت بدراسة وصفية للجغرافية البشرية لإقليم أو لمدينة معينة، تحت اسم "كتب الفضائل"، اهتمت كلها بإبراز مميزات كل إقليم وما يحتوي من فضائل ومثالب تميزه عن الأقاليم والمدن الأخرى. فلقد أدرك الجغرافيون العرب، وأصحاب المصنفات الأخرى، الفروق الداخلية ضمن دار الإسلام؛ وأعطوا لكل إقليم من أقاليمهم صفة خاصة، ومهروا في تعقب معرفة الخصائص التي تميز هذا الإقليم عن ذاك، ثم نقلوا هذه المنهجية وطبقوها في دراساتهم على الأمم الأخرى خارج دار الإسلام، فاتسمت وجهتهم بالنسبية الحضارية ذاتها، إذ بينوا ما تملكه كل أمة من الأمم، الأبرز في العهد الوسيط، من جوانب حضارية وعمرانية خاصة، بالإضافة إلى ما تملكه من خصائص سلوكية، ولعل هذا التصور النسبي - التكاملي للحضارات الكونية يعود جزئياً إلى النظرة الدينية المساواتية ذاتها، التي يتعايش فيها الاختلاف مع الوحدة.

---

(٤٩) المصدر نفسه، ص٤٢

(٥٠) المصدر نفسه، ص٥٩-٦٠.

(٥١) الشيخ الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (ابن الجوزي) (ت ٥٩٧هـ): تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، (مخطوط)، ورقة ١٣٩.

(٥٢) الطاهر لبيب: الآخر في الثقافة العربية - في "صورة الآخر - العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، (ندوة)، تحرير الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩، ص٢١.

ولقد تكاملت هذه النزعة المساواتية، ذات المنابع الإسلامية، بنزعة إنسانية عند أبرز ممثلي الثقافة العربية في القرن الثالث والرابع الهجريين، كالجاحظ والتوحيدي ومسكويه، الذين لخصوا وجهة نظر الثقافة العربية تجاه الآخر، وأتى الجغرافيون والرحالة ليضفوا على هذه النزعة الطابع العلمي والواقعي، وذلك في دراستهم للأقاليم إذ أعطوا لكل إقليم سمة خاصة تجمع بين فضائله ومثالبه، ولم ينسوا ما يشتهر به من فاكهة وحيوان، ومن عجائب، ونقلوا هذا المنهج بدروهم إلى دراساتهم للأقاليم خارج دار الإسلام.

لقد أفرد الجاحظ والتوحيدي لكل أمة دوراً مميزاً في ميزان الحضارة والعمران، تتميز به عن باقي الأمم، بحيث أصبحت فنون الإبداع العمراني موزعة على كل الأمم البارزة في التاريخ القديم والوسيط، لأن أي منها لا يستطيع أن يتفوق بكل جوانب العمران "لأن من كان مقسم الهوى، مشترك الرأي، ومتشعب النفس، غير موقّر على ذلك الشيء ولا مهيأ له، لم يحذق من تلك الأشياء شيئاً بأسره، ولم يبلغ فيه غايته"(٥٣)، وهذا لا يعني عند الجاحظ أن كل أفراد تلك الأمم تختص في تفوقها في هذا المجال الذي تتصف به بتميزها "فلا كل يوناني حكيماً، ولا كل صيني في غاية الحذق، ولا كل عربي شاعراً فائقاً، كريماً سمحاً.. لكن هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأكمل وأتمُّ، وهي فيهم أظهر"(٥٤).

ويشير التوحيدي (ت ٣٢٠هـ-٩٣٢م) بوضوح، إلى أن "لكل أمة فضائل ورذائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير، وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مُفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بينهم"(٥٥)، ويذهب التوحيدي إلى حد القول: "إن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة، واختيار الفكرة، ولم يكن بعد ذلك إلاَّ ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية، والعادة المنشئية والهوى الغالب من النفس الغضبية، والنزاع الهائج من القوة الشهوانية"(٥٦).

أما القاضي صاعد الأندلسي (القرن الحادي عشر الميلادي)، الذي ولد في مرية/ الأندلس في ٤٢٠هـ-١٠٢٩م، وكان تلميذاً لابن حزم، فقد اعتمد مظهراً واحداً من مجال العمران وهو العلم، ليقيس به مكانة الأمم، حتى أنه يتجاهل تماماً العامل الديني في أحكامه عن مكانة هذه الأمة أو تلك، في سلَّم الرفعة الحضارية، فهو يبدأ مقدمته في أطروحته القائلة "إن جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها، وإن كانوا نوعاً واحداً، فإنهم يتميزون بثلاثة أشياء: الأخلاق، الصور، واللغات"(٥٧). وكان الناس قبل تشعبهم وافتراق اللغات سبع أمم، ثم افترقت وتشعبت، وهو يميز ما بينها على أساس مساهمتها في مجال العلم وحسب، إذ يشير إلى أنها تنقسم إلى طبقتين "طبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم، وصدرت عنها فنون المعارف، وطبقة لم تعنَ بالعلم عناية يستحق منها اسمه وتعدُّ به من أهله"(٥٨)، أما الأمم التي اعتنت بالعلوم فهي عنده "الهند والفرس والكلدانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون. وأما الطبقة التي لم تعنَ بالعلوم فهي بقية

---

(٥٣) أبو عثمان عمر بن بحر، (الجاحظ): رسائل الجاحظ، ج١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤، ص٦٧.

(٥٤) المصدر نفسه، ص٧٣.

(٥٥) علي بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدي): كتاب الإمتاع والمؤانسة، ج١، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص٧٣.

(٥٦) المصدر نفسه، ص٧٤.

(٥٧) أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد (صاعد الأندلسي) ٤٦٢هـ-١٠٧٠م: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥، ص٣٣.

(٥٨) المصدر نفسه، ص٣٩.

الأمم"[٥٩] ، ويضع بينها الصين والترك، والبرطاس والخزر، واللان والصقالبة والروس، ثم يضيف إليهم "أصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرهم"[٦٠].

ويعلل موقع (أصناف السودان) ذاك بأثر البيئة وقربهم من خط معدل النهار "فهم لطول مقاربة الشمس رؤوسهم أسخن هواءهم، وسخن جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة؛ فاسودت ألوانهم وتفلفلت شعورهم. فعدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش وفشا فيهم النوك والجهل مثل من كان من السودان ساكن بأقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغيرها"[٦١]، وهو بهذا يحيلنا إلى تأثير موقع الأمم في التقسيم الإقليمي للعالم المعمور، أو بُعدها أو قربها من خط الاستواء ،وهو عامل سنرجع إليه فيما بعد- إلاَّ أنه يميز في داخل هذه الأمم التي لم "يستعملوا أفكارهم في الحكمة ولا راضوا أنفسهم بتعلّم الفلسفة" بين أهل المدن وجوارهم من الحضر، وبين أهل القفر والبادية "فأهل المدن وخدامهم من أهل البادية، لا يخلون، حيث كانوا من مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها، من سياسة ملوكية تضبطهم وناموس إلهي يملكهم، ولا يشذ عن هذا النظام الإنساني.. إلا بعض قطعان الصحارى وسكان الفلوات والفيافي كرعاة البجة وهمج غانة، وغثا الزنج ومن أشبههم"[٦٢].

فهنا يُبرز صاعد أهمية النظام ووجود دولة، كعلامة من الدرجة الثانية على تقدم الأمم في مجال العمران والحضارة، وهذا الملك وذاك النظام يلازم وجود المدينة والحضر الذي يحيط بها، لا يستثني منها أية أمة وأي شعب، وينسحب هذا على المدينة السودانية - الزنجية، بينما يقع القفر وسكان البراري خارج مجال العمران والحضارة.

إن ما عبر عنه التوحيدي في مجال فلسفة الحضارة، أو الجاحظ وصاعد في مجال الفلسفة والتاريخ والجغرافية، من القول بأن كل الأمم لا تخلو من فضائل ومثالب، ومن نزعة نسبية حضارية، عبَّر عنه الجغرافيون، والجغرافيون المؤرخون، والجغرافيون الرحالة، والرحالة أنفسهم كلٌّ في مجال بحثه وتأليفه النوعي، ولا سيما الجغرافية البلدانية الوصفية، حيث ركزت في أبحاثها على الكشف عن خصائص الأقاليم وفضائل المدن، وما يتميز به كل إقليم أو مدينة من خصائص نوعية بشرية وبيئية، نباتية وحيوانية؛ فضائلها ومثالبها. وكان المبدأ الأساسي الذي قامت عليه نسبية نظرتها إلى الآخر، الداخلي أو الخارجي، هو أن الفضائل والمثالب موزعة على كافة لأمة، وأن لكل أمة دورها المميز في مجال العمران، ولقد شرح هذا النهج الجغرافي الحضاري ابن رستة (٣٠٠هـ-٩١٣م) بقوله: "ولما اختلفت هذه المواضع التي ذكرناها، وصار لكل موضع منها خاصية ليست لغيره، فكذلك كل مدينة من المدن، وكل موضع من المواضع التي نذكرها. ولها ولأهلها خاصية وطبيعة في اختلاف صور الناس، وما يكون بها من الحيوانات والنبات والمعادن، والحر والبرد، والمياه والعيون، والسنن والدين والأخلاق، وسائر الأشياء التي ليس لغيرها من المدن، وذلك ظاهر موجود في المواضيع والأمصار، حتى أنه ليوجد الاختلاف في المواضع القريبة بعضها من بعض"[٦٣].

لقد كانت صلة العرب المسلمين كثيفة للغاية بإفريقيا السوداء، إذا ما قيست بعلاقة اليونان والرومان وغيرهم من الأمم بها، فلم تقتصر خبراتهم المعرفية على المعلومات التي التقطها الرحالة ورسل الملوك

(٥٩) المصدر نفسه، ص٤٠.
(٦٠) المصدر نفسه، ص٤٠.
(٦١) المصدر نفسه، ص٤٢.
(٦٢) المصدر نفسه، ص٤٣-٤٤.
(٦٣) أحمد بن عمر (ابن رسته) ٣٠٠هـ-٩١٣م: الأعلاق النفيسة، الجزء السابع، تحقيق دي خويه، مطبعة بريل، ١٩٩٢، ص١٦٨.

وسفرائهم، أو معلومات الجغرافيين والمؤرخين والتجار والجواسيس، بل كانت هنا صلات مباشرة للجاليات العربية التي انتشرت في جنوب الصحراء أو في شرقي إفريقيا، أو زيارات ملوك السودان الغربي في طريقهم إلى الحج إلى مكة، كرحلة سلاطين مالي، والسنغي. إلاّ أن تلك المعلومات الكثيفة نسبياً، قد أعاقت تبويبها معرفياً، إلى حد كبير، الصورة النمطية التي اقتبسها الجغرافيون العرب من اليونان، ولا سيما تقسيمات بطلميوس الإقليمية للعالم المعمور، وتأثير نظرية (جالينوس) في تأثير الكواكب والنجوم على الشعوب ومصائرها، وشكلت الصورة النمطية التي رسمها بطلميوس وجالينوس قيداً على تفتح رؤية هؤلاء الجغرافيين المتأثرين بها، ولعبت نظرية الأول دوراً حاسماً في بلورة الصورة الأقاليمية للعالم، وموقع إفريقيا السوداء فيها، عند الكثير من الجغرافيين العرب ورحالتها، وبالمقابل فإن نظرية جالينوس وأبقراط وجهت فكرتهم نحو الأعراق والطبائع، وعلاقة تلك الأقاليم بالبروج، وبالتالي تكوين صورة شبه نمطية ثابتة عن الآخر الإفريقي الأسود القاطن في الأقاليم الجنوبية، كغيره من الشعوب التي تتشكل طباعها وسلوكها حسب مواقعها الأخرى من أقاليم العالم المعمور، وتحكمت بهم تلك الصورة بعد أن تطورت معارفهم على ضوء المعطيات التي قدمها الرحالة كابن فاطمة والأسواني، وابن سعيد المغربي، وابن بطوطة، وغيرهم من الجغرافيين الرحالة كالبكري والمسعودي وابن حوقل والمقدسي. إذ بقي لتلك النظريات تأثيرها الواضح، لم يسلم منها حتى ابن خلدون (١٤٠٥م)، والوزان (القرن السادس عشر)، والإدريسي (القرن الثاني عشر)، فعلى الرغم من معلوماتهم الثرية تلك، فإنهم اعتنقوا الرأي القائل بأن ربع المعمور في الأرض هو وجود يسمح بالعيش، وباستحالة الحياة في البلاد الشديدة الحرارة، أو القارسة البرودة، ولكن إذا كان اعتناق اليونان وأوربا الوسيطة، كما يقول كراتشكوفسكي "لهذه النظرية لها ما يبررها، وذلك لعدم إلمامهم بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء، فإن العرب بفضل رحلاتهم البحرية قد عرفوا جيداً تلك الجهات من إفريقيا من زنزبار (جنزبار) ومدغشقر حيث رؤوا رأي العين عدداً من المراكز المأهولة.. وبالرغم من هذا استمرت هذه النظرية الطائشة في ظهرانيهم دونما أي تعديل"[٦٤].

فلو أن العرب قد اكتفوا بالمعلومات التي جمعوها عن إفريقيا السوداء وأهلها عن طريق رحالتهم وجغرافييهم الرحالة، لكان توفيقهم أعظم، لكن اتصالهم بنظريات فارس والهند، فضلاً عن تأثرهم بنظرية بطلميوس، شكلت لهم قيداً وأصبحت لهم أساساً لاتجاه جديد في التأليف أي الاتجاه الكوني/ الفلكي، ضيّق سبل نظرهم[٦٥].

وكانت أبرز النظريات، التي تحولت مع الأيام إلى عقبة معرفية، هي النظرية الرياضية - الكوكبية، التي تقسم الأرض المعمورة إلى سبعة أقاليم من الشمال إلى الجنوب، مقسمة إلى خطوط طولية تخيلية متقاطعة مع خطوط عرض وهمية أخرى، حيث موضعوا الأقاليم والأمم قياساً إلى موقعها من تلك الأقاليم، وقربها وبعدها عن خط الاستواء، ومجال الحرارة والبرودة. واستناداً إلى هذه النظرية، صار ينظر إلى الأمم التي كلما انحدرت سكناها جنوباً ضاق المجال العمراني عندها مع ازدياد الحرارة، إلى أن نصل إلى منطقة تنعدم فيها الحياة البشرية والحيوانية. فحصروا مجال العمران ما بين ثمانين درجة تبدأ من الشمال عند الدرجة ستين وينتهي في الجنوب عندما يقارب الدرجة عشرين في الحدود القصوى.

بالإضافة إلى فكرة الأقاليم السبعة التي ينقسم إليها الربع المعمور من الأرض، فإن الجغرافيين العرب

---

(٦٤) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٢٣.
(٦٥) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ١٩٨٦، ص٣.

اقتبسوا من جالينوس وأبقراط تلك النظرية التي تدعي وجود صلات بين طبائع البشر ومصيرهم على الأرض، والكواكب والنجوم في البروج السماوية، فغدا التنجيم جزءاً من العلوم الجغرافية يخضع لقوانين صارمة تنظم علاقات الإنسان والأمم والوسط الكوني.

ج- العامل الاجتماعي والسياسي والتاريخي

كان للعامل السياسي وأيضاً الاجتماعي والتاريخي أدواراً أخرى في تلوين صورة الإفريقي الأسود في المخيلة العربية، فإلى جانب صورة النجاشي الزاهية، الحامي لهجرة المسلمين الأولى، ولخطاب المساواة الإسلامي الذي ساوى بين الأبيض والأسود، وربط خط النجاة بالتقوى، هناك بالمقابل حوادث صادمة للذاكرة العربية القديمة، ناتجة عن التدخل السافر للسودان في البلاد العربية، ويأتي في مقدمة الحوادث السودانية-الحبشية الصادمة للذاكرة العربية القديمة، استعمار الحبشة القديم لليمن، ومحاولة غزو (أبرهة الحبشي) للكعبة في عام الفيل. بالإضافة إلى تأثير الموقع الاجتماعي الذي اتخذه السود في الحياة الاجتماعية العربية، حيث اختلطت صورتهم بصورة الرقيق-العبد الذي يقف في أسفل السلم الاجتماعي. إذ لازالت تتردد في الذاكرة العربية عملية القهر الحبشي لأبناء اليمن، وانطلاقهم عبر اليمن إلى نجران، ثم تواصل هجومهم بقيادة أبرهة على مكة، فيما يذكره العرب بعام الفيل، وهو عام (٥٧٠-٥٧١م) الذي ولد فيه النبي محمد (ص). ثم كانت ثورة (سيف بن ذي يزن) اليمني على الأحباش، وهو الذي تحول مع الأيام إلى بطل للسير الشعبية التي تحمل اسمه، وإلى جانبه عنترة (الأسود) البطل المجيد في السيرة الشعبية الأخرى، وهاتين الصورتين تعكسان التجاذب السلبي والإيجابي في أحكام العرب عن السود، وهو يظهر جلياً في التقابل الذي تحتويه صورتي النجاشي وأبرهة الحبشي المتناقضتين في الوجدان العربي-الإسلامي.

يضاف إلى ذلك تكاثر ظاهرة الرق، الذين كان أغلبهم من السود الأفارقة إلى جانب العبيد البيض المجلوبين من أوربا، ولا سيما أوربا السلافية والبلقانية. حيث احتل السود من العبيد المكانة الدنيا في السلم الاجتماعي الإسلامي الجديد، بعد أن أصبح للعرب إمبراطورية كونية تمتد من الصين إلى حدود فرنسا. فإنه وخارج المثال القرآني الذي ضيّق نطاق هذه الظاهرة إلى أبعد الحدود، وحض على التحرر منها، فقد تكاثرت وتزايدت أعداد الرقيق وتجارتهم إلى حدود كبيرة. فإن توسع العمران ومظاهر الحضارة والسلطان عمّق النزعة الدنيوية على حساب النزعة الدينية والمثال القرآني. صار الرق من جراء ذلك مكوِّن أساسي من مكونات الاجتماع السياسي الإسلامي، وإن كان قد غلب على هذا الرق الطابع المنزلي.

ولكن هذه الظاهرة تطورت بطريقة لا تتفق مع المثال النبوي الإسلامي عن المساواة والأخوة البشريين، صحيح أن الإسلام لم يحرِّم ظاهرة الرق على الإطلاق، إلا أن القرآن والحديث النبوي شجعا على إبطال هذه الظاهرة إن كان عن طريق حصره في باب واحد وهو الناتج عن الحرب، أو في اعتبار تحرير الرق (الرقبة) نوع من العبادة أو الكفارة عن الذنوب.

لقد اعتبر الإسلام "الحرية" هي الأصل، وهو ما يظهر جلياً في صرخة الخليفة الثاني عمر "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً"، وشجع على تحرير الرق والعبودية دون أن يصل إلى درجة تحريمه، وهو أمر كان من الصعب تصوره تاريخياً في ذلك الزمان، ولكنه شجع على عتق العبيد، وكان هذا من المفكَّر فيه إسلامياً؛ إذ جعل تحرير العبيد عملاً تعبدياً تتطهر فيه من الخطايا. كما اعتبر تحرير الرقيق نوع من الحسنات ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين

والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب و**الغارمين** وفي سبيل الله..﴾ (التوبة: ٦٠)، وتحدث القرآن بوضوح ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب..﴾ (البقرة: ١٧٧)، وجعله أيضاً ليكفر فيه المؤمن عن خطأه ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة..﴾ (النساء: ٩٢)، وجاء أيضاً ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا.﴾ (المجادلة: ٣)، وفي قوله ﴿وما أدراك ما العقبة ۞ فك رقبة﴾"(البلد: ١٢-١٣)، في مقابل ذلك، فقد أغلق الإسلام الطرق والمنافذ التي كان يأتي منها الرقيق، كالرق الآتي عن الدَين، أو البيع والشراء، كما أغلق الباب أمام استرقاق المسلم، ولم يظل سوى باب الرق الناتج من الحرب[٦٦].

وقد استخلص الفقهاء من الأحاديث والآيات بعض القواعد في هذا الشأن، وهي كالتالي: للمسترَق الحق في طلب حريته بالمكاتبة، وإلزام القضاء بإجبار السيد على ذلك، وفرض على المجتمع مساعدته بالمال ليفدي حريته، وألزم من قال لعبده: أنت حر بعد وفاتي، أن لا يبيعه، وأن لا يرجع عما قال. وفرض على الدولة تحرير (الرقاب) من أموال الزكاة، وجعل كفارات الإثم عتق الرقبة؛ ومنع السيد من لطم عبده أو جلده، فكفارته عتقه إن فعل. ورغَّب تزويج الأرقاء والمسترقات من الحرائر والأحرار، لأن الأبناء سيكونون أحراراً حكماً؛ وأن يطعم السادة عبيدهم مما يأكلون ويلبسونهم مما يكتسون، وعدم المسّ بمشاعرهم، ثم من يجيء من المسترقين إلى الإسلام يصبح حراً. وحث على الإعتاق باعتباره تقرباً إلى الله؛ ثم إن كل مسترقة تنال حريتها بمجرد إنجابها من سيدها[٦٧].

لكن سياق الحياة الاجتماعية الإسلامية ابتعد عن صورة المثال، حيث تغلغل الرق من مصادره الإفريقية والأوربية في الحياة العربية الإسلامية، حتى أنه دخل في سوق البيع والشراء، فتجاوز النوافذ (الشرعية)، إلاَّ أن نشاط هؤلاء الرقيق قد غلب عليه الطابع المنزلي، مع استثناءات قليلة، وهو ما نشاهده من استخدام للزنج في سواد البصرة بشكل كثيف، لاستصلاح الأراضي هناك.

إلا أن الرق في الدول الإسلامية ظل مختلفاً للغاية عمَّا مُورس مع دخول أوربا إلى إفريقيا في بداية العصر الحديث، حيث بلغت فيه أعداد الرقيق المجلوب من ماوراء البحار إلى ما يتجاوز سنوياً المائة ألف، وهو ما دفع قوة الدولة الإفريقية مع مجيء الأوربيين لأن تتجه بأكملها للحصول على الرقيق[٦٨]، حينها تحولت تجارة البشر إلى مصدر رئيس لدول غرب إفريقيا على حساب قلب إفريقيا، فانعدم الحافز إلى التنمية في مجالات الإنتاج "وهكذا أسهمت تجارة الرقيق في قتل الحوافز، وإعادة التنمية الصناعية والزراعية.. وكانت النتيجة الثالثة للاتصال بالأوربيين هو الإحساس العام بانعدام الأمن، ذلك أن الحر عاش في ذعر من أن يقبض عليه جاره ويبيعه في سوق الرق"[٦٩]. وبقي الرقيق في أوربا وأمريكا، علاوة على القسوة والموت، معزولاً اجتماعياً ومنبوذاً، ونسبة من مات عبثاً مرتفعة للغاية[٧٠]، بينما كانت الجارية في البلاد الإسلامية إذا ولدت من رجل حر أصبح ابنها حراً، وكذلك هي أيضاً، وعلى هذا "فإن الجواري اللائي كن يشكلن العنصر الرئيسي في تجارة الرق إلى الشرق الأدنى، كان يتم امتصاصهن بسهولة في النسيج الاجتماعي.. بل كان العرب يفضلون الفتيات الزنجيات في حريمهم كمحظيات وخادمات، بسبب أن البشرة السوداء تحتفظ في أشهر الصيف بطراوتها وبرودتها... كذلك لم يصبح الرقيق مشكلة

---

(٦٦) د.سليمان حريتاني: الجواري والقيان، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٧، ص٢٧.
(٦٧) بدوي، المصدر السابق، ص١٠٣.
(٦٨) مادهو بانيكار.ك: الوثنية والإسلام، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، القاهرة ١٩٩٨، ص٢٣١-٢٣٣.
(٦٩) المصدر نفسه، ص٢٣٧.
(٧٠) يقدر عدد من مات جراء تجارة الرقيق الأوربية بـ(٥٠ مليون) رق أسود.

اجتماعية في الشرق الأدنى أو في شمال إفريقيا، ومرجع ذلك أنهم كانوا يُستخدمون أساساً إما خدماً في المنازل أو جنوداً في الجيش، مثل الفصائل الزنجية في جيش مولاي أحمد سلطان مراكش.. أو كانوا الخصيان والموظفين المدنيين.. وقد اختلط هؤلاء الرقيق بالرقيق القادمين من البلقان والقوقاز، لذلك لم يظهر أبداً في أي من هذه البلدان شعوراً بأن الإسلام يستحل استرقاق الزنوج".

ومن السمات المميزة الأخرى للرق في البلاد العربية، هو أنه كان أساساً من مظاهر البذخ، بينما كان له في الأمريكيتين "أساساً اقتصادياً وطيداً؛ إذ كانوا يجلبون الرقيق أساساً للعمل في المزارع التجارية، لذلك فإن الزنوج في الشرق قد امتصوا في السكان المحليين... كما أن اعتناقهم الإسلام يحل أية مشكلة اجتماعية"(٧١).

فضلاً عن ذلك، فإن النخب المملوكية التي حكمت مصر وبلاد الشام والجزيرة العربية ما يقارب الثلاثة قرون، وورثوا السلاطين الأيوبيين، كانوا بالأساس رقيقاً استُجلب من البلقان والقوقاز، تمَّ دمجهم في الجيش بعد اعتناقهم الإسلام، وارتقوا في سلّمه حتى وصلوا إلى مواقع القيادة العسكرية والسياسية، والسلطان.

ولا ننسى أن الدولة "النجاحية" التي قامت في اليمن على يد قائدها الحبشي (نجاح)، وكانت معاصرة للفترة الأخيرة للدولة الفاطمية؛ وكذلك فإن كافور الإخشيدي وصل إلى حكم مصر، وهو عبد أسود خصي مثقوب الشفة السفلى، واختلف الناس فيه، فمنهم من يذكره بازدراء كالشاعر المتنبي، والبعض الآخر يذكره بغزارة علمه وسعة أفقه؛ فضلاً على أن الخوارج نجحوا من قبل في تأسيس دولة مستقلة عن الخلافة عام (١٤٠هـ-٧٤٥م)، وهي دولة بني مدرار، وعاصمتها سجلماسة، وكان مؤسسها (عيسى بن يزيد الأسود)، مما يدل على أن الخوارج الذين خلصوا لفكرة المساواة الإسلامية مكنوا لمؤسس هذه الدولة وهو أسود من أن يكون إماماً لهذه الدولة(٧٢).

كما نتج عن ظاهرة الرقيق "ثورة الزنج" في جنوب البصرة، وهو حادث صادم للذاكرة العربية الإسلامية في علاقته مع الزنوج السود، وقد حدثت تلك الثورة في العصر العباسي الثاني (٨٣١م-١٢٥٩م) عندما غدا للجند موقعاً راجحاً في السلطة على حساب مركز الخلافة وموقعها، واستخدم هؤلاء الجند "الإقطاع العسكري" كأحد طرق استيلائهم على الفائض الاقتصادي، ولتأمين وفرة لدخلهم، واستخدموا في "إقطاعهم العسكري"، الذي تمركز في سواد البصرة، العمل الكثيف للرقيق وخاصة للذين استجلبوهم من شرق إفريقيا (الزنج)، لاستصلاح الأرض وكسح الطبقة الملحية للوصول إلى الأرض الخالية من الملح(٧٣)، وتوزع هؤلاء الزنج في مجموعات عمل كثيفة تتراوح أعدادها ما بين ألفي عبد إلى خمسة آلاف، وبلغت إحدى تلك المجموعات الخمسة عشر ألفاً(٧٤). فكان استخدام الرق في العمل الزراعي نوعاً من الاستثناء للصورة العامة لعمل الرقيق في البلاد العربية الذي غلب عليه طابع العمل المنزلي، حيث دفع هذا الشكل القاسي الذي مورس في أرض السواد بعض قادة السود إلى استلهام المثال القرآني في العدل والمساواة والأخوة، فقادوا رفاقهم إلى الثورة على الظلم تحت راية الآية "إنما المؤمنون أخوة"، ورفعوا شعاراً لهم الحديث الشريف "شر الناس من أكل وحده، ومنع رفده، وضرب عبده"، وامتدت ثورتهم إلى ما يقارب الأربعة عشر عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ/ ٨٦٩-٨٨٣م)، تجاوزت فيه ضحايا "الثورة" من السود والسلطة العشرات الآلاف(٧٥)، وكان قائد الثورة (علي بن محمد) الذي يرجع بنسبه

---

(٧١) المصدر نفسه، ص٢٣١.

(٧٢) بدوي، المصدر السابق، ص١٣٤-١٣٦.

(٧٣) أبو جعفر بن جرير (الطبري)، تاريخ الرسل والملوك، المجلد ١١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦١، ص١٧٧.

(٧٤) المصدر نفسه، ص١٧٦.

(٧٥) بدوي، المصدر السابق، ص١٠٦.

إلى علي بن أبي طالب عن طريق زيد بن علي، الذي ردَّد في إحدى خطبه "الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، لا حكم إلا الله" وهو ما يذكرنا بأقوال الخوارج. وكانت أعلام صاحب الزنج بيضاء، وكان من أهدافها الكبرى إلغاء الرق(٧٦).

ولعبت، أيضاً، أحداث الحروب الصليبية، وما أعقبها من مناوشات بين مصر المملوكية وبلاد الحبشة دوراً سلبياً، حيث نظر إلى تلك المناوشات كاستمرار للحروب الصليبية، وهو ما انعكس في "السير الشعبية" ولا سيما "سيرة سيف بن ذي يزن" التي انطوت على بعض المواقف السلبية من الأحباش، وتم الترويج مجدداً لفكرة أن العرب أولاد سام بن نوح، وأن الأحباش والسود من أولاد حام بن نوح(٧٧).

والحال، أن مجمل تلك "الحوادث الصادمة"، السياسية والاجتماعية، شكلت محوراً للتأثير على صورة "الإفريقي الأسود" عند العرب، وكان لا بد لها بطريقة أو بأخرى من أن تضغط على طريقة إدراك جغرافيينا ورحالتنا إلى السودان-الزنج.

ولعبت أيضاً فجوات المعرفة، وتضاؤل المعلومات أو انعدامها فيما يخص المناطق الجغرافية ولا سيما في أقصى القارة الإفريقية أو في عمقها، دوراً مهماً في طريقة تناول أصحاب المصنفات لها، حيث انطبع الكثير من تقاريرهم عنها بالطابع الأسطوري والعجيب، فأتت رواياتهم مزيجاً من المبالغات والرغبات والعجيب والخارق والتخيلي، كما ظهرت عن ابن الوردي والقزويني وشيخ الربوة الدمشقي.

لقد احتلت الوجهة الدينية الإسلامية الموقع الأعلى في القبة الثقافية التي هي منبع القيم والأحكام والمعايير، وشاركها في المزاحمة على الاستحواز على المرجعيات المسيطرة والموجهة المعيار الإقليمي أو الفلكي أو السلالي، بالإضافة إلى تأثير العوامل الاجتماعية السياسية، فضلاً عمَّا يخلقه (الجهل) لبعض العوالم من ضرورات لملئها بالتصورات الممكنة، إلاَّ أن العرب، بما فيهم جغرافيوهم ورحالتهم، لم يرسموا حدوداً ثقافية فاصلة تفصلهم عن السود، فالعالم الجغرافي الذي يفصلهم عن السود: الصحراء الكبرى، البحر الأحمر (القلزم)، شلالات النيل، يبدو مفتوحاً على عالم مألوف لديهم، يجدون فيه نقاطاً وبقاعاً يتجاور فيها المهاجرون العرب (تجاراً ورجال دين) مع السود (المسلمين والوثنيين)، وعندما أطلقوا صفة "وحشية" على بعض الجماعات السوداء، فقد عنى هذا المفهوم لديهم ما يقابل مفهوم (العمران)، فالـ"توحش" نفسه وجده جغرافيونا ومؤرخونا في "ديار الإسلام" ذاتها لدى الجماعات البدوية، ولم يروجوا لمركزية عرقية، حيث أعطوا البيئة المكان الأول في التأثير في اللون، وكما قال ابن حوقل مكرراً قول الكندي "إن البيضان إذا تناسلوا في بلد السودان سبعة أبطن عادوا في سحنتهم وبسوادهم، وإذا توالد السودان في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا في صورتهم وخلقهم من البيضان"(٧٨). أما المفهوم السلالي فهو بالإضافة لمعارضته المبدأ الإسلامي، فإنه كان موضوعاً للتنازع داخل الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين، ولم يصلوا إلى وفاق حول تحديداته وقيمته المعيارية.

د- تصورات وأحكام عامة

(٧٦) د.محمد عمارة: ثورة الزنج، دار الوحدة، بيروت، بدون تاريخ، ص٥٥.

(٧٧) بدوي، المصدر السابق، ص١٦٣.

(٧٨) أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ابن حوقل): صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢، ص١٠١.

صادرة عن العامل البيئي، والكوكبي، والسلالي

تداخلت وامتزجت مرجعيات ثقافية مختلفة في إطار الثقافة العربية الإسلامية التي غدت ثقافة سائدة في العالمين العربي والإسلامي، فإذا كان الإسلام كدين -بما يحمله من قواعد للإيمان ومن أحكام وتصورات ومعايير- غدا القبة الرمزية التي كانت بمثابة المرجعية العليا الكبرى فرضت هيمنتها على الثقافات الفرعية الأخرى، بما تتضمنه من أحكام عن الآخر الإفريقي الأسود وعن غيره من الأجناس، إلا أن هذه المرجعية لم تخل من منافسين قدامى وجدد تتجاذبهم مرجعيات ومعايير أخرى، يرجع بعضها في جذوره إلى الثقافة العربية قبل الإسلام، وبعضها الآخر أتى من تلك الشعوب التي دخلت الإسلام وتأسلمت، أو كانت خاضعة للإمبراطورية العربية الإسلامية كالثقافة الإيرانية الفارسية، ومنها من أتى من تربة الثقافة اليونانية-الرومانية بعد أن تم للعرب ترجمتها فأصبح لها تأثيراً فاعلاً داخل الثقافة العربية الإسلامية ولا سيما داخل المجال الجغرافي، وبالأخص ما نسِب إلى بطلميوس وجالينوس اللذان تسربت مفاهيمهما إلى الثقافة العربية حتى غدت جزءاً منها، بما فيها من أحكام عن الآخر والذات والعالم.

لقد مارس الدين الإسلامي دوراً حاسماً في تأكيده - كما قلنا - على وحدة الجنس البشري بما فيه الجنس الأسود، وعلى المساواة والأخوة البشريتين اللتين تتسعان لجميع الأجناس والألوان، ولعل هذه القيم العامة نفسها قد مارست جاذبيتها على الباحثين العرب، من جغرافيين وأصحاب المدونات الأدبية، في تقييمهم المنفتح على مساهمات الأمم الكبرى المختلفة في النسيج الحضاري للبشرية، وللنظر إلى تلك المساهمات كفاعليات متكاملة دون إبخاس الأدوار الحضارية لكل أمة من الأمم حقها في الاشتراك في فضائل ال[illegible] عبر عنه الشيخ المتصوف (الدمشقي) بقوله "ولكل أمة فضائل ورذائل، ومحاسن ومساوئ وكمال ونقص، إذ الخيرات والشرور والفضائل والنواقص مفاضة على جميع الخلائق، ولا تخلو كل فرقة وطائفة ممن وصفوا بالحكم والعقل وأوصاف الكمال من جاهل خال من الأدب داخل في الرعاع والهمج. ولا الموصوف بالشجاعة من جبان جاهل طياش بخيل"(٧٩).

كما كان لتلك الأحكام الدينية العامة عن الأخوة الإنسانية مفاعيلها الأخلاقية والاعتبارية في توليد موقف يتصف بالانفتاح على الإنساني في طريقة فهم موقع الإفريقي الأسود داخل معايير (التفاضل) الحضاري أو الإنساني العام، أو داخل درب النجاة الرباني، أي مجال التقوى والفوز برضى الله، وهو ما ظهر جلياً في العديد من المؤلفات التي تخصَّصت في إبراز "فضائل السودان" على تلك المستويات المتعددة، فإلى جانب ما أبرزه بعض المؤلفين، ولا سيما رجال الدين من الفقهاء كالسيوطي وابن الجوزي، من عظمة الدور الذي لعبه السودان في طريق التقوى الإسلامية، ودورهم في مجال الإيمان، واكتسابهم لرضى الله ولرضى رسوله شأنهم في ذلك شأن العرب والشعوب الأخرى، هناك من أبرز فضائلهم الإنسانية الأخرى، الأخلاقية والجسدية وما يمتلكونه من خصال ومزايا ترفع من شأنهم الإنساني أو ترفع من قدرهم في مجال الموازنة التفاضلية مع الآخرين من البشر. فيشير الجاحظ "قالوا: والناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاءُ فيها أعم وعليها أغلب من الزنج، وهاتان الخلتان لم توجدا إلاَّ في كريم. وهي (أي أمة السودان) أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون... وليس في الأرض أحسن حلوقاً (= حنجرة) منهم، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة ولا أقل تمطيطاً.. وهم شجعان أشداء الأبدان

---

(٧٩) محمد بن أبي طالب الأنصاري، (شيخ الربوة) الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ، في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، ١٢٨١ هـ-١٨٦٥م، المصدر السابق، ص٢٧٢.

أسخياء، وهذه هي خصال الشرف"[٨٠]، وكقوله "والزنج أحرص من خلق الله على نسائهم، ونساؤهم لهم كذلك، وهن أطيب من غيرهم"[٨١].

ويأتي الجاحظ بأقوال دفاعية على لسان السود أنفسهم تدفع عن "اللون الأسود" أية علامة تصغيرية أو مذمّة، وذلك بإعادتهم لون السواد إلى البيئة، كقولهم "إن الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا، ولكن البلد فعل ذلك بنا والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سوداً كبني سليم بن منصور، وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود"[٨٢].

وبما أن العرب احتكوا بالسودان واختلطوا بهم في اجتماعهم السياسي، حيث اشتغلوا في الزراعة وخاصة ذلك الفريق الذي عمل في أراضي السواد جنوب العراق، أما القسم الأكبر منهم فقد عمِلَ في عبودية العمل المنزلي، وكان أكثر الرقيق السودان يأتي به تجار الرق من شرق إفريقية، ولم يرتقوا السلم الاجتماعي ليصبحوا من أعلية القوم، لذا فإن الجاحظ يورد في دفاعه عن السودان على لسان السودانيين أنفسهم "قالوا: وأنتم لم تروا الزنج الذين هم الزنج قط، وإنما رأيتم السبي يجيء من سواحل قنبلة وغياضها وأوديتها، ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا، وليس لأهل قنبلة جمال ولا عقول، وقنبلة اسم الموضع الذي تُرفُون منه سفنكم إلى ساحله، لأن الزنج ضربان (قنبلة ولنجوية) كما أن العرب (قحطان وعدنان)، وأنتم لم تروا من أهل لنجوية أحد قط ولا من السواحل ولا من أهل الجوف، ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال"[٨٣].

ولم يستبعد المصنفون العرب من المجال الحضاري دوراً ما للسودان فيه، ولعل هذا ناتج جزئياً عن نزعة الأخوة والمساواتية التي حملها الإسلام، وإن كان بعضهم قد حصر هذه المساهمة بالأمم السوداء المجاورة لدار الإسلام أو الأمم المتحضرة، مثلما نجد ذلك في وصف ابن حوقل، إذ بعد أن ينوه إلى أن من مظاهر الحضارة و"انتظام الممالك" إنما "بالديانات والآداب والحِكَم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة"، فإنه يرى هذه المظاهر الحضارية مهملة من قبل أغلب أمم السودان "ولا حظَّ لهم في ذلك"، غير أنه يستدرك بعد ذلك ليشير إلى أن "بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحِكَم، ويقاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم"[٨٤].

كما نجد أيضاً عند صاعد الأندلسي ورغم تقسيمه الأمم إلى مجموعتين: الأولى تعتني بالعلوم والحكمة وتشتغل بالعلوم العقلية "الهند والفرس والكلدانيين واليونان والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيين"، والطبقة الثانية لا تعتني بهذه العلوم العقلية "كالصين ويأجوج ومأجوج والترك وبرطاس والسرير والخزر وجيلان وطلسان وموقان وكشك واللان والصقالبة والبرغر والروس وبرجان والبرابرة وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرهم"[٨٥]، فإنه بعد هذا التقسيم الذي يضع فيه السودان في مصاف الأمم التي لا تعتني بالعلوم العقلية والحكمة، يرجع فيقول "إلاَّ أن جمهرتهم مع هذا، وهم أهل المدن وخدامهم من أهل البادية لا يخلون حيث كانوا من مشارق الأرض ومغاربها وجنوبها وشمالها من سياسة ملوكية تضبطهم وناموس إلهي يملكهم، ولا يخرج عن هذا التأليف العقلي إلاَّ بعض قطعان الصحارى وسكان الفلوات والفيافي، كرعاع وهمج

---

(٨٠) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج١ (فخر السودان على البيضان)، المصدر السابق، ص١٩٥.

(٨١) المصدر نفسه، ص٢١٣.

(٨٢) المصدر نفسه، ص٢١٩.

(٨٣) المصدر نفسه، ص٢١١-٢١٢.

(٨٤) ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص٩. راجع أيضاً، الأصطخري، المصدر السابق، ص١٦.

(٨٥) صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد: طبقات الأمم، تحقيق حياة علوان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥، ص٤٠.

غانة وغثا الزنج ومن أشبههم"(٨٦)، مؤكداً بذلك على أن أهل المدن وما يحيطها من بادية في كل أمة بما فيها أمم السودان لا تخلو من الحكمة وأساليب الملك، وهي من مظاهر الحضارة والعمران، ولا يستثني منها إلاَّ أطرافها سكان الفيافي القصية عن مراكز التمدن.

سيزداد لدى العرب هذا الميل إلى الاعتراف بتعاظم دور السودان الحضاري مع ازدياد المعرفة العربية - ولا سيما بعد القرن الحادي عشر - لممالك السودان في غرب إفريقيا عن طريق رحالتهم الكبار وجغرافييهم الذين مزجوا معارفهم ومشاهداتهم الرحلية بعلومهم الجغرافية، إلاَّ أننا سنترك ذلك إلى القسم الثالث حيث سنشهد كيف تتمرد المعرفة المباشرة ومعلومات الرحالة على الصورة النمطية التي تم اقتباسها عن اليونان خاصة، وقيدت رؤيتهم لأمم السودان ولغيرها من الأمم.

لقد تضمنت الثقافة العربية نوعاً من مزاوجة بين وحدة الثقافة العربية الإسلامية والتنوعات الفرعية التي تزخر بها، إن كان في تعددها المذهبي الذي تميز به الإجماع الإسلامي من خلال اعترافه بأهل الكتاب كشركاء في "ديار الإسلام" أو بالتعددية الثقافية للأمم والمدن، وهو ما تجلى في تسابق المصنفين العرب الجغرافيين والمؤرخين في إبراز خصوصيات كل مدينة عربية وإسلامية وخصائص وفضائل كل إقليم ضمن الوحدة العامة التي تتضمنها المدينة العربية الإسلامية، فأظهرت دراساتهم (البلدانية) ومدوناتهم عن "فضائل المدن" وعن خصائص "البلدان" شكل من المقاربة تذكرنا بالدراسات الإثنوغرافية أو الأنثروبولوجية الحديثة، وأتى الرحالة فأغنوا هذا الجانب المنهجي من الدراسة للشعوب والأمم والمدن المدروسة، وأضفوا على آثارهم ومدوناتهم عن بلدان السودان التي زاروها نوعاً من الدراسة الإثنوغرافية لهذه الشعوب والأمم، بما تحتويه من وصف دقيق لطبائع تلك الشعوب ولطرائق حياتهم وللتنوع الثقافي بين البشر، إلى جانب الوحدة التي تجمعهم.

لقد برز الاهتمام بعادات الشعوب المختلفة وخصائصهم وفضائلهم في وقت مبكر بعد الفتوح الواسعة التي ضمت إلى الإمبراطورية العربية الإسلامية شعوب مختلفة، حيث قيل أن عمر بن الخطاب (الخليفة الثاني) سأل كعب الأحبار "صف لي ما تعلم من أخلاق أهل البلاد المحمودة المذمومة غالباً، فقال: يا أمير المؤمنين أربعة لا تُعرف في أربعة، السخاء في الروم، والوفاء في الترك، والشجاعة في القبط، والغم في السودان، وطلب النجدة في الشام.. وطلب الإيمان اليمن.. والغنى والخصب مصر.. وقسِّمت القساوة عشرة أجزاء في الترك وواحدة في الناس، وقسِّم الحذق عشرة أجزاء تسعة منها في العرب وواحدة في الناس، وقسِّم الطرب عشرة أجزاء تسعة في السودان وواحد في الناس، وقسِّم الشبق عشرة أجزاء تسعة في الهنود وواحد في الناس"(٨٧). إلا أن هذا الاستقصاء والبحث عن الشعوب والتعرف على عاداتها وسلوكها الاجتماعي ونمط معاشها الذي ازداد غنى وثراء مع الرحالة والجغرافيين الذين اعتمدوا على رحلاتهم ومشاهداتهم الشخصية المباشرة وشهادات الشعوب أنفسهم؛ كما سلك هذا التطلع المعرفي طريقاً آخر حبس اندفاع هذه المعرفة ضمن معايير وأطر اقتبسها المؤلفون العرب بترجمتهم للمؤلفات اليونانية بخاصة أو بترجماتهم للمؤلفات الجغرافية الإيرانية والهندية، فإذا كان بطلميوس قد مارس سلطة ثقافية حقيقية على قسم من الجغرافيين العرب المسلمين وذلك في إبرازه لدور التقسيم الإقليمي-الفلكي من أجل تحديد معالم العالم المعمور ولتأثير أقاليمه على خصائص الشعوب المختلفة، فإن جالينوس وأبقراط قد مارسا من جهة أخرى هذه السلطة ذاتها على كثير من الجغرافيين العرب عن طريق نظريتيهما في الطباع والكيوف البشرية وتأثيرها على تشكل طباع وكيوف السودان أو الجنس الأسود، بحيث تم

---

(٨٦) المصدر نفسه، ص٤٣-٤٤.

(٨٧) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٧١.

حجزهم في صورة نمطية أعيد إنتاجها في كتبهم المختلفة عن بلاد السودان، وانتهى هذا بالجغرافيين العرب إلى المزج بين تانيك النظريتين "الأقاليم" و"الطباع"، حيث يمارس الموقع الجغرافي الإقليمي تكوينه وتشكيله لطبائع الأمم المختلفة بما فيها أمم السودان، التي تم (حبسها) في قفص هذه النظرية وداخل معايير الأقاليم الفلكية ودائرة البروج، وإلى جانب ذلك فقد تقيدوا بفكرة الأعراق بعد أن جردوا تلك الأعراق من حياديتها عندما أضفوا نوعاً من التبخيس على العرق الأسود.

وأول هذه التحديدات النمطية لأمم السودان هو وضعهم إياها ضمن التحديدات البيئية-الإقليمية في الأقاليم الجنوبية المحاذية لخط الاستواء من جهة، وللعالم غير المعمور من جهة أخرى، فصارت بعض أطرافها القصية كمساحة انتقالية ما بين المعمور والمغمور من الأرض بكل ما يستتبع ذلك من صفات وخصائص تضرب بالإنسان الأسود.

ولطالما وضعوا الأمم السوداء في الإقليم الأول أو في الأول والثاني، ومدوا الإقليم الأول والثاني من حدود الصين القصية حتى جزر السعادات في المحيط الغربي أو إلى حدود أوقيانوس، وقرنوا هذين الإقليمين وبالأخص الإقليم الأول بشدة الحرارة وطول النهار ومسامتة الشمس لرؤوس البشر، وللنبات والحيوان، وهو ما يضفي على السكان خصائص ثابتة تضرب بأشكالهم وأخلاقهم وطبائعهم، فتبتعد بذلك عن المعايير الدينية والحضارية، التي ترتد هي نفسها إلى تأثير البيئة-الإقليم، الحرارة أو البرودة، وتأثير دائرة البروج والنجوم عليها، فأشاروا إلى تضاؤل معالم العمران والحضارة والديانات التوحيدية في الإقليم الأول.

والحال أن خضوع متخيل كثير من الجغرافيين العرب لتصورات بطلميوس وجالينوس عن إفريقية، واجهت تحدياً جدياً واختراقات واسعة وتعديلات جدية، وذلك عن طريق إسهامات الرحالة، والجغرافيون الرحالة العرب، الذين أزاحوا جانباً تلك التصورات النمطية، لحساب التقصي عن أنماط السلوك والمعاش، والاعتقاد الذي يوجه فعلياً الشعوب السوداء.

وقد تداول المؤلفون العرب جواب أحد الحكماء على سؤال الخليفة عمر عن طبائع الأقطار، ولعل هذا نوعاً من التأصيل للأفكار المقتبسة عن اليونانيين، ومفاده "إعلم يا أمير المؤمنين أن الله تعالى قد قسم الأرض أقساماً: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فما تناهى في التشريق.. فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدَّته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغرباً أضر سكانه لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضر ببرده وقرِّه وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتصل بالجنوب (= البلاد التي تقع فيها بلاد السودان) وأوغل فيه احترق بناريته ما اتصل به من الحيوان"[٨٨].

وعلى هذا تفترض النظرية "الإقليمية-البيئية" أن "كل المواضع والبلدان تختلف حالاتها وحالات أهلها وما يحدث فيها إنما يكون ذلك على قدر قرب الشمس منها أو بعدها عنها"[٨٩]، فكلما ابتعدنا شمالاً "إلى نهاية المعمور في الشمال، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم، برَّد هواءهم وكثَّف جوّهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة.. وغلب عليهم الجهل والبلادة.. كالصقالبة والبلغار" أما أمم السودان "ومن كان ساكناً قريباً من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور في الجنوب لطول مقاربة الشمس رؤوسهم، أسخن هواءهم وسخن جوّهم، فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة، فاسودَّت ألوانهم وتفلفلت شعورهم فعدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش، وفشا فيهم النوك والجهل، مثل من كان من السودان ساكناً بأقصى

---

(٨٨) أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط٤، القاهرة ١٩٦٤، ص٦١.

(٨٩) ابن رستة، المصدر السابق، ص١٠١.

الحبشة والنوبة والزنج وغيرها"[٩٠].

ويشرح ابن رستة الأمر بربط النتيجة بالمسببات "أما السودان والحبش فإنهم يسكنون في البلاد التي تحاذيها من البروج ما بين مدار الحمل إلى السرطان، لأن الشمس في هبوطها وصعودها إذا كانت في تلك البروج وتوسط السماء تكون على سمت رؤوسهم، فتسخن أهويتهم وتحرقهم، وتكثر الحرارة واليبس فيهم، فلهذه العلة صارت ألوانهم سوداً وشعورهم قططة وأبدانهم يابسة نحيفة، وطباعهم حارة، وكذلك دوابهم وأشجارهم"[٩١].

وبالمقارنة مع سكان الإقليم الأول والثاني من السودان، تبدو الأقاليم الوسطى ولا سيما الرابع الذي يقع فيه العراق مركز الخلافة الإسلامية أقاليم معتدلة، وينتج عن اعتدالها هذا الاعتدال والتوازن "فإن هواءهم حسن التمزيج، وموضعهم معتدل ليس فيه حر شديد ولا برد شديد، وألوانهم وأبدانهم وطبائعهم معتدلة، وعقولهم وأخلاقهم حسنة، وقد كثر فيهم العلم والذكاء وتقدمة المعرفة بالأشياء ومحاسن الأخلاق، وهي أرض العلماء والنبيين"[٩٢].

ولعل الخصائص التي ينسبونها إلى الجنس الأسود، تعود بالأصل إلى ترسيمة جالينوس الذي أسقط هذه الصفات على السودان، فيستشهد به المسعودي على سبيل الاقتداء[٩٣]، وتبلغ المماهاة بجالينوس وبترسيمته عن السودان ذروتها عند الدمشقي حيث يعدد الخصال العشر التي ينسبها جالينوس إلى الشعوب السوداء "أن في الأسود عشر خصال لا توجد في غيره من البيض: تفلفل الشعر ودقة الحاجبين وانتشار المنخرين وغلظ الشفتين وتحدّد الأسنان، ونتن الجلد وسود الخلق وتشقّق الأطراف وطول الذكر وكثرة الطرب"[٩٤].

ونظراً لازدياد معرفة المؤلفين العرب لشعوب السودان باضطراد، حصروا تلك الخصال بالشعوب التي تقطن في أقصى الجنوب من الإقليم الأول المحاذي لخط الاستواء، التي يملكون معرفة غامضة عنها؛ أما الشعوب التي تعرَّفوا عليها وشاهدوا معالم العمران فيها فقد حرروها نسبياً من تلك الصورة النمطية المختزلة. فهذا الإدريسي في وصفه للجزء الثاني من الإقليم الأول وهو الداخل في خط الاستواء، يعرِّج على الشعوب السوداء التي تقطنه فيقول: فيه "أمم كثيرة، سوداء عراة لا يستترون بشيء، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق، وهم أكثر الناس نسلاً، ولهم إبل ومعز يعيشون من ألبانها، ويأكلون الحيتان المصيدة ولحوم الإبل المقددة"[٩٥]، وإن أوضاع الجنس البشري في الإقليم الأول، وبالأخص أطرافه الموغلة في الانسحاق جنوباً تحت خط الاستواء "ناحية الجنوب أشد سواداً وشعورهم أشد تفلفلاً وخلقهم أشد تشوهاً ممن كان في مثل بعدهم عن معدل النهار في جهة الشمال"[٩٦].

ويكمل الدمشقي ذلك التقصي -مقتدياً بجالينوس- ليعطي وصفاً متكاملاً لتلك الصورة النمطية عن الشعوب السوداء في أقصى الإقليم الأول، حيث الحرارة على أشدها "فيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم،

---

(٩٠) صاعد الأندلسي، المصدر السابق، ص٤١-٤٢.

(٩١) ابن رستة، المصدر السابق، ص١٠٢.

(٩٢) المصدر نفسه، ص١٠٢.

(٩٣) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٨٣. وأيضاً، المسعودي: التنبيه والإشراف، ج١، إعداد قاسم وهب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٠، ص٥٨.

(٩٤) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٩٥) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني (الإدريسي): كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان، دون تاريخ، ص٢٢.

(٩٦) ابن رستة، المصدر السابق، ص١٠١.

وكل هؤلاء سود، سوادهم من قبل الشمس، فإنه لما كان حرها شديداً وطلوعها عليهم ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين، ولاتزال قريبة منهم أسخنتهم إسخاناً محرقاً، وصارت شعورهم التي بالقصد من الطبيعة سوداء حالكة جعدة مفلفلة أشبه شيء بشعر أدنيَ من النار حتى يشيط، وأدل دليل على أنه متشيط لأنه لا ينمو ولا يطول، جلودهم زعرة ناعمة لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج، وأدمغتهم قليلة الرطوبة لمثل ذلك، فلذلك كانت عقولهم خسيفة وأفكارهم قصيرة وأذهانهم جامدة، ولا يوجد منهم الشيء وضده كالأمانة والخيانة والوفاء والغدر، ولم يوجد فيهم نواميس، ولم يبعث فيهم رسول، لأنهم غير قادرين على الجمع بين الضدين، والشريعة إنما هي أمر ونهي ورغبة ورهبة"(٩٧).

ولم يسلم ابن خلدون العظيم نفسه من هذا التنميط المختزل للسودان رغم أنه حصر هذه الصورة بالشعوب القاطنة في أقصى الجنوب وحسب، فابن خلدون الذي أعطى لمفهوم العمران والحضارة دوراً بارزاً في "علم اجتماعه السياسي"، وجعل لدورة التاريخ وزنها الكبير في عمران الأمم وبنائها للحضارة، فقد أكد من جهة أخرى على مفهوم "الأقاليم" الفلكية وعلى أهمية ربط خصائص الأمم في ترتيب الأقاليم وتدرجها من الجنوب إلى الشمال، وعلاقة ذلك كله بالمناخ "البرودة" و"الحرارة" والاقتراب والابتعاد عن خط الاستواء والقطب. فوجد أن الشروط البيئية والمناخية تتوفر أفضل ما تتوفر في الإقليم الأوسط "الرابع" المعتدل، أو على الأقل الثالث والرابع والخامس، ثم تزداد شروط العمران سوءاً كلما ابتعدنا نحو الشمال والجنوب، حيث الشروط المناخية تصبح صعبة في السادس (شمالاً) والثاني (جنوباً)، ثم أكثر صعوبة وقسوة في الأول والسابع حيث أطراف المعمور من الأرض وعلى حافة المغمور منها؛ فيرى أن لتأثير مناخ الإقليم الأول على سكانه السود مفاعيل كثيرة، أولها سواد اللون وتلوينات على السلوك الاجتماعي والأخلاقي والذهني، فلما كان الجانبان حسب ابن خلدون "من الشمال والجنوب متضادين من الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً"(٩٨).

فيشير إلى أن الإقليم الرابع أعدل العمران، ثم الإقليمان اللذان يقعان على حافته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، كما أن الذي يليهما أي الثاني والسادس فبعيدان من الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير "فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً، حتى النبوات فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثه في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية"(٩٩).

ويلتفت ابن خلدون إلى الأقاليم البعيدة عن الاعتدال (الأول والثاني والسادس والسابع) فيقول عنهم "فأهلها أبعد عن الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم، أو الجلود، وأكثرهم عرايا من اللباس، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها للمعاملات، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض، ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضاً"(١٠٠).

وإذا كان مؤلفونا العرب قد حصروا هذه "الصورة النمطية" بالشعوب القاطنة في نهايات الإقليم الأول، إلا أنهم استثنوا من أحكامهم هذه بعض الأمم التي تقع في (الإقليم الأول) وتشارك السودان عيشهم فيه، فالجزيرة

---

(٩٧) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٩٨) عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ١٩٧٨، ص٨٢.

(٩٩) المصدر نفسه، ص٨٢.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص٨٣.

العربية والأقسام الجنوبية من الهند والصين تنتسب إلى هذا الإقليم، غير أنهم استثنوها من أحكامهم تلك، وذلك بسبب تدخل ظروف مناخية أخرى عدلت من سلطة المناخ الحار هذا ومن تأثيره على الأبدان، فالإدريسي مثل غيره من المؤلفين العرب استثنى هذه الأمم من تلك الصورة النمطية التبخيسية، ويعود ذلك عنده إلى أن إحاطة البحر للصين والهند وأيضاً للجزيرة العربية جعل هذه الشعوب تتمتع بزيادة رطوبة وهو ما عدل ألوانهم إلى السمار، وجعلهم يخرجون عن أسر "الصورة النمطية" للشعوب السوداء في أقصى الجنوب، ففي معرض حديثه عن سكان الإقليم الأول يقول الإدريسي "إن كلهم سمر أو سود، فأما أهل الهند والسند والصين وكل من احتضن منهم البحر فألوانهم سمر، وأما أهل الصحارى من الزنج والحبشة والنوبة وسائر السودان الذين سبق ذكرهم فلقلة الرطوبة البحرية وتوالي إحراق الشمس لهم وممرها عليهم دائماً تفلفلت شعورهم واسودت ألوانهم وأنتنت أعراقهم وتقشفت جلود أقدامهم وتشوهت خلقهم، وقلت معارفهم وفسدت أذهانهم فهم في نهاية الجهالة"(١٠١).

ويعبر ابن خلدون عن حالة الاستثناء نفسها بقوله "فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث، فإن لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها، فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيه بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر"(١٠٢).

ولقد نسب بعض الجغرافيين العرب بعض خصائص الشعوب السوداء إلى تأثيرات النجوم والبروج، فعللوا صفاتهم وحظوظهم ونحوسهم إلى تأثيراتها، فالمسعودي يقسم المعمورة أحياناً تبعاً للاتجاهات الأربعة وأحياناً أخرى حسب الأقاليم السبعة، وينسب طبائعها في الحالتين إلى تأثيرات النجوم، فهو يحدد طبائع كل إقليم في تقسيمه الجهوي الرباعي للعالم تبعاً لارتباطه الكوكبي "والعالم أربعة أرباع: فالربع الشرقي وهو ما تسافل عن خط الجنوب والشمال إلى الشرق، فهو يدل على طول الأعمار وطول مُدد الملك والتذكير وعزة النفس، وقلة كتمان السر.. وعلَّمهم الأخبار والتواريخ والسير والسياسات والنجوم(١٠٣). أما أهل الربع الشمالي الذين "بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والإفرنج وما جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعف عندهم.. فقل مزاج الحرارة فيهم، فعظمت أجسامهم وجفت طباعهم.. ولم يكن في مذاهبهم متانة"(١٠٤)، بينما يقول عن أهل "الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء تحت مسامتة الشمس، فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة، فاسودت ألوانهم واحمرت أعينهم وتوحشت نفوسهم، وذلك لالتهاب هوائهم وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم وتفلفلت شعورهم"(١٠٥).

أما في تقسيمه السباعي للأقاليم فقد وضع المسعودي كل إقليم تحت تأثير برج ونجم معين "وأما الأقاليم السبعة فأولها أرض بابل.. وله من البروج الحمل والقوس ومن الأنجم السبعة المشتري، والإقليم الثاني الهند والسند والسودان وله من البروج الجدي ومن الأنجم السبعة زحل... والإقليم الرابع مصر وإفريقيا والبربر والأندلس وما بينهما وله من البروج الجوزاء ومن الأنجم السبعة عطارد"(١٠٦)، إذ وضع المجال الإفريقي في الإقليمين الثاني والرابع، وربط كل منهما بتأثيرات فلكية خاصة، برج الجدي ونجم زحل في الثاني، وبرج الجوزاء ونجم عطارد في الإقليم الرابع.

وإذا كان المؤلفون العرب قد وضعوا شعوب السودان في إطار النسق السلالي الذي كانوا قد اهتموا به للغاية،

---

(١٠١) الإدريسي، المصدر السابق، ص٩٨.

(١٠٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص٨٣.

(١٠٣) المسعودي، التنبيه والإشراف، المصدر السابق، ص٥٦.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص٥٧.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص٥٨.

(١٠٦) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٨٧.

حيث جعلوا السودان من نسل حام أحد أبناء نوح الثلاثة، فإن بعضهم ذهب بهذا التفسير السلالي وجهة أخرى حين وظف تداول هذه النسبة لصالح منطق تبخيسي للجنس السوداني، وهذا ما نجده في سردهم لرواية ردّدها بعض المصنفين أرجعوا فيها سبب سواد هذه الشعوب ورزوح قسم منها في الرق إلى دعوة نوح على ابنه حام بالسواد والمذلة، وذلك لأن حام عندما دخل ورأى أبيه نائماً وعورته منكشفة لم يبادر إلى ستره وتغطيته، وفعلها سام ويافث، فيدعو عليه أبيه بالسواد والمذلة(١٠٧)، وقد ذكر المسعودي هذه الرواية بطريقته الخاصة "قال أهل الأثر إن نوحاً عليه السلام دعا عليه (على حام) بتشويه الوجه وسواد وأن يكون ولده عبيداً لولد سام"(١٠٨)، كما يذكر الدمشقي روايتان حول ذلك "ذكر أهل الآثار أن السبب في سواد أولاد حام أنه أصاب (أي حام) امرأة في السفينة (سفينة نوح)، فدعا عليه نوح أن يغير الله نطفه فجاءت بالسودان. وقيل أنه (أي حام) أتاه فوجده نائماً وكشف الريح عورته، وذكر ذلك لأخويه سام ويافث فنهضا وستراه وهما مديران وجوههما حتى لا يريا سوءته، فلما علم نوح بذلك قال: ملعون حام ومبارك سام ويكثر الله يافث"(١٠٩)، إلا أن هذا التفسير وجد اعتراضاً من المؤلفين المسلمين، فقد نقد ابن خلدون "أسطورة اللون هذه، وربطه بالنمط السلالي بعد إضافة سخط ذي مصدر ميتافيزيقي إليه، وذلك بمعارضته بالعامل المناخي، قائلاً: (وقد توهّم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت من أبيه ظهر أثرها في لونه، وفيما جعل الله من الرق في عقبه، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام.. وفي القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء، وفيما يتكون فيه من الحيوانات، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني)"(١١٠).

وذهب الجاحظ في الاتجاه نفسه حينما قال "إن الله لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ولكن البلد فعل بنا ذلك، والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سود كبني سليم بن منصور وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود"(١١١). وقد أتى نقد آخر استناداً على المعايير الدينية، مثل الشريف المرتضى في قوله "فأما الأدمة فليس تؤثرها الشمس على الحقيقة في وجوهنا وأبداننا، وإنما الله تعالى هو المؤثر لها وفاعلها بتوسط حرارة الشمس"(١١٢)، وأيده في ذلك ابن الجوزي "فأما ما يروى من أن نوحاً انكشفت عورته ولم يغطها حام فدعا عليه بالسواد... فشيء لا يثبت ولا يصح"(١١٣)، ويؤكد جلال الدين السيوطي على هذا المعنى بالعودة إلى الحديث النبوي "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، والحزن والخبيث والطيب"(١١٤).

هـ- تضاريس يلفها الغموض

---

(١٠٧) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، سفر أول، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، دون تاريخ، ص٤١.

(١٠٨) المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، مجلد أول، دار الأندلس، ط٢، بيروت، ص٨٦.

(١٠٩) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٦.

(١١٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص٨٣-٨٤.

(١١١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج١، كتاب فخر السودان، المصدر السابق، ص٢١٩.

(١١٢) د.عبده بدوي: السود في الحضارة العربية، المصدر السابق، ص٢٠.

(١١٣) المصدر نفسه، ص٢٠.

(١١٤) السيوطي، رفع شأن الحبشان، المصدر السابق، ص١٤١.

اكتنف تضاريس إفريقيا السوداء وتلافيفها الداخلية الكثير من الغموض، وتلونت نظرة العرب إليها بمزيج من عرض الوقائع والتخمين وإبراز بعض جوانب العجيب والغريب، فاختلطت -في عرضهم لبعض ظواهرها أحياناً- الوقائع بالسرد الأسطوري، وبخاصة فيما يخص تصورهم لأنهار القارة التي تخيلوا أنها تتفرع كلها عن نهر النيل، وكذلك راودهم اعتقاد أن جبل الندامة أو القمر الذي تخيلوا أنه في أقصى العمران الجنوبي للقارة السوداء إنما هو امتداد لـ"الجبل الكوني" الذي يخترق الربع المعمور من الأرض، ويمر من شرق إفريقية إلى غربها حتى وصوله إلى جبل القمر أو جبل الندامة، وبدت لهم تضاريس القارة وكأن الرمال تتجاور مع النخيل، والحيوانات الغريبة إلى جانب الذهب الذي تخيله بعضهم مثيلاً للنبات ينمو في الأرض ويتكاثر بها.

البحث عن النيل:

لا شك أن العرب ورثوا بعضاً من المعتقدات اليهودية المسيحية التي تنظر إلى النيل على أنه ينبع من الجنة، حيث أسهم اطلاعهم، على هذه الاعتقادات المسيحية-اليهودية، في التأثير على تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية بطريقة تتوافق مع تلك المعتقدات، وسمح ذلك بتداول أحاديث نبوية تبدو في أغلبيتها (موضوعة) من قبل بعض الرواة والمفسرين تبريراً منهم لاقتباس اعتقاد (أهل الكتاب) عن أصول النيل.

فقد أعطى بعضهم تفسيراً لبعض الآيات القرآنية تجعل من النيل نهراً مقدساً وينبع من الجنة، كالآية ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني﴾ (القصص: ٧)، والآية الأخرى القائلة على لسان فرعون ﴿يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ (الزخرف: ٥١).

وعلى هذا الأساس تداول بعض الرواة أحاديث (موضوعة) كالحديث النبوي المروي عن ابن عباس "أنزل الله تعالى من الجنة إلى الأرض خمس أنهر سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل"[١١٥]، كما أن بعض كتاب فضائل البلدان أو فضائل المدن الذين تعرضوا إلى الإقليم المصري قد شاع على ألسنتهم رفع شأن النيل، واستطردوا في رفع شأن فضائله، وهو استطراد غلب عليه الكثير من المرويات التقديسية لهذا النهر العظيم، فيذكر مؤرخ مصر الكبير ابن الحكيم عن كعب الأحبار قوله "أربعة أنهار من الجنة وصفها الله في الدنيا، فالنيل نهر العسل من الجنة، والفرات نهر الخمر في الجنة، وسيحان نهر الماء من الجنة، وجيحان نهر اللبن في الجنة"[١١٦].

واستمراراً لهذا التبجيل، أفرد الجغرافيون والرحالة العرب لنهر النيل قسماً من أبحاثهم نظراً لكونه من أبرز المعالم الجغرافية في القارة السوداء وخاصة بمصر، ولكونه إحدى المظاهر العجيبة في الدنيا التي تذكرهم بعظمة الخالق، وأضافوا إلى تلك المرويات ذلك الجانب الذي اقتبسوه من اليونان بعد أن ترجموا كتبهم، ولا سيما مؤلفات بطلميوس التي هيمنت في ترسيمتها الأساسية على التأليف العربي حتى وقت متأخر للغاية.

إن أول من وصف النيل من الجغرافيين العرب ووضع خارطة له من منابعه حتى مصبه، هو الخوارزمي-أبو جعفر محمد بن موسى (ت ٢٣٢هـ-٨٣٧م) معتمداً بذلك إلى حد كبير على بطلميوس، حيث أشار إلى أن منابع النيل من "جبل القمر"، إلا أنه ذكر ثلاث بحيرات في حين ذكر بطلميوس اثنتين فقط، وأن هناك بحيرتين في المنبع يخرج منها نهر النيل الرئيسي، وقد سمى البحيرة الغربية "البطيحة الأولى" والشرقية "البطيحة الثانية"، وقد جعل مخرج النيل الأزرق ينحدر من أرض الحبشة وتصور أن مصبه إلى الشمال بعيداً من مكان التقائه الحقيقي بالنيل الرئيسي، وقد اعتبر بعض الباحثين أن خارطة الخوارزمي هذه أدق من أية

---

(١١٥) جلال الدين السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج٢، مطبعة الموسوعات، القاهرة ١٣٢٧، ص١٨٠.

(١١٦) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكيم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن، سنة ١٩٢٢، ص١٤٩.

خريطة عربية أخرى للنيل.

وجاء وصف ابن سرابيون (ت ٣٣٤هـ-٩٣٨م) مطابقاً لوصف الخوارزمي، بل منقول عنه، إلاَّ أنه أضاف إليه وصفه لمجرى الفروع السبعة في الدلتا التي ذكرها الخوارزمي دون أن يحدد مجراها، إذ اكتفى بالإشارة إلى أن هذه الفروع هي ما بين الإسكندرية ودمياط، أما ابن سرابيون فقد ذكر أن الفرع الشرقي وهو السابع يصب عند الفرما وهو الأصح[١١٧].

وسمَّى ابن رستة الجبال التي يخرج منها النيل بجبال (الببن) حيث يصب في بحيرتين خلف خط الاستواء[١١٨]، واكتفى اليعقوبي الجغرافي الرحالة والمؤرخ بالقول "بأن النيل يأتي من وراء علوه" وأن مصدر فيضانه هو المطر الذي يهطل في الجنوب أثناء فصل الصيف[١١٩]، إلا أنه يذهب إلى "أن النيل والسند نهر واحد"، وهو يشارك في اعتقاده هذا الجاحظ ومن بعده ابن الفقيه، ولعل مرد هذا الاعتقاد هو الأسطورة القائلة أن النيل وسيحون وجيحون والفرات ينبعان من الجنة، وأيضاً لاعتقادهم أن التمساح لا يوجد إلا في نهر النيل ونهر السند[١٢٠]. ولهذا أتى نقد المسعودي لاعتقاد الجاحظ هذا بقوله "وقد زعم عمر بن بحر الجاحظ أن مهران الذي هو السند من نيل مصر، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيها، وذكر ذلك في كتابه المترجم.. بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، وهو كتاب في نهاية الغثاثة لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر في الأسفار، ولا نقر المسالك والأمصار، وأنما كان حاطب ليل ينقل من كتب الوراقين"[١٢١].

ونلاحظ ابن الفقيه الذي استهوته قصص العجائب روى الأحاديث المنسوبة إلى النبي، والقائلة أن النيل ينبع من الجنة، وينفرد بالإشارة إلى أن النيل ينبع من الأطلسي-البحر المظلم.

ولقد روى المقدسي حكاية مفادها، أن عمرو بن العاص عند فتحه مصر رأى الناس فيها يعتقدون أنه من الضروري لجريان النيل أن يقدموا في يوم موعود من كل عام فتاة بكر يرضوها ويجعلوا عليها الحلي والحلل والثياب في أفضل حال، ثم يلقوها في النهر قرباناً لدوام جريانه في هذا الفصل، وعندما أتى وجهاء مصر يطلبون الإذن من عمرو بن العاص ليمارسوا هذا التقليد في موعده، قال عمرو: إن هذا أمر لا يكون أبداً في الإسلام، والإسلام يهدّم ما قبله" فعظم الأمر على المصريين وهمُّوا -كما تتحدث الرواية- بالهجرة خوفاً من وقف تدفق ماء النيل، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستشيره، فأيده الخليفة في عمله وكتب له قائلاً "إنك قد أصبت، وإني قد بعثت إليك بطاقة داخل كتابي هذا، فألقها في النيل"، وعندما فتحها ابن العاص وجد فيها "من عبد الله عمر إلى نيل مصر، أما بعد.. فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله العزيز الغفار الواحد القهار هو الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك"[١٢٢]، فألقى ابن العاص رسالة عمر في النيل قبل اليوم الموعود بيوم "وقد تهيأ أهل مصر للجلاء" إلا أنهم أصبحوا في اليوم التالي "وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة"[١٢٣].

---

(١١٧) أحمد سوسة: الشريف الإدريسي، الباب الثاني، نقابة المهندسين العراقيين، مكتبة جهري، بغداد ١٩٧٤، ص٤٠٧.

(١١٨) ابن رستة، المصدر السابق، ص٩٠.

(١١٩) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب اليعقوبي: كتاب البلدان (يلي كتاب الأعلاق النفيسة)، مطبعة بريل، ليدن ١٨٩٢، ص٣٣٩.

(١٢٠) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ابن الفقيه)، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن ١٣٠١هـ، دار صادر- بيروت، دون تاريخ، ص٦١.

(١٢١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٩٩.

(١٢٢) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٦٥. وأيضاً، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ١٩٠٦، دار صادر-بيروت، دون تاريخ، ص٢٠٧.

(١٢٣) المصدر نفسه.

وقدم الأسواني في رحلته -في القرن العاشر الميلادي- معلومات وافية، إذ وصف مجرى النيل جنوب مصر حتى مدينة الخرطوم الحالية، وذلك في كتابه "أخبار النوبة وعلوة وبجة والنيل" والذي لم يصلنا منه إلاً ما دونه المقريزي عنه في (خططه)، حيث نلحظ وصفه لمجرى النيل والجنادل الثلاثة التي تعترضه وتفاوت عرضه وانعطافه "بين دنقلة وعلوة إلى مطلع الشمس"، كما يتعرض لوصف روافده السبعة التي تأتي ستة منها من المشرق، ويأتي سابعها من المغرب، فهو يتشعب إلى تلك الأنهر السبعة في بلاد النوبة، عند قرية (الأبواب) التي من عندها يأتي نهر من المشرق.. ثم يأتي النيل الأبيض من (ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن)، يخرج من جبال الرمل وينصب إلى ما لا يُعرف.. ثم هناك النيل الأخضر (= الأزرق)، يأتي من القبلة مما يلي الشرق شديد الخضرة.. ويصب النيل الأبيض بالنيل الأخضر، ويشكلان فيما بينهما جزيرة "لا يعرف لها غاية وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية"(١٢٤). ولعل ابن سليم الأسواني هو "أول من ربط بين النيل والنيجر"(١٢٥)، وأورث هذا الاعتقاد لغيره من المؤلفين العرب.

نجد الغموض يلف معلومات أصحاب المدرسة الجغرافية العربية، كالأصطخري وابن حوقل والمقدسي في القرن العاشر، عن منابع النيل ومجراه، ويعبر ابن حوقل الذي قضى ثلاثين عاماً في الترحال في كتابه "صورة الأرض" عن حيرته "وماء النيل فلا يعلم أحد مبتدأه، وذلك أنه يخرج من مفازة وراء أرض الزنج لا تسلَك، حتى ينتهي إلى حد الزنج، ويقطع مفازة النوبة وعماراتهم فيجري لهم في عمارات متصلة إلى أن يقع في أرض مصر"(١٢٦)، ثم أنه يشير معتمداً على معارفه ومعارف الأصطخري إلى "أنه يخرج وراء بلاد الزنج (= موزامبيق والصومال)، وقد رأيت في رسالة جغرافية أن مبدأ النيل بطيحتان (= بحيرتان) مدورتان يصب إلى كل واحدة خمسة أنهار من جبل القمر، ويخرج من هاتين البطيحتين من كل واحدة أربعة أنهار إلى بطيحة مدورة في الإقليم الأول.. ثم يخرج من هذه البطيحة نهر هو نيل مصر، ويصب إليه نهر يجري من عين يخرج من خط الاستواء.. ويأتي إلى قرب من بلد النوبة، فينقسم قسمين يصب أحدهما إلى النيل.. والثاني مصبه في الإقليم الثاني.. ثم يمتد ولايزال ينعطف انعطافات كثيرة... حتى يأتي إلى أسوان ثم يمر إلى مصر.. ثم ليتفرق من مصر في سبعة خلجان إلى البحر"(١٢٧).

ويفتتح المسعودي سرده لأخبار النيل بالقول "ونهرها النيل من سادات الأنهار وأشراف البحار لأنه يخرج من الجنة، على حسب ما ورد به خبر الشريعة"(١٢٨)، ويعاود الحديث على أن منبعه "من عين تخرج من جبل القمر"(١٢٩)، وهذا الجبل يقابل ما يُعرف اليوم بجبل (كلمنجارو)، ويحدد موقعه خلف خط الاستواء بسبع درجات ونصف أو بمئة فرسخ وواحد وأربعين فرسخاً، ما يقارب أربعمائة ميل وخمسة وعشرين ميلاً، ثم يتشعب إلى عشرة أنهر تصب كل خمسة منها في بحيرة، التي يخرج منها نيل مصر، ويقدر طول النيل من منبعه إلى مصبه بحدود ألفين ومائتين وخمسة وأربعين ميلاً(١٣٠).

ويشير إلى أن فرع النيل يخترق "أرض السودان مما يلي بلاد الزنج (= زنجبار) يتشعب منه خليج ينصب إلى بحر الزنج" ويشير إلى أن "جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين، وهم من

---

(١٢٤) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (خطط المقريزي)، ج١، مكتبة المثنى بغداد، دون تاريخ، ص١٩٠-١٩٢.

(١٢٥) محمد حمدي المناوي: نهر النيل في المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦، ص٤٢.

(١٢٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٣٨.

(١٢٧) المصدر نفسه، ص١٣٩.

(١٢٨) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٣٤٠.

(١٢٩) المسعودي، التنبيه والإشراف، القسم الأول، المصدر السابق، ص١١٥.

(١٣٠) المصدر نفسه.

أرباب المراكب، أنهم يشاهدون في هذا البحر (= بحر الزنج) في الوقت الذي تكثر فيه زيادة النيل بمصر، أو قبل الأوان بمدة يسيرة، ماء يخترق هذا البحر ويشقه من شدة جريانه يخرج من جبال الزنج، عرضه أكثر من ميل عذباً حلواً"[١٣١]، ولعل هذا النهر أحد أنهار كينيا أو تنزانيا أو حتى نهر الزمبير[١٣٢].

وكان البكري في القرن الحادي عشر الميلادي أول من دوَّن -ربما بعد الأسواني- معلومات تشير إلى ربط النيل بنهر النيجر حيث سماه نيل غانة، وانتقل هذا الرأي من المؤلفات العربية إلى المؤلفات الأجنبية، وربما تسربت هذه الفكرة أكثر ما تسربت عن طريق الإدريسي في القرن الثاني عشر الميلادي، حيث شارك البكري في ربطه بين نهر النيجر ونهر النيل، وجعل مخرجهما من بحيرة واحدة، فذاع هذا الخلط بعدها في المصنفات الجغرافية العربية، وقد أطلق اسم "نيل السودان" على النيجر، مخالفاً بهذه النقطة بطلميوس الذي جعل لنيل غانة منبعاً آخر غير البحيرات التي يتدفق منها النيل، حيث يقول الإدريسي "وفي هذا الجزء (الجزء الرابع من الإقليم الأول) افتراق النيلين، أعني نيل مصر الذي يشق أرضها، وجريه من الجنوب إلى الشمال.. والقسم الثاني من النيل يمر من جهة المشرق إلى أقصى المغرب، وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان، وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر"[١٣٣]، ويقرر أيضاً "أن جرية النيل من مبدأه إلى مصبه في البحر الشامي (= البحر الأبيض المتوسط) خمسة آلاف ميل وستمائة ميل وأربعة وثلاثون ميلاً"[١٣٤].

ويتفق مع سابقيه في تقرير أن منبع النيل من جبل القمر، وأنه يتدفق من عشرة عيون تصب في ثلاث بحيرات بطائح، الغربية منها سماها البطيحة الصغرى ويقابلها اليوم بحيرة (ألبرت)، والبطيحة التي يسميها الكبرى وهي الوسطى، ويقابلها ما يُعرف اليوم ببحيرة (فكتوريا)، والبطيحة الصغرى الشرقية التي تسمى اليوم ببحيرة (كيوجا)، فيقترب بهذا الوصف من تشخيص الخوارزمي.

أما الفرع الشرقي الذي ينحدر من أرض الحبشة والمعروف اليوم بـ(النيل الأزرق) والذي ذكره الخوارزمي، فقد جعل الإدريسي منبعه من بحيرة تقع في أرض الحبشة أي بحيرة (تانا) الحالية، وجعل مصبه جنوب أسوان قريب جداً من ملتقاه بالنيل وسماه (نهر حارود)[١٣٥].

وتبنى ابن سعيد المغربي ترسيمة الإدريسي حول منبع النيل والبطائح-البحيرات، وتحدث عن نهر مقديشو الذي يمر تحت البحيرة الثانية ويسميه (نهر مقديشو) يصعد حتى عرض إحدى عشر درجة ثم ينحدر على شرقي بربرا ثم ينحدر على شرقي مقديشو[١٣٦] على البحر الهندي، ويعتقد البعض أن الخصائص التي ينسبها ابن سعيد إلى "نيل مقدشو" تنطبق على نهر دينوق Denog، أو على نهر جوب Djoub، بينما اعتبر مارسيل دوفيك Marcel Dovic، أن هذا النهر هو المعروف الآن بـ"وادي دينوق" وهو لا يصل إلى البحر، بينما يعتقد إسماعيل العربي المحقق لكتاب ابن سعيد، أن وصف ابن سعيد ينطبق على نهر جيبا Guiba[١٣٧]، ولكن من المهم التنويه هنا أن نسبة نهر مقدشو إلى النيل يظهر وكأن أنهار إفريقيا كلها تنتسب إلى نهر النيل أو تنبع معاً من جبل القمر أو من البطائح المتجمعة عن ينابيعه، وهو ما يظهر في نسبة نيل مصر ونيل مقدشو إلى بحيرة كوري (= بحيرة تشاد) وذلك عندما

---

(١٣١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٩٨.

(١٣٢) ميكيل، جغرافية الإسلام البشرية، ج٢، القسم الثاني، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٥، ص٢٣٢.

(١٣٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٣٢.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص٣٤.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص٣٤-٣٥. راجع أيضاً، سوسة، المصدر السابق، ص٤٠٨.

(١٣٦) أبي الحسن علي بن موسى (ابن سعيد المغربي): كتاب الجغرافيا، حققه إسماعيل العربي، منشورات المكتبة التجارية، بيروت ١٩٧٠، ص٨١.

(١٣٧) المصدر نفسه، تعليق المحقق، ص٢١٤.

يقول "وبحيرة كوري يخرج منها نيل مصر ونيل مقدشو ونيل غانا.. وطولها (بحيرة كوري) ألف ميل، ووسعها عند الرأس تسع درجات ونصف"[١٣٨].

لا يختلف الدمشقي في إرجاعه النيل إلى منابعه في جبل القمر، إلا أنه جمع ما بين النيل الشرقي الذي ذكره المسعودي والنيل الغربي الذي ذكره البكري والإدريسي "فمسافة ما بين النهر الشرقي الأقصى والنهر الغربي الأقصى منها نحو خمسة عشر يوماً، وتصب جملتها في بطيحتين"[١٣٩]، وينبعث من كل بحيرة أربعة أنهار.. تصب في جملتها "في بحيرة طويلة واسعة تسمى بحيرة الجاووس والجامعة وتسمى بحيرة كوري"، لعله يقصد هنا بحيرة فكتوريا التي يخرج منها "ثلاثة أنهار كبار أحدهم يجري إلى جهة المغرب وهو نهر غانة، والثاني يجري جهة المشرق ويلتوي إلى جهة الجنوب وهو نهر الدمادم (= Dem Dem) ومقدشو الزنج، والثالث نهر النوبة ويسمى النيل وجريه في الشمال حتى يصب إلى البحر الرومي، كما يصب نهر الدمادم في بحر الجنوب، ويصب نهر غانة في المحيط الغربي"[١٤٠].

ولقد ساد الاعتقاد لدى المؤرخين والجغرافيين العرب بأن نهر السنغال هو نهر النيجر، كم ذكر ابن بطوطة بأن نيل مصر (ويقصد نهر النيجر) يتجه من الغرب إلى الشرق، ثم أكد على هذه الواقعة ليون الإفريقي (الوزان) أيضاً، بينما كان أول من أكد هذه الحقيقة من المستكشفين الأجانب الاسكتلندي مونفو بارك I.N.L.Baker، في عام ١٧٩٥[١٤١].

ويحدثنا العمري في القرن الرابع عشر الميلادي عن رواية تشير إلى وصول بعض العرب إلى قرب منابع النيل ورؤيتهم الجبال التي بها منابعه، وأن غيرهم وصل إلى بحيرة النيل الثانية[١٤٢]. إلا أنه يعترف بأن "الشائع على ألسنة الناس، أن أحداً ما وقف على أدلة بالمشاهدة، وإنما غالب ما يقال في هذا -والله أعلم- مما أظهره نظر العلم لا نظر العيان"[١٤٣].

ويذهب أبو الفداء في المعنى نفسه "ولم يتصل بنا من أخباره (= أي بدايات النيل) إلا ما نقِل عن اليونان ونسب إلى بطلميوس"[١٤٤]. أما جلال الدين السيوطي فقد أشار إلى "أن كل الأنهار يوقف على منبعه وأصله، والنيل لا يوقف له على أصل منبعه"[١٤٥]، وعلى هذا فقد استثار البحث عن مصدر ماء النيل، ومنبعه خيال المؤلفين العرب وتخمينات، فانتشرت القصص العجيبة حوله، قصص هي مزيج من المغامرات والأساطير؛ فيروي العمري رحلة ذلك الرجل العربي إلى منابع النيل، وهو أحد أمراء الموحدين في المغرب، وذلك إلى البحيرة الثالثة[١٤٦]، وإن صح ذلك يكون أول عربي وصل إلى منابع النيل. ويروي أيضاً قصة شبه خرافية عن وصول أناس إلى جبل القمر، ومفادها أن هؤلاء صعدوا الجبل فلاحظوا أنه كلما تقدم منهم واحد ضحك وصفق بيديه وألقى بنفسه إلى ماوراء الجبل، فخاف البقية أن يصيبهم مثل ذلك فرجعوا[١٤٧]. وقصة أخرى عن أناس صعدوا الجبل "فرأوا ماوراءه بحراً عجاجاً، ماؤه أسود كليل

---

(١٣٨) المصدر نفسه، ص٩٤.

(١٣٩) الدمشقي، المصدر السابق، ص٨٨.

(١٤٠) المصدر نفسه، ص٨٩.

(١٤١) شهاب الدين أبو العباس ابن فضل الله أحمد بن يحيى بن محمد الكرماني (العمري): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج١، نشر أحمد زكي، مطبعة الكتب، القاهرة ١٩٢٤، ص٦٨-٧٠.

(١٤٢) المصدر نفسه، ص٧١.

(١٤٣) عماد الدين إسماعيل بن محمد (أبو الفداء): كتاب تقويم البلدان، طبع مدينة باريس ١٨٥٠، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص١٥٣.

(١٤٤) السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج٢، المصدر السابق، ص١٨٧.

(١٤٥) العمري، المصدر السابق، ص٧١.

(١٤٦) المصدر نفسه.

(١٤٧) المصدر نفسه، ص٧٧.

يشقه نهر أبيض كالنهار، يدخل الجبل من جنوبه ويخرج من شماله"[١٤٨].

لقد تشكلت في الخيال قصصاً لملء الفجوات المعرفية عن هذا العالم الجنوبي المجهول، بالإضافة إلى تلك التصورات النامية عن المفاهيم الإقليمية-الفلكية عن حافة العالم المعمور في أقصى الجنوب، وانتقل هذا التخمين إلى الأدب الشعبي، وهو ما نجده في سيرة "سيف بن ذي يزن" التي ظهرت في العهد المملوكي، وهي ملحمة تدور حول رحلة متخيلة لـ(سيف) إلى منابع النيل، فأتى سردها مليء بالخوارق والسحر، وتجري أحداثها في جبال القمر وفي المنطقة المحيطة به[١٤٩].

ولقد أطلق العرب على الجبال التي تتدفق منها منابع النيل "جبل القمر"، وقد أعاد المسعودي هذه التسمية "القمر" لتأثير القمر في الجبل عند زيادته ونقصانه من النور والظلام، أما ابن خلدون فقد نسبه إلى القمر لشدة بياضه وكثرة ضوئه[١٥٠]، بينما اعتبره المقريزي في (خططه) أنه يوجد في بحر الزنج جزيرة يطلق عليها جزيرة القُمر- بضم القاف لعلها جزيرة مدغشقر- طولها أربعة أشهر في عرض عشرين يوماً، لها عدة بلاد منها (قمرية)، وبعد أن ضاقت الجزيرة بأهلها اتجه قسم منهم إلى سفح الجبل الذي يقال له جبل القمر، وينصب منه نهر النيل[١٥١].

وتحدث بعض الجغرافيين العرب عن جبل كوني يخترق القسم المعمور من الأرض يتصل بالنهاية بجبل القمر، ولقد ذكر ابن رستة منذ القرن التاسع الميلادي "أن حول الأرض جبلاً محيطاً بالأرض" وأن الشمس "تطلع من حد ذلك الجبل في وقت واحد وساعة واحدة.. وتستدير في مغيبها حول الجبل، وأن الجبل هو الساتر لها عن أهل الأرض من حيث تغرب إلى أن تطلع من المشرق"[١٥٢]. ويعطينا ابن الفقيه صورة عامة عن هذا الجبل الكوني الذي يبدو له هائل الاتساع والغموض، تحف به الأمم؛ إلا أن ابن حوقل يفصِّل في تعقب حلقات تلك السلسلة الجبلية الكونية، التي تبدأ من الشمال الشرقي فوق جبل القبق (القوقاز)، وتنتهي جنوباً إلى (جبل القمر)، فيذكر أنه جبل "على وجه الأرض أوله من بلد الصين خارجاً من البحر المحيط.. ويقطع بلاد التبت" ..ويمر على فرغانة إلى جبل البتم، ثم إلى سمرقند.. ويقطع نهر جيحون.. ويتصل به جبال جرجان وطبرستان إلى الري.. ويتصل بجبال الديلم وجبال أذربيجان والقبق واللان وبلاد الروم.. وجبال أصبهان إلى أن يصل بحر فارس.. وإلى دجلة بناحية تكريت، فيكون منه جبل بارما.. وجبل زامر شرقي الموصل، ويتشعب إلى جبال أرمينية الخارجية التي تتصل بجبل القبق.. ثم يستمر إلى أن يصل بيت المقدس من جبال لبنان، ثم يمر على جبل المقطم في مصر، ويتصل بجبال النوبة.. وتمضي شعبته الغربية إلى جبال برقة إلى جبال نفوسة إلى فزان وزويلة، ثم لايزال هذا الجبل يظهر "مستحجراً وفي مواضع جبال رمل ودهس حتى سجلماسة" ويغوص في تلك البراري إلى أودغست والبحر المحيط.

وفي خط آخر يذهب من جبال النوبة على جنبتي النيل إلى قلعيب من جانب النيل الشرقي، وإلى جبل القمر من جانب النيل الغربي[١٥٣].

بالإضافة إلى هذا الجبل الكوني الذي يتفرع في القارة من كل الجهات، ويتبدى أحياناً في صورة رمل متحجر أو رمل متناثر، كان هناك شعور غامض بوحدة القارة السوداء يغمر المؤلفين العرب، تجلَّى لهم من مشاهد الانبساط الهائل للصحاري والقفار التائهة في قلب القارة وأطرافها، حتى أنهم يُسمّون مناطق جنوب

---

(١٤٨) فاروق خورشيد: أديب الأسطورة عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت أغسطس ٢٠٠٢، ص٤٨-٥٠.

(١٤٩) المصدر نفسه.

(١٥٠) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص٤٨.

(١٥١) المقريزي، الخطط، المصدر السابق، ج١، ص٥١.

(١٥٢) ابن رستة، المصدر السابق، ص٢٢.

(١٥٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٥٦-١٥٧.

الصحراء الكبرى: مناطق الساحل نسبة إلى اعتبار الصحاري نفسها كالبحار الهائلة الاتساع.

واقترنت بلاد السودان عند المؤلفين العرب بالعديد من الظواهر المميزة، كتكاثر الذهب إلى درجة هائلة جعلهم يتخيلون أن الذهب ينبت هناك ويتطاول كالنبات، ولم يقتصر هذا الاعتقاد على العامة، بل نشره بعض الكتاب الكبار فابن الفقيه في القرن العاشر الميلادي يؤكد لنا أن بلاد غانة ينبت فيها الذهب في الرمل "كما ينبت (الجزر)، ويقطف عند بزوغ الشمس"[١٥٤]. كما يحدثنا اليعقوبي -وهو المعاصر لابن الفقيه- عن كثرة معادن الذهب والفضة في بلدة تامدلت التي على أطراف بلاد السودان المحاذية للصحراء الكبرى، حيث يوجد هناك "كالنبات، ويقال أن الرياح تسفيه"[١٥٥]، ويكرر ياقوت الحموي المعنى نفسه بشأن الذهب في بلاد السودان.

واقترن معدن الذهب عند الدمشقي ببلاد السودان، وذلك لما تتميز به من حرارة مناسبة لطبخه ولمنع اختلاط الفساد فيه، وهو ما لا يتوفر في الإقليم الرابع المعتدل، لأن "معدن الذهب لا يكون إلاَّ في البراري الرملية والأحجار الرخوة، ومن أحجاره ومعادنه البرام والمرمر والرمال والزعفرانية اللون ذات البصيص الذهبي"[١٥٦]. ولما كانت بلاد السودان بما فيها بلاد غانة وزغوا وسمقرا وتكرور والحبشة، إلاَّ القليل، خالية من الملح عارية من السبخات "كانت معادن الذهب كثيرة بها لسلامة المعدن من الطعوم المفسدة، لأن الحرارة هناك مستولية دائمة الطبخ من غير برد.. لهذا لا يكاد يوجد معدن الذهب في الإقليم الرابع"[١٥٧].

ولقد روى لنا العمري التفاصيل الكاملة لرحلة سلطان مالي (منسا موسى) إلى القاهرة في طريقه للحج إلى مكة المكرمة، والتي سنعود لها لاحقاً، حيث يروى على لسان السلطان المالي نفسه قصة نبات الذهب في بلاده وعلى أن هناك نوعين من النبات ينتج الذهب، أولها ينبت في الربيع وينمو في الصحراء في أعقاب سقوط المطر، وهذا النوع لا يعتمد عليه لندرة سقوط الأمطار في الصحراء، أما الثاني فينمو على ضفاف النيل -ولعله يقصد النيجر- وينبت طوال العام ويظهر على أشده في شهر أغسطس/ آب من السنة حيث تصبح الحرارة بذروتها.

ولعل هذه الحكايات والقصص كانت منتشرة على نطاق واسع خاصة بين التجار، على الأقل لأن هؤلاء التجار لم يُسمح لهم معرفة الأمكنة التي يوجد فيها الذهب لحرص أصحابه السودانيين ولا سيما في الجنوب على إخفاء مصدر بضاعتهم النادرة والتي هي سبب ثروتهم وغناهم ووسيلتهم الأولى للتبادل مع العالم الخارجي.

و- إفريقيا السوداء في مصنفات الجغرافية والرحلات العربية الوسيطة

دخل "السودان" نطاق التأليف الجغرافي والرحلي العربي، منذ ظهور هذا التأليف في القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي، وعلى الأخص منذ القرن الثالث الهجري-التاسع الميلادي، والذي كان بحق عصر انبثاق الجغرافية العربية التي نُفذت بالأسلوب العلمي، وتجمعت فيه الوقائع التجريبية التي حصل عليها الرحالة

(١٥٤) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٨٧.
(١٥٥) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٥٩.
(١٥٦) الدمشقي، المصدر السابق، ص٥٠.
(١٥٧) المصدر نفسه، ص٥٠.

فـي تجـوالهم؛ وترافـق ذلـك بظهـور الترجمـات التـي غـذت سلسـلة الجغرافيـة العلميـة، وتفرعـت فيـه المشـارب والأنماط المتعددة للجغرافية البلدانية والفلكية، إلى أن ظهرت المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العـرب فـي القرن العاشر الميلادي، التي تميز أصـحابها بجمعهـم بـين التبويـب الجغرافـي، وكـونهم رحالـة يعتمـدون علـى المشـاهدة المباشرة وعلى الاستقصاء من الشهود المباشرين في تدوين معرفهم. ويتفق الكثيـر مـن البـاحثين علـى أن الرحلـة العربيـة بقصـد التجـارة فـي البحـار المختلفـة شكلت أحـد أهـم عوامـل الاهتمـام بالمعرفـة الجغرافيـة والتاريخيـة والإثنوغرافية للشعوب البعيدة، أو التي كانت مجاورة لبلاد الإسلام. إلـى أن نضـج التـأليف الجغرافـي فـي القـرن التاسـع المـيلادي، بعـد أن اغتنـت المعرفـة الجغرافيـة بالترجمـات عـن اليونانيـة والفارسـية والهنديـة، وبالوقـائع والمعلومات التي جمعها الرحالة العرب في ترحالهم.

ولقد مرَّ التأليف الجغرافي والرحلي حول إفريقيـا السـوداء بعـدد مـن المراحـل فـي العصـر الوسـيط، يمكننـا تبويبها (نظرياً) وتـاريخياً علـى الشكل التالي:

١- تبدأ مرحلتها الأولى منذ بداية هذا التأليف وحتى نهاية القرن الثالث الهجـري- التاسـع المـيلادي، وقـد سـجل يوسـف كيـورك J.Cuorq، قرابـة أربعـة وعشـرين اسـماً عربيـاً مـا بـين القـرنين الثـاني والرابـع الهجـريين، ضـمت فـي مؤلفاتهـا إشـارات مهمـة عـن إفريقيـا السـوداء[١٥٨]، وقـد تنـازع التـأليف الجغرافـي العربـي -فـي تلـك الأثنـاء- مـيلان أو اتجاهان مدرسيان، ومنهجان؛ اتجاه الجغرافية الرياضية - الفلكية الـذي ظهـر فـي نهايـة القـرن الثـامن المـيلادي - بدايـة القرن التاسع المـيلادي، نتيجـة تـأثر المـؤلفين العـرب بـالعلوم الهنديـة والفارسية أولاً، ثـم بـالترجمـات عـن اليونانيـة ولا سيما مؤثرات شخصية بطلميوس Ptolemaeses بمصنفاته الجغرافيـة الفلكيـة، فوضـعوا إفريقيـا السـوداء تبعـاً لنمـوذجهم الجغرافي الفلكـي عـن العـالم المعمـور، فـي سـياق تقسيمهم للكـرة الأرضـية حسـب خطـوط للطـول وللعـرض وهميـة، حددوا بها أقاليم العالم المعمور، التي تعطي بدورها، تبعاً لموقعهـا الفلكـي، مواصـفات خاصـة ببيئـة هذا الإقليم أو ذاك. وعلـى هـذا الأسـاس ظهـرت سلسـلة مـن الجغـرافيين الفلكيـين العـرب، بـدأت مـع "محمـد بـن موسـى الخـوارزمي" (ت ٢٣٢هـ-٨٤٦م) صـاحب "صـورة الأرض"[١٥٩].

أما الاتجاه الآخر الذي يمثل خط الجغرافية العربية-الإسلامية بحق، فهو خط "المسالك والممالك"، أو نمـوذج التصـنيف (البلدانـي)، وهو خط قائم على المشاهدة والرحلات، وسؤال أهل البـلاد أنفسـهم عـن أحـوالهم؛ وبـدوره ارتـبط هذا الاتجاه بالتاريخ، فكان أغلب الرحالة أو الجغرافيين، في الأندلس والمغـرب، مـؤرخين دمجـوا معطيـاتهم الجغرافيـة أو الرحلية بالتـاريخ، وبالمكـان والزمـان، لـذا لـيس بغريـب أن يكـون المـيلاد الحقيقـي لهـذا النـوع مـن التـأليف هـو نفسـه ميلاد التاريخ العالمي عند العرب، وهو ما جسده اليعقوبي أحمـد بـن يعقـوب بـن واضـح الكاتـب (ت ٢٩٢هـ-٨٩٥م)، الذي جمع بين تأليفه لأول تاريخ عالمي عند العرب في "تاريخ اليعقوبي" وتصنيفه لكتابـه الجغرافـي "كتـاب البلـدان"، الذي جمع بين الجغرافية والتاريخ واعتماد المشاهدة. حيث استند هـذا الاتجـاه علـى الـرحلات ومـا جمعـه أصـحابها مـن معلومات عن طريق المشاهدة المباشرة، والذي تفرع وتطور منه أيضاً أدب الرحلات[١٦٠].

وعلى قاعدة المنهج الأول "الفلكي" ظهر العديد من المؤلفات الجغرافية، تنحو منحى كتابي بطلميوس في "المجسطي" و"الجغرافية"، كان أبـرز روادهـا العـرب الخـوارزمي، ثـم يعقـوب الكنـدي (ت ٢٦٠هـ-٨٧٣م)، ثـم سـهراب (القـرن الثالـث الهجـري - التاسـع المـيلادي)، والبتـاني (التاسـع المـيلادي)، والبيرونـي (الحـادي عشـر

---

(١٥٨) أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني - إمبراطورية مالي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٩، ص٢١.

(١٥٩) حسـين مـؤنس: تـاريخ الجغرافيـة والجغـرافيين فـي الأنـدلس، مكتبـة مـدبولي، ط٢، مصـر ١٩٨٦، ص٥. وراجـع كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص١٨.

(١٦٠) مؤنس، المصدر السابق، ص٨-٩.

الميلادي)؛ الذين درسوا إفريقيا السوداء في مناطقها المختلفة وشعوبها تبعاً لموقعها من خط الاستواء، ومن خطوط الطول والعرض، فكان كتاب الخوارزمي "صورة الأرض" عبارة عن جداول فلكية، رتَّب صفحاته إلى ثلاثة أعمدة، يشتمل الأول منها على اسم الموضع، والثاني على خطوط الطول، والثالث على عرضه، وهو ما يبدو أنه كاف لتحديد كل ما يلزم لمعرفة ذلك الإقليم؛ ويبدأ بالمدن ثم بالجبال والبحار ثم بالجزر والعيون والأنهار. ويفتتح أقاليمه في تفحص الإقليم الأول، وهو إقليم الأفارقة السود عند خط الاستواء، وينتهي إلى الإقليم السابع. ويشتمل كتابه أربعة مصورات، أهمها مصور وادي النيل من منبعه جنوب خط الاستواء إلى مصبه في البحر المتوسط[١٦١]. أما "كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة" لسهراب - أبو الحسن بن البهلول (القرن التاسع الميلادي)، الذي قال عن موضوعه "أحببت أن أختصر من جميع كتبهم كتاب يقرب من فهمه، ويسهل العمل به، ولمن أراد صورة الأرض، ووضع المعمورة عليها، واستخراج البحار والمدن والأنهار والجبال والأودية، مع صحيح ما ذكروه من الممالك المشهورة، والطرق الغامضة والبقاع والبوادي المعروفة"[١٦٢].

ويمكن أن يضاف إلى هذا الخط الرياضي-الفلكي التأليف الجغرافي لابن رستة (٣٠٠هـ-٩١٢م)، وابن خرداذبة (٢٨٠هـ-٨٩٢م)، وابن الفقيه (٣٤٠هـ-٩٥١م). لذا فالمعلومات والتخيلات -الجديدة والقديمة- التي قدَّموها عن إفريقيا السوداء ظلت أسيرة الترتيب الإقليمي-الفلكي للعالم المعمور، ولجاذبية العجيب، لهذا لم يكن من المستغرب في شيء أن تكون مسيرة أرض الحبشة-السودان سبع سنين عند ابن خرداذبة[١٦٣]، وأن ينبت الذهب في غانة مثل الجزر كما عند ابن الفقيه[١٦٤].

غير أن المنهجية العربية-الجغرافية المقابلة، والقائمة على المشاهدة، اتجهت وجهت مغايرة لأصحاب المدرسة الرياضية-الفلكية، حيث تجلت في بداياتها في الدراسات "البلدانية" أو في منهجية البحث عن فضائل "المدن" و"البلدان"، وشقَّت طريقها واسعاً في منهج "المسالك والممالك" ثم تتوجت بالمدرسة "الجغرافية العربية الكلاسيكية في القرن الرابع الهجري-العاشر الميلادي على يد الأصطخري (٣٤٦هـ-٩٥٧م) وابن حوقل (ت ٣٦٧هـ-٩٧٧م) والمقدسي (ت ٣٩٠-١٠٠٠م)، والتي اهتمت أساساً بأطلس دار الإسلام، ثم بما جاورها من البلدان[١٦٥]، ويمكن إضافة المسعودي (ت ٣٤٦هـ-٩٥٩م) -المؤرخ والفيلسوف والجغرافي والرحالة الكبير- إلى رموز هذه المدرسة العربية، على الرغم من اهتماماته العالمية بما فيها الشعوب السوداء؛ ويمكن إرجاع إرهاصات تلك المدرسة العربية إلى اليعقوبي في كتابه "البلدان"، وإلى أبي يزيد البلخي (ت ٣٢٢هـ-٩٣٤م)، وربما إلى قدامة بن جعفر (ت ٣٢٥هـ-٩٢٧م).

إن هذه الجغرافية القائمة أساساً على المشاهدة وتجارب الرحالة، والتي كان صاحبها غالباً ما يجمع بين كونه جغرافياً ورحالة في الوقت نفسه، كالأصطخري وابن حوقل والمقدسي، وبعضهم يضيف أحياناً إلى خبراته هذه ميزة كونه مؤرخاً كاليعقوبي والمسعودي، أو يقتصر على تدوين تجارب رحلاته ذاتها باعتباره رحالة وحسب كالسيرافي (القرن العاشر الميلادي) وبرزك بن شهريار (ت ٣٤٠هـ-٩٤٣م) والأسواني (القرن الرابع الهجري)، فقد دوَّن هؤلاء جميعهم اختبارات متنوعة عن إفريقية السوداء التي زاروا بعض أجزائها، كرحلة السيرافي (٣٦٨هـ-٩٧٩م) إلى شرق

---

(١٦١) خصباك، المصدر السابق، ص٤٥٧.

(١٦٢) أبو الحسن بن البهلول (سهراب) القرن التاسع الميلادي: كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة، مطبعة فيينا، سنة ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م، بإشراف مزيك حدة، ص٥.

(١٦٣) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ابن خرداذبة): المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص٩٣.

(١٦٤) أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني (ابن الفقيه): مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٣٠٢هـ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص٨٧.

(١٦٥) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٣٥٩.

إفريقيا، إلى ما يسمى خليج سفالة - الزنج، أو رحلة برزك بن شهريار الذي جال على طول شواطئ إفريقيا الشرقية وسواحل بحر العرب وحول سفالة الزنج (زنجبار Zenzibar) أو ساحل (موزمبيق Mozabique).

في حين كان الأسواني حوالي (٣٥٩هـ/ ٩٦٩م-٣٦٣هـ/ ٩٧٣م) يقوم برحلته الشهيرة إلى بلاد (النوبة Nobatia) وعند قبائل البجة، مبعوثاً للقائد الفاطمي جوهر، ثم ينقل المقريزي عنه -فيما بعد- ما اختبره هناك. كما أن هناك رحلة الوراق-أبو عبد الله محمد بن يوسف (ت ٣٦٣هـ-٩٧٣م) الإفريقية، التي ضاعت بعد أن دوَّنها، ولم يبق سوى ما اقتبسه منها أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧هـ-١٠٩٤م) في كتابه "المسالك والممالك"[(١٦٦)]، وكان الوراق أندلسياً هاجر به أهله إلى إفريقيا الشمالية، واستقر في القيروان، وبها ترعرع وتعلم، واجتذبه بلاط الحكم المستنصر الأموي في قرطبة، فرجع إلى هناك واتصل بالحكم الذي كان معنياً بشؤون المغرب العربي، فكتب له الوراق كتاباً ضخماً "في مسالك إفريقية وممالكها" وأيضاً "أخبار ملوكها الغالبين عليها" و"في أخبار تيهرت ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة...". أما كتابه "مسالك إفريقية.." فقد اقتبس منه البكري الكثير، واعتمد عليه في الجزء الخاص بإفريقية من كتابه "المسالك.."، ولخص ابن عذاري بعض رسائله في "البيان المغرب[(١٦٧)].

إن ما كتبه وحفظه المؤلفون المسلمون من رحلات القرنين الثالث والرابع الهجريين كثيرة، إلاَّ أن الرحالة أنفسهم لم يدونوا جميعهم أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً، كرحلة برزك والسيرافي، أما معظم حوادث تلك الرحلات ومعطياتها فنجدها مبثوثة في كتب التاريخ أحياناً، أو كتب الجغرافية البلدانية؛ وفضلاً على ذلك فإن ثمة معطيات رحلية تركها لنا ملاحون وتجار لم يدونها أصحابها أيضاً، وإن كانت من المصادر التي نقل عنها المؤرخون والجغرافيون الكثير لوصف البلاد النائية بما فيها بلاد السود[(١٦٨)].

ولا يمكن إغفال ما قدمه ابن الحكيم-عبد الرحمن بن عبد الله المصري (ت ٢٧٥هـ-٨٧١م) في كتابه "فتوح

مصر والمغرب" من معلومات وإيماءات عن علاقة العرب بإفريقية السوداء، وإشـ[illegible] لـ"كوار" سنة ٤٦هـ-٦٦٦م، وحملة عبد الله بن أبي عبيدة إلى سواس وأرض السودان سنة ١١٦هـ-٧٣٤م، حيث جرى في تانيك الحادثتين أول الاحتكاكات المباشرة بين العرب وإفريقيا السوداء جنوب الصحراء الكبرى، كما قدَّم لنا اليعقوبي أبو العباس أحمد بن يعقوب المؤرخ والجغرافي والرحالة العربي الكبير، الذي ساح في بلاد الإسلام، ومكَّنه هذا من جمع مادة كتابه "كتاب البلدان" الذي انتهى من تأليفه عام ٢٧٨هـ-٨٩١م، وتخللته إشارات ومعلومات جغرافية وإثنوغرافية عن الصحراء الكبرى وجنوبها بلاد السودان، بالإضافة إلى ما تضمنه (تاريخه) "تاريخ اليعقوبي" من معطيات مهمة عن (مالي) التي ستتحول فيما بعد إلى إمبراطورية مهمة، ونبذة عن الشعوب المجاورة لدار الإسلام في الجنوب، ولا سيما (البجة)؛ وتحدث في هذه الحقبة ابن الصغير في كتابه "أخبار الأئمة الرستميين" عن أول سفارة رسمية ما بين عرب شمال إفريقيا ودول جنوب الصحراء من السودان، وتضمن الكتاب المسمى "عزيزي" الذي ألفه المهلبي (القرن العاشر الميلادي) للخليفة الفاطمي العزيز (ت ٣٧٥هـ-٩٨٥م) معلومات مهمة عن بلاد السودان، اعتمد عليها ياقوت الحموي (القرن الثالث عشر الميلادي) في جغرافيته عن السودان اعتماداً رئيسياً[(١٦٩)].

أما أصحاب "المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية" كالأصطخري وابن حوقل والمقدسي، وعلى الرغم

---

(١٦٦) مؤنس، المصدر السابق، ص٧٥.

(١٦٧) د.أحمد سوسة: الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، الباب الثاني، نقابة المهندسين العراقيين، مكتبة جهرى، بغداد ١٩٧٤، ص٣٤٢-٣٤٣.

(١٦٨) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة-١٣٨)، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٩، ص١٠٥.

(١٦٩) خصباك، المصدر السابق، ص٥٢٨.

من تركيز اهتمامهم البحثي على "دار الإسلام" أو "مملكة الإسلام" إلا أنهم في سياق عرضهم ذاك تحدثوا عن جيران هذه المملكة، فعرجوا على إفريقيا السوداء، وتميزت معلوماتهم حولها بالدقة من جراء اعتمادهم على رحلاتهم أنفسهم، وخاصة أنهم جمعوا بين كونهم مصنفين جغرافيين ورحالة، إذ اعتمدوا على مشاهداتهم، وعلى ما نقلوه من أخبار عن لسان أصحاب البلاد أنفسهم.

وتعتبر محاولة التركيز على "بلاد الإسلام" مع إهمال الأقطار الأخرى خارجها، ميزة أساسية للمدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية، مع حرص على التقيُّد بالمنهج العلمي، ولعل هذا التركيز على "مملكة الإسلام" ناتجاً عن شعور بالثقة الفائضة لدى هؤلاء الجغرافيون بالمركز المرموق الذي تحتله "مملكة الإسلام" بين حضارات العالم القديم، حتى بعد ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف سياسي وتفكك، والذي رافقه ولادة مراكز مدينية كثيرة تنافس دار الخلافة "بغداد" تألقاً وغنى وازدهاراً ثقافياً واقتصادياً. فتحدث الأصطخري وابن حوقل والمقدسي عن عدم اكتراثهم بمعرفة العوالم الأخرى المحيطة بدار الإسلام، الأفارقة السود أو غيرهم من العوالم، فيشير الأصطخري إلى ذلك بقوله "ولم نذكر (بلاد السودان) في المغرب والبجة ومن في أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولا حظ لهم في شيء من ذلك فيستحقون به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك، غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم، ويقاربون أهل هذه الممالك مثل النوبة والحبشة، فإنهم نصارى يرسخون بمذاهب الروم"[١٧٠]. فالأديان والآداب والحكم والعمارات السياسية العادلة هي من المظاهر الكبرى للحضارة عند مؤلفينا، والتي لا يجدونها في إفريقية السوداء سوى في أجزائها التي تقارب ديار الإسلام؛ وقد بسطوا من خلال مقاربتهم تلك الكثير من المعلومات والصور عن بلاد السودان.

الميزة الأخرى للمدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية، هي تخليها عن أسلوب الجغرافية الفلكية في تقسيمها للعالم إلى أقاليم فلكية رياضية؛ وكان البلخي أول من تخلى عن أقاليم بطلميوس السبعة الموزعة على العروض، وأخذ بتقسيم دار الإسلام إلى عشرين جزءاً، وأخذ معنى الإقليم هنا معنى مغايراً للمعنى الذي قصده بطلميوس، إذ قصد البلخي منه كيانات أرضية وبشرية وثقافية؛ وأتى الأصطخري بعد أستاذه البلخي ليقصر أبحاثه على وصف العالم الإسلامي مقسماً إياه إلى عشرين إقليماً، بادئاً كلامه عن الربع المعمور وعن البحار، ووصف جزيرة العرب وفارس والمحيط الهندي والمغرب (مع الأندلس وصقلية) ومصر وبلاد الشام وبحر الروم والجزيرة والعراق وبحر الخزر ثم بلاد ماوراء النهر؛ وأكمل جهد الأصطخري هذا زميله ابن حوقل الواسع الترحال، إذ تجوَّل في صقلية وإفريقية الشمالية والأندلس والصحراء الإفريقية الكبرى، وتعرَّف على سجلماسة وتجارة الذهب والرقيق والملح مع إفريقيا الوسطى، ورفع تقريره هذا إلى سيف الدين الحمداني في عام ٣٥٦هـ-٩٦٧م، واحتفظ بتقسيم الأصطخري العشريني لدار الإسلام.

أما المقدسي فقد قلَّص الرقم إلى أربعة عشر إقليماً، ولعله بهذا كان يستجيب لتقليد هرمس الذي قسَّم العالم المعمور إلى سبعة أقاليم غامرة في جنوب خط الاستواء، يقابلها سبعة معمورة في شماله[١٧١]، فهو يجعل اليابسة من الكرة الأرضية أربعة عشر إقليماً "سبعة ظاهرة عامرة وسبعة خراباً" وذلك "لأن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة، ثم الباقي قد غمره البحر. فالخلق على الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب، والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه، والربعان الظاهران هما الأربعة عشر إقليماً"[١٧٢].

---

(١٧٠) أبي إسحق إبراهيم محمد الفارسي (الأصطخري): المسالك والممالك، تحقيق د.محمد جابر عبد العال الحسيني، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم، القاهرة ١٩٦١، ص١٦.

(١٧١) ميكيل، المصدر السابق، ج١، القسم الأول، ص٣٤٦.

(١٧٢) شمس الدين أبي عبد الله بن أحمد أبي بكر المقدسي البشاري: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، صنع في مدينة ليدن

وقد تميَّز المقدسي عن زملائه في المدرسة الكلاسيكية بأنه التزم التزاماً كبيراً بالعامل الطبيعي في تقسيماته للأقاليم؛ ويمكن اعتبار تقسيماته نموذجاً للدراسة الإقليمية، ولقد أورد مفهوماً جديداً إذ قسَّم "دار الإسلام" ذاتها إلى أقاليم العرب وأقاليم العجم، وقسَّم الأقاليم إلى كور، والكور إلى رساتق، وميَّز بين العواصم والقصبات والمدن الثانوية؛ وخص مملكة الإسلام بانتباهه الأكبر، فهو يذكر في هذا السياق "ولم نذكر إلا مملكة الإسلام وحسب، ولم نتكلف ممالك الكفار لأننا لم ندخلها (أي لم يتقصاها في رحلاته الكثيرة) ولم نر فائدة في ذكرها... وقد قسمناها أربعة عشر إقليماً. وأفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب"[(١٧٣)].

والأقاليم التي قسمها المقدسي وأصحابه في المدرسة الكلاسيكية لا تعني الأحزمة العرضانية التي تضم عدداً من درجات العرض Klimato، بل تعني لديه مناطق جغرافية محددة طبيعياً وسياسياً وبشرياً، أي ولايات Regians، وقد أطلق أبو الفداء على هذا النوع من الأقاليم اسم "الأقاليم العرفية"، وعلى الأقاليم الفلكية اسم "الأقاليم الحقيقية".

ومثَّل المقدسي في اعتماده على الرحلة والتجوال في البلاد المدروسة، وعلى المشاهدة المباشرة، نموذجاً لأصحابه من المدرسة الكلاسيكية، فهو يشرح لنا طريقة بحثه بوضوح "وما تم لي جمعه إلاَّ بعد جولاتي في البلاد، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي (= ترددي) إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوفين، وحضور مجالس القصاص المذكّرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة في كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكون حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة (= الخراج - الضرائب) حتى أحصيتها"[(١٧٤)]، كما يذكر استعانته في بحثه بـ"سؤال ذوي العقول من الناس.. فيما وقع عليه اتفاقهم أثبتُّه، وما اختلفوا فيه نبذته، وما لم يكن لي بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقرّ في قلبي (أي لم يتيقنه) ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره"[(١٧٥)]، لذا فهو يقسم مستويات كتابه إلى ثلاثة مستويات "أحدها ما عيَّناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة"[(١٧٦)].

لكن أصحاب هذه المدرسة، ورغم مركزة عملهم على دار الإسلام، فإنهم بسطوا الكثير من المعطيات الهامة عن بلاد السودان والزنج، فحدثنا ابن حوقل عن الحبشة، وقدَّم وصفاً مفصلاً لمنطقة البجة وتاريخها، وعن أريتريا وأرض النوبة، مع ذكر أسماء ما لا يقل عن مائتين من قبائل البربر الصحراوية، فضلاً عن تعريفنا بسجلماسة وبموقعها التجاري الهام بين الشمال الإفريقي وجنوب الصحراء من السودان، ولقد زار سجلماسة Sidjilmasa عام ٣٤٠هـ-٩٥١م، ومنها عبر الصحراء إلى أودغست Tegdeoust المجاورة لبلاد السودان، فاكتسبت معلوماته عن بلاد السودان أصالة ومصداقية بالغتي الأهمية، كما وصف الجانب الغربي للبحر الأحمر والتجارات القائمة بينه وبين الساحل المقابل، ومع ابن حوقل بدأت بلاد السودان تخرج من الظل والصمت.

وقد تحدث قبله الأصطخري عن منابع النيل، ورفض الخرافات المتعلقة بالادعاء القائل أنه ينبع من الجنة، وتحدث عن حدود النوبة والبجة والحبشة، وحدود الأخيرة مع بلاد الزنج، وأرض الزنج ذاتها، بطريقة تعكس

المحروسة بمطبعة بريل، ط٢، ١٩٠٩، ص٥٩.

(١٧٣) المصدر نفسه، ص٩.

(١٧٤) المصدر نفسه، ص٢.

(١٧٥) المصدر نفسه، ص٣.

(١٧٦) المصدر نفسه، ص٤٣.

الاعتقاد بامتداد إفريقيا نحو الشرق حتى حدود الصين(١٧٧). كما تحدث عن إفريقيا الغربية ولا سيما أودغست، وعن اقترابها من معدن الذهب، وقربها من أرض السودان، وعن مدينة كوكو Kowkaw أو غاو Gao(١٧٨) عاصمة السنغي Segou.

وتحدث المقدسي عن تجارة شرق إفريقيا، وعن النيل، وعن الرحلة الأسطورية لرجل من بني العيص بحثاً عن منابع النيل، وبعض الملاحظات العامة عن بلاد السودان، والطرق الصحراوية المتجهة إليها(١٧٩).

ولعل المسعودي (ت ٣٤٦هـ-٩٥٩م) هو أبرز الذين كتبوا من الجغرافيين الرحالة عن السودان، حتى القرن الرابع الهجري-العاشر الميلادي، مستفيداً من غزارة علمه ومن رحلاته الواسعة التي شملت البلاد الإسلامية من الهند حتى المحيط الأطلسي، ومن البحر الأحمر إلى بحر قزوين، فزار فارس والهند وملتان والمنصورة، وبحار الصين، وتجول في المحيط الهندي، وزار إفريقية وزنجبار (الزنج) ومعظم سواحل إفريقية الشرقية، وقصد السودان والمغرب العربي. ولم يكن المسعودي رحالة فحسب بل عالماً يتمتع بمروحة ثقافية واسعة لا يقل تنوعها عن اتساعها، إذ درس الفلسفة واللغة والتشريع والآداب والتاريخ والجغرافية والإثنوغرافية، فكان تركيبياً من الطراز الأول(١٨٠).

وهكذا فقد قضى المسعودي أكثر من خمس وعشرين سنة من حياته في تطواف حول العالم القديم متفحصاً أحوال الأمم وعقائدها وعاداتها، وبحارها وجبالها، وممالكها. ومزج بين الجغرافية والتاريخ في وقائع رحلاته، وصور العادات اليومية للناس، متجاوزاً طريقة الطبري في التاريخ حسب السنين إلى تاريخ يراعي فيه الموضوعات المدروسة، مطوراً طريقة اليعقوبي، ومزج دراساته التاريخية بالدراسة الاجتماعية والإثنوغرافية، كما اهتم بمعالجة ما يمكن نسبته إلى موضوع فلسفة الحضارة(١٨١).

ويُعتبر المسعودي أول جغرافي عربي ناقش العوامل المؤثرة في مناخ الأقاليم على طريقة الكتب الجغرافية الحديثة، وبالتالي ناقش المواضيع والأماكن الإفريقية السوداء في إطار هذا الفهم، بالإضافة إلى العامل السلالي والموقع الفلكي لمناطق السودان، ويتحدث عن دور المناخ في الأقاليم "وقد تختلف قوى الأرضين وفعلها في الأبدان لثلاثة أسباب: كمية المياه التي فيها، وكمية الأشجار، ومقدار ارتفاعها وانخفاضها"(١٨٢).

وهو إذ يتفق مع المدرسة الكلاسيكية باعتماده على المشاهدة والرحلة في أبحاثه، فهو يختلف عنهم في شمول اهتمامه بالعالم بأسره، إذ يقول "ذكرنا سائر الممالك التي على وجه الأرض، وما أزيل منها ودُثر، وما هو باق إلى هذا الوقت، وأخبار ملوكهم وسياساتهم، وسائر أحوالهم"(١٨٣). أما بصدد تقسيم العالم، فيتميز عمن سبقه من المؤلفين العرب أنه يعرض لهذه المسألة من وجهة نظر أكثر شمولاً، ويتعرض لمختلف النظريات التي تتعلق بالتقسيمات النظرية لكرتنا الأرضية.

ورحل المسعودي إلى بلاد السودان والحبشة، وإلى بعض المناطق التي يسكنها الزنج، فوصف حياتهم وتقاليدهم، وأفاض في وصف حيواناتهم التي تختلف عن مثيلها في ديار الإسلام، وأشار إلى زغاوة Zagho، والكانم Kanem، وأهل غانة Ghana، والدمادم Dem Dem، وبلاد الزنج. ولقد تحدث عن مناقب السودان وعن البحر الحبشي

---

(١٧٧) الأصطخري، المصدر السابق، ص١٩ - ٢٣ .
(١٧٨) المصدر نفسه، ص٣٥.
(١٧٩) المقدسي، المصدر السابق، ص٢٣١-٢٤٣.
(١٨٠) حميدة، المصدر السابق، ص٣٠٩-٣٢٠.
(١٨١) د.علي حسن الخربوطلي: المسعودي، دار المعارف، ط٢، القاهرة ١٩٨٠، ص٣٠.
(١٨٢) أبي الحسين علي بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف، ج١، إعداد قاسم وهب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٠، ص٦٤.
(١٨٣) المصدر نفسه، ص٢٦.

وبلاد الزنج، وطرح تخيلاته عن أقصى جنوب القارة السوداء وجزيرة القمر (مدغشقر Madagascar) وجزيرة قنبلو، ولم يوفر الحديث عن عجائب بلاد السودان، والنيل ومنابعه ومجراه، وبلاد النوبة والبجة، والذهب والزمرد والتجارات.

٢- أما المرحلة الثانية للتأليف العربي حول إفريقيا السوداء التي يمكن حصرها ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين، أي مرحلة مابعد المسعودي والمقدسي، فقد تميزت بسيطرة مصنفات المغاربة والأندلسيين على التأليف الجغرافي والرحلي العربيين حول "السودان"، وقد يعود ذلك جزئياً إلى كثافة العلاقة بين المغاربة وبلاد السودان في هذه الحقبة. كما يمكن أن نلحظ -بشكل عام- انتقال مركز الثقل في التأليف الجغرافي العربي بين القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر الميلادي، إلى بلاد المغرب والأندلس، فبرزت أسماء جغرافيين كبار مثل البكري (ت ٤٨٧هـ-١٠٩٩م)، والإدريسي (ت ٥٦٠هـ-١١٦٩م)، وابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ-١٢٨٦م)، وأسماء رحالة كبار كابن فاطمة (القرن الثاني عشر)، وابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ-١٣٧٧م)، والغرناطي (ت ١١٧٠م)، ولقد اكتسبت وقائع حج بعض ملوك السودان إلى مكة ومرورهم في مصر صيغة الرحلة بكل ما يعتريها من مقابلات ومواجهات واختبارات ثقافية تكشف عن مُتخيل كل طرف عن الآخر.

لقد قام التأليف الجغرافي الأندلسي والمغربي على أسس سليمة تجمع بين منهج "المسالك والممالك" و"البلداني" مع أسلوب الرحلات، ولم يتأثر ذلك التأليف بالنظريات اليونانية أو المشرقية كما ظهر لدى العرب المشارقة، فلم يتقيد بتقسيماتها الجامدة للأقاليم على أساس خصائصها الفلكية وعلاقاتها ببروج الفلك، حيث احتل عندهم البعد التاريخي مكانة كبيرة، فدمجوا التاريخ بالجغرافية حتى غدوا جغرافيين ومؤرخين معاً؛ علاوة على ذلك، فقد تسارعت الرحلات المغربية - الأندلسية باتجاه بلاد السودان جنوب الصحراء منذ القرن الحادي عشر.

لكن في القرن الحادي عشر قدَّم المشرق العربي: البيروني (ت ٤٤٠هـ-١٠٤٨م)، الذي أبدع في الرياضيات والفلك والجغرافية، والذي اعتمد الرحلة والمشاهدة في مؤلفاته عن إفريقية وغيرها من العوالم، محافظاً على المنهج الفلكي-الرياضي في جغرافيته. ولقد عاش نهاية حياته تحت رعاية السلطان محمود الغزنوي بعد أن فتح الأخير الهند، فألف البيروني "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" وكتاب "الآثار الباقية من القرون الخالية" و"القانون المسعودي"، ولقد اكتسبت آراؤه عن إحاطة البحار للأرض أهمية خاصة، منها اعتقاده أن البحر الجنوبي (المحيط الهندي) يتصل بالمحيط الكبير (الأطلسي) عن طريق فتحة في الجبال على طول الساحل الجنوبي لإفريقية، وبذلك عزز آراء المسعودي السابقة ونظرة ابن سعيد لاحقاً بهذا الاتجاه، حيث يؤكد البيروني "لا شك في وجود هذا الاتصال بالرغم من أن أحداً لم يستطع إثباته بشهادة العيان"(١٨٤)، وبهذا سبق بارتلمي دياز مكتشف رأس الرجاء الصالح بحوالي أربعة قرون.

وسيشهد القرن الحادي عشر رحلة ابن فاطمة، الذي لا نعرف عنه سوى أنه يدعى ابن فاطمة، الذي أبحر على طول الساحل الغربي لإفريقيا حتى بلغ مصب نهر السنغال الذي كان الجغرافيون العرب يعتقدون أنه متصلاً عن طريق نهر النيجر بحوض نهر النيل، ويضمّون إليه بحيرة تشاد (كوري)، ولقد بلغ ابن فاطمة سفالة الزنج في شرق إفريقيا، وعرف جزيرة مدغشقر (جزيرة القمر)، وربما تعود إليه الرواية الهامة التي قدَّمها ابن سعيد المغربي المتعلقة باستيطان الهنود في تلك الجزيرة(١٨٥). ويدل كلامه على علم دقيق بأحوال إفريقية السوداء وأهلها، وقد كان رحالة جواباً للآفاق، طاف في ترحاله سواحل شرق إفريقيا ووصل إلى الصومال والحبشة،

(١٨٤) أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني: القانون المسعودي، ج١، منشورات مجلس دار المعارف العثمانية بالهند، حيدر أباد، ص٣٤٨-٣٥١.
(١٨٥) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٣٥٩.

وأوغل في داخل القارة، ورأى منابع النيل وتحدث عنها على أنها تتكون من مجموعتين من الأنهار تتألف كل منها من خمسة أو أربعة فروع تصب في بحيرة، ثم يتفرع من تلك البحيرة أنهر خمسة إلى أن تتلاقى ببحيرة أخرى رئيسية. وقد حفظ لنا ابن سعيد المغربي الكثير من أقسام رحلاته التي فقدت[١٨٦].

وشهد القرن الحادي عشر الميلادي، أيضاً، ظهور أبرز الجغرافيين الأندلسيين وهو أبو عبيد الله البكري (ت ٤٨٧هـ-١٠٩٤م)، الذي قدم صوراً هامة للغاية عن بلاد السودان والشعوب الصحراوية، ولقد عمل وزيراً لأمير المرية في الأندلس، وترك مصنفاً جغرافياً غاية في الأهمية "المسالك والممالك" نشِر جزؤه الخاص بالمغرب وإفريقيا بعنوان "كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب" قدَّم فيه لوحة أخاذة متعددة الألوان عن بداية الحركة المرابطية والصحراء الكبرى ومملكة غانة، ومعلومات متنوعة عن بلاد السودان في جنوب الصحراء. ونهج البكري نهجاً أمسك فيه كل قطر على حدة، ليصف حدوده وعادات أهله وتاريخه وخصائصه، والطرق والمسافات فيه، كما ذكر عجائب الأنهار بما فيها عجائب النيل، وتحدث عن الممالك الممتدة من برقة شرقاً إلى طنجة في الغرب، وبعض البلاد الواقعة جنوب رمال الصحراء وعلى الأخص بلاد السودان ومدنها، والجاليات العربية فيها، وتجاراتها وعادات أهلها، وطريقة دخول الإسلام إليها؛ كما تحدث عن القبائل الصحراوية ودورها في التجارة بين الشمال الإفريقي وبلاد السودان.

ثم يأتي الإدريسي الذي جمع بين توجه أصحاب المدرسة الفلكية-الرياضية في تقسيم العالم المعمور إلى أقاليم موازية لخط الاستواء وبين اعتماد الرحلة والمشاهدة في جغرافيته؛ وتفرد بأن جعل دراسته الإقليمية شاملة لجميع مناطق العالم المعمور، وحدد كل من الأقاليم السبعة التي وردت عند الأقدمين إلى عشرة أجزاء تبدأ من ساحل الأطلسي وتنتهي عند بحر الصين.

وعلى الرغم من أن الإدريسي اعتمد على بطلميوس في معلوماته عن داخل إفريقية، فإن بعض مؤرخي الجغرافية يرى أن وصفه إفريقية لم يترسَّم خطا بطلميوس دون وعي "فوصفه لمجرى النيل الغربي أي نهر النيجر Niger، قد أكدت صحته الاكتشافات الجغرافية في القرن التاسع عشر، وهو على معرفة جيدة بالتجارة مع داخل إفريقيا، وقد أورد أسماء المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية، في ذلك الوقت، مثل غانة وسلا وتكرور"[١٨٧]، بل ذهب البعض إلى اعتبار معلوماته عن جهات إفريقيا الداخلية ولا سيما بلاد غينيا والنيجر Niger، التي تحدث عن أنهارها وأهم مدنها، وزراعاتها وعادات سكانها، كما تحدث عن جهات السودان الشرقي، وأقاليم منابع النيل التي شرحها بأفضل مما فصل بطلميوس، وأكد على ازدواجية منابع النهر[١٨٨]. فضلاً عن ذلك فقدم معلومات فريدة عن الصحراء الكبرى، وكيفية اجتياز القوافل لها[١٨٩].

أما ابن سعيد المغربي فقد كان جغرافياً جواب الآفاق، حج إلى مكة عام ١٢٤٠م ماراً بشمال إفريقيا ومصر، ودخل بغداد قبل الغزو المغولي لها، ثم إلى حلب ودمشق وإلى مكة، ثم إلى تونس، وذهب إلى أرمينيا، ثم عاد إلى شمال إفريقيا. وقد تأثر في تأليفه الجغرافي بمنهج الإدريسي في مفهومه للجغرافية ولهيئة الأرض، ووصفها بالنسبة لنظام الأفلاك وفي تقسيمه للمعمور من الأرض إلى أقاليم. إلا أنه تميز عن سابقيه في أنه أضاف إقليمين آخرين إلى الأقاليم السبعة فأصبحت عنده تسعة، حين أضاف إلى الشمال إقليماً وإلى المجال الإفريقي المعمور جنوب خط الاستواء إقليماً آخراً، وذلك لاستيعاب الكشوف الجديدة التي حدثت في عصره،

(١٨٦) مؤنس، المصدر السابق، ص٥٠٧-٥٠٨.

(١٨٧) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٢٨٧.

(١٨٨) خصباك، المصدر السابق، ص٥٢٧-٥٢٨.

(١٨٩) الشكري، المصدر السابق، ص٢٨.

فسمى الإقليم الأخير "المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب" ومدَّه لغاية ١٦ درجة جنوب خط الاستواء. ولقد استفاد المغربي من معطيات رحلة ابن فاطمة، فوضعنا أمام ثروة من المعلومات والتصورات المتعلقة بالوضعية الدينية لأفريقية جنوب الصحراء؛ بالإضافة إلى معلوماته الاستقصائية لجنوب القارة وشرقها، ولمنابع النيل والصحراء الكبرى وذلك في كتابه "بسط الأرض في الطول والعرض" المعنون بـ"كتاب الجغرافيا"[١٩٠].

ولا يفوتنا ذكر الرحالة الأندلسي الكبير الغرناطي محمد بن عبد الرحيم (ت ٥٦٥هـ-١١٧٠م) الذي عاصر الإدريسي، وكان شغوفاً بالتعرف على العالم، فيكاد في ترحاله أن يبز ابن بطوطة الأشهر، وامتلك جرأة غير مسبوقة في اقتحام مخاطر اجتياز البلاد المجهولة في كل اتجاه ومَعْلم، انتقل من الأندلس إلى إفريقيا الشمالية، وأقام بتونس ومنها انتقل إلى مصر عن طريق البر، فوصف نيلها وحيواناته، ثم زار دمشق، بعدها اتخذ من بغداد قاعدة لانطلاقه في تجوله، وضرب في ربوع الهضبة الإيرانية وتركستان، واجتاز جنوب روسيا وحوض الفولغا وشرق أوربا، وأقام في هنغاريا، وتعرف على الصقالبة الروس، ثم اتجه إلى بلاد السودان في غرب إفريقيا، وخلط في رواياته بين الحقائق والتخيلات والعجائب فتم على يديه الرجوع إلى التقليد الذي بدأه ابن الفقيه، وهو ما نجده في وصفه لأهل غانة وعاداتهم وصورهم، كما يصف، في مروره، قوقو (كوكو) ومالي Mali وغدامس، عارجاً على أمم السودان في شرق إفريقيا، وقد ضمَّن ذلك كله في كتابه الأهم "تحفة الألباب ونخبة الأعجاب"[١٩١].

كما ظهرت في القرن الحادي عشر رسالة ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) الشهيرة بعنوان "تنوير الغبش في فضل السودان والحبش"، مقتفياً أثر الجاحظ بل أنه تميز عن الجاحظ بتركيزه على وجهة النظر الدينية الإسلامية من السود وموقعهم في انبعاث الإسلام. وشارك ابن أبي زرع - أبو الحسن علي (ت ٧٤١هـ-١٣٤١م) صاحب "الأنس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" في التعريف بأهل الصحراء وبلاد السودان في سياق حديثه عن الحركة المرابطية.

وكان من أبرز المؤلفات الجغرافية التاريخية التي ظهرت في المشرق، في القرن الرابع عشر، كتاب "تقويم البلدان" لأبي الفداء-عماد الدين إسماعيل بن أيوب صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ-١٣٣٦م)، وهو سليل الأسرة الأيوبية وصاحب كتاب "المختصر في تاريخ البشر"، لم يكن رجل رحلات فهو ملك زار العديد من البلاد، اعتمد في تأليفه على المدونات الجغرافية التاريخية التي سبقت تأليفه، ولقد قدَّم في كتابه نظرة عامة إلى الأرض، ودرسها إقليماً بعد إقليم بدءاً من جزيرة العرب ثم مصر وإفريقيا، بما فيها إفريقيا الاستوائية وبلاد الشام ومابين النهرين وخوزستان وفارس والهند والصين وأرمينية والقفقاس وأقاليم الخزر، ويعتبر كتاب أبي الفداء درة التأليف الجغرافي-التاريخي في العهد المملوكي، في عصر بدأت تتراجع فيه المدونات الجغرافية، والذي جمع بين نهج الإدريسي المتأثر بالتقسيم البطلميوسي للأرض ونهج المدرسة الجغرافية العربية الكلاسيكية في تقسيمه الإقليمي لديار الإسلام وللعالم المعمور، فأطلق اسم "الأقاليم الحقيقية" على الأقاليم الفلكية-الرياضية البطلميوسية واسم "الأقاليم العرفية" على الأقاليم الأخرى، ولعل كتابه هو الوحيد الذي جمع بين الجغرافية الفلكية-الرياضية والجغرافية البلدانية، حيث قسَّم الأرض المعمورة إلى ثمانية وعشرين إقليماً خصص فيها لإفريقيا ثلاثة أقاليم.

٣- **أنماط جديدة** من التأليف الجغرافي - الرحلي (القرن ١٤-١٦م): انحسر تدريجياً نمط تأليف "المسالك والممالك" و"التأليف البلداني"، بعد أن زال من الاستعمال مفهوم "دار الإسلام" أو "مملكة الإسلام" إلى حد

---

(١٩٠) مؤنس، المصدر السابق، ص٥٠٥-٥٠٨. وسوسة، المصدر السابق، ص٤٤٣.
(١٩١) المصدر نفسه، ص٣٤٤-٣٤٥.

كبير في التصانيف العامة، وذلك مع بداية تراجع وتدهور الحال الثقافي السياسي، والانطواء على الذات الذي أعقب استنزاف الحروب الصليبية والمغولية للعرب-المسلمين، لا سيما تدمير المغول لبغداد عاصمة الخلافة، ثم سيطرة العسكر على الحكم في العديد من البلاد العربية، حيث سيطر المماليك على الحكم في مصر وجمعوا حولها بلاد الشام والجزيرة العربية.

في سياق ذلك ظهر نمط جديد من التأليف اعتمد بشكل رئيس على تجميع المعطيات المكتسبة من التأليف القديم، كنوع من حفظ الذاكرة الجماعية للأمة في خضم صراع البقاء الذي فرضته الغزوات الصليبية والمغولية، وذلك عن طريق بناء عمارة تأليفية تحفظ الإنجاز الثقافي العربي وذاكرة الأمة، وهو ما ظهر جلياً في التأليف الموسوعي والمعجمي، وإلى جانب ذلك ظهرت مصنفات جغرافية تهتم بالعجيب Cosmographs، فضلاً عن استمرار خط الرحلات، حيث برزت وقتئذ أهم الرحلات العربية إلى إفريقيا مثل رحلة ابن بطوطة ورحلة الوزان.

التأليف المعجمي:

فيما يخص التأليف المعجمي الذي جمع معلومات هامة وتصورات متداولة عن الأفارقة السود، فمنذ القرن الحادي عشر الميلادي ألَّف البكري "معجم ما استعجم"، كما ظهر للزمخشري (ت ٥٣٨هـ-١١٤٣م) "كتاب الجبال والأمكنة والمياه"، وهناك كتاب الحميري (ت ٩٠٠هـ-١٥٠٣م) "الروض المعطار في خبر الأقطار" فيه حفظ ما قدمه سابقوه من معطيات عن إفريقية السوداء، فضلاً عن بعض المعطيات الجديدة.

لكن قمة هذا التأليف المعجمي نجده عند ياقوت الحموي (ت ٦٢٣هـ-١٢٢٧م) في كتابه "معجم البلدان" شمل فيه كل الأصقاع التي عرفها العرب، وخصص أبواباً واسعة لبلدان الأحباش والزنج والسودان الغربي، وقد جمع الجغرافية في صورها الفلكية والبلدانية والرحلات، كما جمع التاريخ إلى جانب الدين والحضارة والأجناس والإثنولوجيا Ethnology، والأدب الشعبي Folklore. وقد استغرق تأليفه عدة سنوات حتى انتهى سنة ١٢٢٤م، ورفع مخطوطته إلى ابن القفطي، حيث أتت مادته غنية للغاية تجاوز في إطلالته العالم الإسلامي باتجاه الشرق الأقصى وأوربا وإفريقيا، وسجَّل صعود إمبراطورية غرب إفريقيا وأفولها، وقدَّم مقاربة مهمة عن شعوب شرق إفريقية (الحبشة، البجة، الصومال، وسفالة الزنج) وعن مدن ساحل شرق إفريقيا الساحلية.

التأليف الموسوعي:

برز هذا النمط في القرن الرابع عشر على شكل مؤلفات تكاد تكون دائرة علوم تجمع بين التاريخ والجغرافية والثقافة العامة والإدارة وأصول الشرع وقواعد الخطابة وكل ما يحتاجه أصحاب القلم في الإدارة السلطانية، ويأتي في مقدمة أولئك الموسوعيين شهاب الدين النويري (ت ٧٣١هـ-١٣٣٤م) في كتابه "نهاية الأرب في فنون الأدب" في ثلاثين مجلداً، حفظ فيه بعض ما كتبه سابقوه عن الأحباش والزنج والسودان.

أما الموسوعي الآخر فهو شهاب الدين بن فضل الله العمري (ت ٧٤٨هـ-١٣٤٩م) صاحب "كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" في أكثر من عشرين مجلداً؛ الذي شارك في الإدارة المملوكية، وتولى القضاء قبل وصوله إلى ديوان الإنشاء، وعاصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت ١٣٤٠م)، وقدَّم لعمله الكبير بتصوير منهجه البحثي القائم على الأسس نفسها التي قامت عليها المدرسة الجغرافية العربية، وذلك بقوله "فاستخرت الله تعالى في إثبات نبذة دالة على المقصود في ذكر الأرض وما فيها ومن فيها، الأظهر فالأظهر، والأشهر فالأشهر، وما لم أجد بداً من ذكره في ذلك ومثله، وحالة كل مملكة وما هي عليه، هي وأهلها في وقتنا مما ضمَّه نطاق تلك المملكة.. وغالب ما هي عليه.. وما يوجد فيها غالباً.. وبينته بالتصوير ليعرف كيف هو،

كأنه قدَّام عيونهم بالمشاهدة والبيان، مما اعتمدت في ذلك على تحقيق معرفتي له، فيما رأيته بالمشاهدة، وفيما لم أره بالنقل فمن (الذي) يعرف أحوال المملكة المنقولة عن أخبارها مما رآه بعينه أو سمعه من الثقات بأذنه"[١٩٢]. وهو لا يقتصر على ذكر الأقاليم الفلكية كالأول والثاني والثالث، ولا بما نطلق عليه مسميات إقليمية كـ(العراق وخراسان وجزيرة العرب...) "بل أذكر ما اشتملت عليه مملكة كل سلطان جملة لا تفصيلاً.."، وعكس العمري في مصنفه شعور العرب آنئذ، رغم بعض مظاهر الركود، بأنهم في الموقع الحضاري المتقدم في العالم، حين قال: "ولم أقصد في المعمورة سوى الممالك العظيمة.. وقنعتُ بما بلغه ملك هذه الأمة، وتمت بكلمة الإسلام على أهله النعمة، ولم أتجاوز حدها، ولا مشيت خطوة بعدها، إلا ما جرى في سياق الكلام.. أو اضطرت إليه تعريجات السالك، أو اقتضاه سبب"[١٩٣]، إلا أنه يستدرك قائلاً "وإذا كان في العمر فسحة، وفي الجسم صحة.. . لأذيِّلن بممالك الكفار هذا التصنيف.. ولكني لم آت في هذا الكتاب بذكر ممالكهم، على اتساع بلادهم، إلا عرضاً، ولا سطرت من تفصيلها إلا جملاً، توفيراً للمادة وتيسيراً للجادة، ولأتمتع برونق الأنوار (يقصد ديار الإسلام)، ولا أشوب ببياض النهار"[١٩٤]. فما زال المثقف العربي في ذاك العصر على ثقة بتفوق الحضارة العربية الإسلامية، فلا يجد ما يستفيد منه من دراسته لخبرات الحضارات الأخرى، ورغم هذا فإن العمري قدم لنا الكثير من المعطيات والمتخيلات عن بلاد السودان، ولا سيما عن إمبراطورية مالي وملوكها،وعن سلطانها الذي زار مصر في زمانه، فقدم صورة آخاذة عن رحلته في طريقه إلى الحج، تلك الرحلة التي تحولت إلى حقل للتعارف بين حضارة العرب المسلمين وبين السودان الذين أسلموا للتو، وإلى احتكاك في المواقف والأحكام، وتداخل الصور والأفكار عن بعضهم البعض وسلوك كل منهما تجاه الآخر، بما انطوى عليه من مكاشفة وحذر وتقييم؛ ويعتبر الباب العاشر من موسوعته الضخمة تلك "مسالك الأبصار" من أخصب النصوص التاريخية التي نملكها عن مالي، إذ قدم وصفاً غنياً بالمعلومات التاريخية لإمبراطورية مالي، ويرجع ذلك إلى اتصاله بموظفي الدولة المصرية والتجار المصريين وغيرهم من الرجال الذين رحلوا إلى هناك، أو كانوا على دراية بأحوال مالي، أو كانوا في حاشية سلطانها أثناء مروره بمصر باتجاه الحج إلى مكة[١٩٥].

وثالث هؤلاء الموسوعيون شهاب الدين أحمد القلقشندي (ت ٨٢٩هـ-١٤٢٨م) اشتغل بفنون الأدب وبرع في الفقه وغيره من العلوم، واطلع على كتب الأسفار والرحلات، والتحق بديوان الإنشاء، وكان من أبرز كتبه مؤلفه الموسوعي "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" في أربعة عشر مجلداً، مرتبة على مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، وذلك للتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وما يحتاج إليه كاتب الإنشاء، ثم إلى وصف الولايات وطبقاتها، والعهود والعقود، والبريد، ومعرفة الأزمنة والأوقات، وأعياد الأمم ومواقيتها؛ وفي مقالته الثالثة يتعرض للمسالك والممالك، بما فيها ذكر الأرض وإحاطة البحار بها، وأقاليمها الطبيعية، ووظائف القلم والسيف فيها، فتناول ممالك الأرض واحدة بعد أخرى، ثم تناول في المجلد الخامس والسادس خاصة بلاد السودان وملوكها، مستفيداً من سابقيه ولا سيما أبي الفداء، وتأتي قيمة ما قدمه لنا القلقشندي -جزئياً- في أنه جمع الكثير من النصوص التي لم تصل إلينا، وفيما حفظه من معطيات عن إفريقيا السوداء، من جراء مقابلاته للعديد من السفراء والتجار القادمين من تلك البلاد، فقدم لنا صورة جلية واضحة لمجتمعات إفريقية السوداء خاصة في شرق إفريقية، بما فيها مصادر قوتها العسكرية[١٩٦].

(١٩٢) شهاب الدين بن فضل الله العمري: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤، ص٣-٤.
(١٩٣) المصدر نفسه، ص٥.
(١٩٤) المصدر نفسه، ص٦.
(١٩٥) الشكري، المصدر السابق، ص٢٨-٢٩.
(١٩٦) د.عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: جذور الإسلام التاريخية في الحبشة، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم ١٩٩٤، ص٩٢.

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٤٢-١٤٠٦م) الموسوعي والمؤرخ والجغرافي، والذي دشن في مقدمته علم الاجتماع السياسي التاريخي الذي سماه "علم العمران"، وقدم فيها أفكاراً تتميز بالأصالة والجدية بالنسبة للأدب الجغرافي العربي نفسه، وطرح عدداً من المسائل التي تبحث أثر الإقليم والوسط الجغرافي في حياة البشر، التي لم يحدث أن أخضعت قبل ابن خلدون للفحص المنتظم، فهو في هذا المضمار يجب اعتباره مجدداً، ومثل أفكاره هذه لم تظهر في أوربا إلاَّ بعد مضي عدة قرون، وذلك ابتداءً من مونتسكيو Montesquieu[(١٩٧)]. وقدم في مدونته التاريخية (العبر) مقاربة تاريخية مهمة عن علاقة العرب في شمال إفريقيا، عبر الصحراء الكبرى، مع السودان وممالكه. وقد استند في المعلومات التي بسطها في الفصل التاريخي-الجغرافي أي في الجزء السادس من (العبر) الذي خصصه للكلام عن إمبراطورية مالي وبلاد السودان الأخرى على رواية أحد فقهاء السودان، الذي التقى بهم في مصر عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م.

ونظراً لأن ابن خلدون لم يرحل ويشاهد بلاد السودان، ولحذره من المعلومات التي سمعها عن هذه البلاد من الناحية الجغرافية والبشرية، فإنه صار حريصاً على الالتزام بإيراد ألفاظ مخبريه في روايته عن تلك البلاد وشعوبها، إلاَّ أنه من جهة أخرى تفرَّد بالإعلان عن نهاية إمبراطورية غانة على يد الصوصو Sosso. كما ترك لائحة بملوك مالي، فضلاً عن الكثير من المعلومات الأخرى التي ندين له بها[(١٩٨)].

ولا يفوتنا هنا الحديث عن تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥هـ-١٤٤٢م) المؤرخ الكبير، فقد حفظ لنا في "كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" وقائع رحلة (الأسواني) إلى بلاد النوبة والبجة، كما أنه ترك مقالة هامة بعنوان "الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام". وقد اعتمد المقريزي في معلوماته عن شرق إفريقيا على الأسواني، بالإضافة إلى القلقشندي.

جغرافية العجيب:

ظهر في القرن الرابع عشر جغرافيون مزجوا الجغرافيا ووقائعها بالعجيب والمدهش "الكوزموغرافيا"، وجمعوا بين تبحرهم بعلوم الجغرافية والفلك والنبات والحيوان والأجناس، ونزعتهم الصوفية العميقة التي قادتهم إلى الاهتمام بالكشف عن العجيب في الطبيعة والحياة الاجتماعية، كآيات عن عظمة الخالق في خلقه. وعند تناولهم إفريقيا السوداء طبقوا هذا المنهج نفسه على ظواهرها الطبيعية والإنسانية، فإلى جانب سردهم لـ(الوقائع) كانوا يرصفون العجيب والاستثنائي والمعجز، وكان أبرز هؤلاء القزويني والدمشقي وابن الوردي (ت ٨٦١هـ-١٤٧٤م).

زكريا القزويني (ت ٦٨٢هـ-١٢٨٣م):

درس الصوفية في دمشق، وتأثر بالصوفي الكبير محي الدين بن عربي، وكان صديقاً لابن الأثير المؤرخ (ت ٦٣٧هـ-١٢٣٩م)، وتولى منصب القضاء في واسط والحلة في العراق في عهد آخر الخلفاء العباسيين (المستعصم) قبل سقوط بغداد بيد المغول، وترك لنا "عجائب البلدان" و"آثار البلاد وأخبار العباد". جمع بين التقسيم الإقليمي السباعي على أساس خطوط العرض الموازية لخط الاستواء، وفي سياق ذلك وضع إفريقيا السوداء في مجال الإقليمين الأول والثاني، وجمع المعلومات والتصورات عن بلاد السودان - الزنج وعن أقصى الجنوب عمن سبقه من المؤلفين، مع إضافة المعطيات الجديدة في عصره، فوصف المدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار وفقاً لترتيب حروف المعجم، مع تغذية تلك المعطيات

---

(١٩٧) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٤٤٤.

(١٩٨) الشكري، المصدر السابق، ص٣٠.

ببعض التفاصيل التاريخية، وكان أبرز من استقى منه ياقوت الحموي، كما استفاد من معطيات رحلة "أبي الربيع سليمان الملتاني" إلى داخل القارة السوداء، فاستند إلى هذا الرحالة كاستناد ابن سعيد المغربي على رواية "ابن فاطمة".

أما الدمشقي (شيخ الربوة) (ت ٧٢٧هـ-١٣٨٧م) فقد أمضى معظم أيامه بدمشق مسقط رأسه إماماً بمسجد الربوة، ولذلك لقِّب بـ(شيخ الربوة) وبـ(الصوفي) لميوله الصوفية، فلقد اشتهر بكتابه "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر" الذي يدل عنوانه ذاته على اهتمامه بـ"الكوزموغرافيا". وقد رتب مؤلفه على تسعة أبواب، بدأه بشكل الأرض وبشكل الأقاليم السبعة ثم معادنها وجواهرها، وفي القسم الثالث تحدث عن الأنهار والعيون، والرابع عن البحار، والخامس للحديث عن البحر المتوسط (الرومي- الشامي)، والسادس عن بحر الجنوب أو المحيط الهندي الذي يعتبر امتداده بحر الزنج، ويخصص لليابسة الباب السابع والثامن، فيتحدث فيها عن الأمم الشرقية وعن الأمم الغربية من الأرض، بادئاً في وصف هذه الأمم الأخيرة بوصف مصر ثم ساحل إفريقيا الشمالية، ويخصص قسمه الأخير (التاسع) لوصف البربر وأهالي الصحراء ثم السودان والزنج.

ويشير بطريقة غامضة إلى وحدة القارة الإفريقية، كما يستعين في تقصيه على معطيات من سبقه من المؤلفين، إضافة إلى معطيات عصره، مازجاً في وصفه لأهل أقصى الجنوب من القارة السوداء الوقائع بالتخيل، فيعطي صورة تبخيسية عن سكانها، ولا يغفل خلال ذلك كله عن تعريفنا بحيوانات القارة ونباتاتها ومعادنها، ونيلها في منابعه ومجراه ومصبه، وإخبارنا بالعجيب والباهر ما بين ظواهرها.

رحالة عظام:

أبرز الرحالة الذين جابوا بلاد السودان مخترقين مجاهل الصحراء الكبرى هما ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ-١٣٧٧م) والحسن الوزان المعروف بـ"ليون الإفريقي" (ت ٩٥٨هـ-١٥٥٦م).

عاش ابن بطوطة في القرن الرابع عشر، ويمكن اعتباره أعظم رحالة في العصر الوسيط، لا يدانيه في رحلاته ماركو بولو نفسه الذي استفاد من صعود أوربا ليصعد اسمه معها أكثر من صعود ابن بطوطة عالمياً، خاض في حياته ثلاث رحلات كبرى. الرحلة الأولى وقعت ما بين عامي (١٣٢٤-١٣٤٩م)، زار فيها شمال إفريقيا ومصر والشرق الأوسط وإفريقيا الشرقية وجزيرة العرب واليمن، وقصد القسطنطينية ثم الهند. وزار في رحلته الثانية الأندلس وجبل طارق والتي امتدت ما بين (١٣٥٠-١٣٥١م). وفي الثالثة زار فيها السودان في غرب إفريقيا[١٩٩].

بدأ رحلته الأولى من طنجة وهو في الثانية عشر من عمره عام ١٣٢٤م قاصداً الحج، فعندما وصل عدن ركب البحر إلى زيلع Zeila ثم أبحر إلى الصومال فزار مقديشو Magadichou، حيث نزل ضيفاً على علمائها ومشايخها، وتعرَّف على كلوة Kilwa، بعدها عاد مبحراً باتجاه الهند والصين ماراً بسيراف.

أما رحلته إلى غرب إفريقية "بلاد السودان" فقد بدأها عام ١٣٥٢ بتكليف من السلطان أبو العنان، ماراً بسجلماسة، إذ خرج على رأس قافلة تجارية قاصداً مدينة إيوالاتن (ولاتة Walata) أول مدن السودان الغربي، ثم مدينة مالي أكبر مدن السودان آنئذ، فوجد الطريق إليها غاصاً بالأشجار، ثم زار زاغة Azougui وتمبوكتو Tombouctou.

وفي طريق عودته التي بدأت في ١٢ سبتمبر ٧٥٤هـ-١٣٥٣م قاسى من صعوبة الطريق بضعة أشهر في صحبة قافلة تجار الرقيق، اخترق خلالها هضاب هكار Alagger، ماراً بغدامس Chadames، ثم عبر جبال

---

(١٩٩) فؤاد بدوي: ابن بطوطة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ، ص١٤.

الأطلس شتاء في ظروف قاسية إلى أن بلغ فاس نهاية عام ٧٥٤هـ-١٣٥٣م.

لقد ترك لنا ابن بطوطة عبر روايته لحوادث رحلته -التي أملاها على أحد أصدقائه- صورة حية أخاذة عن حياة من زارهم من السودان في غرب أفريقيا وشرقها وفي الصحراء الكبرى، واحتفظ لنا في مذكراته تلك بشهادة تنبض بالحياة عن سكان بلاد مالي السود وعلاقاتهم بالجالية العربية هناك، وبما سمعه عن أهل لم لم الذين يسميهم نيام نيام؛ فقد شغل ابن بطوطة في رحلاته بالبشر أنفسهم وطريقتهم في الحياة، فاهتم بالظواهر الاجتماعية والعادات والتقاليد وأشكال العبادات وطقوسها، والغريب والمألوف منها، إضافة إلى الأطعمة "فقدم لنا نموذجاً صادقاً لأفكار وتصورات مواطن إسلامي من أهل القرن الرابع عشر"[٢٠٠].

أما الحسن الوزان (ليون الإفريقي) الذي عاش في القرن السادس عشر، وكانت ولادته في غرناطة في عام ١٤٨٧ أو ١٤٩٧، وسرعان ما هاجر إلى المغرب بعد سقوط مدينته غرناطة ليعيش في فاس، ويدخل في خدمة الملوك المرينيين، بعد أن تلقى علومه. وأخذ يتجول في النواحي الإفريقية في مهام رسمية وسفارات في بلاد السودان، مخترقاً الصحراء الكبرى، وهو ما أهَّله ليترك أثره الفريد في "وصف إفريقيا".

وفي طريق عودته من رحلته إلى القسطنطينية، ماراً بمصر وأسوان والمشرق العربي، حاجاً إلى مكة، ثم زيارته لأرمينية، نراه يقع عام ١٥١٨م في أيدي قرصان إيطاليين في البحر المتوسط وهو في طريقه متوجهاً من الإسكندرية إلى المغرب، وكان عمره آنذاك ٣٢ عاماً، وقدمه هؤلاء القرصان هدية إلى البابا (ليون العاشر) الذي كان راعياً للعلوم والآداب، فكشف مواهب الوزان، وتحت ضغطه ومناشدته اعتنق الوزان النصرانية، فسماه البابا "جيوفاني ليوني" فاشتهر في أوربا باسم "ليون الإفريقي"، وفي إيطاليا درَّس العربية في البلاط البابوي وأيضاً "الفلسفة العربية"، وألف "وصف إفريقيا" بعد ثمانية سنوات من إقامته هناك.

وبالنهاية، بعد أن قتله حنينه إلى وطنه، استطاع الإفلات من (أسره) في إيطاليا عام ١٥٢٨م أو ١٥٣٠م إلى تونس، ليحظى (بشرف) الإقامة والموت فيها، ومالبث أن طرح المسيحية إلى الإسلام، ولعله قضى بقية عمره في التعبد وفي المواظبة على الطقس الإسلامي، في زوايا النسيان.

أما كتابه الفريد "وصف إفريقيا" الذي سجَّل فيه وقائع رحلاته في القارة السوداء فقد كتبه بالعربية ثم ترجمه إلى الإيطالية، وبعدها ترجِم إلى لغات أوربية عديدة، ليصبح ما بين عصر النهضة وحتى نهايات القرن التاسع عشر "واحداً من أفضل وأشمل المصادر لدراسة الإسلام وعالمه في أوربا، كما صار مصدراً رئيسياً للعلماء والمفكرين بصدد الحديث عن إفريقية وتاريخها، لذلك أتى لقبه (الإفريقي)".

ولقد أتيح للوزان خلال حياته العلمية الغنية أن يصل إلى كتابة الشعر وإلى وضع القواميس وأن يكتب عن الفلسفة العربية وآدابها، إلا أن رائعته "وصف إفريقيا" تحتل الموقع الفريد في تأليفه، ويصل عدد صفحات كتابه ذاك إلى ثمانمائة صفحة تقريباً، موزعاً على تسعة أجزاء، في الجزء الأول يعطينا صورة عامة عن إفريقية: ممالكها وسكانها وأصولهم وتوزيع قبائلهم ولغاتهم، والأمراض المستوطنة فيهم، فيظهر في تأليفه شعور واضح بوحدة القارة السوداء سلالياً وجغرافياً. ويخصص الأجزاء الرابع والخامس والسادس لمملكة تلمسان وطرابلس. أما الجزء السابع فيتحدث فيه عن ممالك السودان الخمسة عشر الواقعة في مملكة النيجر التي تجول فيها في صباه وشبابه برفقة عمه، بما فيها تمبوكتو، أو برحلته الثانية التي تعرَّف فيها مجدداً على تمبوكتو، وزار بلاد

(٢٠٠) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص٤٣١.

الهوسة Haoussa، ومملكة غانة ومالي. أما الجزء التاسع والأضخم من كتابه فيخصصه للحديث عن حيوانات ونباتات القارة، اعتمد في معلوماته تلك على مشاهداته العيانية من خلال رحلاته، وعلى معلومات مستقاة مما قرأه من مصنفات عربية، أو ما سمعه من الثقات الذين عرفهم.

* * *

ظهر في القرن السادس عشر الميلادي كتابات متعددة عن فضل الأحباش-السود، إذ ألَّف الإمام السيوطي ثلاث رسائل في هذا المقام، وكانت استمراراً لرسائل بدأها الجاحظ في القرن التاسع، واستأنفها ابن الجوزي في القرن الحادي عشر، إذ نرى أن السيوطي في رسالته الأولى "رفع شأن الحبشان" قد اعتمد على تأليف ابن الجوزي "تنوير الغبش في فضل السودان والحبش"، ولقد حملت رسالته الثانية عنوان "أزهار العروش في أخبار الحبوش"، أما رسالته الثالثة فهي "نزهة العمر في التفضيل بين البيض والسود والسمر"، كما وضع محمد عبد الباقي البخاري (ت ٩٩١هـ-١٥٩٤م)، وهو من أهل المدينة المنورة، رسالة سماها "الطراز المنقوش في محاسن الحبوش" والتي اعتمد فيها على السيوطي. ولقد ربط تلك المؤلفات الفضائلية خيط واحد تجلى في إطراء السود وإعلاء مكانتهم الإنسانية وموقعهم في انبعاث الإسلام.

سفارات ورسائل:

يمكن أن نضيف إلى تلك المصادر الأساسية المتعددة لمعرفة العرب وتخيلهم عن "السودان" جملة أخرى من مسالك الاتصال، لا سيما السفارات الرسمية والرسائل والهدايا المتبادلة بين الملوك في الشمال وجنوب الصحراء، حيث ازدادت تلك السفارات اطراداً بعد بروز الممالك السودانية في جنوب الصحراء، ودخول الإسلام إليها بقوة بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي، وعلى الأخص في القرن الرابع عشر الميلادي، إذ يخبرنا (ابن الصغير) عن سفارة رسمية أرسلها ثالث الأئمة الرستميين إلى أحد ملوك السودان تحمل هدية ثمينة له، لعلها إمارة غانة أو إمارة كوكو أو غاو، ولقيت استحساناً من طرف الملك السوداني[٢٠١].

ويقص علينا ابن عذارى أن أسرة آزيري ولاة الفاطميين على إفريقية تلقوا هدية من بلاد السودان عام ٣٨٢هـ-٩٩٢م، فخرج المنصور ليتلقاها حتى دخلت بين يديه[٢٠٢]، ووصلت هدية أخرى إلى المعز بن باديس عام ٤٥٤هـ-١٠٦٢م، وهي "هدية جليلة فيها رقيق كثير وزرافات وأنواع الحيوانات"[٢٠٣].

ودخل المغرب حاجاً، قبل نهاية الدولة المرابطية، أحد ملوك السودان صاحب مملكة زافون الواقعة بين نهر السنغال وعاصمة غانة "كومبي صالح Koumbi Saleh"، ويظهر من رواية ياقوت الحموي عنها أنه كان لهذا الملك مكانة كبيرة عند المرابطين، حتى أن ملك المرابطين تلقاه راجلاً في حين "لم ينزل زافون عن فرسه"، وعند دخولهما قصر المرابطين دخل ملك زافون راكباً في حين كان "أمير المؤمنين راجلاً بين يديه"[٢٠٤].

أما في عهد الموحدين (١١٣٠-١٢٦٩م) فقد أرسل والي سجلماسة أبو الربيع سليمان بن عبد الله (ت

(٢٠١) ابن الصغير المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم نجار، دار الغرب، بيروت ١٩٨٥، ص٧١.

(٢٠٢) أحمد بن محمد المراكشي (ابن عذاري): البيان المغرب في أخبار أئمة الأندلس والمغرب، ج١، ط٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣، ص٢٤٦.

(٢٠٣) المصدر نفسه، ص٢٧٥.

(٢٠٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الثالث، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ص١٢٧.

١٢٠٨م) رسالة إلى ملك غانة، جاء في فاتحتها "نحن نتجاور بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان"[٢٠٥]، وهو ما يدل على أن الموحدين آنئذ لم يعرفوا بإسلام ملك غانة.

ونعلم من ابن خلدون الكثير عن السفارات المتبادلة بين ملك كانم المسلمة، ومن جملتها هدية ملك كانم إلى أبي عبد الله المستنصر الحفصي (٦٥٥هـ-١٢٠٧م) [٢٠٦].

ويأتي حج سلاطين مالي عبر مصر إلى مكة فرصة للتعارف ولتبادل المواقف والصور، وإعادة إنتاج المتخيل العربي عن إفريقيا السوداء، وذلك كرحلة (برمندار) الروحية حجيجاً إلى مكة، وحج منساموس في القرن الرابع عشر، ومكوثه في القاهرة وهو في طريقه إلى مكة حاجاً، وهي الرحلة التي نعرف عنها الكثير عن طريق العمري وابن خلدون.

كما تبادل سلاطين المغرب مع سلاطين مالي ولا سيما أبو الحسن المريني ومنساموس العديد من الرسائل والهدايا[٢٠٧].

ولتكتمل الصورة لدينا فإننا سنذكِّر بالدراسات التي كتبها بعض الأفارقة السود أنفسهم باللغة العربية، ودخلت في المجال التداولي للثقافة العربي، لا سيما مؤلفات محمود كعت (ت ١٥٩٣م) كـ"تاريخ الفتاش"، وعبد الرحمن السعدي الذي ولد في تمبوكتو عام ١٠٠٤هـ-١٥٩٦م، في كتابه "تاريخ السودان". زودنا الأول بمعلومات عن مملكة مالي، والحالة الثقافية والسياسية والدينية للمجتمع المالي، وعرفنا الثاني على المصير النهائي لإمبراطورية مالي نفسها. وسنعتمد على هذا التراث الكبير من التأليف العربي الجغرافي والرحلي، لنقدم صورة أوفى عما فكر فيه العرب وعما تخيلوه وعرفوه عن السودان والسودانيين في العصر الوسيط.

---

(٢٠٥) أبو أحمد المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨، ص١٠٥-١٠٧.

(٢٠٦) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون - العبر في تاريخ العرب والبربر، ج٦، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩، ص٤١٢-٦٥٢.

(٢٠٧) المصدر نفسه، ص٤١٦.

القسم الثاني

إفريقيا السوداء وشعوبها في المتخيَّل العربي
(صورة عامة)

يحسُن بنا أن نقدم مقاربة لما كوَّنه المصنفون العرب من صورة عامة عن بلاد السودان وشعوبها، والتي شكلت مدخلاً مجرداً غذى معرفتهم أحياناً، واحتبسها أحياناً أخرى في متخيل نمطي ثابت أثر بطريقة ما على اقترابهم المعرفي منها، وضيَّق أحياناً أخرى انفتاح معارفهم على تلك الشعوب وعن بلادها، حيث أتت رحلاتهم ومشاهداتهم ومعارفهم لتهز تلك التصورات النمطية، وتفتح ثغرات جدية بها، لصالح انفتاح البحث على الوقائع الحقيقية والأساليب الفعلية لحياة هؤلاء البشر، فبدت تلك الصور النمطية وكأنها اختزال فقير أمام المعطيات التي قدمها الرحالة والجغرافيون الرحالة في مشاهداتهم المباشرة عن هذه الشعوب ولمقارباتهم الوصفية الإثنوغرافية لها، فكانت أكثر غنى وثراء، حتى بدا ما قدمه الرحالة والجغرافيون الرحالة للكثير من الباحثين المنصفين على أنه دراسة ممتازة امتلكت الكثير من التعاطف مع تلك الشعوب والدراية بها، والانفتاح الأخلاقي والإنساني، فضلاً عن الموضوعية التي يجب أن تلازم أي بحث إثنوغرافي متميز.

لقد حاول المصنفون العرب وضع تلك الشعوب في سياق تحديدات عامة بحثاً عن الفهم، والاقتراب منها ومعرفة ما هو مشترك بينها وما يميزها عن غيرها، عن طريق إبراز الصورة الأكثر عمومية وتجريداً عنها. فتوصل هؤلاء المؤلفين إلى أحكام عامة عن وحدة غامضة تميز القارة الإفريقية السوداء عن غيرها، إن كان من ناحية اسم القارة أو ما يربط شعوبها سلالياً، أو انتسابهم إلى إقليم خاص أو أمة خاصة، كنسبتهم إلى مصر أحياناً أو الحبشة أحياناً أخرى، بالإضافة إلى تخيلهم لوحدة غامضة تجمع شعوب القارة، فقد قدموا ما يعتبرونه شيئاً يخص الشعوب السوداء تتغاير فيه عن بقية شعوب إفريقيا نفسها: كالشعوب الصحراوية أو شعوب شمال إفريقيا ومصر العربية، وبينوا ما يجمع هؤلاء السود من خصائص وخصال. وهذا ما ساقنا إلى محاولة معرفة التحديدات التي وضعها المؤلفون العرب للشعوب السوداء، إن كان من زاوية موقع بلادهم داخل القارة الإفريقية نفسها أو داخل العالم المعمور بما فيه موقعهم الإقليمي، سواء كان داخل التعريف الفلكي/ الرياضي للأقاليم أو

حسب المتخيل الجغرافي العربي له، أو تبعاً للتصورات العامة السابقة للتأليف الجغرافي العلمي الذي ورثته الجغرافية العربية، دون أن تلتزم به تماماً، على الرغم من تداوله في الثقافة العربية وبقاء تأثيره على أحكامها على تلك الشعوب السوداء.

كما قدَّم هؤلاء المؤلفين أحكاماً عامة أخرى حول هذه الشعوب، استقوها من حقائق (العلوم) المتداولة في زمنهم وممن ورثوه عن اليونان وخاصة بطلميوس وجالينوس، أو عن الثقافة الإيرانية ولا سيما عن مؤلفات هرمس، وتحديداتهم النمطية للإنسان الأسود؛ فضلاً عن ما استنبطوه وتوصلوا إليه من أحكام خاصة من خلال تجاربهم المباشرة المختلفة.

فقد تأثروا بالعلوم المتداولة وبمستوى العلوم الناشئة أو الموروثة في تحديداتهم المناخية الإقليمية للشعوب السوداء، عندما اعتبروا أن موقعها في جنوب "العالم المعمور" أو على حافة العلم الجنوبية، ثم يحتسبونها داخل المناخات الحارة الغامضة للجنوب، أو ينسبونها إلى حلقة سلالية واحدة كونها من ذرية حام بن نوح، أو إلى مناخات ترتبط بأقاليمهم المتأثرة بالكواكب وبحركة النجوم والبروج.

كما سنعرض تصوراتهم عن موقع بلادهم في الكون المحيط بهم ولا سيما في البحار التي تشكل ثلاثة أرباع الكون المعمور وكيفية إحاطتها بالقارة، ولنتعرف على الحدود القصوى لبلادهم، وموقعهم هذا في التصور العربي القروسطوي للعالم برمته.

وفي النهاية سنعرض لأبرز ظواهر العالم السوداني التي أحاط الغموض معرفتهم لها، بالإضافة إلى العجائب والغرائب، وفي مقدمة هذه الظواهر أنهار إفريقية التي تتجمع في المتخيل العربي الوسطوي القديم حول نهر النيل، وسيرة الجبل الكوني الذي يخترق القارة إلى جبل القمر في أقصى جنوبها وحدود بلاد السودان في الاتجاهات كافة وخاصة في الشرق.

أ- وحدة الشعوب السوداء

يلوح في المدونات العربية إدراك غامض لوحدة إفريقية وشعوبها، إلى جانب إدراك جازم بوحدة الشعوب السوداء، وإن أول ما يتبدى من إدراك لوحدة القارة هو في التسمية التي أطلقوها عليها أو نسبوها لها. فلقد اقتبس العرب التسمية التي أطلقها الرومان على المقاطعة التي أنشأوها بعد اجتياحهم لقرطاجة عام ١٤٦ ق.م هناك (Afrikya)، لكن المصنفين العرب أرجعوا تلك التسمية وأزاحوها عن الرومان أو غيرهم مرجعينها إلى "إفريقيش بن تباع المنار" الذي اعتقدوا أنه غزا إفريقية - ويقصدون بإفريقية هنا تونس الحالية - وبنى مدينة إفريقية في الشمال الإفريقي[٢٠٨].

والمتعارف عليه بين المؤرخين العرب وفي المدونات الأدبية والجغرافية، أن إفريقيش بن أبرهة بن ذي القرنين الذي يقصدون به (ابن تبع اليمني)، هو الذي غزا المغرب "وبنى مدينة سُمِّيت باسم (إفريقية)، ثم رجع بعد أن خلَّف من قبائل حمير صنهاجة، وقدَّمهم على البربر"[٢٠٩]. وذهب القلقشندي مقتدياً بأبي الفداء "وقد اختُلف في تسميتها إفريقية، فقيل إفريقيش أحد تبابعة اليمن، افتتحها واستولى عليها فسميت بذلك، وقيل أنها سميت بفارق بن

(٢٠٨) أبو حامد عبد الرحيم سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل - بيروت، الآفاق الجديدة - المغرب، ط٢، ١٩٩٣، ص٤٤.

(٢٠٩) عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، مجلد سادس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٥٩، ص١٧٦.

بصير بن حام بن نوح"[٢١٠].

وفي القرن الحادي عشر الميلادي خصص البكري فصلاً خاصاً لعرض الآراء المتداولة حول تلك التسمية تلك، فيذكر قول قوم: أن إفريقية تعني "صاحبة السماء"، وقول آخر يدَّعي أنها "سميت إفريقية لأن إفريقيش بن أبرهة بن الرايش غزا نحو الغرب حتى انتهى إلى طنجة في أرض البربر، وهو الذي بنى إفريقية وباسمه سميت" إلى أن يشير إلى تسمية أخرى "سموا الأفارقة وبلادهم إفريقية لأنهم من ولد فارق بن مصريم"[٢١١].

ويشير الدمشقي إلى إحدى التسميات المتداولة، والتي يتم بموجبها تعميم اسم (إفريقيا) ليشمل شعوب القارة بمجملها "وقسم الإسكندر الأرض المعمورة أربعة أقسام: الأول سماه أورفا، وفيه الأندلس والصقالبة والفرنجة والروم؛ والقسم الثاني سماه إفريقية، وفيه مصر والقلزم (= البحر الأحمر) والحبشة والزنج والبحر الجنوبي؛ والقسم الثالث سماه أسقمونيا، وفيه أرمينيا والخزر والترك وخراسان؛ والقسم الرابع سماه بنوشية، وفيه تهامة واليمن والهند والصين"[٢١٢].

وعندما نصل إلى الحسن الوزان، المعروف أوربياً بـ"ليون الإفريقي"، الذي يشير من ناحية إلى أن هذا الاسم (إفريقية) "مشتق من إفريقوس ملك بلاد العرب السعيد لاعتبار أنه أول من جاء وسكنها.. ولهذا فإن العرب لا يقصدون بإفريقية سوى ضواحي قرطاجة ذاتها، ويطلقون على مجموع إفريقية اسم المغرب"[٢١٣]، إلا أنه يشير من الناحية الأخرى إلى أن تعبير "إفريقية" يشير إلى وحدة القارة، وذلك عندما قسَّم الوزان نفسه (إفريقية) إلى أربعة أقسام إذ يقول "تنقسم إفريقية، كما يرى كتابنا، إلى أربعة أقسام هي: بلاد البربر، نوميديا وليبيا وبلاد السودان"[٢١٤].

وقد تجلى هذا الإدراك للوحدة الغامضة لشعوب إفريقيا أيضاً في عدد من التسميات الأخرى للقارة عندما نسبها أصحاب المدونات العربية إلى إقليم مركزي كبير في القارة الإفريقية، فابن خرداذبة وأيضاً ابن الفقيه يوردان إحدى التقسيمات المتداولة للأرض المعمورة إلى أربعة أقاليم، حيث ينسبان شعوب القارة السوداء إلى (لوبيا)، فيذكر ابن خرداذبة "وقسمت الأرض المعمورة على أربعة أقسام"، وإلى جانب: أورفى وإثيوفيا وإسقونيا، هناك "لوبية: وفيها مصر والقلزم والحبشة والبربر وما والاها، والبحر الجنوبي، وليس في هذه البلاد خنزير بري ولا إبل ولا عير ولا تيوس"[٢١٥].

ونرى هذه الوحدة الغامضة مرة أخرى عند حديث بعض المصنفين-مثل صاعد الأندلسي- عن تقسيم البشرية ذات الأصل الواحد، وتفرعها فيما بعد إلى سبعة أمم كبرى قبل أن تتفرع إلى أمم شتى، فينسب كل مجموعة بشرية إلى أمة كبرى بعينها، واضعاً الشعوب الإفريقية تحت اسم "أمة القبط" أي مصر، حيث يقول "فالأمة الرابعة: القبط، وهو أهل مصر وأهل الجنوب، وهم أصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج وغيرهم، وأهل المغرب وهم البرابرة ومن اتصل بهم إلى بحر إقيانوس المغرب المحيط، لغتهم واحدة، وملكهم

---

(٢١٠) أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الخامس، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٣، ص١٠٠. راجع أيضاً، ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، مجلد أول، دار صادر، بيروت ١٩٥٥، ص٢٢٨.

(٢١١) أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص٢١.

(٢١٢) أبي عبد الله محمد أبي طالب الأنصاري الدمشقي: كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة، في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ١٢٨١هـ-١٨٦٥م، ص٢٤.

(٢١٣) حسن الوزان، (جان ليون الإفريقي): وصف إفريقيا، ترجمة د.عبد الرحمن حميدة، مراجعة علي عبد الواحد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٩هـ، ص٣٥.

(٢١٤) المصدر السابق، ص٣٦.

(٢١٥) أبو القاسم عبد الله بن عبد الله ابن خرداذبة: المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص١٥٥. راجع أيضاً، ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن ١٣٠١هـ، دار صادر - بيروت، دون تاريخ، ص٦-٧.

واحد"[٢١٦].

نجد الأمر نفسه عند المسعودي في تداوله للتقسيمات المتداولة بين المصنفين، فيذكر الأمم السبع الكبرى، التي كانت في "سالف الأزمان" بما فيها "الأمة الرابعة: لوبية منها مصر، وما اتصل بها من التيمن وهو الجنوب، وأرض المغرب إلى بحر أوقيانس، لغتهم واحدة ويملكهم ملك واحد"[٢١٧]. وفي السياق ذاته، وعندما قسَّموا العالم المعمور إلى أقاليم (كشورات) كدوائر تحيط بدار الإسلام وعلى الأخص إقليم العراق، نسبوا أقاليم إفريقية إلى إقليم مصر، وهو ما يظهر في التقسيم الذي اعتمده البيروني، واقتبسه عنه الحموي[٢١٨]، فمرة ينسبون القارة إلى مصر أو القبط، ومرة إلى الحبشة، ومرة ثالثة إلى ليبيا.

الوحدة السلالية:

تميز العرب باهتمامهم الخاص بنسبهم، وهو ما ظهر في تأليفهم الجغرافي والتاريخي إلى حد تداخل عندهم التاريخ في بدايته بعلم الأنساب، وفيما بعد عمموا هذا الاهتمام ليطال الأصول الأولى لأنساب الشعوب الأخرى من أجل استخراج أصولها، رجوعاً إلى الفواصل الكبرى في التاريخ البشري التي اتفق المؤرخون والجغرافيون وأصحاب المصنفات الأدبية على أن هناك ثلاث حلقات كبرى متعاقبة مر بها تاريخ البشرية، أولها تبدأ بآدم، وثانيها بأولاد نوح (سام وحام ويافث) بعد الطوفان، والحلقة الثالثة تعود إلى سلالة إبراهيم الخليل (أبو الأنبياء). ولقد تناقل الفقهاء المسلمون حديثاً نبوياً، مفاده: "إن الله خلق آدم من قبضة من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك السهل والحزن، والخبيث والطيب"[٢١٩]، وهو ما يدل على وحدة الأرومة البشرية، ووحدة التراب الذي انبثقت منه، إلا أن هذا يعود ويتفرع مع أولاد نوح الذين تقاسموا حدود الجغرافية المعمورة، كما تذهب بعض المؤلفات المتداولة والتي يظهر فيها مجدداً وحدة الشعوب الإفريقية على قاعدة الوحدة السلالية التي ترتد إلى نسل حام بن نوح، وينسبون إلى النبي أحاديثاً بهذا المعنى.

يشير اليعقوبي كيف قسَّم نوح الأرض المعمورة على أولاده "فصار لولد يافث الصين والهند والسند والترك والخزر والتبت والديلم وخراسان"، "ولولد سام: الحجاز واليمن وباقي الأرض"، و"ولد حام المغرب وماوراء الفرات إلى مسقط الشمس"[٢٢٠]، فيجعل بذلك إفريقية برمتها لأولاد حام.

ويروي لنا المسعودي في نص طويل في "أخبار الزمان" كيف تفرق أولاد حام بن نوح الذين عبروا إلى مصر في أرجاء بلاد إفريقية المختلفة "وكان آخر أمر حام أن هرب إلى مصر، وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى انتهى إلى السوس الأقصى.. فيقال أن بنيه اغتموا لمكانه، وندموا على تركه، فخرجوا على أثره يطلبونه في النواحي التي قصدها، فيقال أن منهم طوائف وقعت عليه، فكانوا معه إلى أن مات وقطنوا ذلك البلد وسكنوا به، وهم أصناف السودان. فكل طائفة من ولده بلغت موضعاً في طلبه فانقطع خبره عنهم، أقاموا بذلك الموضع وتناسلوا فيه"[٢٢١].

---

(٢١٦) صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، المصدر السابق، ص٣٨.

(٢١٧) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي: التنبيه والإشراف، قسم أول، تحقيق قاسم وهب، وزارة الثقافة-دمشق ٢٠٠٠، ص١٥٣-١٥٥. راجع أيضاً، ابن الفقيه حيث يجعل من "الحبشة" رمزاً لشعوب القارة "وقالوا أيضاً الأقاليم سبعة: إقليم في أيدي العرب، وإقليم في أيدي الروم، وإقليم في أيدي الحبشة، وإقليم في أيدي الهند، وإقليم في أيدي الترك، وإقليم في أيدي الصين، وإقليم في أيدي يأجوج ومأجوج"، مختصر كتاب البلدان، ص٥.

(٢١٨) أحمد سوسة، الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٣٠.

(٢١٩) السيوطي، رفع شأن الحبشان، المصدر السابق، ص٢١٤.

(٢٢٠) أحمد ابن أبي يعقوب بن واضح الكاتب اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ص٢٠.

(٢٢١) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، الجزء الأول، دار الأندلس، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٦٦، ص٨٦.

وحدة شعوب السودان:

إذا كنا قد لاحظنا الغموض الذي يحيط تصور العرب لوحدة شعوب القارة الإفريقية، فإن وحدة الشعوب السودانية تبدو لهم أكثر وضوحاً وتأكداً، فهم يجمعهم اللون والسلالة والموقع الجغرافي في القسم المعمور من الأرض، حيث أنهم يتفرعون سلالياً عن أسود بن كنعان بن حام، الذين يكرس لهم المسعودي فصلاً خاصاً يتتبع كيف تفرع عن نسل "سودان بن كنعان" أمم السودان والزنج، مشيراً "ومن ولد السودان بن كنعان أمم منهم الأشبان والزنج، وأجناس كثيرة تناسلت بالمغرب نحو سبعين جنساً، وهم مختلفون في أفعالهم، ولهم ملوك"(٢٢٢)، ثم يعدد الشعوب المعروفة لديه من السودانيين جنوب الصحراء "ومن ولد سودان: الكركر وبهم سميت المملكة التي هي أعظم ممالك السودان.. وملك غانة وملكها أيضاً عظيم الشأن، ويتصل ببلادهم معادن الذهب.."(٢٢٣)، ثم يقول "ومن الأجناس المشهورة منهم ملك الدهدم (لعلهم الدمدم)، يسار إليها من الكركر على شاطئ البحر" وأيضاً "مملكة الزغاوة الواسعة والكبيرة، ومملكة توات"(٢٢٤)، ويضيف إلى هؤلاء "وتتصل بمملكة الحبشة مملكة الزنج، وهم على البحر المالح، ولهم ممالك واسعة، وهم ولد سودان بن كنعان"(٢٢٥).

ويشير الدمشقي "ويقال أن حاماً ولد له ثلاثة أولاد: قفط وكنعان وكوش، فقفط أبو القبط، وكوش أبو السودان، وكنعان أبو البربر"(٢٢٦). ويذهب الدمشقي في تعريف شعوب السودان، إلى الجمع ما بين شعوب شرق إفريقيا السوداء وفي مقدمتها الحبشة، وشعوب غرب ووسط إفريقية السوداء، وهم الذين يقعون جنوب الصحراء الكبرى إلى جنوب خط الاستواء، في نهاية ما يعرف عنده بالأقاليم المعمورة من الأرض، فيذكر "وأما السودان فطوائف كثيرة، نبدأ منهم بمكان مساكنهم الواغلة في الجنوب ويطلق عليهم التكرور... وينقسمون إلى كفار ومسلمين، فالمسلمون يسكنون المدن ويلبسون المخيط، والكفار طوائف وهم لملم وتميم ودمدم، فمن قارب المسلمين يسترون فروجهم بجلود، ومن بَعُد منهم يأكلون من وقع إليهم من الناس.. والذهب في بلادهم كثير... ومن طوائف المسلمين غانم وغانة وكوكو وكوار وفزان وزغوا.. ومن طوائف السودان الحبوش المقاربة لزغاوة... ويقال أن النجاشي منهم.. ومن طوائف السودان النوبة"(٢٢٧).

ويذهب اليعقوبي إلى أن أولاد كوش بن حام "افترقوا: وهم الحبشة والسودان لما عبروا نيل مصر إلى فرقتين: فقصدت فرقة منهم التيمن (= الجنوب) وهم: النوبة والبجة والحبشة والزنج، وقصدت فرقة "الفرقة الثانية" المغرب: وهم زغاوة والحبش والقامو والمريون ومرندة والكوكو وغانة"(٢٢٨).

ويذكر السيوطي ـ كدلالة على ما يوحد السودان- عن أبي بكر البزار وإبراهيم بن هاني وأحمد بن الحسين، قولهم "أن اسم أجناس وجميع فرق السودان يعطون الطاعة لملك الحبشة، وكان قديماً يلقب بالنجاشي، أما الآن فيلقب بالحطي"(٢٢٩).

ولم يقتصر تحديدهم لأجناس السودان على أساس وحدة النسل أو اللون الأسود، بل هناك تحديداً جغرافياً وضعوا فيه أجناس السودان، على حدة، وغالباً في أقصى جنوب الجانب المعمور من الأرض، وعلى حافة البلاد غير المعمورة، أو بلاد الخراب التي لا تصلح للعيش في ظروف طقس شديد الحر، بجوار خط الاستواء وعلى

---

(٢٢٢) المصدر السابق، ص٨٧.

(٢٢٣) المصدر السابق، ص٨٨.

(٢٢٤) المصدر السابق، ص٨٩.

(٢٢٥) المصدر السابق، ص٩٠.

(٢٢٦) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، المصدر السابق، ص٢٦٦.

(٢٢٧) المصدر السابق، ص٢٦٨.

(٢٢٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، المصدر السابق، ص٢١٦.

(٢٢٩) السيوطي، رفع شأن الحبشان.

الأخص في الإقليم الأول وهو واحد من سبعة أقاليم قسموا المعمور من الأرض إليها "فالأول من خط الاستواء وإلى ماورائه وما خلفه وفيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم، وكل هؤلاء سود، سوادهم من قبل الشمس فإنه لما كان حرها شديد وطلوعها عليهم ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين، ولاتزال قريبة منهم أسخنتهم إسخاناً محرقاً، وصارت شعورهم سوداً حالكة جعدة مفلفلة أشبه شيء بشعر أدنيَ من النار حتى يشيط"(٢٣٠).

أمم السودان في الأرض المعمورة:

تداول الباحثون العرب العديد من التصانيف للعالم ولمواقع الأمم المختلفة عليه، قبل أن يستدلُّوا إلى فكرة الأقاليم التي أخذوها أولاً عن الفرس والهنود ثم عن اليونانيين والرومان، وظلت تلك التصانيف متداولة عند بعض الجغرافيين وأصحاب التصانيف لفترة متأخرة إلى جانب تصنيفهم الإقليمي للكرة الأرضية، وبالتالي فقد تأثر ترتيبهم لمواقع السودان-الزنج تبعاً لاعتمادهم هذا التصنيف أو ذاك.

وتناقل الجغرافيون حتى وقت متأخر قول ينسبونه إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، ونسبه بعضهم لأفريدون كالدمشقي، الذي يجعل العالم يشبه في هذا التقسيم "صورة طائر: رأسه في الصين وجناحه الأيمن في الهند وجناحه الأيسر الخزر والترك، وصدره اليمن والعراق والشام ومصر، وذنبه المغرب، وانفراش الريش منه للسودان"(٢٣١)، فنلاحظ في هذا التخيل نوعاً من التصنيف التراتبي لأمم العالم بما فيها السودان الذين وصفهم هذا التصور في أطراف العالم كامتداد للذنب، بينما احتلت بلاد الإسلام التي تمثلها (العراق والشام ومصر) الصدر، أي الموقع المركزي للعالم، وبقية الأمم احتلت موقع الرأس والجناحين.

وهناك تقسيم ينسبونه إلى أردشير، بأنه قسم الأرض "أربعة أقسام: أحدها للترك، والثاني للعرب، والثالث للفرس، والرابع للسودان"(٢٣٢)، وينطوي هذا التقسيم على مساواة أمم السودان من حيث الأهمية والمكانة بالأمم الكبرى في العالم.

كما أن هناك تقسيمات سباعية نسبت كل إقليم-كما رأينا سابقاً- لأمة من الأمم، ونجد ذلك عند صاعد الأندلسي والمسعودي وغيرهما بجانب تصانيفهم الأخرى، لكن منذ القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي أعطى المؤلفون العرب "الإقليم" مفهوماً جغرافياً، مع تعييناته البيئية والبشرية، فطرأ على اصطلاح "الإقليم" تغيرات جدية، لخصها ياقوت الحموي باصطلاحات أربعة "الاصطلاح الأول: اصطلاح العامة وجمهور الأمة، وهو جار على ألسنة الناس دائماً، وهو أن رسموا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليماً، نحو الصين وخراسان والعراق.. الاصطلاح الثاني: لأهل الأندلس خاصة، فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليماً. الاصطلاح الثالث: للفرس.. قسموا الممالك المطبقة (المحيطة) بإيرانشهر في سبع كشورات (= أقاليم).. والاصطلاح الرابع: وعليه اعتماد أهل الرياضة والحكمة والتنجيم، وهو متوهَّم يمتد طولاً من المشرق إلى المغرب"(٢٣٣).

وعلى أساس مفهوم الاصطلاحين الأول والثاني بنت الجغرافية الكلاسيكية العربية في القرن العاشر الميلادي مفهوماتها عن العالم، وعلى أساس الاصطلاح الثالث اقتبس العرب المفهوم الإيراني الهرمسي في تقسيمهم العالم لكشورات (أقاليم) تدور حول إيرانشهر، بعد أن حوره المؤلفون العرب ليصبح إقليم العراق إقليماً مركزياً باعتباره مركز الخلافة العباسية، أما الاصطلاح الرابع فيعتمد على التأثير اليوناني ولا سيما تأثير بطلميوس في ترتيبه الجغرافي

---

(٢٣٠) الدمشقي، نخبة الدهر..، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٢٣١) المصدر السابق، ص٢٤. راجع أيضاً، ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣.

(٢٣٢) المصدر السابق، ص٢٤.

(٢٣٣) ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، المجلد الأول، دار صادر، بيروت ١٩٥٥، ص٢٦.

الفلكي للأقاليم كأحزمة موازية لخط الاستواء.

لقد التزمت المؤلفات الجغرافية الإقليمية التزاماً تاماً بفكرة الإقليم، وتنازعها في بداية أمرها تأثيرات جاذبية المفهومات الإيرانية وما يقابلها من مفاهيم عند اليونان حول مفهوم الأقاليم، اللذان قسَّما العالم المعمور إلى سبعة أقاليم، الأولى منها قائمة على أساس رياضي فلكي موازية لخط الاستواء، والثانية الإيرانية: دوائر محيطة بالعراق كممثل لدار الإسلام، وبقي المفهوم الإيراني حياً بعد أن طوِّع ليناسب مفهوم مركزية العراق العالمية، فنجده متداولاً عند المسعودي في القرن العاشر الميلادي، إلى جانب المفاهيم الأخرى التي يتداولها في مؤلفاته، فيضع بلاد السودان في إقليمين، الأول في الحبشة والثاني مع مصر، وذلك حينما يعود إلى هرمس ليجعل أقاليم العمران تحيط بالإقليم الرابع "بابل"، وهو عند المسعودي "العراق"، والستة الباقية تدور حوله، وكل إقليم طوله سبعمائة فرسخ (الفرسخ= ٢٥ ميل، والميل ٤ كم)، فالإقليم الأول الهند، والثاني الحجاز والحبشة، والثالث مصر وإفريقيا، والرابع بابل والعراق، والخامس الروم، والسادس يأجوج ومأجوج، والسابع بوماريس والصين(٢٣٤).

لقد تردد الكثير من الجغرافيين بين الأخذ بالتقسيم البطلميوسي الفلكي-الرياضي، أو الأقاليمي المتأثر بطريقة الجغرافية العربية، أو المتأثرة بمذهب "السند والهند" والمذهب الهرمسي الإيراني، رغم أن هؤلاء الجغرافيين لم يستسلموا لأي من هذه المذاهب بالكامل، إذ قدمت (خريطة المأمون) التي أنجزها عدد من العلماء العرب، تعريباً للأسماء اليونانية، وكان وضع الخريطة بحد ذاته تعبيراً عن شعور العرب بإمساكهم بقيادة العالم؛ بل نجد عند المؤلف الواحد تداولاً لهذه التصانيف المختلفة، فقد دأب بعضهم كابن رستة وابن خرداذبة وابن الفقيه في الجمع بين التصانيف هذه، وسخَّروا الأطر النظرية المقتبسة تلك لأغراضهم، إلاَّ أنهم جعلوا للعاصمة السياسية الإسلامية (بغداد) أو للمدن المقدسة الإسلامية (مكة، المدينة) الموقع المركزي في ترتيبهم للأقاليم، فأصحاب المصنفات "البلدانية" و"المسالك والممالك"، كابن رستة بعد عرضه للعالم على أساس التنظيم الفلكي يقوم بتقسيم العالم إلى سبعة أقاليم، حيث يعرفنا على الأقاليم والبلدان واحداً بعد آخر دون التقيد بذلك التقسيم، بادئاً بمكة ثم بإيران شهر أو العراق التي تقع فيها بغداد، وبعدها اليمن ومصر ورومة وبيزنطة وبلاد البلقان وبلاد آسيا والبحار، بعدها ينظر إلى العراق التي تفصل البلدان المختلفة عن بغداد. بينما يبدأ اليعقوبي بالعراق قائلاً "وإنما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرَّة الأرض، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى"(٢٣٥)، "وقد ذكرنا بغداد وسرَّ من رأى وبدأنا بهما لأنهما مدينتا الملك ودار الخلافة، ووصفنا ابتداء أمر كل واحدة منهما، فلنذكر الآن سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلد ومدينة، على أقسام أربعة حسب ما تقسم عليه أقطار الأرض بين المشرق والمغرب ومهب الجنوب وهو القبلة ومهب الشمال"(٢٣٦). وعلى هذا يضع البلاد الإفريقية بما فيها مصر والمغرب العربي والسودان في ربع المغرب.

أما ابن خرداذبة، فإلى جانب أخذه بفكرة الأقاليم الفلكية في مقدمة كتابه، يعطي وزناً للبعد الديني لمدينة مكة أهمية استثنائية، فهي القبلة التي يتجه إليها المسلمون في صلاتهم لوجود الكعبة فيها، من هنا يرتب الأقاليم المختلفة في العالم، بما فيها أقاليم السودان أو المدن السودانية تبعاً لاتجاهه لإحدى أركان الكعبة المشرَّفة، من هنا فإن "قبلة أهل المغرب وإفريقية ومصر والشام والجزيرة فوسط المغرب وصلاتهم إلى الركن الشامي ووجوههم

---

(٢٣٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، ج١، ص٧١.

(٢٣٥) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب اليعقوبي: كتاب البلدان، يلي "كتاب الأعلاق النفيسة" لابن رستة، دار صادر - بيروت، دون تاريخ، المصدر السابق، ص٢٣٣.

(٢٣٦) المصدر السابق، ص٣١٨.

إذا صلوا إلى وجوه أهل المنصورة (= مدينة هندية) إذا صلوا"[٢٣٧]، دون أن ينسى ابن خرداذبة نفسه المكانة السياسية الكبرى للعراق وقلبه مدينة بغداد، حيث تصبح في كتابه بؤرة لسرده للمسافات والطرق "المسالك والممالك" التي تفصلها عن هذه المدينة أو تلك من مدن العالم، ويحتذي قدامة بن جعفر حذوه بذلك في كتابه "الخراج وصفة الكتابة" منطلقاً من مفهوم "دار الإسلام" و"مملكة الإسلام" التي يجعلها تمثل مركز العالم، والممالك الأخرى في العالم المعمور بما فيها ممالك السودان تتحلق حولها "لأن قصبة مملكة الإسلام بلد العراق"[٢٣٨]، وبعد أن ينتهي من أقاليم مملكة الإسلام، يطوف بـ"ثغور الإسلام والأمم وللأجيال المطبقة بها"[٢٣٩].

ولعل مفهوم مركزية "دار الإسلام" للعالم المعمور-ولا سيما بغداد ومكة- قد اقتبسه المؤلفون العرب من المفهوم الإيراني الهرمسي، الذي قسَّم العالم المعمور بمقتضاه إلى سبعة أقاليم على شكل دوائر سموها كاشورات، تحيط بالإقليم الرابع (إيرانشهر) كمركز للعالم، فشكل هذا المفهوم قيداً على انبساط أبحاثهم ومشاهداتهم التي اغتنت مع الأيام برحلاتهم المطردة، وضاقت ذرعاً بهذا المفهوم.

ولقد رهن أصحاب المدرسة الجغرافية العربية، ولا سيما الأصطخري وابن حوقل والمقدسي، أبحاثهم بمجال "دار الإسلام" لتنامي الثقة بالاكتفاء الذاتي بالثقافي الإسلامي عند هؤلاء المؤلفين في ذروة النهضة الثقافية العربية-الإسلامية في القرن العاشر الميلادي، الذي يسميه متز Mitis بعصر النهضة الإسلامية، فإلى جانب استرشادهم في مقدماتهم على نطاق ضيق للغاية بفكرة الأقاليم الفلكية، فإنهم أفردوا للمفهوم الإقليمي (البلداني-البشري) دوراً رئيسياً، قسم الأصطخري وابن حوقل على أساسه "دار الإسلام" إلى عشرين إقليماً، بينما أفرد المقدسي سبعة أقاليم للعجم يقابلها سبعة أقاليم للعرب.

فقدموا لنا تعريفاً للعالم وعلاقته بدار الإسلام على أساس الجمع بين المفهوم الفلكي والبلداني للأقاليم، الذي ثبتوه في بداية مؤلفاتهم للتعريف بصورة الأرض الكروية التي يحيل ربعها الشمالي إلى العالم المعمور، المقسم إلى سبعة أقاليم فلكية موازية لخط الاستواء من الجنوب إلى الشمال، وبين المفهوم الإقليمي (البلداني) الذي عرفونا فيه على الأقاليم على أساس وحدتها الاقتصادية والسياسية والإدارية والإثنوغرافية.

وتبدو "صورة الأرض" التي تركها لنا ابن حوقل نموذجاً لأصحاب هذه المدرسة، فتظهر لنا "دار الإسلام" في وسط الكرة الأرضية تحيط بها (ممالك الكفار)، وهو في كل ذلك يحذو حذو الأصطخري، بل يقتبس منه الكثير من فقرات مؤلفه "المسالك والممالك".

ويشرح لنا ابن حوقل مخطط كتابه "وقد حررت ذكر المسافات واستوفيت صور المدن وسائر ما وجب ذكره، واتخذت لجميع الأرض التي يشتمل عليها (يحيط بها) البحر المحيط الذي لا يُسلك صورة تضاهي صورة القواذبان.. وأعربت عن مكان كل إقليم.. واتصال بعضه ببعض.. وما توخيته من ترتيبه وأشكاله، وقصصته من أحواله وأخباره"[٢٤٠]. ثم يبين قائلاً "قد فصلت بلاد الإسلام إقليماً إقليماً وصقعاً صقعاً وكورة كورة لكل عمل، وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليماً واحداً لأن الكعبة فيه ومكة أم القرى، وهي واسطة الأقاليم"[٢٤١].

---

(٢٣٧) أبو القاسم عبد الله بن أحمد ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ليدن، بريل ١٨٨٩، ص٥.

(٢٣٨) قدامة بن جعفر، أبو الفرج: نبذ من كتاب الخراج، وصنعة الكتابة، ملحق بكتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة، ليدن، مطبعة بريل، ١٨٨٩، ص١٨٥.

(٢٣٩) المصدر السابق، ص٢٣٤.

(٢٤٠) أبو القاسم بن حوقل النصيبي ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢، ص١٥.

(٢٤١) المصدر السابق، ص١٥-١٦.

وعلى الرغم من اهتمامه الأكيد بـ"دار الإسلام" وبأوضاعها البشرية والاقتصادية، فإنه يعرج على الأمم الأخرى إن كان في أوربا أو آسيا الشرقية، ويتوقف عند بلاد السودان متردداً من الاقتراب لوصفها، متعللاً بافتقاد أغلب أمم السودان الموغلة في الجنوب الحار لعماد الحضارة وهو الدين والملك والآداب. فهو ينطلق من اعتبار "جميع الأرض عامرها وغامرها وهي مقسومة على الممالك، وعماد ممالك الأرض أربع: فأعمرها وأكثرها خيراً وأحسنها استقامة في السياسة وتقويم العمارات ووفور الجبايات مملكة إيران شهر وقطبها إقليم بابل"[٢٤٢]، التي ورثتها "دار الإسلام" بعد أن "أخذت من كل مملكة بنصيب، فأخذت من مملكة الروم: الشام ومصر والمغرب والأندلس، وأخذت من مملكة الصين: ماوراء النهر"[٢٤٣]، ثم يذكر أنه تعرَّض أيضاً إلى مملكة الروم التي يدخل فيها "الصقالبة ومن جاورهم من الروس والسرير واللان والأرمن ومن دان بالنصرانية" وأيضاً "مملكة الصين يدخل فيها سائر بلاد الأتراك وبعض التبت ومن دان بدين أهل الأوثان" أما الثالثة فهي "مملكة الهند يدخل فيها السند وقشمير وطرف من التبت ومن دان بدينهم". ويختم حديثه عن هذه الممالك بذكر ممالك السودان بقوله "ولم أذكر بلدان السودان في المغرب والبُجة والزنج، ومن في أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحِكم وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة" إلا أنه يستدرك قائلاً "غير أن بعض السودان المقاربين هذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحِكم، ويقاربون أهل هذه الممالك كالنوبة والحبشة فإنهم نصارى يرتسمون مذاهب الروم"[٢٤٤]، معللاً اهتمامه بتلك الأمم السوداء الأخيرة لاعتناقها الدين المسيحي-النصراني باعتباره دين كتاب، يميزها بذلك عن الديانة الوثنية التي يعتبرها من علائم التخلف في العمران والحضارة.

لكن أكثر النظريات الجغرافية تأثيراً على تصور أصحاب المدونات العربية هي نظرية بطلميوس الجغرافية، ونظرية جالينوس في مجال تأثير المجال الفلكي على طبائع البشر، حيث شكلت هاتان النظريتان إطاراً معرفياً تحوَّل مع تقدم المعارف العربية وتجاربهم وسعة مشاهداتهم التجريبية إلى كوابح نظرية حقيقية أمام مقارباتهم العلمية وأمام إمكانية تصحيح تصوراتهم عن إفريقيا السوداء وعن أمم السودان.

ولقد استبدلوا تقسيمات بطلميوس الفلكية تدريجياً، أي تقسيم العالم المعمور إلى أقاليم سبعة على شكل أحزمة توازي في أطوالها خط الاستواء شرقاً وغرباً، وتبدأ من خط الاستواء مرتبة من الجنوب إلى الشمال على أساس خطوط العرض، بدلاً من تقسيماتهم السابقة وفي مقدمتها تقسيمهم العالم إلى سبعة أقاليم على شكل دوائر- على طريقة الفرس- حول حاضرة الخلافة العباسية في العراق، وكان الخوارزمي أول من أخذ بطريقة بطلميوس، ثم حذا حذوه الفرغاني وسهراب والبيروني، واعتمدها الإدريسي وابن سعيد المغربي حيث اعتبروها أفضل طرق للتقسيم لاعتمادها على قواعد طبيعية وعلمية.

انتقل النظر إلى أمم السودان - تبعاً لتبدل التصورات الجغرافية- من النظر إليها كإقليم من الأقاليم الدائرة حول الإقليم الرابع "العراق"، أو بنسبتهم إلى أمة من الأمم التي تحمل اسم الإقليم كـ(مصر أو لوبيا أو الحبشة)، أو النظر إليها كإقليم جغرافي وحسب أي كولايات لها خصائصها الطبيعية والبشرية على طريقة المدرسة الجغرافية العربية، إلى النظر إليها في إطار إقليم فلكي - رياضي محدد بخطوط الطول والعرض، ويرى بعض الباحثين أن هذه الطريقة أخذ بها العرب قبل تعرّفهم على بطلميوس، ويؤكد كريمر ذلك حيث يقول "إن طريقة الأقاليم السبعة هذه هي الطريقة التي مهر بها العلماء المسلمون قبل أن يتلقوا جغرافية بطلميوس، ومن ثم أصبحت هذه الطريقة مذهباً شائعاً في المصنفات الفلكية الإسلامية بعد أن كانت في الجغرافية القديمة فكرة

---

(٢٤٢) المصدر السابق، ص١٩.
(٢٤٣) المصدر نفسه، ص١٩.
(٢٤٤) المصدر نفسه، ص١٩.

ثانوية"[٢٤٥].

موقع أمم السودان الفلكي في العالم المعمور:

مع تعرف المصنفين العرب على المفاهيم اليونانية التي بدت لهم أكثر علمية لاستنادها على حسابات فلكية ورياضية، مالوا إلى تقسيم العالم المعمور إلى سبعة أقاليم على هيئة أحزمة عرضية متوهمة تمتد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب فوق خط الاستواء، وتمتد خطوط عرضها من الجنوب إلى الشمال، ويختلف عرض كل إقليم تبعاً لعدد ساعات النهار فيه، بادئين من الإقليم الأول القريب من خط الاستواء وموضعوا أمم السودان فيه.

ولعل ما سهل اقتباس العرب لفكرة الأقاليم السبع قبل معرفتها بطلميوس وبعده، هو أنها اتفقت في مغزاها مع المفهوم القرآني للأراضي السبع، والسنوات السبع. ورأى البعض الآخر أن هذا جاء من جراء اشتغال العرب بعلم التنجيم، وربطه الحوادث بالنجوم وبالعبادات القديمة للكواكب السبع[٢٤٦].

وقد توافق أخذهم بهذا التصور (الإقليمي السباعي) الفلكي، ووضع الأمم السوداء في الجنوب المحاذي لخط الاستواء، مع تصور مقابل هيمن على وعي أهل المصنفات الجغرافية العربية، وهو ذلك التصور الذي نظر إلى الأرض ككرة لا يشكل العالم المعمور منها سوى الربع، فهم اتفقوا على أن الأرض "مدورة كتدوير الكرة الموضوعة في جوف الفلك، كالمحة في جوف البيضة، والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلى الفلك، وبنية الخلق على الأرض، وأن النسيم جاذب لما في أبدانهم من الخفة، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل.. والأرض مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء، وهو من المشرق إلى المغرب، وعرض الأرض من القطب الجنوبي الذي يدور حوله سهيل، والقطب الشمالي الذي يدور حول بنات نعش؛ واستدارة الأرض في موضع خط الاستواء ثلثمائة وستون درجة، والدرجة خمسة وعشرون فرسخاً، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع... فيكون ذلك تسعة آلاف فرسخ"[٢٤٧].

واتفق الباحثون العرب على أن الجانب المعمور القابل للسكنى والعيش يعادل ربع الأرض، ويقع في نصف دائرة الأرض الشمالية شمال خط الاستواء، أما ثلاثة الأرباع الباقية أو الجانب المغمور كما يسموه فيعادل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وهو مغمور بمياه المحيط الذي يحيط في الجزء العامر من كل جهاته "فالخلق في الربع الشمالي عن الأرض، والربع الجنوبي خراب، والنصف الذي تحتنا (= أي في الوجه الذي يقابلنا من كرة الأرض) لا ساكن فيه"[٢٤٨]. فوضعوا بلاد السودان في الناحية الجنوبية القصوى للربع المعمور من الأرض، القريب من خط الاستواء، حيث الحرارة مفرطة، وبقرب الجزء المغمور من الأرض الذي لا يناسب العيش والحياة، فالأرض قسمان "أحدهما مسكون والآخر غير مسكون، والعامر منهما أقسام: أحدهما مفرط الحر، وهو ما كان على جهة الجنوب (وفيه بلاد السودان) لأن الشمس تقرب منه، فيلتهب هواؤه.. والآخر الشمالي مفرط البرد لبعد الشمس عنه، وأن المشرق والمغرب فمعتدلان، وإن كان فضل الشرق أظهر واعتداله أشهر"[٢٤٩].

وقد تفاوت تقدير الباحثين والجغرافيين العرب للمسافات وللدرجات التي يصل إليها العمران جنوب خط الاستواء وشماله، وإن ظلوا متفقين على وضع بلاد السودان والزنج في أقصى الجنوب العامر من الأرض، حيث تفاوت تقديرهم

---

(٢٤٥) عن سوسة، المصدر السابق، ص٢٢٣.

(٢٤٦) سوسة، أحمد الشريف: الإدريسي، نقابة المهندسين العراقيين، مكتبة جهري، بغداد ١٩٧٤، ص٢٣٣.

(٢٤٧) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص٤. راجع أيضاً، ابن رستة، كتاب الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، المصدر السابق، ص٨. وراجع أيضاً ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٥. وراجع أيضاً، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثاني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، المكتبة التجارية الكبرى، ط٤، مصر ١٩٦٤، ص٢١٥.

(٢٤٨) الحموي، المجلد الأول، المصدر السابق، ص٢٠.

(٢٤٩) المسعودي، التنبيه والإشراف، ج١، المصدر السابق، ص٥٨-٥٩.

لامتداده جنوب خط الاستواء ما بين ١٢ درجة إلى ٢٤ درجة، ولشمال خط الاستواء ما بين ٦٣ درجة إلى ما يقارب الـ٨٥ درجة، أي قدَّروا عرض الجزء المعمور برمته من الجنوب إلى الشمال إلى ما يقارب الـ٨٠ درجة إلى ٩٠ درجة، أما عدد أقاليمه فسبعة أقاليم؛ وينفرد القليل من الباحثين العرب وفي مقدمتهم ابن رشد وابن سعيد المغربي في الحديث عن احتمال عدم انقطاع وجود الحياة البشرية ماوراء خط الاستواء جنوباً حتى حدوده القصوى، فنقرأ عند ابن خرداذبة "وعمارة الأرض بعد خط الاستواء (= جنوباً) أربعة وعشرون درجة، ثم الباقي قد غمره البحر الكبير، فنحن في الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه، والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه"[٢٥٠].

ونعلم من المقدسي أن ما بين "خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة واستدارتها عرضاً مثل ذلك، لأن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء (= جنوباً) أربع وعشرون درجة، ثم الباقي فقد غمره البحر، فالخلق على الربع الشمالي من الأرض والربع الجنوبي خراب"[٢٥١]، بينما يستأنس المسعودي في رأي بطلميوس القائل أن العمارة شمالاً عند ثلاثة وستين درجة، وأن نهاية العمران في الجنوب خلف خط الاستواء ستة عشر درجة، ليصل إلى تقرير "فالموضع الذي يكون بَعُد في شمال عن خط معدل النهار (= خط الاستواء) ستاً وستين درجة، لا يمكن أن يكون فيه نشور (= حياة) لإفراط البرد عليه لبعد الشمس عنه، والموضع الذي بَعُد في الجنوب عن خط معدل النهار (= خط الاستواء) تسع عشرة درجة، لا يمكن أيضاً أن يكون فيه نشور لإفراط الحر عليه لقرب الشمس فيه"[٢٥٢]. ويعرض المسعودي نفسه لرأي يعقوب بن إسحاق الكندي القائل "إن الموضع الذي لا يمكن أن يكون فيه عمارة عرضه في الجنوب أحد وعشرون جزءاً"[٢٥٣]، كما يعرض لرأي آخر مفاده "أن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربعة وعشرون درجة، وأن الباقي قد غمره البحر الكبير" أما في الشمال "فينتهي إلى جزيرة تولى التي في بريطانية، ويكون العرض.. قريباً من ستين درجة"[٢٥٤].

ويخلص المسعودي إلى أن عرض مساحة الأرض المعمورة من الشمال إلى الجنوب بالقول "ومقدار نهاية العمارة في الشمال إلى نهايتها في الجنوب ثمانون جزءاً، ويكون ذلك عند هؤلاء (الذين يقولون بهذا الرأي) من الأميال خمسة آلاف ميل (الميل يساوي تقريباً أربعة كم) وأقل من أربعمائة ميل"[٢٥٥].

ويذهب ابن سعيد المغربي - رغم بقائه في ظل الترسيمة السائدة - إلى إضافة إقليم آخر في الجنوب سماه "المعمور خلف الاستواء" وذلك لاستيعاب (الاكتشافات) والمشاهد الرحلية التي اكتسبها عصره، إلاَّ أنه أبقى حدود هذا الإقليم عند الدرجة ١٦ جنوب خط الاستواء[٢٥٦].

ويلخص ابن رستة تصور الجغرافيين العرب للعالم المعمور، ولموقع البلاد السودانية فيه، بتأكيده على أن خارج هذه الأقاليم السبعة شمالاً وجنوباً "أرضون مجهولة لم يصل إليها أحد.. ولا أذكر أحد أنه عاين أحداً من تلك

---

(٢٥٠) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص٥. راجع أيضاً، الشريف الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمود بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان وتاريخ، ص٨.

(٢٥١) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الشامي المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مدينة ليدن، مطبعة بريل ١٩٠٦، ص٥٩.

(٢٥٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ج١، المصدر السابق، ص٥٩.

(٢٥٣) المصدر نفسه، ص٦٠.

(٢٥٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، تحقيق محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ط٤، ١٩٦٤، المصدر السابق، ص٨٦.

(٢٥٥) المسعودي، التنبيه والإشراف، ج١، المصدر السابق، ص٦٠.

(٢٥٦) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠، ص٧٩.

الأرضين، فلا يعلم ما فيها من نبات أو حيوان، إلا أنه قد نعلم اضطراراً (= بالضرورة الطبيعية) أنه غير ممكن أن يكون في المطالع (= المواقع) التي يفرط حرها أو بردها حيوان أو نبات..." وذلك "لأن المواضع التي يفرط فيها البرد لبعد الشمس عنها، ويفرط فيها الحر لقربها منها، لا يتركب فيها حيوان، كما في المواضع التي لا تبعد عن مدارها ولا تقرب منه جداً. وذلك أن المواضع التي بعدت من مدار الشمس الصيفي الذي هو رأس السرطان، وفي الشمال ستة وستين جزءاً، وإذا زيد عليه الميل كله، وهو أربعة وعشرون جزءاً على التقريب يكون ذلك تسعين جزءاً، فهذا الموضع الذي لا يقر فيه حيوان ولا ينبت فيه نبات لبعده عن مدار الشمس من شدة برده... أما المواضع الجنوبية المحترقة من شدة الحر فإن الموضع الذي عرضه عند خط الاستواء تسع عشرة درجة لا يتركب فيه حيوان ولا نبات لشدة حرارة الشمس فيه"[٢٥٧].

وعلى هذا الأساس الفلكي - الرياضي قام المصنفون العرب بتقسيم هذا الربع المعمور من الأرض إلى أقاليم سبعة، على شكل أحزمة عرضية موازية لخط الاستواء تمتد طولياً من الشرق إلى أقصى حدود الصين، حتى جزر السعادات في المحيط الأطلسي (أوقيانوس - البحر المظلم)، وتمتد عرضياً من الجنوب إلى الشمال، وكما يقول الإدريسي "وهذا الربع المسكون من الأرض قسمته العلماء سبعة أقاليم، كل إقليم منها مار من المغرب إلى المشرق على خط الاستواء. وليست هذه الأقاليم بخطوط طبيعية لكنها خطوط وهمية محدودة موجودة بالعلم النجمي"[٢٥٨]؛ وتقع بلاد السودان في الإقليم الأول، أو في الإقليم الأول والثاني، في محاذاة المغمور من الأرض، وهي أقاليم تقع فيها الأجزاء الجنوبية من الصين والهند وفارس وأجزاء من الجزيرة العربية بما فيها المدن المقدسة الإسلامية، غير أن المؤلفين العرب استثنوا الجزيرة العربية ومعها الصين والهند من الخصائص العامة التي يتسم بها الإقليمين الأول والثاني التي تقع فيهما، كما تقع فيهما بلاد السودان، وعللوا ذلك بإحاطة البحر لجزيرة العرب (وكذلك الصين والهند)، وهو ما يوفر لها الرطوبة الكافية التي يجنبها اليباس والسواد الشديد وهو ما يميز بلاد السودان، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله "فنقص ذلك من اليبس، والانحراف الذي يقتضيه الحر"[٢٥٩].

يضع ابن رستة-على هذا الأساس- بلاد السودان-الزنج في سياق هذا التقسيم الرياضي-الفلكي داخل إقليمين، فالإقليم الأول الذي يبدأ حسب ابن رستة من المشرق في أقصى الصين ماراً ببلاد السند الجنوبية، ثم في جنوب الجزيرة العربية واليمن، إلى أن يقطع "بحر القلزم، فيمر على الحبشة، ويقطع نيل مصر، وفيه هناك مدينة ملك الحبشة تسمى (جرمى)، ودنقلة مدينة النوبة، ثم يمر الإقليم في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر إلى أن ينتهي إلى بحر المغرب"[٢٦٠]، أما الإقليم الثاني فبعد أن يمر أيضاً بالصين والهند وبلاد السند وجزيرة العرب "وفيه المدن المقدسة الإسلامية: مكة والمدينة" يأتي فيقطع القلزم والنيل "وفيه من المدن هناك مدينة قوس وأحميم وأسناي والصنفا وأسوان، ويمر في أرض المغرب على وسط بلاد إفريقية، ثم يمر ببلاد البربر وينتهي إلى بحر المغرب (= الأطلسي)[٢٦١].

ويتفق الكثير من المصنفين العرب مع ما ذهب إليه ابن رستة، من انتساب السودان إلى الإقليمين الأول والثاني، كما هو حال ياقوت الحموي حين يعدد المدن السودانية التي تنتسب إلى الإقليم الأول "ومن بلاد المغرب تبالة، ومدينة صاحب الحبشة جرمى، ومدينة النوبة دُمقلة، وجنوب البرابر، وغانة من بلاد سودان المغرب إلى البحر الأقصى"، بينما يضع في الإقليم الثاني " جزء من مملكة الحبشة، وأرض البجة،

---

(٢٥٧) ابن رستة، المصدر السابق، ص٩٩.

(٢٥٨) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، المصدر السابق، ص٩.

(٢٥٩) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص١٥١. راجع أيضاً، الإدريسي، المصد

(٢٦٠) ابن رستة، المصدر السابق، ص٩٦.

(٢٦١) المصدر نفسه، ص٩٦.

وأسوان وقوص، ومن الغرب إفريقية"[٢٦٢].

كذلك فإن الإدريسي وابن سعيد المغربي ينسبان السودان إلى هذين الإقليمين الأول والثاني، مع ملاحظة أن ابن سعيد يضيف إقليماً آخر جنوب هذين الإقليمين سماه "المعمور خلف خط الاستواء" ينسب إليه أيضاً أمماً سوداء أخرى.

ولقد أفرد المصنفون العرب أيضاً مكاناً هاماً لمعرفة مساحات كل إقليم، والمساحة التي تأخذها بلاد السودان في العالم المعمور. ولعل تقديراتهم لحجم المساحة التي يأخذها كل إقليم من الأقاليم، أو للمساحة التي تحتلها كل أمة من الأمم العالمية الكبرى قد تناسبت لديهم عكساً مع عظمة العمران، فكلما كان الإقليم أو الأمة أكثر عمراناً وحضارة ضاقت رقعة مساحتها قياساً للأمم أو الأقاليم التي تتسم بتراجع العمران والحضارة. من هنا أعطى هؤلاء المصنفون مساحة أكبر لأمم السودان وللأقاليم التي يُنسبون إليها (أي الأول والثاني)، مثلهم في ذلك مثل الأمم التي تقع في أقصى الشمال بجوار الجزء المغمور من الأرض، كشعوب يأجوج ومأجوج أو شعوب الترك، وهو أمر يختلف عن تقديرهم لمساحات الأمم الممعنة في الحضارة ولا سيما ديار الإسلام أو بلاد الروم، وهو تصور متأثر برمته برؤية بطلميوس للعالم، وبالنظرية اليونانية التي وضعت اليونان والإقليم الذي تقع فيه مركزاً للعالم والأكثر أهمية فيه.

ويقود هذا التصنيف بالنتيجة إلى إعطاء مكانة مهمة لـ"دار الإسلام" في مجال الحضارة قياساً على ضيق المساحة التي احتلتها من العالم المعمور، وهو ما ينطبق نسبياً على بيزنطة والصين والهند، كما يقود إلى التقليل من مكانة أمم السودان في مجال الحضارة، نظراً للمساحة الكبرى التي خصصوها لها في العالم المعمور، فمن أصل مائة سنة، مقدار ما تتطلبه مسيرة الأرض المعمورة، يخصص المقدسي سنة واحدة فقط لدار الإسلام، فيذكر عن عبد الله بن عمر قوله "الدنيا مسيرة خمسمائة سنة، وأربعمائة سنة خراب ومائة عمران، موضع المسلمين منها سنة"[٢٦٣]، وفي نفس السياق يروي عن أبي الجلد قوله "الأرض أربعة وعشرون ألف فرسخ: السودان اثنا عشر ألف فرسخ، والروم ثمانية آلاف فرسخ، وفارس ثلاثة آلاف، والعرب ألف فرسخ"[٢٦٤].

كما نجد التضخيم ذاته عند ابن خرداذبة، وذلك في رواية لأحد الأقوال المتداولة "الأرض كلها مسيرة خمس مائة عام، ثلث منها عمران مسكون مأهول، وثلث براري، وثلث بحار؛ ووجدت أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين، فأرض مصر واحد من ستين جزء من أرض السودان، وأرض السودان جزء واحد من ستين جزء من الأرض كلها"[٢٦٥]. بينما يقدر المسعودي في إحدى رواياته أن كل إقليم من الأقاليم السبعة المنسوبة إلى: الهند و(الحجاز-الحبشة) و(مصر وإفريقية) و(بابل-العراق) والروم، ويأجوج ومأجوج، وبوماريس-الصين، تعادل مساحته سبعمائة فرسخ[٢٦٦].

ولقد توصل الجغرافيون العرب في أرصادهم الفلكية إلى أرقام قريبة من القياسات الجغرافية الحالية، وهي أصح مما توصل اليونانيين إليه في هذا المضمار[٢٦٧]، إذ استندوا على الحسابات الفلكية، وخاصة الجغرافيون الفلكيون منهم، وفي مقدمتهم الغزاري (القرن الثالث الميلادي) والخوارزمي (ت ٨٤٤م) والهمذاني (ت ٩٤٥م)

---

(٢٦٢) الحموي، معجم البلدان، مجلد أول، المصدر السابق، ص٢٩. راجع أيضاً، المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص٥٩-٦٠.

(٢٦٣) المقدسي، المصدر السابق، ص٦٢.

(٢٦٤) المصدر نفسه، ص٦٢. راجع أيضاً، الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ص١٨.

(٢٦٥) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص٩٣.

(٢٦٦) المسعودي، التنبيه والإشراف، ج١، المصدر السابق، ص٧١.

(٢٦٧) سوسة، المصدر السابق، ص٢٢٩.

والبيروني (القرن الحادي عشر الميلادي)، إلى أن محيط الأرض يساوي ٢٤ ألف ميل، وأن قطر الكرة الأرضية يساوي ٧٦٣٦ ميل (على أساس أن الميل عندهم يساوي تقريباً أربعة آلاف ذراع)، فذكر محمد بن موسى الخوارزمي أن دورة الأرض حول الفضاء تسعة آلاف فرسخ[٢٦٨]. وجاء في وصف المسعودي لما توصل إليه الفلكيون في عهد المأمون-في مرصدهم- قوله "وقد كانوا رصدوا الشمس لأمير المؤمنين المأمون في بر سنجار.. أن مقدار درجة واحدة من وجه الأرض المحيطة بالبر والبحر عشرين ألف ميل ومائة وستين ميلاً، ثم ضربوا دور الأرض في سبعة فاجتمع مائة ألف ميل وأحد وأربعون ألف ميل ومائة وعشرون ميلاً، فقسموا ذلك على اثنتي وعشرين ميلاً، وخرج للقسم الذي هو مقدار قطر الأرض ستة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلاً ونصفاً ونصف عشر ميل بالتقريب. ونصف قطر الأرض ثلاثة آلاف ميل ومائتا ميل وسبعة أميال وستة عشر دقيقة وثلثا ثانية، والميل أربعة آلاف ذراع"[٢٦٩].

ولقد قاس البيروني بدوره مساحة الأرض بالذراع العربي، فتوصل إلى أن طول الدرجة على خط الاستواء ٢٢٤.٢٨٩ ذراعاً، وهذه تساوي ٥٦.٠٦ ميلاً عربياً، على أساس أن الميل العربي يساوي (١٩٧٣.٢ متراً)، وبذلك يكون طول المحيط على خط الاستواء ٨٠.٧٨٠.٠٤٠ ذراعاً، أي ما يساوي عشرين ألف ميل ومائة وستين ميلاً عربياً، وبذلك يصبح طول القطر ستة آلاف وأربعمائة وسبعة عشر ميلاً عربياً؛ فكان التفاوت بين تقديراته وتقديراتنا العلمية الحالية واهية للغاية التي تشير إلى أن محيط الأرض الحقيقي أربعة وعشرون ألف وثمانمائة وثمانون ميلاً، وقطرها سبعة آلاف وتسعماية وعشرون ميلاً، والدرجة ستة آلاف وتسعماية والحادية عشر ميلاً[٢٧٠].

ولقد موضعوا الشعوب السوداء في الأجزاء الغربية للإقليمين الأول والثاني الجنوبيين، وخصَّصوا مساحة واسعة لهذين الإقليمين قياساً إلى الأقاليم الأخرى، ولا سيما الإقليمين الثالث والرابع الأوسطين معتدلي الحرارة؛ فابن سعيد يشير إلى أن الإقليم الأول يعتبر "سكانه سودان، وعرضه عشر درجات وسبع وعشرون دقيقة"[٢٧١]. فإذا كان عرض الدرجة ٧٥ ميلاً أي ١٥٠ كم، كان عرض هذا الإقليم ٧٥٠ ميلاً أو ١٥٠٠ كم تقريباً، أما الإقليم الثاني "فسكانه ما قارب منه (من) الإقليم الأول سودان، وما قارب منه (من) الإقليم الثالث سكانه سمر، وعرضه أربع وعشرون درجة وواحد وثلاثون دقيقة من خط الاستواء، ووسعه ثمان درجات وأربع دقائق"[٢٧٢].

بينما يذهب (الحموي) إلى أن عرض الإقليم الأول "أربعمائة ميل واثنان وأربعون ميلاً واثنتان وعشرون دقيقة وأربعون ثانية، ومساحته.. أربعة آلاف ألف وثمانمائة وعشرون ألف ميل وثمانمائة وسبعة وسبعون ميلاً وإحدى وعشرون دقيقة"[٢٧٣]. ويصل عرض الإقليم الثاني "أربعمائة ميل وميلان وأحد وخمسون دقيقة.. ومساحته.. ثلاثة آلاف وسبعمائة ألف وتسعون ألف ميل وثلاثمائة وأربعون ميلاً وأربعة وخمسون دقيقة"[٢٧٤]. بينما نجد عرض الأقاليم الأخرى ومساحتها تتضاءل تدريجياً كلما تصاعدنا شمالاً، حيث ينخفض عرض الإقليم الثالث إلى "ثلاثمائة وثمانية وأربعون ميلاً وخمس وأربعون دقيقة.. ومساحته ثلاثمائة ألف ألف وستة آلاف

---

(٢٦٨) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٤.

(٢٦٩) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص١٠٢. راجع أيضاً، الدمشقي، المصدر السابق، ص١٣.

(٢٧٠) سوسة، المصدر السابق، ص٢٠٥.

(٢٧١) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت، ص١١١.

(٢٧٢) المصدر نفسه، ص١١١.

(٢٧٣) الحموي، معجم البلدان، مجلد أول، المصدر السابق، ص٢٩.

(٢٧٤) المصدر نفسه، ص٢٩.

وأربعمائة وثمانية وخمسون ميلاً وتسع وعشرون دقيقة"[٢٧٥]. أما الإقليم الرابع فـ"عرضه مائتان وتسعة وتسعون ميلاً وأربع دقائق.. ومساحته ألف ألف وأربعمائة ألف وثلاثة وسبعون ألفاً واثنان وسبعون ميلاً.."[٢٧٦]. وعرض الخامس يقارب مائتين وأربعة وخمسين ميلاً، ومساحته ألف ألف وثمانية وأربعون ألف ميلاً. وعرض السادس مائتا ميل وخمسة وعشرون ميلاً، ومساحته ألف ألف ميل وستة وأربعون ألف ميل. وعرض السابع مائة وخمس وثمانون ميلاً، وطوله ألف ألف ميل ومائتا ألف ميل"[٢٧٧].

ويشير المقدسي إلى عرض الإقليم الأول "نحو ثلاثمائة وتسعين ميلاً، والميل أربعة آلاف ذراع"، وعرض الثاني "ثلاثمائة وخمسون ميلاً"، والثالث "عرضه نحواً من ثلاثمائة ميل ونصف"، والرابع "وعرضه نحواً من مائتين وستين ميلاً"، والخامس "بين طرفيه عرضاً نحو مائتين وثلاثين ميلاً"، والسادس "يكون عرضه نحواً عن مائتي ميل ونيف"، والسابع "كما هو الإقليم السادس"[٢٧٨].

ولقد أوضح البيروني في كتابه "القانون المسعودي" مساحات الأقاليم السبعة، محتفظاً بالتصور نفسه الذي يُعلي من شأن مساحة الإقليم الأول والثاني، والتي تنخفض تدريجياً كلما صعدنا شمالاً في الأقاليم، وقد نقل عنه هذا الترتيب والتقدير أبو الفداء في كتابه "تقويم البلدان"[٢٧٩].

وقد أورد "إخوان الصفا" في رسائلهم "ذات الطابع الموسوعي، مساحات الأقاليم هذه، بأن قدروا طول الإقليم الأول بـ٩٥٥٥ ميلاً (= ٣١٨٥ فرسخاً، وعرضه من الجنوب إلى الشمال ٤٤٥ ميلاً (١٤٦ فرسخاً)، بينما طول الثاني ٧٦٥٥ ميلاً وعرضه ٦٠٠ ميلاً، وطول الثالث ٨٢٥٥ ميلاً وعرضه ٣٥٥ ميلاً، وهكذا تقل الأقاليم تدريجياً بحيث يغدو طول الإقليم الرابع ٧٨٥٥ ميلاً وعرضه ٣٥٥ ميلاً، ثم طول الخامس ٧٤٥٥ ميلاً وعرضه ٢٥٥ ميلاً، وأيضاً يصبح طول السادس ٧٥٥٥ ميلاً وعرضه ٢٥٥ ميلاً، إلى أن تصل إلى السابع الذي طوله ٦٦٥٥ ميلاً وعرضه ١٨٥ ميلاً؛ محافظين بذلك على التصور العربي العام الذي يعلي من سعة الإقليم الأول[٢٨٠] جنوباً وهو إقليم السودان والتي تقل تدريجياً كلما صعدنا شمالاً.

الحدود القصوى لبلاد السودان:

افترض المصنفون العرب شأنهم في ذلك شأن اليونانيين، أن الربع المعمور من الأرض تحيطه المياه من كل جانب، هذه المياه التي تؤلف في جملتها ثلاثة أرباع الكرة الأرضية تقريباً، وتشكل بحراً واحداً سموه (البحر المحيط)، إلا أن هذا المحيط في استدارته على حواف العالم المعمور يأخذ له أسماء مختلفة تبعاً للبلاد أو الأمم التي يحيط بها في هذا الجانب أو ذاك، فهو في غربي القارة السوداء يأخذ عندهم اسم البحر المظلم تارة، أو أوقيانوس تارة أخرى، أو البحر الأخضر، أو الغربي تارة ثالثة، ويتصل حتى شمال العالم المعمور، وعندما ينحرف شرقاً-أي في شمال أوربا- يسمى البحر الورنك (= بحر الشمال)، وهذا الأخير يتصل بالمحيط المحاذي لشرق الصين فيسمى البحر الزفتي "لأن ماءه كدر وريحه عاصفة، والظلمة لاتزال واقعة عليه في أكثر

---

(٢٧٥) المصدر السابق، ص٣٠.

(٢٧٦) المصدر السابق، ص٣١.

(٢٧٧) المصدر نفسه، ص٣٢.

(٢٧٨) المسعودي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص٥٩-٦٢.

(٢٧٩) خصباك، د.شاكر: مقدمة علم الجغرافية عند العرب، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج١، مؤسسة الدراسات العربية (ثلاث أجزاء) - بيروت، ودار فارس - عمان، ١٩٩٥، ص٤٧٦.

(٢٨٠) إخوان الصفا وخلان الوفاء، رسائل إخوان الصفا، ج٢، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٢٨، ص١١١-١١٢.

الأوقات... ويتصل بالبحر المحيط المتصل ببلاد يأجوج ومأجوج"(٢٨١)، أما ما يحاذي جنوب الصين فيسمونه عند ذاك البحر الهندي أو بحر الصين، ويأخذ أسماء البلاد المحاذية له، فيسمى بحر الصين وبحر الهند وبحر فارس، وعندما يصل إلى اليمن يسمى بحر مرمرة وينشطر هناك إلى خليجين أحدهما يذهب شمالاً ويسمى بحر القلزم (وهو البحر الأحمر) والآخر يتجه جنوباً وسموه بحر الزنج.

ويتحدث أبو الفداء عن البحر المحيط بالعالم المعمور "وإنما سمي محيطاً لإحاطته بجميع القدر المكشوف من الأرض، ولهذا كان يسميه أرسطو الإكليلي، لأنه حول الأرض كالإكليل على الرأس"(٢٨٢) ، أو كما يقول البيروني "فالمعمورة إذن في ربع من أرباع الأرض، ويطيف به بحرٌ يسمى في جهتي المغرب والمشرق (محيطاً)"(٢٨٣).

أما ما يحيط بإفريقية السوداء، فهناك من الجانب الغربي البحر المحيط الغربي أو أوقيانوس الذي يعتبر بنظرهم الحد النهائي للمعمور، ماعدا تلك الجزائر الغامضة التي يتحدثون عنها وهي جزر السعادات (الكناري)، والتي يعتبرون أن ليس بعدها حياة لبشر أو يابسة، وهو غير سالك باتجاه الجنوب وباتجاه الغرب، إذ يقول البيروني "ويسمي اليونانيون ما يلي المغرب منه وهو ناحيتهم (أوقيانوس) وهو قاطع بين هذه المعمورة وبين ما يمكن أن يكون وراء هذا البحر في الجهتين من بر أو عمارة في جزيرة، إذ ليس بمسلوك من ظلام الهواء ومن غلظ الماء ومن اضطراب الطرق وعظم الغَرَ مع عدم العائدة، ولذلك عمل الأوائل فيه، وفي سواحله علامات تمنع عن سلوكه... أما من جهة الجنوب فإن العمارة تنتهي إلى سواحل البحر المتصل بالمحيط في الجانبين، وهو مسلوك والعمارة غير منقطعة عنده، وإنما هو مملوء من الجزائر العظام والصغار، وهذا البحر مع البر يتنازعان الوضع حتى يلج أحدهما في الآخر"(٢٨٤) .

فالبحر المحيط المذكور كما يقول الحموي "يأخذ في الامتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصى إلى جهة الجنوب حتى يتجاوز صحراء لمتونة، وهي براري للبربر بين طرفي بلاد المغرب وبين أطراف بلاد السودان، ثم يمتد جنوباً على أراضي خراب غير مسكونة، ومسكونة حتى يتجاوز خط الاستواء في الجنوب"(٢٨٥).

ويلخص ابن رستة صورة هذا البحر بقوله "وبحر أوقيانوس هو بحر المغرب، البحر الأخضر، لا يُعرف منه إلاّ ما يلي المغرب والشمال من أقصى أرض الحبشة (= بلاد السودان) إلى برطينية (= بريطانية)، وهو بحر لا تجري فيه سفن وفيه ستة جزائر مقابل أرض الحبشة تسمى الجزائر الخالدات (الكناري) وجزيرة أخرى تسمى عذيرة (= لعله يقصد الأزروري)" (٢٨٦).

فكان المعتقد السائد لهم أن البحر لا يُسلك إذا أمعنا السير فيه جنوباً، إذ أنه باتجاهه جنوباً - حسب ابن حوقل - يمر على ماسة وغرب سجلماسة والسوس الأقصى، ويمتد بمحاذاة أودغست وغانة وكوغة "إلى أن يصل إلى البرية التي لا تُسلك"(٢٨٧). ومن خصائص هذا البحر أنه لا يمكن الإبحار فيه كثيراً لظلمته وعلو موجه، وهذا ما أكده الإدريسي بقوله "ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف بشر على خبر صحيح لصعوبة عبوره وظلامة أنوائه وتعاظم موجه وكثرة أهواله وتسلط دوابه وهيجان رياحه، وبه جزائر كثيرة

---

(٢٨١) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: كتاب تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ص٢١.
(٢٨٢) المصدر نفسه، ص١٩-٢٠.
(٢٨٣) محمد بن أبي أحمد أبو ريحان البيروني: كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد – الدكن -الهند، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م، ص١٥٦.
(٢٨٤) المصدر نفسه، ص١٥٦.
(٢٨٥) الحموي، مجلد أول، المصدر السابق، ص٢٠.
(٢٨٦) ابن رستة، المصدر السابق، ص٨٥.
(٢٨٧) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٦٥.

ومنها معمور ومغمور، وليس أحد من الربانيين يركبه عوضاً ولا ملجماً، وإنما يمر منه بطول الساحل لا يفارقه، وأمواج هذا البحر تندفع منفلقة كالجبال، لا ينكسر ماؤها وإلا فلو تكسَّر لما قدر أحد على سلوكه"[٢٨٨].

وأن ماء البحر المحيط الذي "بجهة الجنوب غليظ.. لأن الشمس بسبب مسامتتها له وقربها منه حللت الأجزاء اللطيفة من الماء، فغلظ ماؤه واشتدت ملوحته وسخونته، ولذلك لا يعيش فيه حيوان ولا يسلك فيه مركب"[٢٨٩]. وفي الغرب أيضاً لا يمكن الإبحار كثيراً لخطورته، وأن آخر نقطة وصل إليها "المغامرون" من العرب هي تلك الجزر المسماة "الجزر الخالدات" الغامضة، وأهلها الأكثر غموضاً، أما ماوراء هذا البحر فبحر لا يمكن الدخول إليه إلاَّ أنهم يروون (بما فيهم الإدريسي والغرناطي والحميري والقزويني والدمشقي) حكاية أولئك الفتية العرب الثمانية "المغرورين" أو "المغررين" الذين حاولوا الإبحار من أشبونة الأندلسية لاقتحام مجهول البحر المظلم لكشف أسراره ولمعرفة غوامضه، أملاً بالوصول إلى البر من الطرف الآخر، فأعدّوا مركباً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر "ثم دخلوا البحر من أول موسم اندفاع الرياح الشرقية" فوصلوا بعد أحد عشر يوماً إلى "بحر غليظ الموج، كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء، فأيقنوا التلف" فاتجهوا في البحر ناحية الجنوب اثني عشر يوماً وصلوا فيها إلى جزيرة يسميها الإدريسي "جزيرة الغنم" وكل ما فيها يدل على أنها غير مأهولة السكان، إلاَّ أن "فيها الغنم ما لا يأخذه عدٌّ.. وهي سارحة لا راعي لها" ووجدوا هناك عين جارية وشجرتي تين بري، وعندما تناولوا طعامها من لحم الغنم وجدوه مرَّ المذاق "لا يقدر أحد على أكلها"، ثم ساروا مع الريح إلى الجنوب حتى وصلوا إلى "جزيرة فيها عمارة وحرث" ولما نزلوا إليها أحاطت بهم زوارق أهل الجزيرة فأودعوهم الحبس، فكان رجال هذه الجزيرة "شقراً، وشعور رؤوسهم سبطة، وهم طوال القدود، ولنسائهم جمال عجيب".

أخذوهم في اليوم الرابع إلى الملك بصحبة رجل يتكلم العربية، وكان ترجماناً للملك "فأخبروه أنهم اقتحموا البحر ليروا ما به من أخبار وعجائب، ويقفوا على نهايته"[٢٩٠] فردَّ عليهم الملك ضاحكاً من أحلامهم المستحيلة "أن أباه أمر قوماً من عبيده لركوب هذا البحر، فجروا في عرضه شهراً إلى أن انقطع عنهم الضوء، وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة"[٢٩١]، وهو دليل على إخفاقهم.

ثم أمر الملك بترحيلهم، فوضعوهم حينما "بدأ جري الريح الغربية" في زورق بعد أن عصبوا عيونهم، ودفعوهم في لجة البحر باتجاه الشرق، فوصلوا بعد ثلاثة أيام إلى شواطئ إفريقية عند مدينة (أسفى)[٢٩٢]. ويغلب الظن أن الجزيرة التي وصلوا إليها هي إحدى جزائر أزورس (أي الجزائر الزرقاء)، والجزيرة الثانية هي إحدى جزائر الكناري أي جزر السعادات[٢٩٣].

وكان المسعودي في القرن العاشر الميلادي قد روى مغامرة مماثلة نسبها إلى رجل مغامر يسمى (خشخاش) ركب برفاقه البحر المحيط الغربي "في مراكب في هذا البحر المحيط، فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة، وخبره مشهور عند أهل الأندلس"[٢٩٤]، كما روى البكري في القرن الحادي عشر الميلادي القصة نفسها. وقد تقدم البكري نفسه بفكرة إبداعية تشي باحتمال وجود قارة أو بر آخر خلف البحر المظلم، ومفادها "أن أقيانس البحر المحيط (= الأطلسي) لا يُدرى ماوراءه غرباً إلى أقصى عمران الصين شرقاً، فالشمس إذا غابت

(٢٨٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق.
(٢٨٩) أبو الفداء، المصدر السابق، ص٢١.
(٢٩٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٤٨.
(٢٩١) المصدر نفسه، ص٥٤٩.
(٢٩٢) المصدر نفسه، ص٥٤٩. راجع أيضاً، الدمشقي، المصدر السابق، ص١٣٥.
(٢٩٣) مؤنس، حسين: المصدر السابق، ص٢٧٦.
(٢٩٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٣٠٠.

في أقصى الصين طلعت في الجزائر الخالدات، وبالضد"[٢٩٥]. وهو ما يشير إلى انفتاح الطريق البحري من طرق الأطلس إلى أطراف البحر الشرقي للصين (المحيط الزفتي).

وطرح العمري بوضوح أكثر افتراض وجود بر خلف البحر المظلم (الأطلسي)- قبل اكتشاف أمريكا بقرن- بقوله "لا أمنع أن يكون ما انكشف من الماء من الأرض، من جهتنا، مكشوفاً من الجهة الأخرى، وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة، لا أمنع أن يكون به من الحيوانات والنبات والمعادن مثل ما عندنا، أو من أنواع أو أجناس أخرى"[٢٩٦]. كما أكد معاصره (قطب الدين) في "التحف الشامية" على الفكرة ذاتها حين أشار إلى احتمال وجود عمران "خلف المناطق غير المعمورة، لم يصلنا خبرها"[٢٩٧].

وقد روى الجغرافيون والمؤرخون العرب في القرن الرابع عشر حكاية على لسان السلطان (منسا موسى) سلطان مالي الذي ولي العرش عام ١٣١٢م خليفة للسلطان (ماري جاطة) المؤسس الحقيقي لدولة مالي، وذلك حينما زار مصر في عهد الناصر محمد بن قلاوون في طريقه إلى مكة للحج، حيث سأله الأمير أبو الحسن علي- المكلف من قبل السلطان قلاوون بمرافقته أثناء مروره بمصر- عن سبب انتقال المُلك إليه من ماري جاطة، فأجابه السلطان موسى "إن الذي قبلي كان يظن أن البحر المحيط له غاية لا تدرك، فجهَّز مئتين من السفن وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر من فيها ألاَّ يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزوادهم"، فقاموا مدة طويلة، ثم عاد منهم سفينة واحدة، فحضر ربانها إلى السلطان الذي سأله عن سبب رجوعه، فقال: سارت السفن زمناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة.. جرية عظيمة (أي تيار بحري عنيف) فابتلع تلك المراكب، وكنت آخر القوم، فرجعت في سفينتي"[٢٩٨] ، فلم يصدقه السلطان، فجهز السلطان نفسه ألفي سفينة فيها "ألف للرجال وألف للأولاد، واستخلفني، وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك، فكان آخر العهد به"[٢٩٩].

ولعل تداول المصنفون العرب لكل تلك الروايات والمغامرات يشير إلى اعتقاد غامض-قبل كولومبس- عن وجود يابسة خلف البحر المظلم يمكن العبور إليها، إلى جانب اعتقادهم الآخر الذي ينفي إمكانية العبور في لجة المحيط الغامض العصي عن العبور والاختراق. ولعل تصوراتهم عن البحار التي تحيط بلاد السودان في شرق القارة السوداء أكثر مرونة وانفتاحاً، وهو يعود إلى معرفتهم الأكثر دقة بها، ودرايتهم الأفضل بتلك البحار الشرقية، المتفرعة-كما يعتقدون- عن البحر الصيني، فإذا كانت معلومات الإغريق والرومان عن الجهات الشرقية الإفريقية السوداء لا تتجاوز الأطراف الجنوبية للساحل الصومالي، فقد توغلت معلومات الجغرافيين العرب جنوباً لغاية خط عرض عشرين درجة جنوباً، فشملت ساحل موزنبيق الذي أطلقوا عليه اسم "سفالة الزنج"، وانتشرت مراكز استيطانهم على أطرافه في مدن متعددة كممبسة وزنجبار وملندة وكلوة، حتى أنهم وصلوا إلى جزيرة مدغشقر التي سموها جزيرة قمار أو قمر[٣٠٠]. وعلى الرغم من اتساع مشاهداتهم ومعارفهم المباشرة عن الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي لإفريقيا، إلا أن الصورة العامة للجانب الجنوبي الشرقي وامتداداته القصوى ظلت ملتبسة على أكثرهم؛ أما وصفهم للبحار المحاذية لشاطئه الشرقي والجنوبي الشرقي فكان غاية في الدقة التي لا تخلو في جوانب منها من سرد

---

(٢٩٥) سوسة، الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص١٣٥.

(٢٩٦)شهاب الدين بن فضل الله العمري: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، ج١، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤، ص٣١.

(٢٩٧) سوسة، الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص٤١١.

(٢٩٨) أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، ج٥، القاهرة ١٩٦٣، ص٢٩٤-٢٩٥

(٢٩٩) المصدر نفسه، ص٢٩٥.

(٣٠٠) خصباك، المصدر السابق، ص٥٢٨.

للعجائب وللغرائب، وأول ما يمكن ملاحظته هو أن الكثير من الخرائط اليونانية وفيما بعد العربية وتظهر الساحل الشرقي لإفريقية ممتداً باتجاه الشرق بمحاذاة شواطئ الهند والصين بدلاً من أن يمتد جنوباً، فيظهر المحيط الصيني (الذي يأخذ أسماء مختلفة) تبعاً لمحاذاته للبلدان، وكأنه خليج طويل شبه مغلق بين شواطئ آسيا وشواطئ إفريقيا.

وقد تأثر الكثير من الجغرافيين العرب - بما فيهم الإدريسي- برأي بطلميوس، الذاهب إلى أن شواطئ إفريقية تمتد حتى تتقابل مع شواطئ الصين الشرقية، حيث اتبع الكثير منهم هذا الرأي، بينما وقفت قلة منهم ولا سيما البتاني (٣١٧هـ-٩٢٩م) والمسعودي، والبيروني، وابن سعيد المغربي، وأبو الفداء، مع الرأي الذي يتفق إلى حد ما مع المصورات الحديثة.

فأصحاب الرأي الأول اقتدوا بطلميوس تحت تأثير سطوة نظرياته العامة، رغم أن المعطيات التي بين أيديهم تؤهلهم لتجاوز تلك النظريات، وإذا كان لبطلميوس عذره لضآلة المعلومات لديه عن جنوب إفريقية، فدفعه هذا إلى تقليص امتداد القارة جنوباً لحساب امتدادها في الشرق، فإن توفر المعلومات لدى الجغرافيين العرب ولا سيما معلومات الرحالة والبحارة والتجار تؤهلهم ليصححوا ذلك التصور، ولكن بدلاً من ذلك استقر رأي أكثر المؤلفين العرب على أن إفريقية تنزاح شرقاً حتى تصل إلى محاذاة الصين، لتشكل بهذا الامتداد خليجاً كبيراً هو ما يُعرف بالبحر الهندي، وبعضهم وضع على أطرافه الجنوبية ما سموه جزائر الواق واق، وهذا ما نراه جلياً في خرائط ابن حوقل والأصطخري، ولهذا فإن ابن حوقل عندما حدَّد مناطق السودان في شرق إفريقيا أشار إلى محاذاة أجزائها الجنوبية، التي يسميها بلاد الزنج، في امتدادها إلى الشرق بلاد فارس والهند "وأما الحبشة فإنها على بحر القلزم وهو بحر فارس، فينتهي حدٌّ لها إلى بلاد الزنج وحدٌّ لها إلى البرية التي بين النوبة وبحر القلزم.. وأرض الزنج أطول أراضي السودان... وهي تجاه اليمن وفارس وكرمان، إلى أن تحاذي بعض أرض الهند"[(٣٠١)].

فإذا تفحصنا خارطتي ابن حوقل والأصطخري نجدهما في الإطار العام متفقتان من حيث استدارة الخارطة ودوران البحر المحيط حول القسم المعمور من الأرض، ومن زاوية تحديدهما للبحار، وأخيراً في تمديدهما الساحل الشرقي لإفريقيا باتجاه الشرق، حتى يشكل لساناً يحاذي الشواطئ الشمالية للصين والهند، حيث يتكون ما بين الساحلين البحر الهندي أو الصيني وكأنه بحيرة مغلقة. وقد جاراهما في ذلك كل من الجيهاني الوزير والبلخي، كما أن الحال نفسه ينطبق على الجغرافي الكبير الإدريسي، فرغم اقتدائه بخريطة الخوارزمي في تقسيم الأقاليم إلا أنه قلد بطلميوس بجعله الساحل الشرقي لإفريقيا يمتد شرقاً في موازاة خط الاستواء حتى يحاذي الساحل الجنوبي للصين؛ فعلى سعة اطلاعه ومعارفه إلاَّ إن خريطة العالم التي رسمها واشتهر بها شابها بعض الخطأ، وذلك في مده الجنوب الشرقي للقارة السوداء شرقاً، وشكَّل هذا تراجعاً بالمقارنة مع خارطة البتاني والمسعودي، ويبرز هذا التشويه واضحاً في مده ساحل إفريقيا عند ابتداء خليج عدن من جهة الشرق بحيث يكاد يصبح المحيط الهندي شبه بحيرة مقفلة تنتشر فيها الجزر الكبيرة والصغيرة، وتصب فيها من جهة الجنوب مياه الأنهار التي تنحدر من أرض بربرة وسفالة الزنج وما يسمى بلاد الواق واق، كما يصب فيها من الشمال (مياه أنهار الهند والصين)[(٣٠٢)].

وعلى هذا فقد استقر رأي الإدريسي على تصور أن الساحل الإفريقي يمتد بعد باب المندب في اتجاه أفقي تقريباً، وبموازاة خط الاستواء، والساحل الآسيوي باتجاه الشرق، وينطلق هذا الامتداد على وجه التقريب من ناحية ما يعرف الآن "بالصومال وأرتيريا، ويقع على هذا الامتداد بلاد بربر والزنج وسفالة، ثم الواق واق التي

---

(٣٠١) ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي: كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢، ص٢٥.
(٣٠٢) سوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، باب ثاني، المصدر السابق، ص٤٠٥.

هي آخر المعمورة شرقاً، جنوب خط الاستواء"[٣٠٣].

وقد أطلق هذا الفريق على المحيط المحاذي لحدود الصين والهند وفارس والجزيرة العربية، ويحده جنوباً حسب افتراضهم اللسان البري الإفريقي الزنجي، أطلقوا عليه اسم البحر الصيني وأحياناً البحر الهندي، كما أطلقوا عليه أسماء البلاد التي تحاذيه، ويشكل خليجاً كبيراً، وبالغوا في مساحته "فأما البحر الهندي فإنه يمد طوله من المغرب إلى المشرق، وذلك من أقصى الحبشة إلى أقصى الهند، ويكون ذلك مقدار ثمانية آلاف ميل في ألفين وسبع مائة ميل"[٣٠٤].

وقد أشار الإدريسي أن الأقاليم السبعة تخترقها "سبعة أبحر تسمى خلجاناً وستة منها متصلة، وبحر واحد منفصل (يقصد بحر الخزر- قزوين)، وأحد البحور التي في الأرض المعمورة هو بحر الصين والهند والسند واليمن.. وينتهي إلى باب المندب.. وهناك يبلغ طوله فيما حكاه الثقاة والمسافرون.. من مبدأ بحر القلزم إلى الواق واق أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ"[٣٠٥]. وهو يتشعب عند عدن إلى "خليجان عظيمان، أحدهما معروف بالقلزم (= الأحمر) وهو ينعطف بأرض العرب حتى تصير به كجزيرة، ولأن الحبشة عليه بحذاء اليمن فإنه يسمى بها، فيقال لجنوبه بحر الحبشة، وللشمال بحر اليمن، ولمجموعهما بحر القلزم.. والخليج الآخر.. وهو المعروف ببحر البربر، ويمتد من عدن إلى سفالة الزنج، ولا يتجاوزها مركب لعظم المخاطر فيه"[٣٠٦]، وهو ما يشير إلى تعذر أو صعوبة الإبحار جنوباً في بحر الزنج.

لقد كان للعرب دراية كبيرة في البحار الشرقية لإفريقية التي سيطرت عليها سفنهم وتجارتهم مع الشرق (الصين والهند) حيث عرفوا طرقها البحرية وجزرها، إلاَّ أن هذا لم يمنعهم من تداول بعض حكايات (العجيب) ومظاهره في معرفتهم تلك، ولا سيما على الحدود البحرية الجنوبية المحاذية للساحل الشرقي الإفريقي، ونظروا إلى بحر القلزم بالإضافة إلى بحر الزنج كخليجين متفرعين عن بحر عدن أو مرمرة الذي هو امتداد للمحيط الهندي، وأدركوا الصعوبات التي تكتنف الإبحار في البحر الأحمر (القلزم) حيث يشير الإدريسي إلى أنه يبدأ من باب المندب حيث ينتهي البحر الهندي، ويمر شمالاً بغربي اليمن وتهامة والحجاز ومدين وأبلة، حتى ينتهي إلى مدينة القلزم التي ينسب إليها. ثم يصف لنا انعطافه على الساحل المحاذي لبلاد الأحباش السودان والزنج، وميزاته "ثم ينعطف راجعاً إلى عيذاب إلى جزيرة سواكن، إلى زالع من بلاد البجة، وينتهي إلى بلاد الحبشة، ويتصل بالبحر الهندي، وطول هذا البحر ألف ميل وأربعة مائة ميل، وأكثر قعر هذا البحر أقاصير تتلف عليها المراكب، فلا يركبه إلاَّ الربانيون العالمون بأقاصيره المختبرون لطرقه ومجاريه، وفيه من الجزر خمسة عشر جزيرة"[٣٠٧].

بينما يشير الدمشقي إلى أن "طوله ألف وخمسماية ميل، وعرضه من مائتي ميل إلى أربعمائة ميل" ويضيف "وهو بحر صعب قليل الخير، شقي الساكن قليله، وإذا ركبه الراكب رأى أهوالاً ووجد شدائداً لا يجدها في غيره، وبه شجر المرجان.. وبه السلحفات مقدار كبير منهن عشرة أشبار في ستة أشبار.. وبه السُرنباق وحلزون طويل.. وبه أعاجيب.." [٣٠٨].

إلاَّ أن هناك فريقاً آخر من الجغرافيين والرحالة العرب عارضوا رأي بطلميوس السالف الذكر، وتحدثوا عن اتصال بحر سفالة الزنج جنوباً بالبحر الأطلسي. وقد أبرز رينو في تعليقه على كتاب أبو الفداء حقيقة أن

---

(٣٠٣) مؤنس، المصدر السابق، ص٢٣٣.
(٣٠٤) ابن رستة، المصدر السابق، ص٨٣.
(٣٠٥) الإدريسي، المصدر السابق، ص٩.
(٣٠٦) الحموي، تقويم البلدان، مجلد أول، المصدر السابق، ص٢١.
(٣٠٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص١٠.
(٣٠٨) الدمشقي، المصدر السابق، ص١٦٥.

جابر بن سنان البتاني كان من أوائل المؤلفين العرب الذين شددوا على اتصال المحيط المظلم (الأطلسي) بالمحيط الهندي، وعلى امتداد بلاد سفالة الزنج جنوباً، حتى يلتقي المحيطين في نهاية هذا الامتداد، وكأن هذا إشارة إلى رأس الرجاء الصالح.

لقد اعتقد العديد من الجغرافيين العرب بأن جنوب القارة محاط بالبحار، فبالإضافة إلى البتاني هناك المسعودي والبيروني وعلى الأخص ابن سعيد المغربي، فقد أشار البيروني "وأكثر ما يبلغ سالكو البحر الأعظم من جانب المغرب سفالة الزنج ولا يتجاوزونها، وسببه أن هذا البحر طاعن في البر الشمالي في ناحية المشرق، ودخوله في مواضع كثيرة، وكثرت الجزائر في تلك المواضع، وعلى مثله بالتكافؤ طعن البر في البحر الجنوبي في ناحية المغرب وسكنه سودان المغرب وتجاوزوا فيه خط الاستواء إلى جبال القمر التي منها منابع النيل، فحصل البحر هناك فيما بين جبال وشعاب ذوات مهابط ومصاعد يتردد منها الماء بالمد والجذر الدائمين، ويتلاطم فيحطم السفن ويمنع السلاك (= المرور)، ومع ذلك فليس يمنعه عن الاتصال ببحر أوقيانوس من تلك المضايق، ومن جهة الجنوب وراء تلك الجبال، وقد وجدت علامات اتصالهما وإن لم يُشاهد، وبذلك صار بر المعمورة وسط ما أحاط به اتصال"[(٣٠٩)].

ولقد أشار المسعودي إلى اتصال المحيط، في سياق حديثه عن المحيط الذي يحيط بالعالم المعمور "وأما البحر المحيط الذي هو عند أكثر الناس معظم البحار وعنصرها وأنها منه تتشعب، ويسميه كثير من الناس البحر الأخضر، ويسمى باليونانية أقيانوس، وأكثر نهاياته مجهولة عند بطلميوس وغيره، فإنه يبتدي من نهاية المعمورة في الجنوب (= جنوب إفريقيا) وليس له في غربيه ولا شماله نهاية محدودة، ويتصل ببحر الصين مما يلي الزابج (= أندونيسيا) وجزائر المهراج وشلاهط"[(٣١٠)].

وقد عدل ابن سعيد المغربي من خريطة بطلميوس تلك استناداً إلى مشاهدات الرحالة ابن فاطمة ومدوناته، حيث زار ابن فاطمة جزيرة القمر (= مدغشقر) ودخل عاصمتها ليرانة، فأتاحت معطيات تلك الرحلة لابن سعيد الاطلاع على معلومات وافرة كانت كفيلة له لأن يطرح تصوراً مناقضاً لنظرية بطلميوس حول جنوب القارة الإفريقية، فعدَّل من خطوط العرض وأشار في وصفه على أن جنوب إفريقيا يمتد نحو الجنوب بدلاً من ذهابه شرقاً، وإن كنا نجد ابن سعيد في تحديداته لمواقع مدن وجزر الجنوب الإفريقي على خط الطول يجعلها تميل نحو الشرق، وهذا التناقض يفسره التناقض الحاصل بين الوقائع التجريبية وخبرات زمنه، وفي مقدمة صورة الشعوب السوداء —م١٠ة التي يعرفها ابن سعيد جيداً، وبين تعلقه بتحديدات درجات الطول الفلكية البطلميوسية لتلك الأماكن.

فيضع في تحديداته للأطوال الفلكية للمناطق الشرقية لإفريقيا اندفاعة ظاهرة نحو الشرق وهو ما يتعارض مع نصه نفسه، فهو يضع مقدشو على درجة ٧٢، وملندة على درجة ٨١، وصبونة (= مزنبيك) على درجة ٩٩، وكذلك جبل الندامة (رأس كوريانت Cap Corrientes)، ولكن وصفه لمعالم جنوب القارة السوداء يذهب باتجاه مغاير لتصور بطلميوس، حيث يدفع القارة باتجاه الجنوب، ويصل بحر الزنج ببحر المحيط المظلم (الأطلسي)، مستنداً على معطيات كثيفة بمتناول يديه، فبالإضافة إلى شهادة ابن فاطمة، فإن الملاحين والتجار العرب على دراية فائقة بشواطئ إفريقية الشرقية، إذ أنهم أكثر نشاطاً وتعرفاً عليها بالمقارنة مع حالة ملاحتهم على ساحلها الغربي "فقد كان الحديد والعبيد والذهب وغيرها من المواد التي كانت إفريقية الشرقية تصدرها إلى البلاد الإسلامية كلها تنقل بواسطة السفن، بينما كانت تجارة العبيد والذهب مع إفريقية الغربية تتم بواسطة القوافل عبر صحراء اللمط إلى إفريقيا الشمالية، ولهذا نجد الكتب العربية تشمل على وصف دقيق لموانئ إفريقيا الشرقية ومدنها، بينما لا نكاد نستخلص إلا فكرة غامضة عن موانئ إفريقية الغربية على المحيط الأطلسي، ولكن ذلك لا يعني خلو الأطلسي من السفن العربية"[(٣١١)].

---

(٣٠٩) خصباك، المصدر السابق، ص٥٢٨-٥٢٩.

(٣١٠) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، (راجع مقدمة المحقق)، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠، ص٧١.

(٣١١) (١٠٤) ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، (راجع مقدمة المحقق)، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠، ص٧١.

وقد أضاف ابن سعيد إقليماً آخر إلى جنوب خط الاستواء، بالإضافة إلى الأقاليم السبعة المعروفة، وهذا ما يدفع الحافة الجنوبية لإفريقية إلى الجنوب أكثر، وذلك لاستيعاب المعطيات والمشاهدات التي بحوزته، وسمى هذا الإقليم "المعمور خلف خط الاستواء" وعلى أساس ذلك تصور أن الحافة الجنوبية لإفريقية تنتهي عند جبل الندامة (رأس كوريانت) حيث يتصل على أطرافه المحيط المظلم (الأطلسي) بالمحيط الهندي عبر بحر الزنج، رغم أنه ظل يتصور أن البرزخ الواصل والفاصل بين المحيطين يصعب الإبحار فيه، فهو في وصفه للجزء السابع من الإقليم "المعمور خلف خط الاستواء"، يذكر أنه في هذا الجزء السابع "ينتهي بر السودان المتصل من أقصى المغرب إلى جبل الندامة، ثم يكون البحر عامراً لما في شرقهم بطول جزيرة القمر (مدغشقر)، وأول جبل الندامة أو هذا الجزء (السابع) حيث الطول مائة وثمان درجات ودقيقة... ويمتد مع أول العمارة حيث العرض ست عشر درجة نحو عشرين يوماً، وآخره حيث الطول مائة وسبع عشر درجة ونصف، والبحر المحيط الداخل من المشرق والجنوب يضرب في ركنه الجنوبي، وفي شماليه خليج القمر"[٣١٢]، ثم يشير إلى اختلاط البحرين بقوله "والبحر الذي يمر مع طوله (جزيرة القمر- مدغشقر) الجنوبي يختلط من الجنوب بالبحر المحيط، ويقال أنه لا يدخله أحد لا من أهل البحر الشمالي وبحر الجهتين الشرقية والغربية"[٣١٣].

كما لخص أبو الفداء-الذي تأثر بابن سعيد المغربي- هذا التصور عندما أشار إلى أن المحيط الغربي (الأطلسي) يتجاوز خط الاستواء في الجنوب ثم "ينعطف إلى جهة الشرق وراء جبال القمر التي فيها منابع نيل مصر، فيصير البحر المذكور جنوبياً عن الأرض، ثم يمتد مشرقاً إلى أراضي خراب وراء بلاد الزنج، ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند، ثم يأخذ مشرقاً حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية"[٣١٤].

ولقد تخيل بعض الباحثين العرب - من كلا الفريقين الآنف ذكرهم- أن هناك في أقصى البحار الجنوبية ما سموه جزر الواق واق. ونظراً إلى أن فريقاً من الجغرافيين العرب قد مد جنوب القارة السوداء إلى الشرق بحيث تتقابل مع سواحل الصين، فإن هؤلاء اعتقدوا أن جزر الواق واق هذه تقع في الجنوب الأقصى لقارة إفريقية، وعلى هذا الأساس صار من الممكن تخيل وقوع جزائر الواق واق بمحاذاة البحر الحبشي- بحر الزنج، أو قبالة السواحل الصينية في الآن نفسه، وهي جزر كسوا حكاياتهم عنها بكثير من الافتراضات المغرقة في الخيال والعجائب. وكان القزويني من أبرز من وصفها وأحاطها بالمتخيل العجيب حين يذكر "قالوا أنها ألف وستمائة جزيرة، وإنما سميت بهذا الاسم لأن بها شجرة لها ثمرة على صورة نساء معلقات من الشجر بشعورها، وإذا أدركت (= بلغت سن البلوغ) يُسمع منها صوت واق واق، وأهل تلك البلاد يفهمون من هذا الصوت شيئاً يتطيرون به، قال محمد بن زكريا الرازي: هي بلاد كثيرة الذهب حتى أن أهلها يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من الذهب، ويأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب، وحكى موسى بن مبارك السيرافي أنه دخل هذه البلاد وقد ملكتها امرأة، وأنه رآها على سرير عريانة وعلى رأسها تاج، وعندها أربعة آلاف وصيفة عراة أبكار"[٣١٥]. ولعل هذه الجزر (الواقواق) قد تكون بعض جزائر سومطرة وبعض جزائر مدغشقر وشرقي إفريقية.

---

(٣١٢) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٥.

(٣١٣) المصدر نفسه، ص٨٨. راجع أيضاً، الحموي، معجم البلدان، مجلد أول، ص٢١.

(٣١٤) أبو الفداء، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص٢٠.

(٣١٥) زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠، ص٣٣. راجع أيضاً، ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص٦٩. وابن حوقل، المصدر السابق، ص٢٤٤. والدمشقي، المصدر السابق، ص١٦. والمسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص٦.

القسم الثالث

الرحلة إلى بلاد السودان
(الصحراء، القبائل، التخوم، التجارة)

لم يكتف الباحثون العرب بالوقوف عند تكوين الصورة النمطية الثابتة لشعوب السودان، الناتجة عن احتباس تلك الشعوب ضمن الأطر والأحكام المستقاة من العلوم الموروثة أو المكتسبة لديهم، إذ إن اختلاطهم الواسع مع السودان ومكوث الكثير منهم وإقامته فيما بينهم، وتكوين جاليات عربية مهمة في المدن الكبرى لممالك السودان، أتاح لهم تدقيق وتصحيح الصورة المختزلة عنهم، بالإضافة إلى الدور الكبير الذي قام به الرحالة العرب الذين اخترقوا الصحراء الكبرى بحثاً عن شعوب القارة، ووقف إلى جانبهم جغرافيون كبار جمعوا بين علومهم الجغرافية النظرية المكتبية وبين حبهم للترحال، واتخاذهم المشاهدة والاطلاع المباشر وسيلتهم الأولى في البحث والتقصي. فكان الناتج عن ذلك مدونات جغرافية ورحلية عن شعوب السودان قدَّم فيها الباحثون العرب دراسات مهمة عنهم، شبيهة بالدراسات الوصفية الإثنوغرافية بسطوا فيها تصوراتهم العامة عن هؤلاء السودان، بما فيها وصفهم لنمط معاشهم وحياتهم، وطريقة إدارتهم الاجتماعية والسياسية لأنفسهم، ودياناتهم ومعتقداتهم، ومطبخهم ولباسهم، وطقوسهم العبادية أو تلك المصاحبة للزراعة، وعادات الضيافة وتقاليد الزواج والأعراس لديهم، ومفهومهم عن الموت وطريقة الدفن. حيث دخل هؤلاء الباحثون عبر ذلك نسيج حياتهم الداخلي، ليتركوا لنا صورة غنية بالمعلومات عن هذه الشعوب وثقافتها الحية في فترة معينة من تطورها التاريخي في العصر الوسيط، لا يمكن لأي باحث يريد التعرف على تاريخ الشعوب السوداء الاستغناء عنها.

لقد تعامل الباحث العربي في العصر الوسيط مع الشعوب السوداء (بحثياً وتخيلياً) على أنها تتوزع طبوغرافياً إلى ثلاث مناطق كبرى، على شكل أحزمة عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب، تبدأ من الشمال بالتخوم الطبيعية أو البشرية الواصلة والفاصلة بين العرب وبينهم، أو بين "ديار الإسلام" وبين ممالك السودان، وتمتد هذه المنطقة من بلاد النوبة من الشرق على أطراف النيل مروراً بالصحراء الكبرى حتى

ساحل الأطلسي، بما فيها من غوامض واتساع لدرجة أنها شكلت حاجزاً شبه طبيعي بين المجالين العربي وممالك السودان، بقبائلها وفعالياتها الاجتماعية التي ساهمت بحماية التجارة الدولية العابرة للصحراء كوسيط بين عالمي الشمال العربي والجنوب الأسود. أما النطاق الثاني فهو الذي يشتمل على ممالك السودان الكبرى التي تعرف عليها الرحالة والجغرافيون العرب ودونوا معارفهم وتخيلاتهم عنها وتعايشوا مع شعوبها، فقدموا لنا دراسات إثنوغرافية لاتزال موضع اهتمام الباحثين إلى الآن. أما النطاق الثالث فيشتمل على العوالم المجهولة من بلاد السودان، وهي الممتدة في أقصى الجنوب على حافة العمران بجوار خط الاستواء، بكل ما يتضمنه ذلك من استغراق في التخمينات التي تعيد السيطرة للصورة النمطية التي تعرفنا عليها في القسم الثاني، حيث تبرز مجدداً، وتقوى فاعليتها بقدر تنامي الفجوات المعرفية وتضاؤل الاحتكاك المعرفي المباشر، فكان لهذه الصور المختزلة وظيفتها اللازمة للتغلب على ضغط المجهول عن طريق اشتغال المتخيل، عندها تختلط المرويات الأسطورية بالعجيب بنتف من الوقائع المختزلة التي حملها الرحالة بما شاهدوه أو سمعوه في تجوالهم على أطراف التخوم الجنوبية للبلاد السودانية والزنجية.

تخوم.. وصحارى.. وقبائل.. وحواجز.. وتجارة

لم تتسم الحواجز والتخوم الفاصلة بين العرب المسلمين "بلاد الإسلام" والشعوب السوداء بالعداء والحروب واحتمال المواجهة، كما كان الحال مع جارتهم بيزنطة وشمال بلاد القبق (القوقاز)، فقد اتسمت علاقتهم ببلاد السودان بالانسيابية وتبادل المنافع عن طريق التجارة، ولم يكن ينغص هذا التبادل سوى اتساع الصحراء الفاصلة-الواصلة فيما بينهم، إضافة إلى الكثير من الغموض الذي لف معرفتهم ببلاد السودان والتي تكفلت الأيام بتذليلها، حيث ازدادت تشابكاً مع تسرب المهاجرين إلى مدن السودان الجنوبية وتوطد طرق التجارة واندفاع الإسلام عن طريق هذه التجارة، إضافة إلى ازدياد المهاجرين والمقيمين الذين شغلوا حيزاً مهماً في الحياة الروحية لبلاد السودان؛ ولقد ازدادت هذه الصلات أكثر فأكثر مع ظهور الممالك السودانية المسلمة أو المتأثرة بالإسلام منذ القرن الحادي عشر الميلادي في غانة ثم مالي ثم مملكة السنغي، فاتسع التبادل والتعارف بين الطرفين، فصار الذهاب والإياب من نصيب الطرفين عبر البرزخ الصحراوي الكبير، ليشمل التجار والرحالة والرسل الحاملين للهدايا والرسائل، ليصل أمر التعارف إلى الملوك أنفسهم ولا سيما عن طريق حج الكثير من ملوك مالي والسنغي إلى مكة عبر مصر المملوكية. لذا لم تصل نظرة العرب إلى الصحراء الكبرى والبلاد الصحراوية الفاصلة بين بلاد المسلمين والسودان إلى مستوى ما يحمله مفهوما التخم والثغر من حمولات ورموز حربية أو إلى ما يتضمناه من معان: الهجوم والدفاع، بل اختزلت نظرتهم لمفهوم (التخم - الحد) عندما طبقوه على الصحراء الكبرى، أو على الحدود الفاصلة بينهم وبين السودان، إلى مستوى يجمع بين معاني نقاط الاتصال والانفصال، وتهيمن عليه الأغراض التجارية، فضلاً عن معاني الغموض التي يحمله اتساع الصحراء وصعوبات اختراقها.

لقد حملت "ديار الإسلام" مُتخيلاً عن حدودٍ متموجة في الواقع والخيال تفصلها عن بلاد السودان، ولم تكن مفاهيم التخم والرباط والثغر التي تحمل أثقالاً حربية أو توحي بالمخاطر المحتملة لتعبر بحق عن طبيعة العلاقة ما بين العالمين العربي والأسود، عبر الصحراء أو عبر فاصل بلاد النوبة، إذ استعمل مصنفونا العرب بكثافة تلك المفاهيم المحملة بمعاني حربية لتغطية الحاجة لوصف العلاقات القائمة على التوتر ما بين العرب وبيزنطة، وما بين الأندلس وبلاد الفرنجة التي تحيطها في الشمال. أما عند النظر إلى الحدود الطبيعية (الصحراوية هنا) فقد حددها الوعي الجغرافي العربي في "الصحراء"-باعتبارها حداً يفصل بين عالم الإسلام وعالم السودان- خالية إلى حد كبير من التصلب العدائي أو المخاطر التي تحيط علاقته مع بيزنطة والفرنجة وشعوب شمال القوقاز، ولقد ذكر قدامة بن جعفر، الذي كان أول من استعمل اصطلاح "مملكة الإسلام" أن "الأمم والأجيال المخالفة للإسلام مكتنفة له من جميع أطرافه ونهايات أعماله، منهم المتقارب من دار المملكة ومنهم المتباعد عنها"[٣١٦]، ثم يشدد على أن الخطر الأكبر يكمن من الجار البيزنطي الشمالي الذي لا تفصله عن بغداد "مركز الخلافة" سوى مسافة قصيرة، من هنا يأتي قوله "فينبغي أن لا يكون المسلمون لصنوف أعدائهم أشد حذراً منهم للروم. وجاءت بذلك آيات يظهر بها حقيقة ما قلت والله الموفق"[٣١٧].

وإن كنا نجد بعض جوانب هذا الخطر في القرن العاشر الميلادي، إن كان ذلك في جنوب مصر المتمثل في النوبة، أو في الصحراء لغموضها واتساعها، أو لتبني بعض القبائل البربرية في الصحراء المذهب الأباضي المنشق عن الإسلام السني، لكن هذا العنصر "الخطر الصراعي" سيختفي تدريجياً مع الأيام وتقدم السنين.

يذكر قدامة، في تعقبه للثغور المحيطة بمملكة الإسلام، ثغر البجة والنوبة جنوب مصر "فإذا قد أتينا على ذكر ثغور المشرق فلنرجع إلى ناحية الجنوب، وبها ثغر البجة والنوبة، وهم مصالحون على ضريبة تسمى البقط، وليس بينهم وبين المسلمين محاربة"[٣١٨]. أما التخوم الصحراوية فيذكر عنها "فأما وراء إفريقية فبلاد تاهرت وبينها وبين إفريقية مسيرة ثلاثين يوماً، وهي في يد صاحب الأباضية، وهم ضرب من الخوارج، ووراء تاهرت مسيرة أربعة وعشرين يوماً بلد المعتزلة وعليهم رئيس عادل... ودارهم طنجة ونواحيهم، والمستولي عليهم في هذا الوقت ولد محمد بن إدريس"[٣١٩].

وإذا كان هناك من خطر يكتنف الحدود الجنوبية المتمثل في الصحراء الكبرى، فإن مصدره ليس الصدام العسكري أو الصراع المفتوح للتوسع، بل له مغزاه المختلف، لأنه ناشئ عن الغموض الذي يكتنف معرفة العرب بأهل جنوب الصحراء أكثر من كونه خطراً منظوراً وملموساً.

ولقد برز مفهوم التخم والثغر، وتبلور تداوله في وقت توقفت فيه اندفاعات الفتح الديني الإسلامي وغدت الحدود مستقرة ثابتة إلى حد كبير، قبل أن تحين لحظة المغول في الشمال والشرق، واندفاعة الأتراك في قلب أوربا، حيث واجهت الجغرافية العربية في القرن التاسع والعاشر الميلاديين حدوداً ثابتة إلى حد كبير لـ"ديار الإسلام"، فاستعملوا مفاهيم تشير إلى ما يقارب معناها معنى الحدود، وهي (التخم والثغر)، هذا إذا استثنينا طابع الحدود البيزنطية والحدود المجاورة للأندلس ذات الطابع الحربي، فقد نابت التجارة وصلاتها شبه السلمية عن المفهوم في جميع تخوم العالم المتصلة بمملكة الإسلام، ولا سيما الحدود الصحراوية مع بلاد السودان، فيذكر ميكيل "ومما يدل على استقرار المملكة، سكوت الجغرافية العربية عن التمييز الأساسي في الشرع الإسلامي بين دار الإسلام وبين سائر العالم، أي البلاد القائمة فيها حرب الإيمان (دار الحرب)... ويعتبرون المملكة كلاً

(٣١٦) قدامة بن جعفر، أبو الفرج: نبذة من كتاب الخراج وصفة الكتابة، يلي كتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة، مكتبة المثنى ببغداد، ومدرسة الخانجي مصر، دون تاريخ، ص٢٥٢.
(٣١٧) المصدر نفسه، ص٢٥٢.
(٣١٨) المصدر نفسه، ص٢٦٥.
(٣١٩) المصدر نفسه، ص٢٦٥.

استكمل تكوينه"[٣٢٠].

فغياب الحمولات الحربية والصراعية عن مفهوم الثغر-التخم، الذي كان يدل على المراكز الأمامية الدفاعية أو الهجومية لدار الإسلام، وذلك حين يتعلق الأمر بالتخوم الصحراوية المحاذية لممالك السودان، جعلهم يطبقون هذا المفهوم السلمي نسبياً على مدينة (سجلماسة Sidjilmasa) التجارية الواقعة على أطراف الصحراء الكبرى وعلى خطوط التجارة الدولية الصحراوية بين الشمال الإفريقي العربي وبلاد السودان.

ولولا غموض الصحراء، المقرون باتساعها الرملي اللامتناهي، لكانت علاقة العرب ببلاد السودان منفتحة دون قيود جدية تقيد تحرك العرب باتجاهها، إذ لم يعكر صفوة تلك الصلات إلا ما كان يتعلق بالحدود الصحراوية ومخاطرها الكبرى: السراب، (الغموض، ندرة المياه، وانفلات البدو الصحراويين)، فمنذ القرن العاشر وصاعداً كان بإمكان العربي المسلم الذي يعبر الصحراء إلى المدن السودانية، وأن يجد هناك جالية إسلامية وجامعاً يأويه ويتقبل صلاته، وشعوباً تألف ضيافته، وهو ما يماثل علاقته بالحدود الشرقية مع الهند والصين، ويتناقض مع علاقته ببيزنطة التي اضطر فيها إلى استخدام وسطاء من شعوب أخرى (أرمن، يهود) للتبادل التجاري وتبادل المنافع معها.

وعلى هذا الأساس لم ينظر العربي إلى الصحراء على أنها حاجز وعقبة تفصله عن الشعوب السودانية وحسب، بل رأى فيها برزخاً واصلاً بينهما، فكانت القوافل التجارية تمخر عباب الصحراء في دروبها المختلفة بانتظام مشوب بالمخاطر التي لا بد منها في مثل هذا الوضع، فكانت الصحراء بالنسبة لعرب الشمال الإفريقي "قنطرة" للعبور إلى بلاد السودان، تمر السلع والأفكار والعقائد من خلالها، إلا أنها كانت حاجزاً مهيباً يحدد الظروف التي تباشر فيها التجارة وظيفتها، كما أن بحر الرمال الذي يفصل السودان عن شمال إفريقية هو فراغ هائل من الناحية الفعلية، وتسيطر بلاد السودان على الجزء الجنوبي منه بمختلف واحاته. وفي فترات الضعف أو عندما تسود الفوضى في المناطق المأهولة، كان أهل الصحراء (الطوارق والبربر والعرب أيضاً) يغيرون على المستقرات السودانية ويعملون بها نهباً، فلم يكن بمقدور الشماليين العرب عبورها فرادى أو منعزلين، فكانوا يخرجون في قوافل منظمة ليقاوموا مخاطر الصحراء الطبيعية ومخاطر إغارة القبائل المنتشرة داخلها، إلاَّ أن إغراء الوصول إلى ذهب السودان والسلع الأخرى جعلت تلك المخاطر قابلة للاحتمال، ولقد "بقيت السلع المحمولة على الطرق الشمالية دائماً هي نفسها، فمن بلاد السودان يخرج الذهب والعبيد والكوكا والصمغ والفلفل والعاج والجلود... إلخ، ومن المغرب والمشرق ينزل الملح وقضبان الحديد والنحاس والأنسجة واللآلئ والمخطوطات. ولا شك أن هذه الطرق العابرة للصحراء كانت بالغة الأهمية بالنسبة لإفريقية الغربية، إذ إنها بقيت خلال عدة قرون الرئة التي تتنفس بها والمنفذ الذي يصلها بالعالم الخارجي"[٣٢١].

ولقد اخترقت الصحراء الكبرى إفريقية من سواحل الأطلسي إلى شواطئ البحر الأحمر، وفصلت الشمال الإفريقي عن بلاد السودان، ولما كان الجغرافيون العرب القدامى قد اعتبروا الصحراء "بحراً رملياً" فقد أطلقوا على الشريط العريض المصاحب لهذه المنطقة الصحراوية اسم "الساحل"، ويلي الساحل جنوباً منطقة الغابات المدارية الكثيفة التي تصل المحيط الأطلسي في خليج غينيا، وهي المناطق الغنية بالذهب الذي يحمل إلى "الساحل" حيث كان يقايض بالملح الذي كان يحمل من (أوليل Awlil) و(تغازى Tagant) التي هي في الجزء الشمالي من الصحراء الكبرى. وكان أهل الصحراء الذين يشار إليهم بـ"البربر" هم حملة السلع بين الشمال والجنوب[٣٢٢].

---

(٣٢٠) ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية، ج٢-ق٢، المصدر السابق، ص٣١٩.

(٣٢١) جوزيف.كي زيربو: تاريخ إفريقيا السوداء، القسم الأول، المصدر السابق، ص٢٧٨.

(٣٢٢) زيادة، نقولا: إفريقيات - دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١، ص٣١٦.

ولقد نظر المصنفون العرب إلى بعض المدن والمواقع في الصحراء الكبرى على أنها تخوم وثغور تفصل بين "دار الإسلام" و"بلاد السودان" بعد أن أفرغوا مفهوم "الثغر" هنا من حمولاته العدائية الصلبة، وخير مثال على ذلك هو نظرتهم إلى مدينة سجلماسة -كما قلنا- ومدينة (أودغست Awdaghost) وإلى أسوان والبجة والنوبة (جنوب مصر) أيضاً، كتخم يفصلهم عن بلاد الأحباش والزنج.

وفي معرض حديث اليعقوبي-في القرن التاسع الميلادي- عن (البلدان) الواقعة بين نهر النيل الأعلى والبحر، وهي منطقة غنية بمناجمها وموقعها الاستراتيجي، أعطى بعض هذه البلدان صفة الحد أو التخوم والثغور، إذ يعتبر أول ممالك (البجة) الأربعة مجاورة لـ"أسوان" حداً لمملكة الإسلام، وآخر "عمل" للمسلمين، مضفياً على هذا الحد والتخم حمولات سلمية، فالبجة "لهم عدة ممالك، في كل بلد ملك منفرد، (فأول مملكة) البجة من حد أسوان، وهي آخر عمل المسلمين من التيمن بين المشرق والمغرب إلى حد (بركات)، وهم الجنس الذي يقال له (نقيس)، ومدينة الملكة بها (هجر)، ولها قبائل وبطون... وفي بلادهم المعادن: التبر والجوهر والزمرد، وهو مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن"[٣٢٣].

ويتحدث مرة أخرى عن أسوان، في كتابه "كتاب البلدان"، على أنها "مدينة أسوان العظمى وبها تجار المعادن، وهي في الجانب الشرقي من النيل، وهي ذات نخل كثير ومزدرع وتجارات مما يأتي بلاد النوبة والبجة، وآخر مدن بلاد الإسلام من هذه الناحية مدينة في جزيرة في وسط النيل يقال لها بلاق، عليها حجارة ثم حدُّ بلاد النوبة، بموضع يقال له (القصر) على مقدار ميل من بلاق"[٣٢٤]، وهما الآن مدينتان في جنوب مصر.

وعندما يتحدث المسعودي عن مصر يذكر امتداد جنانها على نهر النيل "من حد أسوان إلى الرشيد"[٣٢٥] في الشمال، ويشرح لنا المناسبة التي صارت من جراءها أسوان (حداً) بين بلاد الإسلام (مصر) وبلاد السودان الذين لم يكونوا حينئذ مسلمين، من النوبة والبجة ثم الأحباش وصولاً إلى بلاد الزنج في الجنوب الأقصى، فيذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص (فاتح مصر) بمحاربة النوبة، فغزاهم المسلمون بقيادة ابن العاص، فوجدوهم يرمونهم في أحداقهم ولذلك سموهم (رماة الحدق)، واستمر ابن العاص في غزوهم حتى صُرف عن مصر. ولما تولى عبد الله بن سعيد مصر "صالحهم على رؤوس من السبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة... ويدعى هذا السبي بالعربية، بأرض مصر والنوبة، بالقبط.. والموضع الذي يتسلم فيه هذا القبط.. يعرف بالقصر، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من جزيرة بلاق، وبلاق هذه مدينة في الموضع المعروف بالجنادل... وإليها تنتهي سفن النوبة، وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان"[٣٢٦].

وهكذا ردّد الجغرافيون العرب، حتى وقت متأخر، القول إن دار الإسلام تنتهي عند أسوان، وذلك قبل أن ينتشر الإسلام بشكل ساحق في الجنوب-حيث كانت أسوان في الماضي، ثغراً دفاعياً ضد أهل النوبة، الذين أخمدت فتنتهم في زمن ابن حوقل.

وإذا كانوا قد نظروا إلى أسوان وما حولها كـ"حد" و"تخم" لديار الإسلام في شرق إفريقيا، فإن جغرافيينا ظلوا لفترة متأخرة أيضاً يتعاملون مع سجلماسة في المعيار ذاته، وهي التي كانت تقوم بوظيفة الوسيط في التجارة الدولية بين "الشمالي" العربي و"الجنوبي" السوداني، وتشكل حلقة ونقطة تقاطع رئيسية لمرور قوافل التجار إلى السودان الغربي، وما يمنحها علامة "التخم" هو أن "دار الإسلام" تتصل وتنفصل عندها عن بلاد السودان الغربي، كما تتصل سجلماسة بطريقة لا انفكاك فيها مع أوداغست التي تبعد عنها شهرين حسب ابن

(٣٢٣) أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، دار العراق، بيروت ١٩٥٥، ص٢١٧.
(٣٢٤) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٣٤.
(٣٢٥) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص٢١-٢٢
(٣٢٦) المصدر نفسه، ص٢٢-٢٣.

حوقل، فإذا كانت سجلماسة تشكل بداية انطلاق خط القوافل التجارية نحو بلاد السودان الغربية، فأوداغست تشكل استراحة هذه القوافل ومحطتها الأخيرة قبل دخولها ممالك السودان، بل يمكن ضم الصحراء كلها إلى مفهوم "الحد" أو "التخم" الذي يحمل مفهومي الاتصال والانفصال معاً عند الحديث عن موقعه بالنسبة لبلاد الإسلام وبلاد السودان، لهذا نظر مؤلفونا العرب إلى الصحراء والشعوب الصحراوية بطريقة تميزهم عن الشماليين العرب، أو عن جوارهم السود، رغم ملاحظاتهم لتداخل السودانيين في المدن والقبائل الصحراوية.

تمتد الصحراء الكبرى على الأطراف الجنوبية لـ"دار الإسلام"، وتعبرها قوافل التجار والمبشرين بالإسلام والرحالة والجغرافيين بصعوبة بالغة، مستعينين في تجوالهم هذا على ركوب الجمل، ومع هؤلاء عبرت تأثيراتهم الثقافية، ومعهم انتشر الإسلام في ربوع السودان بعد أن تم في هذا الخضم نفسه، مع عوامل أخرى، أسلمة قبائل الصحراء ذاتها التي لعبت دوراً حاسماً في التجارة وفي نشر الإسلام ذاته.

يوضح لنا ابن حوقل اتساع هذا البرزخ الصحراوي الهائل، عندما يتعرض للمسافات الفاصلة بين مدن الصحراء الكبرى، فبيَّن أن ما بين سجلماسة إلى أودغست شهرين، ومن أودغست إلى غانة وهي مدينة سودانية بضعة عشر يوماً، ومن مرندة إلى (زويلة Zawila) شهران، ومن زويلة إلى (فزان Fezzan) خمس عشرة مرحلة، ومن أوليل إلى سجلماسة أكثر من شهر، ومن سجلماسة إلى لمطة عشرون يوماً، ومن سجلماسة إلى القيروان شهران[٣٢٧]. ويلقي المقدسي نظرة متفحصة لاتساع هذه الصحراء التي يضمها في تقسيمه الإقليمي إلى إقليم المغرب، الذي يقول عنه "إنه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك في زاوية الإسلام موضوع"[٣٢٨].

لقد أطلق المؤرخون والجغرافيون العرب على أهالي الصحراء هؤلاء اسم البربر، وأشار بعضهم إلى أن العرب غزوا المغرب تحت لواء الملك اليمني (تبَّع) المعاصر للنبي سليمان، وقد أطلق (تبَّع) على سكان هذه الصحراء كلمة "بربر" حيث سمع رطانة لغتهم، حين قال "ما هذه البربرة؟!"، وقام بتوطين بعض قبائل حمير، كما اعتقد آخرون من الجغرافيين والمؤرخين أن أصل هؤلاء البربر إنما يرجع إلى فلسطين، حيث يفسر ابن خرداذبة الأمر حين يقول "كانت دار البربر فلسطين، وملكها جالوت، فلما قتله داوود (ص) جلت البربر إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية، فتفرقت هناك، فنزلت زناتة ومغيلة وضريسة وخرستة الجبال، ونزلت لواتة أرض برقة، وهي انطابلس.. ونزلت هوارة مدينة أياس وهي اطرابلس.. وكانت للروم، فجلت الروم إلى صقلية.. ثم انتشرت البربر إلى السوس الأدنى خلف طنجة وهي مدينة قمونة، من موضع القيروان على ألفي ميل وخمسين ميلاً، ثم رجع الأفارقة والروم إلى مدائنهم على صلح من البربر، فكرهت البربر نزول المدن فنزلت الجبال والرمال، فعادت المدائن الرومية حتى افتتحها المسلمون"[٣٢٩].

وفي السياق ذاته يشير اليعقوبي إلى أن البربر والأفارقة أولاد فارق بن بيصر بن حام بن نوح، خرجوا إلى المغرب وتوزعوا في البلاد، فملكت لواتة أرض أجدابية من جبال برقة، وملكت مزاتة أرض ودان، أما تورغة فملكتها هوارة، وطرابلس ملكها المصالين، والقيروان برقشانة، وغرب طرابلس وهيلة، وتاهرت ملكتها كتامة وعجيسة، وسجلماسة ملكتها نفوسة ولماية، وجبال هكان أخذتها لمطة، ويسمون العبالات وطنجة والسوس الأقصى مداسة، ويذكر أن هناك من يقول أن البربر من أولاد نزار، أو من جذام ولخم، وكان سكناهم فلسطين، وقال آخرون أنهم من اليمن[٣٣٠].

---

(٣٢٧) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، المصدر السابق، ص٩١.
(٣٢٨) المقدسي، أحسن التقاسيم..، المصدر السابق، ص٢١٦.
(٣٢٩) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص٩١-٩٢. راجع أيضاً ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٨٣.
(٣٣٠) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢١٥.

ويشير ابن خلدون بعد مناقشة مستفيضة للآراء المختلفة حول نسب البربر، إلى "أن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم: برنس وماذغيس (الملقب بالأبتر)، وذكر ابن حزم أنهما من أب واحد، ويقول نساب البربر: إن البُرانس بتر، وهم من نسل مازيغ بن كنعان.. أما شعوب البُرنس فسبعة أجذام وهي: أزداجة ومصمودة وأوربة وعجيسة وكتامة وصنهاجة وأوريغة. ويضيف عليهم سابق بن سليم: لمطة ومسكورة وكزولة"(٣٣١).

وقد أشار أصحاب المدونات الجغرافية والتاريخية إلى أن أكبر التجمعات القبلية البربرية التي قامت في غرب الصحراء الكبرى كانت لواتة وصنهاجة وزناتة، وكل من هذه القبائل تتفرع عنها عشائر وفروع متعددة متناثرة، وكان لصنهاجة وفروعها الرئيسية (لمتونة ومسوفة وغدالة) في القرن الثالث الهجري-التاسع الميلادي، حيث كانت تمسك بالطريق التجارية الغربية الصحراوية إلى السودان، ويبدو أن لمتونة كانت أكثر عدداً وأوسعهم فضاءً، يقول عنها البكري "ظواعن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، وهم إلى بلاد السودان أقرب.. وليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن، ينفذ عمر أحدهم وما رأى خبزاً أو أكله إلى أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان، فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق"(٣٣٢)، ويذكر أنه خلف بني لمتونة تقطن قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة تجاور البحر، فقبيلة جدالة هذه تقع على الغرب من لمتونة صوب البحر، مجاورة "لبلاد السودان" وهي "آخر الإسلام خطة" مصاقبة لديار التكرور و"أقرب بلاد السودان ه صورة الشعوب السوداء –م١١، من لمتونة تقع ديار مسوفة(٣٣٣).

استفادت لمتونة من موقعها على خطوط التجارة الدولية في غرب الصحراء، التي هدفت بالأساس الوصول إلى الذهب في بلاد السودان، وهو أمر أظهره جغرافيونا ونبهوا إليه، وبينوا إلى أية درجة خضع غنى سجلماسة وأودغست و(ولاتة Walata) و(توات Touat) لهذا النشاط التجاري الكبير. ومن مدينة سجلماسة التي شيدها البربر عام ٧٥٨م، وأصبحت عاصمة (تافيللت Tamedalt) في عام ٩٠٨م، كانت النقطة التي تبدأ منها القوافل رحلتها الطويلة. ومنها-كما نعرف- أن ابن بطوطة قد بدأ رحلته إلى مالي، ولقد اعتمدت هذه التجارة الدولية على استعمال (الجمل) والذي استعمله العرب على نطاق واسع هنا، وكانت هذه المراكز التجارية من سجلماسة إلى بلاد غانة والنيجر تضم في صنوفها الذهب والملح بين الشمال والجنوب، وأيضاً حاجات الشماليين من العاج والرقيق وريش النعام، وحاجات بلاد السودان من حلي النساء والودع وأدوات النحاس وآلات الحرب.

لقد اختبر جغرافيونا ورحالتنا هذه الصحراء وشعوبها، وأظهروا أهمية دور العرب الشماليين فضلاً عن قبائل الصحراء في "التجارة الصحراوية" مع السودان، كما كشفوا عن طرق هذه التجارة المتعددة وسلعها المتبادلة، ولا سيما الذهب السوداني وملح (تغازى Taghazza) وأوليل، ونحاس (تادمكة Tadmakka) في تلك الصحراء الشاسعة والمراكز المدينية الرئيسية التي تخترقها هذه التجارة، فضلاً عن تصورهم للحياة الاجتماعية والثقافية للقبائل الصحراوية في باديتهم أو في مراكزهم المدينية، وميزوا أحياناً بين القبائل الصحراوية (البربرية) هذه وبين من يقع منهم في أقصى جنوب الصحراء في محاذاة بلاد السودان، ويطلق عليهم ابن خلدون لقب "الملثمون" لعله يقصد قبائل الطوارق "ومضى هؤلاء الملثمون وقبائلهم لهذا العهد بمحالاتهم من جوار السودان حجراً بينهم وبين الرمال التي هي تخوم الرمال التي هي بلاد البربر من المغربيين وإفريقية، وهم لهذا العهد متصلون من ساحل البحر المحيط في المغرب إلى ساحل النيل بالمشرق.. وهم الآن يعطون الطاعة لملوك السودان، ويجبون إليهم خراجهم، وينفرون في

---

(٣٣١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩، ص١٧٦-١٧٧.

(٣٣٢) عبد الله بن عبد العزيز أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص١٦٤.

(٣٣٣) المصدر نفسه، ص١٦٤-١٧٢.

معسكرهم"[٣٣٤].

إلا أن البكري وياقوت الحموي وغيرهما أطلقوا لقب "الملثمين" على القبائل الصحراوية برمتها، إذ يذكر البكري "وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب، وهو فوق اللثام، حتى لا يبدو منهم إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميّز رجل منهم وليه ولا حميمه إلاَّ إذا تنقَّب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يُعاد عليه القناع؛ وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم، وهم يسمون من خالف من جميع الناس (أفواه الذئاب) بلغتهم"[٣٣٥].

ولم يمنعهم هذا من اعتبار القبائل البربرية الأكثر قرباً من بلاد السودان أنها أكثر جلافة وابتعاداً عن مقاييس الحضارة من القبائل الصحراوية الشمالية، فالقبائل القاطنة ما بين سجلماسة وأودغست ـ كما يقول عنهم ابن حوقل "وبين أودغست وسجلماسة غير قبيلة من قبائل البربر، متغربون لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية العازبة، فمن ذلك بنو مسُّوفة، قبيل عظيم من المقيمين بقلب البر على مياه غير طائلة، ولا يعرفون البُر ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما إلا بالمثل، وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم؛ وفيهم من الجلَد والقوة ما ليس لغيرهم"[٣٣٦]. ويتحدثون عن هؤلاء الموغلين "في براري سجلماسة وأوداغست ونواحي كلمطة وتادمكة إلى الجنوب ونواحي فزان ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب، والغالب عليهم الشقاء والاتشاح بالكساء، وقوام حياتهم باللبن واللحم"[٣٣٧].

لقد رأى جغرافيونا ورحالتنا كيف قامت تلك القبائل الصحراوية بوظيفة الحماية للقوافل التجارية، وأحياناً بأدوار مخربة لها، واستخدامها للجمل في تنقلاتهم وتسفارهم، فإذا كان الجمل قد بدأ يصل إلى الشمال الإفريقي منذ العهد الروماني-البيزنطي، فإن العرب لما وصلوا إلى هناك أدخلوا الجمل على نطاق واسع في تجارتهم الصحراوية، مما كان له أثر كبير في تبدل الحياة في الصحراء حيث أصبح اعتماد البربر عليه في تنقلاتهم اعتماداً أساسياً، وحينها غدا الجمل للتجار بمثابة سفينتهم الصحراوية ينقلون عليها متاجرهم.

وينوه ياقوت الحموي في معرض حديثه عن التجارة الصحراوية-ولا سيما الدائرة حول الذهب- مع بلاد السودان الغربي، بتلك الحقائق فيشير إلى أن هناك "بلاد من بلاد السودان تعرَف ببلاد التبر، وإليها ينسب الذهب الخالص، وهي في جنوب المغرب، فيسافر التجار من سجلماسة إلى مدينة في حدود السودان يقال لها غانة وجهازهم الملح وعقد خشب الصنوبر.. وخرز الزجاج الأزرق وأسورة نحاس أحمر، وحلق وخواتم نحاس لا غير. ويحملون منها الجمال الوافرة القوية أو قارها، ويحملون الماء من بلاد لمتونة وهم الملثمون، وهم قوم من بربر المغرب، في الروايات والأسقية.. فيحملون الماء من بلاد لمتونة ويشربون ويسقون جمالهم.. حتى يصلون إلى (غانة Ghana) بعد مشاق عظيمة، فينزلون فيها يتطيبون يستصحبون الأدلاء، ويستكثرون من حمل المياه، ويأخذون معهم جهابذة وسماسرة لعقد المعاملات بينهم وبين أرباب التبر، فيمرون بطريقهم على صحارى فيها رياح السموم تنشف المياه داخل الأسقية"[٣٣٨].

ويحدثنا ياقوت عن دور الجمال في المسير وفي حفظ المياه أيضاً، إذ أن القوافل "يستصحبون جمالاً خالية لا أوقار عليها، يعطشونها قبل ورودهم على الماء نهاراً وليلاً ثم يسقونها نهلاً وعللاً إلى أن تمتلئ أجوافها ثم

---

(٣٣٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، المصدر السابق، ص٤٠٨.

(٣٣٥) البكري، المصدر السابق، ص١٧٠. راجع الحموي، المجلد الثاني، ص١٢، وابن حوقل، المصدر السابق، ص٩٨-٩٩.

(٣٣٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٩٨.

(٣٣٧) المصدر نفسه، ص٨٤.

(٣٣٨) الحموي، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص١٢.

تسوقها الحداة، فإذا نشف ما في أسقيتهم واحتاجوا إلى الماء نحروا جملاً وترمقوا بما في بطنه"[٣٣٩]. ويحدثنا ابن سعيد أن الحالة نفسها تجري في صحراء سير التي يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانة، يكابدون لطولها وعرضها من شدة العطش ووهج الحر، يستعينون ببطون الإبل لحفظ الماء احتياطاً "فإذا أنشف الريح مياههم نحروها جملاً جملاً وشربوا ما في بطنها".

ودلّنا الجغرافيون والرحالة على الأشياء التي تتوفر في الصحراء وتصلح للتجارة، فيشير البكري إلى أن من "غرائب تلك الصحراء معدن الملح" الذي يبعد عن سجلماسة مسيرة عشرين يوماً، حيث هناك "تحفَر عنه الأرض كما تحفَر عن سائر المعادن والجواهر، ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض، ويقطَع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تاتنتال، وعليه حصن مبني بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشافه وغرفه"[٣٤٠]. كما يشير إلى أن هذا الملح يتجهز "إلى سجلماسة وغانة وساير السودان، والعمل فيه متصل والتجارة إليه متسايرة، وله غلة عظيمة"[٣٤١]، كما ينوه بمملحة أخرى "عند بني جدالة بموضع يسمى (أوليل) على شاطئ البحر"، يحمَل إلى ما جاوره من بلاد، كما يشير إلى أن بقرب أوليل هذه في البحر جزيرة تسمى أبون "يوجد فيها العنبر، وأكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف"[٣٤٢].

ويثير انتباه ابن سعيد والبكري حيوان صحراوي يسمونه (اللمط) وهو دابة دون البقر، على "شبه الغزال لكنه أغلظ منه" وهو صابر على العطش، له قرون دقاق حادة، كلما كبر الواحد منها طال قرنيه حتى يكون من أربعة أشبار، وأن أجود الدروق (التروس - الدروع) وأغلاها ثمناً هي التي تصنع من جلود العواتق منها التي طال قرناها[٣٤٣].

ولقد عرف الجغرافيون والرحالة العرب أهمية الطرق التجارية في نهوض بعض المدن الصحراوية وازدهارها لوقوعها على هذه الطرق، كالطريق الذي يمر بسجلماسة ثم إلى أودغست وإلى بلاد غانة في غرب الصحراء. كما نوهوا إلى أن الأسياد الحقيقيين لهذه التجارة العابرة للصحراء إنما هم التجار العرب في شمال إفريقية، أو أمراء البربر، وليس السودانيين أو القبائل البربرية الصحراوية التي اقتصر دورها على حماية القوافل لقاء أجر معلوم، فكان لأصحاب التجارة هذه معرفة واسعة بتكلفة المنتجات المغربية والسودانية على السواء، وأسعار الذهب والملح والنحاس وأثمان العبيد، وتكاليف النقل والحماية.

ولقد وصلتنا أخبار تلك الطرق التجارية "عن طريق الرحالة العرب والجغرافيون العرب، سواء أخذوا معلوماتهم عن طريق الآخرين أو كانوا أنفسهم من بين المسافرين، قبل أن يصل المكتشفون الأوربيون إليها بزمن طويل"[٣٤٤].

ولعل الطريق الذي يبدأ بـ(سجلماسة) كنقطة انطلاق في غرب الصحراء، صوب الجنوب باتجاه أوداغست التي تبعد مسيرة شهرين كما يشير ابن حوقل، ومن أودغست إلى نهايته في غانة بضعة عشر يوماً، لعله أهم طريق للتجارة بين البلاد العربية الإسلامية وبلاد السودان، حيث شهد ازدهاراً واضحاً في القرن الرابع الهجري-العاشر الميلادي، أثناء خبو أهمية الطريقين المار أولهما بالواحات وثانيهما بفزان بين مصر وبلاد السودان الغربي، وذلك للصعوبات الناشئة فيهما، فرغم أن التجار المصريين كانوا يذهبون إلى السودان من أجل حجر الشب والقصدير

---

(٣٣٩) المصدر نفسه، ص١٢. راجع أيضاً، ابن سعيد المغربي، ص١١٣.
(٣٤٠) البكري، المصدر السابق، ص١٧١.
(٣٤١) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٣٤٢) المصدر نفسه، ص١٧١.
(٣٤٣) المصدر نفسه، ص١٧١. راجع أيضاً، ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١١٣.
(٣٤٤) زيربو، تاريخ إفريقيا، المصدر السابق، ج١، ص٢٧٤.

والخصيان والذهب، فإنهم لم يكونوا راضين عن هذين الطريقين، فاستبدلوا سجلماسة بهما، وقد أشار ابن حوقل إلى ذلك في معرض حديثه عن الصحراء الكبرى وطرقها "وفيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفرداتهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، فانتقلوا عن ذلك الطريق إلى سجلماسة"[٣٤٥]. ويتحدث في مكان آخر عن الأسباب التي حدت بالمصريين لترك طريق الواحات وأيضاً طريق فزان، واستخدام طريق سجلماسة بدلاً عنه "أما الواحات فإنها كانت معمورة بالمياه والأشجار والقرى قبل فتحها، وكان يسلك من ظهرها إلى بلاد السودان بالمغرب على الطريق الذي كان يؤخذ ويسلك قديماً من مصر إلى غانة فانقطع.. ولم تزل سافرتهم وسافرة أهل مصر على غير طريق تتصرف إلى المغرب وبلاد السودان في براري، لم ينقطع ذلك إلى حين أبي العباس أحمد بن طولون. وكان لهم طريق إلى فزان وإلى برقة فانقطع بما دار على الرفاق في غير سنة بساقية (= بدفع) الريح للرمل على الرفاق حتى هلكت غير رفقة، فأمر أبو العباس (أحمد بن طولون) بقطع الطريق ومنع أن يخرج إليه أحد"[٣٤٦].

وبانقطاع الطريقين المارين بالواحات وفزان، استفاد الخط التجاري المار بـ(سجلماسة) واكتسبت مدنه ثراءً وغنىً وعلى الأخص منذ القرن العاشر الميلادي، وفي مقدمة هذه المدن سجلماسة التي قال عنها اليعقوبي: إنها "مدينة على نهر يقال له زيز، وليس له عيون ولا بئر، وبينها وبين البحر عدة مراحل، وأصل سجلماسة أخلاط والغالب عليهم البربر وأكثرهم صنهاجة، وزرعهم الدخن والذرة، وزرعهم على الأمطار لقلة المياه عندهم"[٣٤٧]، وقد وقد زارها ابن حوقل عندما زار أوداغست عام ٣٤٠هـ-٩٥١م، وكان من أوائل مَن وصف سجلماسة وأهلها، حيث قدَّم وصفاً إثنوغرافياً لبعض المجتمعات الصحراوية والسوداء، إذ يقول "وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة إلى السوس و(أغمات Aghmat) وفاس إلى نواحي (تاهرت Tahert)... إلى مدينة القسطنطينية.. يضيفون المارة ويطعمون الطعام، ويتخلّق قوم منهم بخلق ذميم، من بذل أنفسهم لأضيافهم على سبيل الإكرام، ولا يحتشمون من ذلك، وأكبرهم وأجملهم كأصغرهم في بذله نفسه لضيفه حتى يلحّ به"[٣٤٨].

ويتحدث عن تجارة سجلماسة التي تتقارب مع القيروان في صحة الهواء، حيث تجارتها "غير منقطعة منها إلى بلاد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة وسيادة في الأفعال وحسن كمال في الأخلاق والأعمال... وحنو بعضهم على بعض من جهة المروءة والفتوة... وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال"[٣٤٩]، ويلاحظ كثرة وجود التجار الشاميين والعراقيين فيها، وذلك بعد انقطاع الطريق التجاري عبر الواحات من مصر "وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة، وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق.. وتجارتهم دائرة.. وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام سعة حال"[٣٥٠]. وتحدث الوزان (ليون الإفريقي) بـ"أن الكثير من منطقة سجلماسة يسافرون إلى بلاد السودان حاملين بضائع بلاد البربر لمقايضتها بالذهب والرقيق، وتتغذى عامة الناس بالتمور وبالقليل من القمح.. وتكثر العقارب هنا بصورة مفرطة ولكن لا توجد البراغيث"، وكان التعبير الأوفى عن هذا الغنى وتلك الدقة والتقدم في تنظيم التجارات، هو رؤية ابن حوقل "صكاً كتب بدين على محمد بن أبي سعدون بأودغست، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار"[٣٥١].

---

(٣٤٥) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٦٥.
(٣٤٦) المصدر نفسه، ص١٤٣-١٤٤.
(٣٤٧) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٥٩.
(٣٤٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٩١.
(٣٤٩) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٣٥٠) المصدر نفسه، ص٦٥.
(٣٥١) المصدر نفسه، ص٦٥.

ويتحدث عنها المقدسي، على أنها قصبة جليلة "كثيرة الغرباء يقصدونها من كل بلد.. عليها سور طين، وفي وسطها حصن يسمى العسكر وفيه الجامع ودار الإمارة. وهي كثيرة التمور والأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان" وأن "سائر المدن المحيطة بها في الرمال عامرات" وهناك "معدن الفضة بتازرت، ومعدن الذهب بين الكورة وبلاد السودان، وليس في العالم أصفى ولا أوسع منه"[٣٥٢].

وأهل سجلماسة -كما يقول البكري- يعملون من صوف الغنم المجاور لهم "ثياب يبلغ الثوب منها أزيد من عشرين مثقالاً، وبنيت سنة أربعين ومابة (هجرية)... لها اثنتا عشر باباً ثمانية من حديد، قسِّمت سنة مائتين (هجرية) على القبائل على ما هي عليه اليوم، وهم يلتزمون النقاب.. وليس بسجلماسة ذباب، ولا يتجذم من أهلها أحد، وأهلها يسمنون الكلاب ويأكلونها، والبناؤون عندهم يهود"[٣٥٣]. وتعبيراً عن وفرة الذهب عندهم يلاحظ البكري "ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف، عدد بلا وزن"[٣٥٤].

ويشير ابن خلدون إلى أن أصل مواطن سجلماسة من مكناسة، يدينون في أول إسلامهم "بدين الصفرية من الخوارج" ونقضوا طاعة الخلفاء، وولوا بدلاً عنهم "عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب"[٣٥٥]، وهذا تطبيق لمبدأ الخوارج المسلمين بجواز أن يتولى الإمامة-الخلافة جميع الأعراق بما فيهم العبيد السودان، تعبيراً عن اعتناقهم العميق لمبدأ المساواة الإسلامي، وقد ظل يملكهم "بنو مدرار ماية وستين سنة"[٣٥٦]. ويشير الوزان أن قبائل بربرية تنتسب إلى الزناتة وصنهاجة وهوارة قد سكنتها، وكان لها ملك مستقل إلى أن انضوت تحت حكم المرابطين ومن بعدهم الموحدين، ثم حكمها بنو مرين إلى أن خربها أحد ملوك فاس.

لكن عندما بدأ ابن بطوطة رحلته إلى مالي وهو ابن عشرين عاماً وذلك عام ٧٥٣هـ-١٣٥٢م، ماراً بسجلماسة حيث قضى فيها أربعة أشهر يعلف جماله استعداداً لرحلته الطويلة، وجد المدينة آنئذ ماتزال على غناها "وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان فوصلت مدينة سجلماسة، وهي أحسن المدن، وبها التمر الكثير الطيب، وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر، لكن تمر سجلماسة أطيب"[٣٥٧]. وبعد ما يقارب القرن والنصف، عندما زارها ليون الإفريقي (الوزان) وجدها أطلالاً، حيث بدت له "سجلماسة في الوقت الحاضر مهدمة تماماً.. فإن سكانها تجمعوا في قصور وتشتتوا في كل مكان تقريباً من أراضي المنطقة"[٣٥٨]، إذ إنها خُربت بعد موت السلطان أحمد المنتصر في عام ١٣٩٣م، ولعل الانتقال إلى طرق أخرى أكثر أماناً للتجارة الصحراوية لعب دوراً في ذلك الأفول، فضلاً عن المشاكل السياسية مع بروز دور الإسبان على الشواطئ المغربية. ويذكر الحموي أن مدينة (درعة) تبعد أربعة أيام عن سجلماسة "وأهل هذه المدينة (درعة) أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنهم على طريق من يريد غانة التي هي مدينة الذهب"[٣٥٩]. ويشير اليعقوبي إلى أن تامدلت (لعلها تاميدت Tamedelt) قرب سجلماسة، حولها "معادن ذهب وفضة" ويبالغ في تقدير وجوده حيث يذكر أنه "يوجد كالنبات، ويقال أن الرياح تسفيه، والغالب عليهم قوم من البربر"[٣٦٠].

---

(٣٥٢) شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد أبي بكر البشاري المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل، ١٩٠٩، ص٢٣١.

(٣٥٣) البكري، المصدر السابق، ص١٣٧-١٣٨.

(٣٥٤) المصدر نفسه، ص١٥١.

(٣٥٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، المصدر السابق، ص٢٦٧.

(٣٥٦) البكري، المصدر السابق، ص١٣٩.

(٣٥٧) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي: رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، ج٢، دار الشرق العربي، حلب - سورية، دون تاريخ، ص٥٢٢.

(٣٥٨) (جان) ليون الإفريقي، الحسن بن محمد الوزان الزياتي: وصف إفريقيا، ترجمة د.عبد الرحمن حميدة، راجعه د.علي عبد الواحد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٩هـ، ص٤٩٩.

(٣٥٩) الحموي، المصدر السابق، المجلد الثالث، ص١٩٢.

(٣٦٠) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٥٩.

وإذا كانت سجلماسة مركزاً للتجارة الصحراوية في الشمال، فإن أودغست كانت المركز الجنوبي المقابل لها في الصحراء بمحاذاة بلاد السودان: غانا. ويلاحظ ابن حوقل العلاقة المتينة التي تربط ملك أوداغست بملوك السودان في الجنوب، حيث "يخالط ملك أوداغست ملك غانا، وغانا أيسر (= أغنى) مَن على وجه الأرض من ملوكها، بما لديه من الأموال المدخرة من التبر.. ويهادي (أي ملك أوداغست) صاحب كوغة، وليس كوغة بقريب من صاحب غانة من اليسار"(٣٦١)، ويردُّ سبب حرص ملوك السودان على العلاقة مع ملك أوداغست إلى "حاجتهم إلى ملوك أوداغست ماسة من أجل الملح (الذي يأتي) إليهم من ناحية الإسلام، فإنه لا قوام لهم إلاّ به، وربما بلغ الحمل (من) الملح في دواخل بلاد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار"(٣٦٢)، ويذكر استعمالها الصكوك الائتمانية في تجارتها، حيث رأى بأودغست "صكاً فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست، وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، ما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبهاً ولا نظيراً، ولقد حكيتها في العراق وفاس وخراسان فاستُطرفت"(٣٦٣).

وتجني أودغست أرباحاً طائلة من التجارات المارة بها، من الجباية والمكوس على بضائعها، فأميرها "يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلاد السودان، وعُشر وخراج، وقوانين قديمة، على ما يباع بها ويشترى من إبل وغنم وبقر إلى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي إفريقيا وفاس والأندلس وأغمات، إلى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة زهاء أربع مائة ألف دينار تختص بها وبعملها"(٣٦٤). كما يشير إلى أنها تبعد عن مدينة الملح أوليل مسيرة شهر، التي هي "على نحر البحر وآخر العمارة" وفيها "معدن الملح ببلاد المغرب"(٣٦٥).

يصف البكري بعناية الطريق من سجلماسة إلى أودغست وصعوبتها، خاصة في الطريق بين تامدلت وأودغست، ولا ينسى أن يذكّر بالينابيع النادرة التي تصادف الرحالة والتجار، والشعاب الضيقة التي لا تتسع إلا للإبل، وجبل آزور الكثير الثعابين المتصل حسب اعتقاده بجبل نفوسة من جبال طرابلس، وما يصادفه العابر من صحراء سوداء تندر بها الماء، وجبال رمل لا ماء فيها، وهو أصعب موضع في طريق أودغست؛ ويصل المرء بعد أربعة أيام إلى موضع يقال له وانزمين فيه آبار غريبة منها العذب والشريب، وعليه جبل كثير الوحوش "وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان" وتمشي منه إلى بلاد (وادان Ouadane) خمسة أيام مجابة في كثبان رمل فتصل إلى بئر عظيمة على حد بني وارث (قبيل من صنهاجة) عليه "شجر يقال له السفن، وهو شجر الأهليلج، إلا أنه لا يُثمر"، وتسير بعده يومين لتصل إلى آبار ملحة، ثم تسير منه ثلاثة أيام لتصبح إلى مجمع ماء فيه أصناف كثيرة من الشجر، ثم تمشي إلى أرض لصنهاجة كثيرة الماء من الآبار "لتسير منها إلى شُرف عال مشرف على أودغست، فيه طير كثير يشبه الحمام واليمام، وفيه أشجار الصمغ الذي يجلب إلى الأندلس يصمغ به الديباج، ثم إلى أودغست"(٣٦٦).

وبالمقابل يشير اليعقوبي إلى أنه في الطريق إلى سجلماسة إلى بلاد السودان، تجتاز صحراء مقدارها خمسين مرحلة "ثم يلقاك قوم يقال لهم أنبتة من صنهاجة في صحراء ليس لها قرار، شأنهم كلهم أن يتلثموا بعمائمهم سنة فيهم (= أي تقليد)، لا يلبسون قميصاً إنما يتشحون بثيابهم، ومعاشهم من الإبل، ليس لهم زرع ولا طعام"(٣٦٧)، إلى أن يصلوا إلى بلد "يقال له غسط" وهي أودغست التي يصفها اليعقوبي في القرن العاشر بقوله: وهي بلد في "واد عامر، فيه المنازل وفيه الملك، لا دين له ولا شريعة، يغزو بلاد السودان"(٣٦٨)، ويبدو أن هذا

---

(٣٦١) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٣٦٢) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٣٦٣) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٣٦٤) المصدر نفسه، ص٩١.

(٣٦٥) المصدر نفسه، ص٩١.

(٣٦٦) البكري، المصدر السابق، ص١٥٧.

(٣٦٧) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٦.

(٣٦٨) المصدر نفسه، ص٣٦.

الوصف قبل أسلمة أودغست وتحولها إلى مركز هام للثقافة الإسلامية والدين الإسلامي. أما في القرن الحادي عشر الميلادي فقد وصفها البكري بقوله "وهي مدينة كبيرة.. بها جامع ومساجد كثيرة أهله، وفي جامعها المعلمون للقرآن، وحولها بساتين النخيل ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء، وتأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم، وسائر أهلها يأكلون الذرة والمقاتي تجود عندهم، وبها شجيرات تين يسيرة ودوال يسيرة أيضاً... والغنم والبقر أكثر شيء عندهم"[٣٦٩].

ويتحدث عن تجاراتهم "وسوقها عامرة الدهر كله، وتبايعها (= تبادلها) بالتبر، وليس عندهم فضة.. ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام، ويُتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع، وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة.. وذهب أوداغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه"[٣٧٠]. فكانت أودغست -والحالة هذه- واحة تفيض بالنشاط التجاري، محاطة ببساتين الفاكهة والخضار، ومستراحاً للمسافرين من عناء الصحراء وهجيرها، ومركزاً هاماً من مراكز العالم الإسلامي، فيها الجامع ومساجد أخرى مشيدة، والمبادلات تتم بدقيق الذهب، ولها الأبنية الجميلة الأنيقة، أما سكانها "فأخلاط من البربر المسلمين، والرئاسة لصنهاجة"[٣٧١]. واختلف الجغرافيون العرب في تحديد موقع أودغست من حيث العرض، فعند ابن سعيد (بين ٢٦ و١٧ درجة)، أما البكري فيضعها بين سجلماسة وغانة (على مسافة خمسة عشر يوماً من كل منهما) وهو الأصح، وقد خبا مجدها مع الأيام واندثرت، فيتعرف عليها الميجر (رومل Romel)-الذي ترجم "تقويم البلدان" لأبي الفداء- في أجاديس الحالية، في شمال غرب بحيرة تشاد[٣٧٢].

أما في القرن الثاني عشر الميلادي، فيذكرها الإدريسي على أنها "مدينة صغيرة في صحراء، ماؤها قليل، وهي في ذاتها بين جبلين شبه مكة في الصفة، وعامرها قليل، وليس بها كبير تجارة، ولأهلها جمال ومنها يتعيشون"[٣٧٣]. ويروي لنا عن بعض "الثقات من متجولي التجار إلى بلاد السودان، أن بمدينة أودغست ينبت بأرضها، بقرب مناقع المياه كمأة يكون في وزن الكمأة منها ثلاثة أرطال وأزيد.. يطبخونه مع لحم الجمال ويأكلونه"[٣٧٤].

وقد كانت أودغست المحطة الأساسية والأخيرة في الطريق (اللمتوني) التجاري الواصل بين سجلماسة وغانة، وللحفاظ على أمن هذا الخط التجاري، وتأثراً بفاعلياته، نجد أن الصنهاجيين الملثمين تمكنوا في القرن الثاني الهجري-كما يشير المؤرخون والجغرافيون العرب- من تكوين أول حلف سياسي لهم بزعامة تيلونان بن تلاكان (ت ٢٢٢هـ-٨٣٦م) الذي استمر الحكم في أسرته حتى عام (٣٠٦هـ-٩١٨م) حيث قامت ثورة شيوخ صنهاجة[٣٧٥]؛ ولقد اعتبر ابن خلدون هذا الملك أشهر وأقوى ملوك صنهاجة، والذي طال عهده لمدة تزيد على نصف قرن[٣٧٦]، ويسميه البكري (تين يروتان بن ونسبو بن نزار) وهو "رجل من صنهاجة كان قد دان له أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان كلهم يؤدي إليه الجزية"[٣٧٧]، وهو دليل على علاقاته الواسعة مع بلاد السودان في الجنوب، فضلاً عن قوته التي تبدت في استطاعته إزاحة سيطرة غانة على أودغست وهيمنته هو عليها، وذلك

---

(٣٦٩) البكري، المصدر السابق، ص١٥٨.

(٣٧٠) المصدر نفسه، ص١٥٩-١٦٠.

(٣٧١) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١١٣.

(٣٧٢) المصدر نفسه، تعليق المحقق رقم (٩٥)، ص٢٣٥.

(٣٧٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص١٠٨.

(٣٧٤) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٣٧٥) ابن أبي زرع (علي الفاسي): الأنس المغرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، دار المنصور للطباعة، الوراقة، ١٩٧٣، ص١٢١.

(٣٧٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج٦، المصدر السابق، ص٣٧٢.

(٣٧٧) البكري، المصدر السابق، ص١٥٩.

في سياق صراع صنهاجة-غانة حول مدينة أودغست في القرن العاشر الميلادي[٣٧٨].

ويبدو أن هذا الملك مد سلطانه إلى بعض بلاد السودان، كما أشار إلى ذلك البكري، وأيضاً ابن خلدون فيما بعد، باستثناء غانة التي ما لبثت أن تغلبت على أودغست في نهاية القرن العاشر الميلادي[٣٧٩]، ويذكر ابن حوقل أن ملك أودغست يخالط ملك غانة التي يعتبرها "أيسر من على وجه الأرض"؛ ولا ينسى البكري أن يصف لنا الطعام اللذيذ الذي كانت تجهزه الزنجيات في أودغست، وعن إعجابه ودهشته بجمالهن الرائع "وبها طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمئة مثقال وأكثر، تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزنيقات (حلوى) والقطايف وأصناف الحلويات"[٣٨٠]، ثم يوجه إعجابه إلى حسناوات المدينة نفسها "وبها جوارٍ حسان الوجوه، بيض الألوان منثنيات القدود لا تنكسر لهن نهود، لطَّافة الخصور، ضخام الأرداف، واسعات الأكتاف، ضيقة الفروج، المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر، ترقد المرأة منهن على جنبها إشفاقاً من الجلوس على أردافهن"[٣٨١].

ويقتبس القلقشندي قول العزيزي على أن أهل أودغست "أخلاط من البربر المسلمين، والرياسة فيها لصنهاجة"، ولها أسواق غنية جليلة، كما أن السفن تصل إليها في البحر المحيط (الأطلسي) من كل بلد، وهي شديدة الحرارة وتهطل أمطارها في الصيف، ويزرع أهلها الحنطة والذرة والدخن واللوبيا والكرسنة، وتمتاز بكثرة نخيلها "وليس فيها فاكهة سوى التين، وبها شجر.. السنط والمُقل وغيرهما"[٣٨٢].

ويحدثنا الإدريسي عن مدينة الملح (أوليل) التي تبعد عن أودغست مسير شهر واحد، وهي مشهورة بملاحتها، وهي قرب الساحل "لا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان.. إلى (سلى Silla) و(تكرور Tekrour) وبرس وغانة وسائر بلاد (ونقارة Ouangura) وكوغة، وجميع بلاد السودان"[٣٨٣]. وكانت أملاح أوليل، بالإضافة إلى مملحة تغازي الركيزة الأساسية لتجارة قبائل الصحراء مع بلاد السودان، حيث يبادلونها بالذهب والمواد الأخرى اللازمة لهم.

ومع أفول نجم غانا، تعزز طريق تجاري آخر بات أكثر أمناً، وهو ذلك الطريق الذي تحدث عنه اليعقوبي في "كتاب البلدان"، والذي كان يربط سجلماسة نفسها بوالاتة أو (ولاتة Walata) و(تومبوكتو Tombouctou)، مارة بـ(تغازة Taghazza)، وهو الطريق نفسه الذي سار به ابن بطوطة وحدثنا عنه بطريقته المتفحصة المعهودة، وكان التجار يحاولون الوصول إلى مناجم الذهب في الجنوب عند ممالك السودان، وعلى الملح أوليل، ومناجم الملح الأخرى في تغازة على خط ولاتة، بالإضافة إلى حصولهم على سلع الشمال الإفريقي، وقد أظهر لنا جغرافيونا ورحالتنا أن رجال الأعمال المغاربة وأمراء الصحراء البربر هم الذين كانوا يهيؤون القوافل ويجمعون السلع ويرسلونها إلى السودان بواسطة عملائهم وسماسرتهم أو على تجار صغار محليين.

ولعل أهمية هذا الطريق التجاري الذي يمر بولاتة، تأتي من كونه يحمل إلى السودان الملح الحجري المستخرج من تيغازة، والذي يباع بمثل وزنه ذهباً حسب شهادة رحالتنا وجغرافيينا العرب[٣٨٤]، وذلك نظراً لحاجة الشعوب السودانية له، التي كانت تستعمل بديلاً عنه عند الضرورة مادة يستخرجونها من جذوع بعض

---

(٣٧٨) المصدر نفسه، ص١٦٨، وأيضاً ابن حوقل، المصدر السابق، ص٩٧.
(٣٧٩) زيربو، المصدر السابق، ج١، ص١٧٣.
(٣٨٠) البكري، المصدر السابق، ص١٥٨.
(٣٨١) المصدر نفسه، ص١٥٨.
(٣٨٢) أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء الخامس، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٦٣، ص١٧٢.
(٣٨٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص١٧.
(٣٨٤) البكري، المصدر السابق، ص١٧٤.

الأشجار، فضلاً على أن ملح أوليل على الساحل الموريتاني كان من الصعب إيصاله إلى سودان الداخل، أو إلى مالي، لذا أصبح طريق تيغازة أعظم طريق يصل مالي بالعالم الخارجي، وكان التجار والحجاج يستعملونه[٣٨٥]، مثلما اتبعه ابن بطوطة.

ويسجل ابن بطوطة انطباعاته عن الطريق الصحراوي الذي بدأ فيه من سجلماسة في رحلته إلى مالي، عابراً ولاتة التي هي على الطرف الجنوبي لطريق القوافل، على مسيرة خمسة أيام من تغازة، وكانت عندما زارها آخر أعمال مالي في اتجاه الشمال. ولقد اجتاز الصحراء بعد سجلماسة فوصل بعد خمسة وعشرين يوماً إلى تغازى (تغازة)، وأقام بها عشرة أيام بصعوبة و"في جهد، لأن ماءها زعاق، وهي أكثر المواضع ذباباً"، فوجدها لا خير فيها سوى ملحها الذي يشكل ثروة طائلة "ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح"[٣٨٦].

وفي هذا المكان "الذي لا خير فيه" و"لا شجر فيها"، وجد ابن بطوطة بها ما يدهشه ويثير عجبه "ومن عجائبها أن بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلول الجمال، يحفر عليه في الأرض.. فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة، كأنها نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين"[٣٨٧]. فالثروة الوحيدة عند تغازة هي الملح التي تعادل في قيمتها الذهب آنئذ في بلاد السودان، ولذلك فأهلها يقايضون هذا الملح ببضائع أخرى، ويستعملونه كالنقد "فبالملح يتصارف السودان، كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به، وقرية تغازى على حقارتها (ضآلتها) يُتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر"[٣٨٨].

أما أهلها فكلهم أغراب يأتون من مسوفة للعمل فقط بممالحها "ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة، هم الذين يحفرون هذا الملح، ويتعيشون بما يُجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال"[٣٨٩]. ومما يُجلب لهم من بلاد السودان.

كما سجل الرحالة الكبير الآخر الوزان في القرن السادس عشر انطباعاته عن تغازي التي مكث فيها ثلاثة أيام حسب قوله، فكانت لا تختلف عن انطباعات ابن بطوطة، حيث وجدها ماتزال مكاناً مأهولاً "حيث توجد مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام"، ويشير إلى أن مستخرجي الملح ليسوا من هذه المنطقة "يأتون مع القوافل ويظلون يعملون عمال مناجم، يستخرجون الملح ويحتفظون به، إلى أن تأتي قافلة أخرى تشتريه منهم"[٣٩٠]. أما طعامهم "فيُجلب لهم من (تومبوكتو Tombouctou) ومن الدرعة، الواقعتين كلتيهما على مسافة عشرين ميلاً من تغازة"[٣٩١].

لا يبخل علينا ابن بطوطة في وصف ما اعترضه وصحبه من صعوبات في هذا الطريق الصحراوي، أولها ندرة المياه ولا آخرها هجير الصحراء التي تجعل من المتعذر عليهم السير في النهار، حتى إذا وجدوا مكاناً للرعي رعوا فيه دوابهم، أو مكاناً لماء وقفوا عنده، لهذا فعندما وصلوا إلى (تاسرهلا) حيث وجدوا الماء التي تنزل القوافل عليها عادة، ويقيمون ثلاثة أيام "فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملأونها بالماء"، وفيها أيضاً يلتقون بما يسميه ابن بطوطة بـ"التكشيف" وهو رجل من مسوفة "يكتريه أهل القافلة" كدليل، حيث يتقدمهم إلى أيولاتن (ولاتة) يحمل رسائلهم إلى "أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور، ويخرجون للقائهم بالماء، مسيرة أربعة

---

(٣٨٥) زيربو، المصدر السابق، ج١، ص٢٧٧.
(٣٨٦) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٥٢٣.
(٣٨٧) المصدر نفسه، ص٥٢٣.
(٣٨٨) المصدر نفسه، ص٥٢٣
(٣٨٩) المصدر نفسه، ص٢٢٣.
(٣٩٠) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٥٢٦.
(٣٩١) المصدر نفسه، ص٥٢٦.

أيام"[٣٩٢].

ونعلم من ابن بطوطة خطورة المهمة التي يقوم بها هذا الدليل-التكشيف "فربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل أيولاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم.. إنما هي رمال تسفها الريح، فترى جبال من الرمل في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه"[٣٩٣]، إلا أن خطورة هذه الصحراء لم تمنعه من تسجيل حقيقة أخرى "وهذه الصحراء مثيرة مشرقة، ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس، وهي آمنة من السراق" كما وجد فيها الكثير من البقر الوحشي يصطاده الناس بالنشاب أو بالاستعانة بكلابهم، إلا أن لحمها يولد العطش "فيتحاماه الكثير من الناس"، ومن "العجائب إن هذا البقرة إذا قتلت وجد في كروشها الماء" لهذا رأى أهل مسوفة يعصرون كروشها ليشربوا مائه، كما وجد الحيات بهذه الصحراء كثيرة للغاية[٣٩٤]، ولقد وصل إلى ولاتة التي هي أول بلاد مالي السودانية بعد شهرين من مغادرته سجلماسة، ليعيش تجربته الكبرى مع أهل السودان.

لقد أدرك رحالتنا أهمية التجارة الدولية مع السودان في ثراء الكثير من المدن الصحراوية، فيذكر الوزان في هذا السياق أن تابلبالة التي تقع على مسافة ٣٥٠كم من سجلماسة جنوباً، صالحة للزراعة، مليئة بالنخيل رغم ندرة الماء، وتؤكل فيها طيور النعام، والسكان فيها "فقراء مع أنهم يزاولون التجارة مع أرض السودان لأنهم أتباع العرب"، وكذلك فإن "واكد تقع على مسافة مائة وسبعين ميلاً إلى الشرق من سجلماسة، لا ينبت فيها إلاَّ القليل من القمح، وفيها كمية كبيرة من التمور.. وينقل السكان بضائعهم إلى بلاد السودان"، كذلك فإن (فيفيق) وسط الصحراء تنسج الأقمشة الصوفية "وينصرف بعض رجالها للتجارة في بلاد السودان"[٣٩٥].

ويقول عن (تبغورارين) أن سكانها أغنياء "لأن من عاداتهم الذهاب كثيراً مع بضائعهم إلى بلاد السودان، حيث يجنون أرباحاً كبيرة، وهنا يقع خط القوافل، حيث ينتظر تجار بلاد البربر تجار بلاد السودان، ثم يذهبون سوية"[٣٩٦]. أما (مذاب) فسكانها أيضاً أغنياء "وهي أيضاً على الخط التجاري حيث يتلاقى تجار مدينة الجزائر وبجاية مع تجار السودان"[٣٩٧].

وإذا كانت أوليل وتغازة قد اشتهرتا بتصدير الملح إلى بلاد السودان، فهناك (تادمكة Tadmakka) التي اشتهرت بتصدير نحاسها إلى بلاد السودان، وهي مدينة اعتبرها البكري أجمل من مدينة غانة وكوكو.

نستدل من رحالتنا وجغرافيينا، أن هناك طريقين آخرين وسط الصحراء الكبرى إلى الشرق من الطريق التجاري بين سجلماسة وولاتة، أحدهما يبدأ من (طرابلس Tribli) ويمر بـ(فزان Fezzan) و(مرزوق Mourzouk) بجوار بحيرة تشاد إلى (كانم) السودانية، وطريق آخر يبدأ من (غدامس Ghadamis) حتى بلاد الهوسا غرب بلاد السودان، أو إلى تمبكت التي تأسست عام ١٠٠٠م، حيث تقع على منحنى النيجر في المكان الذي يتوغل فيه النهر في الصحراء، تأتيها القوافل من الشمال والشرق التي بدأت تنافس (جني Djenne) في هذا الوقت. فضلاً عن الطريق الثالث المتجه إلى مصر شرقاً.

ويبدو أن الجغرافي العربي كان حتى القرن العاشر الميلادي ينظر إلى (زويلة Zawilla) وهي في

---

(٣٩٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٥٢٤.
(٣٩٣) المصدر نفسه، ص٥٢٤.
(٣٩٤) المصدر نفسه، ص٥٢٤.
(٣٩٥) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٥٠١-٥٠٤.
(٣٩٦) المصدر نفسه، ص٥٠٥.
(٣٩٧) المصدر نفسه، ص٥٠٥.

الصحراء الليبية، على أنها (تخم) يفصل ويصل بين ديار الإسلام وبلاد السودان، حيث لم يكن الإسلام حينها قد دخل بلاد السودان بشكل جلي، أو بطريقة ملموسة لديهم، فيشير اليعقوبي إلى اشتهار أهل زويلة بتجارة الرقيق السودان "هم قوم مسلمون أباضية... يخرجون الرقيق السودان من الميريين والزغاويين والمرويين، وغيرهم من أجناس السودان، وبلغني أن ملوك السودان يبيعون السودان"[٣٩٨]؛ وتنتسب إلى ولاية (فزان) الواقعة بين طرابلس والفيوم، وتعتبر (زويلة) حسب الحموي مدينتها الرئيسية التي يغلب "على ألوان أهلها السواد"[٣٩٩]، ورغم صغرها -كما يقول الإدريسي- إلا أن بها أسواق، ومنها يُدخل إلى بلاد السودان، وبها آبار عذبة، وبها نخيل، والمسافرون يستعينون بأمتعة من تجهيزاتها[٤٠٠].

ويخبروننا أن زويلة تقع على الطريق من فزان إلى كوار في بلاد السودان، ويعلمنا البكري أن بين زويلة وبلد (كانم Kanem) السودانية أربعون مرحلة "وهم وراء صحراء زويلة، لا يكاد أحد يصل إليهم"[٤٠١]. ونستدل من البكري أن من أراد الطريق من نفوسة-التي هي جنوب طرابلس الليبية- إلى مدينة زويلة، فإن عليه أن يخرج إلى مدينة جادوا ثم يسير ثلاثة أيام في الصحراء والرمال ليصل إلى (تيري) على سفح جبل (فيه آبار كثيرة ونخيل)، ثم يمشي في صحراء خالية من الماء أربعة أيام حتى يصل إلى جبل تارغين، ثم يسير ثلاثة أيام حتى يصل إلى "بلد يسمى (تامرما) فيه نخل كثير، يسكنه بنو فلدين وبزانة، ثم إلى بلد (سباب)" إلى أن يجتاز صحراء مستوية "لا شيء فيها غير رمل رقيق لا يشوبه حجر" تبعد عنها زويلة يوم واحد "وهي أول حد بلاد السودان، بها جامع وحمام وأسواق" ولأهلها "حكمة في احتراس بلدهم"، واعتماداً على تجارتهم مع بلاد السودان، وموقعها كمركز لتجارة الرقيق "يجلب من زويلة الرقيق إلى ناحية إفريقية، وما هنالك، ومبايعاتها بثياب قصار حمر"[٤٠٢].

ويحدثنا الإدريسي عن مدينة (أوجلة Aoujila) القريبة من بنغازي الحالية، وهي مدينة صغيرة حسب وصفه، تبعد عن برقة عشر مراحل، وهي مدينة "متحضرة فيها ساكنون كثيرو التجارة.. ومنها يدخل الكثير من بلاد السودان نحو كوار وبلاد كوكو، والوارد عليها والصادر كثير"[٤٠٣]، وكان باستطاعة إمبراطورية البورنو حماية الطريق من فزان إليها عبر تشاد من تهديد قبائل الطوارق. ويشير ابن سعيد أن الكانم هؤلاء "خلق عظيم... وبهم التغلب على بلاد الصحراء إلى فزان، وكانت لهم مهادنة مع الدولة الحفصية منذ أولها"[٤٠٤].

وعلى الشرق من ذلك، هناك الطريق الذي يمر بغدامس باتجاه ممالك الـ(هوسة Haoussa) السودانية عبر مدينة (آيير Air) التي كانت تلعب دور الموزع التجاري للقوافل مثل أغاديس، أو إلى تومبوكتو إلى بلاد النيجر، وربما تمر في البداية في ورجلة أو (ورقلة Ouargla) عبر (توات Touat) إلى بلاد السودان، ولعل هذا الطريق يمر في الصحراء التي يسميها الوزان صحراء الطوارق والتي يحددها بتخوم آيير شرقاً وصحراء إيغيدي غرباً، وفي الشمال صحراء توت وفي الجنوب الصحاري القريبة من مملكة أغاديس، وليست هذه الصحراء حسب الوزان بوحشة الصحاري الأخرى المجاورة لها "إذ يُعثر فيها في كل يوم على ماء طين في

---

(٣٩٨) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٥٤٣.
(٣٩٩) الحموي، المصدر السابق، المجلد الرابع، ص٢٦٠.
(٤٠٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص٣١٣.
(٤٠١) البكري، المصدر السابق، ص١١.
(٤٠٢) المصدر نفسه، ص١٠-١١.
(٤٠٣) الإدريسي، المصدر السابق، ص٣١٢.
(٤٠٤) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٩٤-٩٥ و١١٥، وراجع ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد سادس، المصدر السابق، ص١٩٩.

آبار عميقة ولا سيما بجوار آيير... حيث ينبت فيها الكثير من الكلأ"[٤٠٥]. ولعل هذه الصحراء (صحراء الطوارق) ما هي إلاَّ نجعة طوارق الـ(هقار Hogea)، مع ملاحظة أن موقع آيير في الشرق وإيغيدي في الغرب، على عكس ما يشير إليه الوزان الذي يوجهنا إلى وجود أغادس على أبعد من آيير التي يعتقد أن ملوك آيير أقاموا بها عام ١٥٠٢م، ويوجد فيها "المن الكثير"[٤٠٦]، الذي يمنحهم استعماله في الطعام الصحة. وكان أحد مصادر هذه التجارة مملحة (آيير)، حيث تتجه نحو (غاو Gao) في مملكة السنغي، وحسب رواية ابن خلدون فإنه في القرن الخامس عشر الميلادي كانت القوافل المارة بالهوكار هذه تضم أحياناً اثنا عشر ألفاً من الجمال[٤٠٧].

لعبت في هذه المنطقة كل من غدامس وآيير دوراً مهماً، حتى أن الوزان عند إشارته إلى الصحراء التي يسكنها ما سماه شعب برداوة، ولعله يعني شعب التدا أو التبو شمال تشاد الحالية، وذكرهم المقريزي على أنهم البربر، نبهنا إلى أنهم يتاخمون في الجنوب صحراء (بورنو) وفي الشمال فزان، وإلى أن الأرض هناك "شديدة الجفاف"، والأمر الهام هنا هو تأكيده بأنه "لا يمكن اجتياز هذه المنطقة بسلام، وأهل غدامس وحدهم هم الذين يستطيعون القيام بذلك، لأنهم أصدقاء البرداوة، ويحملون من فزان الأقوات والأقمشة التي هي ضرورية للرحلة"[٤٠٨].

ويذكر الوزان غدامس في مكان آخر، على "أنها منطقة مسكونة كبيرة، على مسافة ثلاثمائة ميل (= ٥٣٧كم) من البحر المتوسط، وسكانها أغنياء يملكون أموالاً وبساتين نخيل، ذلك لأنهم يتَّجرون مع بلاد السودان"[٤٠٩]. ويشملها الحموي بوصفه، على أنها "عجيبة بربرية فيما أحسب" جنوبي المغرب "ضاربة في بلاد السودان بعد بلاد زافون، تدبغ فيها الجلود الغدامسية (= نسبة إلى غدامس) وهي من أجود الدباغ.. وأهلها بربر يقال لهم تناودية"[٤١٠].

ويصف لنا الوزان عبر تقصيه لملامح الصحراء الكبرى، وترتيبه للمواقع الطبوغرافية لقبائلها المتناثرة في محيطها الواسع كبقع الوشم، يصف لنا المدن وسكانها ووظائفها، ولا سيما تلك التي تقع على الخطوط التجارية المارة بغدامس وآيير، فيجد مدينة (ورقلة) "سكانها من كبار الأغنياء لأنهم على علاقة بمملكة أغادس (السودانية)، ونجد بين ظهرانيهم الكثير من الباعة الغرباء ولا سيما القادمين من قسنطينة ومن تونس، ويجلب هؤلاء إلى ورقلة منتجات بلاد البربر كي يتبادلونها بالسلع التي جلبها تجار بلاد السودان"[٤١١]. وينبهنا أيضاً إلى أن في ورقلة "أكثرية الرجال سود، وليس ذلك بسبب المناخ لكن لأن لهؤلاء الناس الكثير من الجواري ذات اللون الأسود ويتخذونها سريات (سراري) لهم، فيرث أولادهم ألوان أمهاتهم"[٤١٢]، وتدل هذه واقعة على اندماج السود في المجتمعات الإسلامية في شمال إفريقية، ونعلم أيضاً أن (نقطة) "مكان مأهول وتوجد فيها قلعة، وسكانها أغنياء لأنها واقعة على تخوم ليبيا "على الطريق المؤدية لبلاد السودان"[٤١٣].

---

(٤٠٥) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٥٢١.
(٤٠٦) المصدر نفسه، ص٥٢٢.
(٤٠٧) زيربو، ج١، المصدر السابق، ص٨٧٢.
(٤٠٨) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٥٢٤-٥٢٥.
(٤٠٩) المصدر نفسه، ص٥١٦.
(٤١٠) الحموي، المصدر السابق، المجلد الرابع، ص١٨٧.
(٤١١) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٥٠٨.
(٤١٢) المصدر نفسه، ص٥٠٨.
(٤١٣) المصدر نفسه، ص٥١٠.

وينبهنا، وهو الذي شهد تصاعد التدخل البرتغالي على شواطئ المغرب العربي، إلى أن سكان (أفران) "أغنياء نسبياً لأنهم يتاجرون بسلعهم مع البرتغاليين في ميناء غارتغسم (= أغادير)، حيث يأخذون منهم الأقمشة الخشنة والأقمشة الكتانية.. التي يحملونها إلى بلاد السودان بين ولاتة وتومبوكتو، ويقيم في قصور أفران كثير من الصناع ولا سيما صناع آنية النحاس وهي أدوات رائجة في بلاد السودان، ويعود هذا إلى أن بضعة مناجم للنحاس توجد في ضواحي أفران"(٤١٤).

أما عن أهل المدينة التي يسميها (تيست)، فيذكر أن من عاداتهم أن يقوموا برحلات تجارية إلى بلاد السودان وإلى جزولة "حتى أنه لا يمكث في البيت إلا نصفهم"(٤١٥)، ويقدم لنا وصفاً إثنوغرافياً لسكانها تمتزج فيه أحكامه السلبية بأحكامه الإيجابية، بقوله "وهم شديدو القبح وسود تقريباً، وليس لهم حظ من التعليم، والنساء هن اللواتي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات"(٤١٦).

وكان من الخطورة بمكان - كما يذهب الوزان- بالنسبة لتجارة العبور في الصحراء الليبية باتجاه السودان، القيام برحلة خارج فصل الشتاء، إذ تهب حينئذ الرياح السيروكي (القبلية الشرقية) "التي تثير الرمل الذي يغطي الآبار.. وهكذا يضطرون للموت عطشاً، فيرى المسافرون أحياناً عظام هؤلاء الرجال البيضاء وعظام جمالهم"(٤١٧)، لذا فإن التجار ينتظرون حتى كانون الأول-ديسمبر وكانون الثاني-يناير وقسم من شباط-فبراير، حيث يكثر العشب وتظهر العديد من البحيرات ويكثر الحليب "وهذا هو السبب الذي يجعل تجار بلاد البربر يقومون برحلتهم في هذه الفترة، وهي رحلتهم إلى بلاد السودان"(٤١٨). وكان الطريق الشرقي إلى مصر-الذي أشار إليه ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي- والمار بالواحات، كان يواجه حينها صعوبات، فتوجَّه السلطان ابن طولون بإصدار أوامره بمنع استعمالها، فما لبث أن ازدهر من جديد ولا سيما في زمن رحلة ابن بطوطة إلى مالي، والتي يقال أنها أتت لدراسة أسباب ازدهار هذا الخط التجاري بين إمبراطورية مالي ومصر على حساب الخطوط التجارية الأخرى الذاهبة باتجاه الغرب، حتى أن الكثير من سلاطين مالي والسنغي قد سلكه في طريقهم للحج إلى مكة مروراً بمصر، فيشير الوزان في القرن السادس عشر الميلادي إلى هذا الطريق، وذلك بعد التذكير بممالك السودان "والتي يقع أغلبها من نهر النيجر، يمر منها الطريق الذي يسلكه الذين يذهبون من ولاتة قاصدين القاهرة، هذه الطريق طويلة ولكنها مأمونة"(٤١٩).

لكن سنجد أن الطريق نفسها كانت في زمن الإدريسي-أي بعد قرنين من ابن حوقل- لاتزال غير مأمونة، ولهذا فإن الإدريسي يتعرض لها بقوله "وبلاد الواحات الخارجية الآن صحراء لا أنيس بها، بلقع لا عامر لها، والمياه بها موجودة، وكانت على القدم معمورة متصلة الثمار، وكان فيما سبق من الزمان الدخول عليها ومنها إلى مدينة غانة في طريق سلوكة لكنها انقطعت"(٤٢٠)، بينما نراها تنتعش مجدداً في زمن ابن بطوطة، حتى رحلة الوزان في القرن السادس عشر، ونتيجة لانتعاش هذه الطريق بعد القرن الثاني عشر الميلادي، انتعش حال الواحات في الصحراء الليبية، وهو ما يفسر سيطرة دولة الـ(كانم Kanem) السودانية على مناطق هذه الصحراء،

(٤١٤) المصدر نفسه، ص٤٨٩.
(٤١٥) المصدر نفسه، ص٤٨٩.
(٤١٦) المصدر نفسه، ص٤٨٩.
(٤١٧) المصدر نفسه، ص٨٦.
(٤١٨) المصدر نفسه، ص٩٢.
(٤١٩) المصدر نفسه، ص٤١.
(٤٢٠) الإدريسي، المصدر السابق، ص١٢٢

مثل ودان وفزان وزويلة في القرن الرابع عشر الميلادي[٤٢١]، ولعل هذا الطريق هو الطريق الذي سلكه منسا موسى سلطان مالي إلى القاهرة في طريقه إلى الحج. وقد لاحظ ابن بطوطة أيضاً أن أهل (تكدا Takadda) لا شغل لهم غير التجارة إلى مصر كل عام من الواحات الصحراوية[٤٢٢].

لقد ترك لنا رحالتنا وجغرافيونا في مدوناتهم انطباعاتهم وأحكامهم عن شعوب الصحراء، التي كانت تقترب في بعض جوانبها من أسلوب الدراسات الإثنوغرافية للشعوب، وهو ما يظهر جلياً في تعليقاتهم-التي عرضنا لقسم منها- عن حياة سكان بعض المدن الصحراوية، أو قبائلها المتناثرة في فلواتها، حيث تعرضوا في تلك التعليقات لعاداتهم المختلفة ولعقائدهم وأساليب حياتهم وطقوسهم وأزيائهم وأفراحهم وأتراحهم (طقوس الزواج والدفن) ومجال فخرهم وعارهم، كما رأوا إلى جانب البدو هناك السكان المستقرين في الواحات والمدن الصحراوية، ولقد دلنا مؤلفونا أن هناك من أهل الصحراء -في بقاع محدودة- داوم العيش في قلب الصحراء دون اعتماد على الزرع بل اعتماداً على "الضرع" وما تنتجه حياة الرعي من لحم ولبن، أو كما قال عنهم البكري "لا يعرفون زرعاً ولا خبزاً، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن"، أو حسب إشارة ابن حوقل عن تلك القبائل الموغلة في العيش جنوباً بمحاذاة بلاد السودان "لم يروا قط حاضرة ولا عرفوا غير البادية، ولا يعرفون البر ولا الشعير".

وهناك في الجانب الآخر مستقرات بدوية لهؤلاء البربر يعتمدون في عيشهم فيها على بعض السلع المحلية كالملح في تغازة وأوليل، أو لموقعها على خطوط التجارة الدولية تعتاش فيها، فيصف لنا البكري أهل تادمكة وهي المركز التجاري الكبير على الطريق بين حوض النيجر وشمال الصحراء، واصفاً معاشهم ولباسهم وأزيائهم، وتميز لباس ملكهم، ولباس نسائهم، فيقول "وأهل تادمكة بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن.. ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان، ودنانيرهم تسمى (الصلع) لأنها ذهب محض غير مختومة"[٤٢٣].

وإذا كان التمييز الأبرز عندهم هو ما بين سكان المدن وبين سكان البادية، فإن بعضهم قد ميّز في داخل سكان الصحراء بين ما سموه (الطوارق) وهو اسم أطلقه العرب على قبائل الملثمين وإن كان يعني في اللغة الأمازيغية (البربرية) الساقية أو القناة، وبين عامة البربر، حيث خصُّوا ذلك الجزء من البربر الذي يستعمل اللثام باسم الطوراق، وبعض المؤلفين وضع مكان البربر-الطوارق في الجهات الجنوبية المحاذية لبلاد السودان، واعتبر بعضهم الآخر كالوزان القبائل القاطنة في جزء الصحراء الليبية (= نوميديا) من الطوارق، وأطلق على هذا الجزء اسم صحراء الطوارق أو الطارقة[٤٢٤]، وهو سكان صحراء فزان في غرب ليبيا.

لقد أطلق القلقشندي-كابن خلدون- على شعوب البربر المحاذية لبلاد السودان لقب الملثمين، وهو ما يعادل التسمية (طوارق)، فيقول "كان الملثمون من البربر من صنهاجة قبل الفتح الإسلامي متوطنين القفار وراء رمال الصحراء: ما بين البربر وبلاد السودان.. واتخذوا اللثام شعاراً يميز بينهم وبين غير الأمم"[٤٢٥].

ويذهب ابن خلدون في السياق ذاته إلى وضعهم في موقع التخوم الجنوبية ما بين البربر والسودان، إذ

---

(٤٢١) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٩٥، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، ص٦٠-٣٩٨.
(٤٢٢) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص٥٤٠.
(٤٢٣) البكري، المصدر السابق، ص٨١-١٨٢.
(٤٢٤) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٥٢١.
(٤٢٥) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص١٨٨.

يقول "هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون، المواطنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هنالك منذ دهور قبل الفتح لا يُعرف أولها، فنزحوا عن الأرياف ووجدوا بها المراد، وهجروا التلال وجفوها واعتاضوا عنها بألبان الأنعام ولحومها، انتباذاً عن العمران واستئناساً بالانفراد، وتوحشاً بالعز عن الغلبة والقهر؛ فنزلوا عن الحبشة جواراً، وصاروا ما بين البربر وبلاد السودان حجزاً، واتخذوا اللثام خطاماً تميزوا بشعارهم بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد، وكثروا وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فوتريكة فزغاوة، ثم لمطة أخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة"[٤٢٦].

ويشير الوزان في مكان آخر، عندما يتحدث عن بدو صحراء ليبيا من البربر الذين "يلبس أشراف هؤلاء الرعاة فوق رؤوسهم لثاماً أسود يغطون وجوههم كلها بقسم منه، حتى لا تظهر من خلاله سوى عيونهم، ويحافظون على هذا الوضع حتى عندما يريدون تناول الطعام... ويقدمون تبرير هذه العادة بالزعم التالي: كما أن من العيب بالنسبة للرجل أن يُرى وهو يطرد غذاءه بعد هضمه، كذلك من المعيب أن يُرى وهو يدخل الغذاء إلى جوفه"[٤٢٧].

ولقد لاحظ الرحالة العرب الأوائل الذين توغلوا حتى غرب الصحراء الكبرى أمثال ابن حوقل ومن بعده البكري، أن الولد في تلك الشعوب الصحراوية البربرية عندما يصبح في سن البلوغ يبدأ في وضع اللثام خلال احتفال عائلي مهيب، ورأينا إشارة البكري سابقاً إلى "أن جميع قبائل الصحراء يلزمون النقاب" وهو رأي الحموي أيضاً، وتستعمل القبائل البربرية هذه-كما يقول الوزان "لغة واحدة يسمونها عادة آوال آمازيغ أي اللغة النبيلة، ويطلق عليها العرب اللغة البربرية.. نجد فيها بعض الكلمات من اللغة العربية، وهذا هو الدليل الذي يعتمد عليه من يذهبون إلى أن الأفارقة ترجع أصولهم إلى السبئيين، أي من اليمن"[٤٢٨].

وتمتزج لدى مصنفينا ورحالتنا الأحكام الإيجابية بالأحكام السلبية، إلى جانب وصفهم الموضوعي لحال تلك القبائل والشعوب الصحراوية، فيذهب الوزان إلى التفريق بين أهل المدن البربرية الذين "يجدون متعة في التعلم.. وبشدة تقواهم.. يطلبون علماءهم وأئمتهم.. وهم ماهرون.. يظهرون الصدق لديهم في القلب واللسان، وهم رجال أولو بأس وشجاعة ويحترمون العهد.. يذهبون إلى مختلف أنحاء العالم بتجارتهم"[٤٢٩]. وبالمقابل يصف الناس الذين يسكنون الخيام "بأنهم رجال كرماء مفعمون بالرحمة، وصبورون، وطيبو المعشر"[٤٣٠]، يملكون البسالة والجرأة والفروسية على الإبل والخفة في الجري... ولهم خلق تام وصبر وجلد"[٤٣١].

ويحدثنا الوزان عن حياة البدو في صحراء نوميديا، التي يقضوها "في الصيد أو في سرقة إبل أعدائهم، ولا يتوقفون في أي مكان أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، أي في أثناء الوقت الكافي لكي ترعى إبلهم العشب الذي تجده هناك"[٤٣٢]، ويتألف كساؤهم من "فوطة ضيقة من صوف خشن" ويضع كل واحد فوق رأسه "قطعة قماش سوداء ملفوفة حول وجهه كالعمامة"، أما وجهاؤهم "فيضعون قميصاً كبيراً في أكمام عريضة من قماش القطن

---

(٤٢٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد ٦، ص١٨١.
(٤٢٧) ليون الإفريقي، المصدر السابق، ص٦٨.
(٤٢٨) المصدر نفسه، ص٤٧.
(٤٢٩) المصدر نفسه، ص٩٦.
(٤٣٠) المصدر نفسه، ص٩٧.
(٤٣١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٩٨.
(٤٣٢) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٦٨.

الأزرق الذي يشترونه من تجار قادمين من السودان، لكي يتميزوا عن الآخرين"[٤٣٣]، ولا يركب هؤلاء "سوى الإبل" يستخدمون لها "سراجاً يضعونه بين السنام وبين العنق، وإنه لمنظر جميل أن يرى الإنسان هؤلاء الناس يركبون جمالهم"[٤٣٤]. ويذكر البكري أن أهل تادمكة "يلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولى وغير ذلك، وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصاً أصفر وسراويل زرقاء"[٤٣٥].

أما خيام هؤلاء البدو فيصنعونها من "وبر الجمل ومن ألياف خشنة تنمو بين براعم النخيل العليا"[٤٣٦]، ولعل هؤلاء هم بدو جنوب مراكش، إذ يستعمل بدو الصحراء الغربية لخيامهم صوف الماعز والغنم، ويستعمل الطوراق خياماً من الجلد. ويتحدث الوزان عن افتقاد هؤلاء البدو للنظام والشرعة، إذ "لا يخضعون لنظام ولا لقانون"، إلا أنه بمقابل ذلك يقول بأن لكل من هؤلاء الأقوام "أميرها، وهو ملك يدينون له بالطاعة المطلقة، ويؤدون له واجب الاحترام"[٤٣٧]. ويصفهم بأنهم أناس جهلة لا يعرفون شيئاً "فهم لا يجهلون الآداب فحسب بل يجهلون كذلك الفنون وسائر المعارف الأخرى.. ومن الصعوبة بمكان أن يعثر الإنسان في العشيرة كلها على حاكم يكون مؤهلاً للفصل في نزاع"[٤٣٨]، إلا أنه بمقابل ذلك يراهم "شعب مضياف جداً"[٤٣٩]، فيذكر أنه عندما مر بهم في قافلة من المسافرين، ولعله يقصد رحلته الثانية إلى تومبكتو عام ١٥١٢م، رأى القوافل التي تخترق صحاريهم تدفع رسوم لأمرائهم قطعة قماش تعادل قيمتها ديناراً واحداً، عن كل حمل جمل، وعندما وصل إلى سهل أروان لاقاهم أمير (ناتة) مصحوباً بخمسمائة رجل على متن الهجن، فما كان منه بعد استلامه الرسوم الواجبة إلاَّ أن دعا القافلة التجارية التي بها الوزان، لاستضافتها، فنحر لهم الأمير من عنده عدد من الجمال، ونفس العدد من الخراف، وبعض طيور النعام، فقدم لهم الشواء المتبل بالأعشاب، وكمية طيبة من توابل بلاد السودان، وبعدها قدم لهم التمور مع الحليب، وكان خبزهم مصنوع من دقيق غاية في النعومة، وفهموا من الأمير أنه يجلب كمية من الحبوب كي يكرم بها الغرباء من ضيوفه، ومن عاداتهم أكل الخبز في أيام بعض الأعياد الكبرى كعيد الفطر، فلاحظ الوزان "أن ثمن الحيوانات التي نحرها لإطعامنا كان يساوي عشرة أضعاف ما دفعنا له من رسوم"[٤٤٠].

ونجد عند المقدسي صورة سلبية عن أهل الصحراء من البربر، حين قال عنهم "لا يُفهم لسانهم، ولا ترضي طباعهم، مع خسة وشدة. سمعت أن أحدهم يشد وسطه بنفقته فيذهب إلى الحج ويرجع وهي معه فحينئذ يتزوج"[٤٤١]، كما أنهم يلبسون البرانس السود[٤٤٢]. وفي المقابل فإن ابن خلدون يقدم صورة مليئة بالزهو عن سلوكهم الاجتماعي والأخلاقي "وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة، وما جلبوا عليه من الخلق الكريم مرضاة الشرف والرفعة بين الأمم، ومدعاة المدح والثناء من الخلق من عز الجوار وحماية النزيل ورعي الأذمة والوسائل، والوفاء بالقول والعهد، والصبر على المكاره، والثبات في الشدائد، وحسن الملكة

---

(٤٣٣) المصدر نفسه، ص٦٦-٦٧.
(٤٣٤) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٤٣٥) البكري، المصدر السابق، ص١٨١-١٨٢.
(٤٣٦) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٦٧.
(٤٣٧) المصدر نفسه، ص٦٧-٦٨.
(٤٣٨) المصدر نفسه، ص٦٨.
(٤٣٩) المصدر نفسه، ص٦٩.
(٤٤٠) المصدر نفسه، ص٧٠.
(٤٤١) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص٢٤٣.
(٤٤٢) المصدر نفسه، ص٢٣٩.

والإغضاء عن العيوب، والتجافي عن الانتقام، ورحمة المسكين وبر الكبير وتوقير أهل العلم.. وقري الضيف والإعانة عند النوائب وعلو الهمة وإيابة الضيم، ومشاقة الدول، ومقارعة الخطوب، وغلاب الملك، وبيع النفوس من الله في نصر دينه"[٤٤٣].

ولا ينسوا إطراء جمال نسائهم وعذوبتهن، مثلما أثار جمال نساء أودغست إعجاب ابن حوقل كما مر معنا، وقد أخبرنا البكري أن نساء تادمكة "فايقات الجمال، لا تعدلهن أهل بلد حسناً" إلا أنه يقول عنهن أن "الزنا عندهم مباح، وهن يبادرن التجار أيتهن تحمله إلى منزلها"[٤٤٤]، ويذهب البعض بتفسير هذا التخفف من التعاليم الإسلامية بشأن المرأة إلى سطحية انتشار الإسلام وتعاليمه حتى القرن الحادي عشر الميلادي، في بعض المدن الصحراوية، ناهيك عن البادية فضلاً عن بلاد السودان، لكن هذه الأحكام على اختلاط المرأة وتخفّفها من الضوابط الخلقية الإسلامية يسجلها الوزان في القرن السادس عشر الميلادي، وهو ما يجعلنا نفكر في البيئة والوسط الاجتماعي الصحراوي التجاري-الرعوي، فالوزان سجل إعجابه بنسائهم اللاتي "تتميز ببدانة شديدة، ولكنهن غير بيضاوات كثيراً، ولهن كفل ناهد وسمين والثديان كذلك، ولكن قوامهن دقيق للغاية، وهن سيدات لطيفات جداً. وعند الحديث يمدون إليك أيديهن عن طيب خاطر.. ويندفعن في الملاطفة أحياناً حتى السماح بتقبيلهن، ولكن سيكون من الخطورة بمكان التمادي أكثر من ذلك"[٤٤٥].

ويخبرنا في مكان آخر عن بعض القبائل الصحراوية التي لا تتبع أية ديانة سماوية، حيث أن كل الفتيات عندهم، قبل زواجهن، "يستطعن أن يعشقن، وأن يتذوقن ثمرة الحب" إلا أنه ما أن تتزوج الفتاة "حتى يكف العشاق عن مطاردتها"[٤٤٦].

وفي تقصِّيهم عن ديانة البربر القديمة يذكر الوزان أنهم كانوا "في قديم الزمان مجوساً على غرار الفرس يعبدون الشمس والنار، وكان لديهم معابد مزدانة تكريماً لهذه وتلك، وكانوا يوقدون في هذه المعابد، على الدوار، نار تُحرس ليلاً كيلا تخمد"[٤٤٧]، وبعضهم في صحراء ليبيا كانوا يعبدون "الكواكب السيارة، وكانوا يقدمون لها القرابين"[٤٤٨]، وكل هذا قبل أن تتأسلم تلك القبائل والشعوب تدريجياً، حتى كان القرن الثاني عشر حاسماً في أسلمتهم، وقد سجل المؤرخون والجغرافيون العرب في مدوناتهم تاريخ أسلمة تلك القبائل والشعوب بطريقة تفصيلية لا مجال للحديث عنها هنا.

---

(٤٤٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد سادس، المصدر السابق، ص٢٠٧.
(٤٤٤) البكري، المصدر السابق، ص١٨٢.
(٤٤٥) ليون الإفريقي (الوزان)، المصدر السابق، ص٦٩.
(٤٤٦) المصدر نفسه، ص٩٨.
(٤٤٧) المصدر نفسه، ص٧٦-٧٧، راجع أيضاً القلقشندي، ج٥، المصدر السابق، ص١٨٨.
(٤٤٨) المصدر نفسه، ص٧٦-٧٧.

القسم الرابع

ممالك السودان وشعوبها (التشريع، الدولة، المجتمع)

في المجال المعرفي والتخيلي العربي

الباب الأول : **سودان شرق إفريقية**

أ - النوبة

ب - البجة

ج - الحبشة

د - سفالة / الزنج

الباب الثاني: **ممالك السودان الغربي**

أ - بلاد التكرور

ب - غانة

ج - مالي

د - السنغي

هـ - إمبراطورية البرنو - كانم وممالك أخرى

لمسنا لدى دخولنا ردهات تصورات العرب، وأحكامهم العامة عن الشعوب السوداء، إلى أي حد مارس فيه الموروث الإغريقي سلطته الأدبية على تلك الأحكام والتصورات، فكان لبطلميوس وجالينوس حضورهما الملموس في تلافيفها، وكانا حاضرين في الترسيمة العربية السلالية للشعوب السودانية، التي وإن كانت هذه الترسيمة بالأساس ذات نشأة عربية، فقد حوِّرت لتتناسب وأحكام بطلميوس الجغرافية وتصورات جالينوس عن "طبائع" و"كيوف" الشعوب السودانية، إلى الحد الذي تم فيه احتباس الشعوب السوداء في قفص تلك التصورات، فتحولت إلى ما يشبه الصور النمطية الثابتة، استتبعها على الغالب الانتقاص من قيمة الإنسان الأسود ومن دوره ومكانته في سلم الحضارة الإنسانية ومعانيها؛ وأتى ذلك كله على حساب النزعة المساواتية العميقة التي أسستها النظرة الدينية الإسلامية، والتي شكلت بدورها لب الثقافة الإسلامية والمركز المولّد لقيم الاجتماع السياسي الإسلامي.

وعلى هذا كان لا بد لتلك الصور والمعايير التي غلب عليها التأثير اليوناني-الروماني، أن تجد ما يزاحمها لاحتلال موقع الهيمنة على المتخيل العربي تجاه الآخر: الأسود، فبالإضافة إلى اصطدامه بالنزعة المساواتية الإسلامية، فإن المصنفين العرب ورحالتهم لم يتوقفوا عند التصورات المبتسرة تلك، رغم العوائق المعرفية التي شكلتها لهم، حيث منحتهم المعلومات المتزايدة عن بلاد السودان وشعوبها ثقة معرفية بالذات سمحت لهم بالتحرر نسبياً من إسار التصور الإقليمي-الفلكي أو السلالي والبيئي الجامد، إذ لعب الرحالة العرب في هذا المجال، بالإضافة إلى الجغرافيين الرحالة، دوراً حاسماً في تعديل الصور والأحكام وكسر الصورة النمطية، والانفتاح على حقائق حياة تلك الشعوب، عبر الدراسات الإثنوغرافية التي قدموها عنهم. فكان لاختلاط هؤلاء الرحالة والدارسين بشعوب السودان، وتبصرهم بأحوالهم، دوراً حاسماً في إضافة مقطعاً هاماً إلى الثقافة العربية-الإسلامية تتعلق أساساً بمعرفة الغير: الأسود، وبتحديد الموقف منه، تتسم إلى حد كبير بالموضوعية وبالإنصاف، عبر الإنصات إلى صوت تلك الشعوب من خلال التواصل معها، وإلى ما ترغب وتفهم، وإلى تعقيدات تنظيمها الاجتماعي وإلى ثقافتها الحية، خارج دائرة الأحكام المبتسرة التي اتسمت بها تلك "الصورة النمطية" المأخوذة عن التأثيرات اليونانية - الرومانية.

إذ قدم لنا جغرافيونا ورحالتنا صورة مغايرة، أكثر ثراء وغنى، لحياة تلك المجتمعات السوداء، فتركوا لنا وثيقة هامة عن حياتهم وثقافتهم وأسلوب معاشهم، والتي لا يمكن فصلها بأي حال عن النزعة (الإنسانية) المساواتية التي اختزنها الإسلام في تعاليمه، وعن النزوع التنويري الإنساني الذي أفضت إليه الثقافة العربية-الإسلامية منذ القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، والذي تجلى عند أبرز ممثلي هذه الثقافة: الجاحظ والتوحيدي والمسعودي وابن عربي.

لقد أدرك الجغرافيون العرب والباحثون الآخرون، منذ القرن العاشر الميلادي، وجود بعض الجماعات السياسية السوداء وبعض ممالكهم المجاورة لـ"دار الإسلام" التي تمتلك ما هو أساسي من مظاهر العمران والحضارة، كوجود "دول" أو بناء سياسي أو سلطان، ومدن، وأحكام "قانونية" و"دين"، وهو ما يميزها عن غيرها من الشعوب السوداء الموغلة في الجنوب عند حدود العمران؛ فالأصطخري ومعه الرحالة الجغرافي ابن حوقل، وهما من أصحاب المدرسة الجغرافية العربية، يشيران إلى أنهما لم يذكرا في تصنيفهم الجغرافي بعض بلاد السودان ولم يدرسوا منها، إلاَّ من استوفى منها شروط الحضارة "لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال.. غير أن بعض السودان المقاربين لهذه الممالك المعروفة يرجعون إلى ديانة ورياضة وحكم، ويقاربون أهل هذه الممالك (= أي الممالك الحضارية)، مثل النوبة والحبشة، فإنهم نصارى

يرتسمون بمذاهب الروم، وقد كانوا قبل الإسلام يتصلون بمملكة الروم المجاورة"[٤٤٩].

وقد تزاحم إلى بلاد السودان، في غرب إفريقيا وفي شرقها، منذ القرن التاسع الميلادي وبخاصة خلال القرن العاشر، الكثير من العرب وفي مقدمتهم التجار والرحالة والجغرافيين ورسل الملوك والمهاجرين، فنقلوا معارفهم وتصوراتهم عن تلك الشعوب إلى المجال المعرفي العربي.

لقد تعرفنا في القسم الأول إلى أهم الرحالة والجغرافيين والمصنفين العرب، الذين تناولوا بلاد السودان في مؤلفاتهم. لقد لخص القلقشندي في القرن الخامس عشر الميلادي وجهة النظر الإسلامية، عن المجال الجغرافي لممالك السودان وشعوبه، والإطار الجغرافي السوداني في العالم المعمور، حين حدده ما بين الصحراء الكبرى شمالاً والأمكنة المجهولة جنوباً، وما بين الأطلسي والبحر الأحمر، حين قال "وهي بلاد متسعة الأرجاء رحبة الجوانب، حدّها من الغرب البحر الغربي، ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء، ومن الشرق بحر القلزم... والأمكنة المجهولة الحال شرقي بلاد الزنج في جنوب البحر الهندي، ومن الشمال البراري الممتدة فيما بين الديار المصرية وأرض برقة وبلاد البربر، من جنوب المغرب إلى البحر المحيط"[٤٥٠].

ويمكن أن نلمس التمييز داخل هذا المجال، بين ممالك غرب إفريقية السوداء، والتي أطلقوا عليها أحياناً اسم "بلاد السودان" وبين بلاد الأحباش والزنج في المشرق، وأحياناً أخرى بلاد التكرور.

وعلى هذا الأساس سنتبع في عرضنا لشهادات الرحالة والجغرافيين والمصنفين العرب الوصفية والمباشرة لحياة الشعوب السوداء تلك، ضمن تقسيمهم القديم ذاك: إلى شعوب شرق إفريقيا، والأخرى التي تقع في غربها، وقد رأينا كيف أن اليعقوبي في تاريخه أشار إلى تفرع أولاد كوش بن نوح إلى فرقتين بعد عبورهم نهر النيل، الفرقة الأولى "النوبة والبجة والحبشة والزنج"، والفرقة الثانية قصدت المغرب وهي "زغاوة والحبش والقاقو والمريون ومرندة والكوكو وغانة"[٤٥١].

---

(٤٤٩) أبو إسحق إبراهيم محمد الفاسي الأصطخري: المسالك والممالك، تحقيق د.محمد جابر عبد العال الحسيني، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم، ١٩٦١، ص١٦. راجع أيضاً ابن حوقل، صورة الأرض، المصدر السابق، ص١٩.

(٤٥٠) القلقشندي، صبح الأعشا في معرفة الإنشاء، الجزء الخامس، المصدر السابق، ص٢٧٣.

(٤٥١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، دار العراق، بيروت ١٩٥٥، ص٢١٦.

الباب الأول

سودان شرق إفريقية
(النوبة والبجة والحبشة وسفالة الزنج)

تبدو هذه الشعوب السودانية متلازمة في الذكر والمكان والطبوغرافية في المتخيل العربي، فهي جنوب مصر، وعلى التحديد جنوب أسوان، التي تركزت في الذاكرة العربية منذ القرن العاشر الميلادي على أنها الحد النهائي لدار الإسلام، فيقول ابن خرداذبة "وفي أعلى مصر النوبة والبجة والحبشة"(٤٥٢)، ويضاف إليها على الأغلب بلاد الزنج(٤٥٣)، وهي التي تقع على سواحل البحر الأحمر (القلزم) وبحر الزنج، والمعروفة لدى العرب جيداً.

وتتفرع بنظرهم بلاد السودان الشرقية بدورها، إلى كتلتين رئيسيتين: أولاها في الشمال ما بين النيل والبحر الأحمر، وتتمحور حول الحبشة أو الأحباش، حيث يجاورها أو يتفرع عنها بلاد البجة والنوبة، وقد وسعوا مفهوم (الحبشة) أحياناً ليشمل إضافة إلى بلاد الحبشة أريتريا وبلاد البجة والنوبة. وثانيها في الجنوب على ساحل بحر الزنج (أو خليج موزنبيق) وتسمى بلاد الزنج أو سفالة الزنج، وتشمل قسم من الصومال الحالي وكينيا وموزنبيق.

وقد تضمنت دراسات ومشاهدات الجغرافيين والرحالة العرب الوصفية، لحال تلك الأمم والممالك، على الكثير من الوقائع والأحكام النابهة التي يمكنها أن تساعدنا إذا نظرنا إليها في حزمة واحدة، في تقديم صورة مركبة لتلك الأمم والممالك لما كانت عليه، أو كما تصورها العرب في العصر الوسيط.

---

(٤٥٢) ابن خرداذبة، المصدر السابق، ص٨٣.

(٤٥٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩، ص٤١٠. عندما يتحدث عن شعوب السودان في المشرق يقول "هم أصناف وشعوب وقبائل أشهرها بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة".

أ- النوبة Nobatia

اقترن النوبيون-في الذاكرة العربية- بأنهم "رماة الحدق" كناية عن تصدي النوبيين بنبالهم لحدقات عيون المسلمين الأوائل الذين حاولوا فتح بلادهم في فترة ولاية عمرو بن العاص على مصر، الذي لما رآهم "يرمون الحدق بالنبل كف عنهم، وقرَّر عليهم أتاوة في كل سنة"[٤٥٤]. وكان أحمد بن طولون قد سأل عن النوبة وبلاد أخرى أحد الرجال العارفين في سنة (٢٦٠هـ-٨٦٤م)، وكان هذا الرجل العارف قد بلغ من العمر مائة وثلاثين سنة، سافر خلالها في الأرض وتعرَّف على الممالك "وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان" على حد تعبير المسعودي، فذكر الرجل عن أهل النوبة، كونهم أصحاب إبل وبُخت وبقر وغنم، وعند ملكهم الخيل العتاق، بينما أغلب عوامهم يركب البراذين "ورميهم بالنبل عن قسي عربية، وعنهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب، وهم الذين يسميهم العرب رماة الحدق، ولهم النخل والكرم والذرة والموز والحنطة والأترج (= كباد)"[٤٥٥].

ويقع النوبيون على أطراف دار الإسلام جنوب أسوان، وقد أشار اليعقوبي "إلى أن آخر بلاد الإسلام من هذه الناحية مدينة بلاق.. ثم حد بلاد النوبة لموضع يقال له القصر، على مقدار ميل من بلاق"[٤٥٦]. وتضافرت شجاعة السكان ضاربي النبل مع وعورة الأرض لتحمي البلاد إلى حد ما، وإن بقي للإسلام حضوره في المعاهدات التي تكفل دفع الضريبة لـ"دار الخلافة" عن طريق والي مصر أو سلطانها؛ فقسوة الوسط الطبيعي تشتد عند الجنادل الثانية، وتتقارب الجبال لتؤثر على اندفاع النيل في مجراه، فتشكل هذه الجبال مصدراً طبيعياً، لهذا قال الأصطخري "أما أرض النوبة فإن حداً لها ينتهي إلى أرض مصر، وحداً لها إلى هذه البرية التي بين السودان ومصر، وحداً إلى أرض البجة، وبراري بينها وبين القلزم، وحداً لها إلى هذه البرية التي لا تسلك"[٤٥٧]، وأن ما يفصلها عن مصر حسب القلقشندي "بلاد منيعة"[٤٥٨].

ولقد حاول ابن حوقل أن يتتبع الرابطة القائمة ما بين الحياة السكانية والجغرافية المائية النيلية، أما الرحالة الكبير الأسواني فيندرج وصفه لجنادل النيل في إطار وصفه لأهل النوبة، والذي لم يبق منه سوى ما نقله عنه المقريزي في (خططه)، حيث يوافق اليعقوبي في قوله أن "أول بلاد النوبة قرية بيلاق (أو بلاق)، تبعد عن قرية النوبة ميل.. ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر، لا تسلكها المراكب إلاَّ بالحيلة"[٤٥٩]، ويحدد الإدريسي المسافة بين أسوان والجنادل باثني عشر يوماً[٤٦٠]، بينما يعتبرها المسعودي لا تتجاوز بضعة أميال، ويشير ابن سعيد

(٤٥٤) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٦.
(٤٥٥) المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج١، ص٣٥٠-٣٥١.
(٤٥٦) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٣٤.
(٤٥٧) الأصطخري، المسالك والممالك، المصدر السابق، ص١٩.
(٤٥٨) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥.
(٤٥٩) تقي الدين المقريزي: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ، ص١٩٠.
(٤٦٠) الإدريسي، وصف المغرب والأندلس، ص٢١.

إلى الصعوبات التي تواجه المسافرين هناك، حيث يصبح "جبل الجنادل منتهى مراكب النوبة في انحدارها للشمال ومراكب مصر في صعودها إلى الجنوب، لأنه عال من جهة الجنوب، والماء ينحدر منه انحداراً هائلاً، وهناك حجارة كبار مضرَّسة لا يمكن معها عبور المراكب.. ثم يلتوي النيل إلى الشمال فتكون شرقيه مدينة أسوان، وهي أول مدن الصعيد في الديار المصرية"(٤٦١). ويتفق ابن سعيد مع وصف الأسواني لهذه المناطق الحدودية، إذ يشير إلى أن مراكب النوبة المصعدة من القصر التي هي أول بلادهم "ولا تتجاوزها المراكب ولا يُطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلاَّ بإذن من صاحب جبلهم (= جبل الجنادل.."(٤٦٢).

أما نسبهم فيذهب "أكثر أهل الأنساب إلى أنهم جميعاً من ولد حام بن نوح"(٤٦٣). ويشير الدمشقي إلى أنهم من طوائف السودان "ويقال أنهم منسوبون إلى نوى بن قفط بن مصر بن نصير بن حام بن نوح، وهم أصناف، على ما حكاه بعض تجار أسوان: أنج وأزكرسا والتبان وأندا وكنكا"(٤٦٤)، ويبدو أن هذه أسماء قبائل لهم، بينما يظهر اليعقوبي أنهم من "ولد بيصر بن حام بن نوح"(٤٦٥).

ويفرق المصنفون العرب بين فئتين من النوبة أو صنفان أو مملكتان "فإحداهما مملكة الذين يقال لهم مقرة، وهم في شرق النيل وغربه، ومدينة ملكهم (دنقلة Domgola) وهم الذين سالموا المسلمين، وأدوا إليهم البقط (= ضريبة سنوية)، وبلادهم بلاد نخل وكرم وزرع؛ واتساع المملكة شبيه بشهرين. والمملكة الثانية من النوبة يقال لهم (علوة Aloa) ومدينة ملكهم يقال لها سوبة (لعلها Soba على النيل الأزرق)، ولهم بلاد واسعة شبيه ثلاثة أشهر"(٤٦٦).

ويذهب المسعودي إلى أن الملك في مدينة دنقلة اسمه "كابل بن سرور، وهو ملك بن ملك بن ملك فصاعداً، وملكه يحتوي على ماقرة (لعلها Makouria ما بين دنقلة وعطبرة Atbara في جمهورية السودان)"(٤٦٧).

ويذكر المقريزي نقلاً عن الأسواني "أن بين النوبة والمقرية حروب قبل النصرانية، ومدينة ملكهم تسمى نجراش.. كانوا صابئة يعبدون النجوم، وينصبون التماثيل، ثم تنصروا جميعاً: النوبة والمقرة"(٤٦٨).

أما عن علاقتهم بـ"دار الإسلام"، فقد حافظ النوبيون على عهدهم بدفع ما ترتب عليهم من أتاوة منذ زمن عمرو بن العاص، ماعدا فترات متقطعة "وربما يماطلون بذلك ويمتنعون من أدائه، فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطيعوا"(٤٦٩). ويخبروننا أن أهل النوبة كانوا عبدة نجوم، إلاَّ أنهم صاروا نصارى وظلوا على هذا الحال حتى القرن الخامس عشر الميلادي عندما أسلم أغلبهم، فالإدريسي وابن سعيد وأبو الفداء والقزويني يقررون جميعاً أنهم نصارى "وأهلها أمة عظيمة نصارى بعامتهم"(٤٧٠). ويشيرون إلى تبعية النوبيين النصارى إلى كنيسة الإسكندرية لأنهم "يعاقبة، وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية"(٤٧١). ويذهب الدمشقي إلى أنهم "يقرؤون الإنجيل بلسان الروم الملكانية، ولهم ببلادهم كنائس قديمة رومية"، وهم الإضافة إلى ذلك "أصحاب

---

(٤٦١) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، المصدر السابق، ص١١٦.
(٤٦٢) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ج١، ص١٩٠.
(٤٦٣) المصدر نفسه، ص١٩١.
(٤٦٤) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٨-٢٦٩.
(٤٦٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢١٦.
(٤٦٦) المصدر نفسه، ص٢١٦-٢١٧. والمسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج٢، ص١٧. والدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٩. أما (سوبة) العاصمة الثانية فهي عند المسعودي (سربة)، وعند الدمشقي (كوسة).
(٤٦٧) المسعودي، المصدر نفسه، ص١٧.
(٤٦٨) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ج١، ص١٩٢.
(٤٦٩) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٦.
(٤٧٠) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٦. وأبو الفداء، المصدر السابق، ص١٥٩.
(٤٧١) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ص١٩٣.

ختان وغسل جنابة، ولا يطأون نساءهم في الحيض"[٤٧٢]، وهي أشياء إيجابية بنظر المرجعية الإسلامية تقربهم من التقليد الديني الإسلامي.

ولقد رأى الأسواني -في زمانه- جماعة وأجناساً في محاذاة بلاد النوبة وبقرب مدينة علوة "يعترفون بالباري سبحانه وتعالى، ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم لا يعرف الباري، ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد ما استحسنه من شجرة أو بهيمة"[٤٧٣]، وهي شهادة على انتشار عبادة الكواكب في زمن الأسواني، وأيضاً انتشار الديانة الطوطمية.

وقد استمر النوبيون بدفع الجزية حتى أعلنوا إسلامهم في القرن الخامس عشر، أيام السلطان الناصر بن قلاوون، وكان الغالب على علاقتهم وعلاقة ملوكهم ببلاد الإسلام الطابع السلمي، ويبدو أن ملوكهم كانوا يدّعون أنهم من أصول عربية يمنية، فيذكر القزويني "ولهم ملك اسمه كابيل، يزعمون أنه من نسل حمير"[٤٧٤]. وهي مسألة كثيراً ما نصادفها عند ممالك السودان الغربي.

وكان من عادة ملوكهم القدماء هؤلاء، الذين يسمون (كابيل)، الادعاء بامتلاكهم القداسة، ولعلهم هم الذين كانوا في زمن الوثنية، وكانوا يدّعون أيضاً أمام رعيتهم بأنهم لا يأكلون، فيُدخل عليهم المقربون منهم "الطعام سراً، فإن عرف ذلك أحد من الرعية قتلوه لوقته"، كما كان (كابيل) الملك "يشرب شراباً من الذرة مقوي بالعسل، ولبسه الثياب الرفيعة من الصوف والخرز والديباج، وحكمه نافذ في رعيته، ويده مطلقة يسترقّ من يشاء ويتصرف بأموالهم، وهو يعتقد أنه يحيي ويميت"[٤٧٥].

ويحكي القلقشندي أن ملكهم، أيام الظاهر بيبرس (القرن الثالث عشر الميلادي) كان اسمه (مرقشنكز) استنجد بالظاهر بيبرس لمواجهة تمرد ابن أخيه (داود)، فجهز معه العساكر فانهزم (داود) إلى "مملكة الأبواب من بلاد السودان" وهي تعتبر من بلاد النوبة، فقبض عليه ملكها وسلمه إلى الظاهر بيبرس مقيداً، الذي اعتقله "بالقلعة حتى مات، واستقر مرقشنكز في ملك النوبة على جزية يؤديها في كل سنة"[٤٧٦].

وظلوا على هذا الحال من دفع الجزية إلى أن أسلمت النوبة في فاتحة القرن الخامس عشر الميلادي، وذلك أيام السلطان الناصر بن قلاوون، وانتشرت القبائل العربية هناك، ثم أسلم سلطان دنقلة وتَسمى بـ"محمد بن كنز الدين"، وهو ما غير مجرى التاريخ الديني لتلك البلاد، ويشير القلقشندي إلى ظروف ذلك التحول فيذكر أنه حين تولى المُلك في دنقلة أيام الناصر (محمد بن قلاوون)، رجل اسمه أمى (ت ٧١٦-٧١٩م)، ثم ملك بعده أخوه كربنس، خرج أحد رجال العائلة المالكة واسمه (نشلى) "فهاجر إلى مصر، وأسلم وحسن إسلامه، وأقام بمصر بالأبواب السلطانية"[٤٧٧]، ولما أعلن (كرنبس) ملك دنقلة عصيانه، قاد (نشلى) الذي أصبح اسمه بعد إسلامه (عبد الله نشلى) حملة بمساعدة السلطان الناصر (محمد بن قلاوون)، فهرب كربنس إلى "بلاد الأبواب"، عندها "استقر عبد الله نشلى في ملك دنقلة على دين الإسلام، ورجعت العساكر إلى مصر، وبعث الملك الناصر إلى ملك الأبواب في أمر كرنبس فبعث به إليه، فأسلم وأقام في باب السلطان، وبقي نشلى في الملك حتى قتله أهل مملكته سنة تسع عشرة وسبعمائة (= ١٤٢٥م)، فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم، وانقطعت الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم"[٤٧٨].

---

(٤٧٢) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٩.

(٤٧٣) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ص١٩٣.

(٤٧٤) القزويني، المصدر السابق، ص٢٤. راجع المسعودي، مروج الذهب، المصدر السابق، ج١، ص٣٥٢. حيث يذكر "وملوكهم تزعم أنهم من حمير، وملكهم يستولي على مقرا ونوبة وعلوة".

(٤٧٥) المصدر نفسه، ص٢٤.

(٤٧٦) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٧.

(٤٧٧) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

(٤٧٨) المصدر نفسه، ص٢٧٧.

ويشير الجغرافيون والمؤرخون العرب، إلى تكاثر هجرات القبائل العربية إلى بلاد النوبة، ولعل هذا قد ساهم في إسلام النوبة وفي تعريبها فيما بعد، حيث أصبحت جزءاً من جمهورية السودان الحالية. فيذكر القلقشندي نقلاً عن ابن خلدون "ثم انتشرت أحياء جهينة من العرب في بلادهم، واستوطنوها وعاثوا فساداً، وعجز ملوك النوبة عن مدافعتهم فصاهروهم مصانعة لهم، وتفرق بسبب ذلك ملكهم حتى صار لبعض جهينة من أمهاتهم على رأي العجم في تمليك الأخت وابن الأخت، فتمزق ملكهم واستولت جهينة على ملكهم"[٤٧٩]، ويضيف المقريزي إلى ذلك في "البيان والإعراب" أن كثير من القبائل العربية أخذت تتجه في القرن الرابع عشر الميلادي إلى الجنوب "من فزارة والمغرب، تاركين بني كنز الدولة الذين أصبحوا ملوك النوبة، حيث تكنوا بـ(كنز الدولة) وعكرمة في شمالي النوبة ومصر العليا"[٤٨٠]. لذا ذكر العمري في (مسالك الأبصار) "أن ملكهم الآن مسلم من أولاد كنز الدولة.... فيحتمل أن أولاد كنز الدولة من جهينة"[٤٨١].

وينقل القلقشندي عن العمري وصفه لعادات ملوكهم في إدارة علاقاتهم بالرعية، في زمنه، حيث اتصفت بالاعتدال وبالطابع الأبوي والقرب من الرعية، بقوله "أن سلطانهم كواحد من العامة، وأنه يأوي الغرباء إلى جامع دنقلة فيرسل إليهم، فيأتون فيضيفهم، ويُنعم عليهم هو وأمراؤه، وأن أغلب عطائهم الدكاديك: وهي أكيسة غلاظ غالبها سود (لعلها ثياب صوف) وربما أعطوا عبداً أو جارية"[٤٨٢].

أما مدن النوبة فيغلب عليها الطابع الريفي والبساطة، حسب وصف القلقشندي لها والمأخوذ عن العمري، حيث يقول "ومدنها أشبه بالقرى والضياع من المدن.. قليلة الخير والخصب، يابسة الهواء"[٤٨٣]. ويذكر القلقشندي أنه قد حدَّثه من دخل النوبة "أن مدينة دنقلة ممتدة على النيل، وأهلها في شظف العيش"[٤٨٤]، ومدينة دنقلة هذه التي يقول عنها أبو الفداء نقلاً عن ابن سعيد والإدريسي "أنها من الإقليم الأول، وقاعدة بلاد النوبة"[٤٨٥]، وهي دار الملك حسب الأسواني، وتبعد عن أسوان خمسين مرحلة، وعن علوة أكثر من ذلك، وتقع بعد الجندل الثالث، ويبسط الأسواني القول "إنهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط وبخشب الساج الذي يأتي به النيل في وقت الزيادة، سقالات منحوتة لا يُدرى من أين تأتي، ولقد رأيت على بعضها علامات غريبة"[٤٨٦].

وفي محاذاة الحدود المصرية منطقة المقرى، التي عاصمتها (نجراش)، وقد كان أهلها "صابئة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها، ثم تنصروا جميعاً"[٤٨٧]، وهناك في نجراش أيضاً مدينة (المريس) وقلعة (أبريم) عليها "وال من قبل عظيم النوبة، يعرف بصاحب الجبل"[٤٨٨]. أما مدينة (الأبواب) التي تقع عند ملتقى رافد عطبرة والنيل يعرِّفها الأسواني بأنها "أول بلاد علوة، قرى في الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب، ولهذه الناحية وال من قبل صاحب

---

(٤٧٩) المصدر نفسه، ص٢٧٧ - ٢٧٨.

(٤٨٠) عن محمد صالح ضرار: تاريخ السودان - البحر الأحمر - إقليم البجة، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥، ص٤٢.

(٤٨١) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٨.

(٤٨٢) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

(٤٨٣) المصدر نفسه، ص٢٧٦.

(٤٨٤) المصدر نفسه، ص٢٧٦.

(٤٨٥) أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، ص١٥٩.

(٤٨٦) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، المصدر السابق، ص١٩١. راجع أيضاً، الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٣٧-٣٨. حيث يقول "والمدينة دنقلة في غربي النيل وعلى ضفتيه.. وأهلها سودان، ولكنهم أحسن السودان وجوهاً وأجملهم شكلاً، وطعامهم الشعير والذرة والتمر، يجلب إليهم من البلاد المجاورة، واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل طرية ومقددة ومطحونة، ويطبخونها بألبان البوق، أما السمك فكثير عندهم جداً".

(٤٨٧) المصدر نفسه، ص١٩٠.

(٤٨٨) المصدر نفسه، ص١٩١.

علوة يُعرف بالرحراح"[٤٨٩]، فهي تتبع العاصمة الثانية كبلاد النوبة، وبلد (أمقل) يقطنه قوم يعرفون بـ(الحدية)، وهم على النصرانية، وعندهم معدن الذهب، ويستعملون (الدرق)، ويزداد تنوع القبائل كلما اقتربنا جنوباً نحو (علوة). أما علوة فهي المركز الثاني والأهم لبلاد النوبة، وملكها يملك "مالاً أكثر" مما تملكه المقرة، كما يملك "جيشاً أعظم"، "وبلده أخصب وأوسع، والنخيل والكروم عندهم يسير، وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الرز، منها خبزهم ومزرعهم، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة العظيمة، وعندهم خيل عتاق وجمال صهب.. ودينهم النصرانية يعاقبة"[٤٩٠].

وعلى حواف النوبة تتكاثر جماعات متباينة، فيذكر الأسواني أن منهم من يعبد الكواكب، ومنهم من يعبد الشجر والحيوان، أي يتبع الديانات الطوطمية. ويشير إلى قوم تتداخل في منطقتهم بلاد النوبة ببلاد البجة باتجاه الشرق، واسمهم (الزنافج) وهم بالأصل من البجة "انتقلوا إلى النوبة قديماً وقطنوا هناك، وهم على حدتهم (= على تفردهم) في الرعي واللغة، لا يخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم، وعليهم وال من النوبة"[٤٩١]. وعلى مقربة من هذه المنطقة توجد "طرق إلى سواكن وباضع ودهلك وجزائر البحر"[٤٩٢]، لعلها الطرق نفسها التي تصل بلاد النوبة بالعالم الخارجي وبمسالك التجارة العالمية، المار بعيذاب وسواكن، وأيضاً الطريق الذي يسلكه الحجاج في طريقهم إلى مكة، والذي سنتحدث عنه لاحقاً بتفصيل عند حديثنا عن البجة، وهي طريق تتصل بعيذاب البجاوية، ولعل هذا الطريق ازداد استعماله للوصول إلى مكة بعد القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر الميلاديين، خلال الحروب الصليبية، بعد أن أصبح الطريق البري المار بمصر إلى مكة عبر بلاد الشام محفوفاً بالمخاطر. وقد أشار ابن سعيد المغربي إلى الطرق البديلة تلك، ويسميه الطريق (الواضح)، وهو على سمت أسوان باتجاه الشرق "فمن أخذ مشرقاً فعلى (الوضح)، وهناك يلتقي طريق قوص مع طريق أسوان.. وإنما عُرف بالوضح، لأن الطريق منه يتضح خالياً من الجبال المشتبكة التي في طريق قوص.. وأكثر ما يسلك الطريق العليا المائلة نحو الجنوب"[٤٩٣].

ويذكر جغرافيينا ورحالتنا كعادتهم بالخيرات الزراعية والحيوانية، والطبيعة في بلاد النوية، فيشيرون إلى أنه ينبت في هذه البلاد: الشعير والحنطة والذرة والنخيل والكروم وشجر الأراك[٤٩٤].

ويتحدث الأسواني عن ناحية نوبية يسميها (بقون)، منطقة سهلية على النيل جنوب الجندل الأول، وآخر قرى المريسة المحاذية لمصر "ما رأيت على النيل أوسع منها" حيث تتسع الأراضي الزراعية على جانبي مجرى النيل فتصبح "أرضاً منخفضة، وقرى متصلة، وعمارة حسنة، بأبرجة حمام، ومواش وأنعام، وطيورها النقيط والنوبي والببغاء، وغيرها من الطيور الحسان"[٤٩٥]. وفيها "الأبنوس الأبيض يُتَّخذ منه الأسرة"[٤٩٦]. ويذكر القلقشندي عن العمري "أن الحبوب عندهم قليلة إلاَّ الذرة، وإنما تكثر عندهم اللحوم والألبان والسمك، وأفخر طبخهم أن تطبخ اللوبياء في مرق اللحم، ويُثرد ويُصف اللحم واللوبياء على وجه الثريد، وربما عُملت

---

(٤٨٩) المصدر نفسه، ص١٩٢.

(٤٩٠) المصدر نفسه، ص١٩٢. والإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٣٨. حيث يقول "وعلوة من بلاد النوبة.. يزرعون الشعير والذرة، وسائر بقولهم من السلجم والبصل، والفجل والقثاء والبطيخ".

(٤٩١) المصدر نفسه، ص١٩١.

(٤٩٢) المصدر نفسه، ص١٩١.

(٤٩٣) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافية، المصدر السابق، ص١١٦.

(٤٩٤) القزويني، المصدر السابق، ص٣٩. والمقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، المصدر السابق، ص١٩١.

(٤٩٥) المقريزي، المصدر نفسه، ص١٩١.

(٤٩٦) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٧٦.

(طُبخت) اللوبياء بورقها وعروقها"[٤٩٧].

ويعتمدون في طعامهم على (الشعير والذرة، والتمر الذي يجلب إليهم، واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل: طرية ومقددة ومطبوخة"[٤٩٨].

وإضافة إلى ما ذكرنا يوجد عندهم من الحيوانات "الفيلة والزرايف (من الزرافة) والغزلان"[٤٩٩]. وقد أثارت الزرافة انتباه العرب واستغرابهم حين وجدوها في شرق إفريقيا وفي غربها، وعبروا عن دهشتهم بها لغرابة منظرها ولعدم وجودها في بلادهم، فيذكر ابن الفقيه بعد أن يذكرنا بوجود الزرافة في بلاد النوبة، فيقول "وذكروا أنها (أي الزرافة) بين النمر والناقة، وأن النمر ينزو على الناقة فتلد الزرافة، ولا تغتذي إلا بما تستخرجه من البحر، فخلق الباري جل وعز لها عنقاً طويلاً لتبلغ الموضع الذي تستخرج منه الغذاء.. فالزرافة لها جثة جمل ورأس أيل وأظلاف بقرة وذنب طير، ولديها ركبتان، وليس لرجليها ركبة، وجلدها منمَّر، وهو منظر عجيب"[٥٠٠].

وأشار ابن الفقيه أيضاً إلى وجود فرس النهر عندهم، ويسميه الكركدن، فيقول صورة الشعوب السوداء –م١٤ العجل، وفي جبهته قرن يقاتل به، وآخر صغير أسفل منه بين عينيه يقلع به الحشيش، ويطعن الأسد والفيلة"[٥٠١]. ويعتمدون في حرثهم لأراضيهم الزراعية "على أعناق البقر بالدواليب"[٥٠٢].

أما عن لباسهم، فيذكر القزويني أنهم يأتزرون بالجلود بما فيها جلود النمر[٥٠٣]. أما الدمشقي فيشير إلى أن أغلبهم "لا يلبسوا المخيط، بل يتشحون بثياب من صوف يقال لها الدكاديك"[٥٠٤].

لم يحجب لونهم الأسود عن العرب المسلمين مميزاتهم الإنسانية والخلقية التي ترفع من شأنهم وقدرهم، فبالإضافة إلى كونهم كانوا نصارى، قبل إسلامهم، وهو ما يضعهم في صلب ديانة الوحي، وفي صلب الأسرة النبوية الإبراهيمية، فإن جغرافيينا يظهرون إعجابهم ببعض خصالهم، فالنوبة كما مر معنا في قول الدمشقي "هم أصحاب ختان وغسل من الجنابة، ولا يطأون نساءهم في الحيض"[٥٠٥]، وهو ما يقربهم من التقليد الديني الإسلامي، المقترن بالنظافة الجسدية، وبالنهاية فإنهم أصبحوا مسلمين، أخوة العقيدة. فضلاً عن ذلك فقد وصفهم القلقشندي وأبو الفداء بأنهم "أحسن السودان وجوهاً، وأجملهم شكلاً"[٥٠٦].

ولا ينسوا تذكيرنا أن من هذه البلاد كان (لقمان الحكيم) الذي سكن بعدها "مدينة أيلة"، ثم دخل إلى بيت المقدس، ومنها أيضاً "(ذو النون المصري) الزاهد المشهور، وإنما سمّي مصري لأنه سكن مصر"[٥٠٧]. كما أنهم تداولوا قولاً للنبي محمد ينص على "من لم يكن له أخ فليتخذ أخاً من النوبة"، وأيضاً قوله: "وللنوبة كفٌّ ووفاء"[٥٠٨].

ولا ينسى الإدريسي، بهذا الصدد، التنويه بجمال المرأة النوبية، فبعد أن ينبه إلى جمال نساء مدينة (نوابة) النوبية المتمتعات بـ"جمال فائق، وهن مختتنات"، يعطينا حكماً عاماً بجمال نساء النوبة، ففي "جميع بلاد النوبة، في نسائهم الجمال، وكمال المحاسن، وشفاههن رقاق، وأفواههن صغار، ومباسمهن بيض، وشعورهن سبطة.

---

(٤٩٧) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٦.
(٤٩٨) المصدر نفسه، ص٢٧٥.
(٤٩٩) المصدر نفسه، ص٢٧٥.
(٥٠٠) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٧٧.
(٥٠١) المصدر نفسه، ص٧٧.
(٥٠٢) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، المصدر السابق، ص١٩٠.
(٥٠٣) القزويني، المصدر السابق، ص٣٩.
(٥٠٤) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٩.
(٥٠٥) المصدر نفسه، ص٢٦٩.
(٥٠٦) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٥. وأبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، المصدر السابق، ص١٥٩.
(٥٠٧) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٦، والمقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٠.
(٥٠٨) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٧٦.

وليس في جميع أرض السودان من المفازة ولا من الغانيين ولا من الكانميين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل (= جماعة) شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة، ولا أحسن للجماع منهن.. ولهذه الخلال يرغب ملوك أرض مصر فيهن، ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن أمهات أولادهم لطيب متعتهن، ونفاسة حسنهن"(٥٠٩).

ب- مملكة البجّة Beja

تتراءى لنا البجة كشريط غير متسع وطويل بين نهر النيل وبحر القلزم، ما بين صعيد مصر حتى الحبشة، فابن حوقل أشار إلى أن البجة تفصل بين الحبشة ومصر، ويكرّر قول الأصطخري "ينتهي حدهم ما بين الحبشة وأرض مصر وأرض النوبة"؛ فآخر بلاد البجّة حسب شهادة الأسواني هي "أول بلاد الحبشة، وهو في بطن هذه الجزيرة أعني جزيرة مصر إلى سيف البحر المالح مما يلي جزيرة سواكن وباضع (= مصوع) ودهلك.."(٥١٠)، ويغالي ابن حوقل في اتساع حدودها حتى يصلها إلى محاذاة عدن، جاعلاً من (زيلع) وهي عاصمة (الطراز الإسلامي) من الحبشة، معبرها إلى عدن. وقبل ابن حوقل أخبرنا المسعودي أن قبائل البجة "نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر، وتشعبوا فرقاً"(٥١١)، فمواطنهم حسب القلقشندي "في جنوبي صعيد مصر مما يلي المشرق، فيما بين بحر القلزم وبين النيل، على الغرب من الديار المصرية، وقاعدتهم (سواكن Sowakin)"(٥١٢)، وهي على بحر القلزم، ويفصلهم عن أرض النوبة "جبال منيعة"(٥١٣).

أرجعهم المسعودي سلالياً إلى أبناء كوش بن كنعان، أي إلى تلك الشعوب التي نزحت من بلاد العرب في بلاد الشام. بالمقابل أرجعهم الهمذاني إلى ذرية سام بن نوح(٥١٤). أما الأسواني فاعتبرهم بربر، تقع بلادهم على مفترق طرق وأجناس ونقل عنه المقريزي قوله "وقيل البجة من ولد حام بن نوح، وقيل من ولد كوش بن كنعان بن حام، وقيل البجة قبيل من الحبش، وألوانهم أشد سواداً من الحبشة يتزيون بزي العرب، وليس لهم مدن ولا قرى ولا مزارع، ومعيشتهم مما ينقل إليهم من أرض الحبشة وأرض مصر والنوبة"(٥١٥)، ويشير الأسواني إلى ثلاثة قبائل رئيسية تتوازع النفوذ في بلاد البجة، في زمن الأسواني، وظلت تلك الصورة ثابتة إلى حد كبير عند المصنفين العرب، فهناك (الحداربة) وهم مسلمون، يمارسون الوصاية على ما يسميه (الزنافج)، الذين يخضعون للحداربة ويقدمون لهم رسوم حماية، وقد تأثر (الحداربة) بالمسلمين المهاجرين إلى بلادهم، التي هي مناطق معادن الذهب والياقوت في منطقة العلاقي "ثم كثُر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا منهم، وأسلم كثيرٌ من الجنس المعروف (بالحدارب) إسلاماً ضعيفاً، وهم

---

(٥٠٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٣٠-٣١.

(٥١٠) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٤. راجع ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص٥٦. والأصطخري، المسالك والممالك، ص٣٢.

(٥١١) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٨-١٩.

(٥١٢) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٤.

(٥١٣) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٧٨.

(٥١٤) ضرار، تاريخ السوادن، المصدر السابق، ص١٤.

(٥١٥) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٧.

شوكة القوم ووجوههم، وهم مما يلي مصر من أول حدهم إلى (العلاقي)، وعيذاب المعبر منه إلى جدة"[٥١٦].

ويقع بجوارهم إلى الوراء نحو الجنوب جنس آخر "يعرفون بالزنافج، هم أكثر عدداً من الحدارب غير أنهم تبع لهم، وخفراؤهم يحمونهم... ولكل قوم من الحدارب قوم من الزنافج في حملته، فهم كالعبيد يتوارثونهم بعد أن كانت الزنافج قديماً أظهر عليهم"[٥١٧]. وهناك قبائل البجة الداخلية أو (البجة الداخلة)، وهم في صحراء بلد علوة في محاذاة الحبشة على البحر، يعيشون حياة البداوة "ورجالهم في الظعن والمواشي، واتباع الرعي والمعيشة والمراكب والسلاح كحال الحداربة إلا أن الحداربة أشجع"[٥١٨]. والداخلة من البجة كما يشير الأسواني "كفار يعبدون صنماً لهم" وأيضاً "هم على كفرهم من عبادة الشيطان"، يقتدون بكهانهم، ولكل بطن من قبائلهم كاهن يضرب حوله قبة من أدم كمعبد لهم، فإذا أرادوا استفساره عما يحتاجون إليه، تعرى الكاهن ودخل القبة-المعبد ثم "يخرج إليهم وبه أثر جنون وصرع، يقول: الشيطان يقرئكم السلام"[٥١٩]، ويسرد نصيحة الشيطان لهم أو نبوءته، إن كان فيما يخص مصادر الرعي أو الغزو أو غير ذلك؛ ويزعم أهل (البجة الداخل) أن الشيطان يصدقُهم في قوله ونصيحته، لذا "فإذا غنموا، أخرجوا من الغنيمة ما ذكر، ودفعوه إلى الكاهن"، فإذا أرادت القبيلة الرحيل حمل الكاهن القبة-المعبد "على جمل مفرد، فيزعمون أن ذلك الجمل لا يثور إلاَّ بجهد، وكذلك سيره، ويتصبب عرقاً، والخيمة فارغة لا شيء فيها"[٥٢٠]، ظناً منهم بثقل ما يحمله من قداسة وأسرار سحرية شيطانية.

ويتفرد ابن حوقل في عرضه للتفرعات القبلية لأهل البجة، والتي لاتزال بعض بقاياها أو فروعها موجودة إلى الآن[٥٢١]، كرقبات في السودان وهي من قبائل بني عامر في السودان وكثير منها في أرتيريا حالياً، و(عبدك) وتعرف اليوم باسم (عبدق) بجوار هجر، وستبتو وتسمى الآن ستبو، وحنديبة والواخيكة أو كيخيا وقد رحلت كلتاهما إلى أرتيريا في القرن الرابع عشر الميلادي، و(منسع) ماتزال في أرتيريا[٥٢٢].

ويحكى أن أول مواجهة بين العرب - المسلمين وأهل البجة، قد تصادفت -حسب رواية ابن حوقل- مع عودة عبد الله بن سعد بن أبي سرح (القرن السابع الميلادي) إلى الحجاز بعد فتح أسوان، فقهر في طريقه "فراعنة البجة وغيرهم. وأسلم أكثر أهل البجة إسلام تكليف، وضبطوا بعض شرائط الإسلام"[٥٢٣]، فلم يكن إسلامهم في البداية إسلاماً (صحيحاً) بل سطحياً، وربط ابن حوقل أسلمة البجة (السطحية) بقهر عبد الله بن سعد لفراعنة البجة، وفي رواية أخرى للمقريزي، ولعلها منقولة عن الأسواني، الذي يذكر عند رجوع عبد الله بن سعد بن أبي سرح من غزوة النوبة، شاهد أهل البجة مجتمعين على شاطئ النيل "فسأل عن شأنهم فأُخبر أنه ليس لهم ملك يرجعون إليه، فهان عليه أمرهم، وتركهم فلم يكن لهم عقد ولا صلح"[٥٢٤]. وهذه إشارة إلى عدم اكتراث قائد الجيش المسلم بهم لافتقادهم إلى الرئاسة والملك، التي هي أحد أعمدة التحضر عند المفكرين المسلمين، وتركهم دون أن يعقد معهم أية اتفاقية، فكان أول من عقد معهم اتفاقاً من العرب - المسلمين حسب المقريزي هو عبيد الله بن الحجاب السلولي، الذي هادنهم "على أن لا يقتلوا

---

(٥١٦) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٥١٧) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٥١٨) المصدر نفسه، ص١٩٧.
(٥١٩) المصدر نفسه، ص١٩٧.
(٥٢٠) المصدر نفسه، ص١٩٧.
(٥٢١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٦٠.
(٥٢٢) ضرار، تاريخ السوادن، المصدر السابق، ص٥٨.
(٥٢٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٥.
(٥٢٤) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، المصدر السابق، ص١٩٥.

مسلماً ولا ذمياً (أي يهودي أو مسيحي في ديار الإسلام)، فإن قتلوه فلا عهد لهم"[٥٢٥].

بعدها تدفقت هجرات المسلمين إلى منطقة المعادن في "العلاقي"، "فخالطوهم وتزوجوا منهم. وأسلم كثير من الجنس المعروف بالحدارية إسلاماً ضعيفاً، وهم شوكة القوم ووجوههم" كما مر معنا، فلم يشكل سواد أهل البجة عثرة أمام اختلاط العرب-المسلمين بهم والتزاوج منهم؛ ويضيف المسعودي "سكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب. وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار.. واشتدت شوكتهم، وتزوجوا من البجة، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها.."[٥٢٦].

ويربط ابن حوقل تكاثف هجرة القبائل العربية تلك بالصراع الناشئ بين البجة ودار الإسلام في (القرن التاسع الميلادي) في عهد المأمون، وذلك عندما رد "عبيد بن جهم مولى المأمون" على هجوم أهل البجة على أهل الصعيد المصري "فأثخن في البجة قتلاً وسبياً، واسترد ما سباه البجة"، وكان بعض أصحابه "عاين التبر" الذي في العلاقي من بلاد البجة "فنكصوا إلى البلد" ليقيموا هنالك، وتصادف ذلك "انقشاع" أهل اليمامة بالآلاف إلى مكان هذا المعدن، "وتكامل بالعلاقي قبائل ربيعة ومضر وهم جميع أهل اليمامة في سنة ثمان وثلاثين ومائتين (= ٨٤٢م)"[٥٢٧]. وقد أودعهم (عبد الله بن الجهم) حسب المقريزي، وكتب لهم عهداً "بينه وبين (كنون) رئيسهم الكبير الذي يكون بقريتهم (عاصمتهم) هجر"، وفيما ينص عليه هذا الكتاب "عقدت لك وعلى جميع المسلمين أماناً ما استقمت وما استقاموا.. وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ملكاً للمأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين.. وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لأمير المؤمنين، إلا أنك تكون في بلدك ملكاً على ما أنت عليه في البجة، على أن تؤدي إليه الخراج في كل عام. وما كان عليه سلف البجة. وذلك مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار وازنة.. على أن كل أحد منكم.. إن قتل أحد من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الذمة.. وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب.. وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحداً من المسلمين.. حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين.. فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات"[٥٢٨].

ثم عاد أهل البجة فهزموا الريف من الصعيد المصري، فنوب (أناب) الخليفة (جعفر المتوكل على الله) القائد محمد بن عبد الله القمي لحربهم، فحمل عليهم وهزمهم وقتل كبيرهم، فطلبوا الهدنة، فشدَّد القمي في المعاهدة الجديدة "على أداء الأداوة والبقط، واشترط عليهم أن لا يمنعوا المسلمين من العمل في المعدن (= الذهب)"[٥٢٩]. ويعلق المقريزي "لما كثر المسلمون في المعادن واختلطوا بالبجة قلَّ شرهم، وظهر التبر لكثرة طلابه، وتسامع الناس به، فوفدوا من البلدان، فكثرت بهم العمارة في البجة حتى صارت الرواحل التي تحمي المسيرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة"[٥٣٠].

ويصف لنا اليعقوبي في القرن التاسع الميلادي الاختلاط السكاني الهائل في منطقة العلاقي البجاوية الغنية بالذهب، وتفاعلات التجارة باستخراج الذهب بكثافة السكان بقوله: "ووادي العلاقي كالمدينة العظيمة، به خلق

---

(٥٢٥) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٥٢٦) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٨-١٩. راجع أيضاً المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٧.

(٥٢٧) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٨.

(٥٢٨) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٥-١٩٦.

(٥٢٩) المصدر نفسه، ص١٩٦.

(٥٣٠) المصدر نفسه، ص١٩٧.

من الناس، وأخلاط من العرب والعجم وأصحاب المطالب، وبها أسواق وتجارات، وشربهم من آبار تحفَر في وادي العلاقي؛ وأكثر من بالعلاقي قوم من ربيعة من بني حنيفة من أهل اليمن، انتقلوا إليها بالعيالات والذرية، ووادي العلاقي وما حواليه معادن التبر، وكل ما قرب منه يعمل فيه الناس، لكل قوم من التجار وغير التجار عبيد سودان، يعملون في الحفر، يخرجون التبر كالزرنيخ الأصفر ثم يسبك"(٥٣١).

ويشير ابن سعيد إلى أهمية منطقة العلاقي، فهي بالإضافة إلى كونها "مدينة ملك البجة"، فجبل العلاقي "مشهور يوجد في أوديته الذهب الطيب، وتقع منه عيذاب الفرضة المشهورة"(٥٣٢). حيث كانت عيذاب ميناء يبحر منه حجاج إفريقيا، وسوقاً لبضائع إفريقيا الوسطى والهند، بما فيها الإتجار بذهب العلاقي، ويضيف الإدريسي إلى وجود الذهب في العلاقي وجود معدن الفضة(٥٣٣).

فأول المظاهر الطبيعية للبجة التي يفاجئنا بها المصنفون العرب هي غنى البجة بالمعادن، وأولها الذهب، فيشير المقريزي نقلاً عن الأسواني "وبلدانهم كلها معادن، وكلما تصاعدت كانت أجود ذهباً وأكثر. وفيها معادن الفضة والنحاس والحديد والرصاص وحجر المغنيطيس والمرقشيا والجمست والزمرد وحجارة شطبا"(٥٣٤)، إلا أن أهم المعدن النفيسة بعد الذهب هو الزمرد الذي يوجد في شمال البجة على الحدود المصرية في صحراء قوص قرب قرية "تعرف بالخربة" و"بين هذا الموضع وبين قوص نحو من ثلاث مراحل، وذكر الجاحظ أنه ليس في الدنيا معدن للزمرد غير هذا الموضع، وهو يوجد في مغاير بعيدة مظلمة يُدخل إليها بالمصابيح، وبجبال يُستدل بها على الرجوع"(٥٣٥).

ويذكر المسعودي إلى أن بوادي البجة المالكة لهذا المعدن "تتصل ديارها بالعلاقي" و"الموضع الذي يوجد فيه الزمرد يُعرف بالخربة، مفاوز وجبال"، وهو على أربعة أنواع حسب المسعودي "النوع الأول منها يُعرف بالمر وهو أجودها وأغلاها ثمناً، وهو شديد الخضرة كثير الماء.. غير كدر ولا ضارب للسواد.. والنوع الثاني: يُدعى بالبحري.. ومعناهم في التسمية هو أن ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد، وتباهي في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتمها وأسورتها فسمي: البحري، وتشبه خضرته الأول... والنوع الثالث يعرف بالمغربي، ومعناه في هذه التسمية.. هو أن ملوك المغرب من الإفرنجة والنكبردة والأندلس والجلالقة.. والصقالبة والروس.. يتنافسون في هذا النوع من الزمرد. والنوع الرابع، وهو المسمى بالأحمر، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً لقلة مائه وخضرته"(٥٣٦).

وتتصل مواضع هذا المعدن بوادي العلاقي الغني بالذهب الذي تعبر قوافل التجار إلى موانئ البجة ولا سيما عيذاب "فتنتهي" هذه القوافل على حد تعبير الأصطخري "إلى حصن على البحر يسمى عيذاب"(٥٣٧)، فيقود الحديث عن معادن البجة: الذهب والزمرد، إلى ذكر موانئها المرتبطة بتجارتها الخارجية ولا سيما عيذاب، وسواكن حاضرتها الكبرى، حيث تمر طريق القوافل من بلد قوص وقفط في صعيد مصر، بمنطقة الزمرد، إلى العلاقي إلى ميناء عيذاب مركز تلاقي التجارة العالمية، وكانت حسب ابن حوقل "أرض عيذاب من البجة"(٥٣٨)، وكان "بين

---

(٥٣١) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٣٤.
(٥٣٢) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١١٦-١١٧.
(٥٣٣) الإدريسي، وصف المغرب وإفريقيا، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن ١٨٩٤، ص٢٨.
(٥٣٤) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٤.
(٥٣٥) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٥٣٦) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص٢٤.
(٥٣٧) الأصطخري، المصدر السابق، ص٣٢.
(٥٣٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٥١.

العلاقي وعيذاب ثمان مراحل، ومن العلاقي يُدخل إلى بلاد البجا"(٥٣٩)؛ ويذهب ابن حوقل في السياق نفسه إلى أنه "ينتهي في حدهم (أي حد البجة)، ما بين الحبشة وأرض مصر والنوبة معدن الزمرد والذهب، ويأخذ هذا المعدن من قرب أسوان على أرض مصر نحو عشر مراحل، حتى ينتهي على البحر إلى حصن يسمى عيذاب"(٥٤٠).

ويشير اليعقوبي إلى أهمية ميناء عيذاب التجارية فيقول: "وعيذاب على ساحل البحر المالح، يركب الناس منه إلى مكة والحجاز واليمن، ويأتيه التجار فيحملون التبر والعاج وغير ذلك في المراكب"(٥٤١)، فيشير بذلك إلى ذهب البجة وعاج شرق إفريقيا السوداء، ويعطينا المقريزي صورة أكمل وأكثر شمولاً للوظائف التي قام بها ميناء عيذاب البجاوي، إن كان للتجارة العالمية، وللدور الطارئ الذي لعبه على طريق عبور الحجيج إلى مكة أثناء الحروب الصليبية، فيقول: "إعلم أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة شرَّفها الله تعالى إلا من صحراء عيذاب، يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص، ثم يركبون الإبل من قوص ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب، ثم يركبون البحر في الجلاب إلى جدة ساحل مكة، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة يردون في البحر إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ومنها يردون مدينة مصر، فكانت هذه الصحراء لاتزال عامرة آهلة بما يصدر أو يرد من قوافل التجار والحجاج، حتى أن أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك لتوجد ملقاة بها والقفول صاعدة هابطة...

وكان أعظم مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهنود واليمن تحط فيها البضائع وتقلع منها مع مراكب الحجاج الصادرة والواردة"(٥٤٢).

ويتحدث المقريزي على حال عيذاب في زمنه وتبعيتها لمصر، فيقول: "وأهل عيذاب من البجاوة ولهم ملك منهم، وبها والٍ من قبل سلطان مصر"(٥٤٣). أما عن مدن البجة الأخرى فإن جغرافيينا ورحالتنا المبكرين ولا سيما في القرن العاشر الميلادي، فقد تحدثوا على أن (هجر) كانت عاصمة البجة(٥٤٤). لكن الدمشقي، وفي قرون متأخرة، يذكر أيضاً أن أهل البجة صنفان "حدارية وملكهم يسكن مدينة هجر، والزنافجة وملكهم يسكن مدينة نقلين.... ولهم مدائن: أونل وعَدل وجزيرة دهلك، ومدينة عيذاب فرضة البحار من اليمن ومصر"(٥٤٥). وعند المقريزي "كان لهم قديماً رئيس يرجع جميع الرؤساء إلى حكمه يسكن قرية تُعرف بهجر"(٥٤٦).

أما القلقسندي فيشير إلى أن "قاعدتهم سواكن.. وهي بليدة للسودان.. وقد أخبرني من رآها أنها جزيرة على طرف بحر القلزم من جهته الغربية قريبة من البر يسكنها التجار. وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحدارية.. وله مكاتبة عند الأبواب السلطانية بالديار المصرية"(٥٤٧). ويشير أبو سعيد المغربي إلى التنافس بين جزيرة دهلك وسواكن للسيطرة على جزر البحر الأحمر، وعلى التجارة، والسيطرة على المكوس العائدة من ورائها، فيذكر أن جزيرة دهلك "المشهورة على ألسنة التجار، طولها نحو ثمانين ميلاً.. وهي للحبشة

(٥٣٩) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٤.

(٥٤٠) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٥.

(٥٤١) اليعقوبي، كتاب البلدان، المصدر السابق، ص٣٣٥.

(٥٤٢) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢٠٢. راجع أيضاً، الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٣٥. حيث يذكر "وأهل عيذاب يتحولون في كل النواحي من أرض البجة يشترون ويبيعون ويجلبون من السمن والعسل واللبن، وبالمدينة زوارق يصاد بها السمك.. وبها يؤخذ المكس، في وقتنا هذا، من حاج الإسلام القاصدين من بلاد المغرب".

(٥٤٣) المصدر نفسه، ص٢٠٣.

(٥٤٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، المصدر السابق، ص٢١٧.

(٥٤٥) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٩.

(٥٤٦) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٤.

(٥٤٧) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٧٤.

المسلمين.. وصاحبها له ضرائب على المراكب" ..وحولها جزائر يتنافس عليها مع صاحب (جزيرة سواكن) الذي "هو من البحارة وهو مسلم، وله ضرائب على المراكب.." وتأتي إليه المراكب "من بحر العرب والحجاز واليمن.. وسواكن صغيرة جداً.. بينها وبين البحر الحبشي مجاز يقطع بالسباحة، وبين سواكن وعيذاب في البحر نحو سبع مراحل"[٥٤٨]. وبالفعل كانت سواكن في كثير من الأوقات عاصمة البجة، فهي من أشهر الموانئ على البحر الأحمر، إلى جانب الميناء البجاوي الثاني عيذاب، وبقيت العائلة الحدربية تمسك بملك البجة إلى عهد السلطان سليم العثماني في القرن السادس عشر الميلادي، حيث ولى عليها أمراء وأتبعها لمصر، وانضمت البجة عام ١٨٤١م إلى السودان في عهد الخديوي محمد علي[٥٤٩].

تبدو لنا البجة في المصنفات العربية أرض قفر، وتقترب حياة البجاويين من حياة البداوة العرب، فهم في "بادية يتبعون الكلأ حيثما كان الرعي، بأخبية من جلود"[٥٥٠]، ويضيف ابن حوقل "وليس للبجة قرى ولا خصب، وهي بادية يقتنون النجب، وليس في النجب أسيَر (= أسرع) من نجبهم ورقيقهم، ونجبهم وسائر ما بأرضهم يقع إلى مصر في جملة التجار المصريين"[٥٥١].

فالبجة حسب ابن حوقل "في أعراض تلك البرية، وهم أصحاب أخبية شعر وألوانهم أشد سواداً من الحبشة في زي العرب، ولا قرى لهم ولا مدن ولا زرع إلاَّ ما ينقل إليهم من مدن الحبشة ومصر والنوبة"[٥٥٢]، وهم قبائل "أفخاذ لكل فخذ رئيس، وهم أصل نجعة، وطعامهم اللحم واللبن فقط"[٥٥٣]، ويركبون "النجب الصهب.. وكذلك الجمال العراب كثيرة عندهم أيضاً"[٥٥٤]؛ ويشير اليعقوبي أن "لهم قبائل وبطون كما للعرب، فمنهم الحدرات والحجاب والعماعر وكوبر ومناسة ورسفة وعربريعة والزنافج"[٥٥٥].

وينبت في أودية البجة وشعابها شجر المقل والأهليلج والأذخر والشيح والسنط والحنظل، وشجر اللبان وغيرها، وبأقصى بلاد البجة في الجنوب، النخل وشجر الكرم والرباح، وغير ذلك من الأشجار الطبيعية التي لم "يزرعها أحد" غيرهم، كما فيها سائر الوحوش من السباع والفيلة والنمور والفهود والقرود، وعتاق الأرض، والزباد، ودابة تشبه الغزال حسنة المنظر، لها قرنان بلون الذهب، وفيها من الطيور: الببغاء بأنواعه (النقيط والنوبي والقماري) والدجاج الحبشي، وحمام بازين[٥٥٦]. ويوجد من المواشي البقر والغنم، والضأن كثير عندهم، وبقرهم "حسان ملمعة بقرون عظام... وكباشهم كذلك منمرة"، وجمالهم شديدة العدو صبورة.. يسابقون الخيل عليها ويقاتلون عليها، ويتطاردون عليها في الحرب"[٥٥٧]، يستعملون حرابهم وهم عليها.

وفي وصفهم ودراستهم لأهل البجة، يجمع الرحالة والجغرافيون العرب بين الإعجاب بهم والنفور أحياناً منهم، بين التفهم والاستغراب، فقد وجدوهم يتغذون "على اللحم وشرب اللبن، وأكلهم الجبن قليل"، ولهذا فـ"أبدانهم صحاح وبطونهم خماص وألوانهم مشرقة الصفرة، ولهم سرعة في الجري يباينون بها (= يتميزون بها) الناس"[٥٥٨]. ومما يثير الإعجاب بهم أنهم "أصحاب ذمة" وهم أيضاً كرماء "يبالغون في الضيافة، فإذا

---

(٥٤٨) أبو سعيد المغربي، المصدر السابق، ص١١٧.
(٥٤٩) ضرار، المصدر السابق، ص٥٦.
(٥٥٠) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٤.
(٥٥١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص١٥١.
(٥٥٢) المصدر نفسه، ص٥٥.
(٥٥٣) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٧.
(٥٥٤) المصدر نفسه، ص١٠٤.
(٥٥٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢١٧-٢١٨.
(٥٥٦) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٥.
(٥٥٧) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٥٥٨) المصدر نفسه، ص١٩٤.

طرق أحدهم الضيف ذبح له، فإذا تجاوز ثلاثة نفر نحر لهم من أقرب الأنعام إليه.." وهم شجعان يستعملون في حربهم "الحراب السباعية مقدار طول الحديد ثلاثة أذرع، والعود أربعة أذرع، وبذلك سميت سباعية"، وتصنع لهم هذه الحراب "نساء في موضع لا يختلط بهن رجل إلاً المشتري"، أما درقهم (دروعهم) فمن "جلود البقر مشعرة، ومن جلود الجواميس.. ومن دابة في البحر، وقسيهم عربية كبار غلاظ من السدر والشوح"(٥٥٩).

ومن عاداتهم الغريبة والتي بدت تقل، كما لاحظ الأسواني، أن الرجل منهم "منزوع البيضة اليمنى.. أما النساء فمقطوع أشفار فروجهن"، كما لاحظ أن فيهم "جنس يقلعون ثناياهم"(٥٦٠)، بحجة أنهم لا يريدون أن يتشبهوا بالحمير. وهناك قوم منهم يسميهم اليعقوبي "جارين" قرب باضع (مصوع) "يقلعون ثناياهم من فوق وأسفل.. وينتفون لحاهم"(٥٦١)، بينما يشدد الدمشقي على أنهم "كلهم ينتفون لحاهم ويدعون شعرات يسيرة"(٥٦٢) فقط.

ولقد كان البجاويون قبل دخولهم الإسلام يعبدون الأصنام، أو حسب تعبير ابن الفقيه "عباد أوثان"(٥٦٣) أو "يعبدون الأصنام وما استحسنوه"(٥٦٤)، وبعضهم كبجة الداخل-كما رأينا- كان يعبد بالإضافة إلى الأصنام الشيطان، وظلوا على هذا الحال إلى أن دخلوا الإسلام تدريجياً مع بداية احتكاكهم بالعرب المسلمين، فيلخص ابن حوقل والمقريزي الأمر بالقول "وكانت البجة تعبد الأصنام حتى أسلموا في إمارة عبد الله بن سعيد بن أبي سرح"(٥٦٥). إلا أننا يجب أن نفهم هذا الحدث كنقطة بداية لأسلمة البجة، حتى أن إسلامهم مر بفترات إذ كان يشوبه التأثر بالاعتقادات المحلية، أو التخفف من بعض تعاليم الإسلام، وهو ما لاحظه الكثير من الرحالة والجغرافيين العرب، أمثال ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي "فجرت أحكامهم على سنن كانت لهم جاهلية إلاً بعض أحكام يستعملونها إسلامية"(٥٦٦).

والبجاويون حسب الدمشقي لا يلبسون الثياب المخيطة، فهم "عرايا من المخيط، ملتحفون بثياب مصبغة"(٥٦٧)، ويذهب المقريزي إلى القول "رجالهم ونساؤهم أبداً عراة رد على عوراتهم خرق، وكثير منهم لا يسترون عوراتهم"(٥٦٨). ويمتازون عن غيرهم بأنهم يجعلون خط الوراثة يتبع البنت - الأنثى حسب تقاليد العائلة الأمَّوية السائد عندهم فهم "يورثون ابن البنت وابن الأخت، دون ولد الصلب، ويقولون إن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، فإنه إن كان من زوجها أو من غيره فهو ولدها"(٥٦٩).

---

(٥٥٩) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٥٦٠) المصدر نفسه، ص١٩٤-١٩٥.
(٥٦١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١١٨.
(٥٦٢) الدمشقي، المصدر السابق، ص٦٩.
(٥٦٣) ابن الفقيه، المصدر السابق، ص٧٨.
(٥٦٤) الأصطخري، المصدر السابق، ص٣٢.
(٥٦٥) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٥. والمقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٧.
(٥٦٦) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٦.
(٥٦٧) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٩.
(٥٦٨) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٥.
(٥٦٩) المصدر نفسه، ص١٩٤.

ج- الحبشة

تذهب علاقات العرب بالحبشة بعيداً في التاريخ، إلى درجة أن البعض من الباحثين يشير "إلى أن بعض القبائل العربية التي تدفقت خلال الألف الأولى قبل الميلاد، من اليمن عبر البحر الأحمر، استقرت على منحدرات جبال تيغري، وأعطت (الأحباش) وهو اسم إحدى هذه القبائل العربية إلى تلك البلاد، التي أصبحت تسمى منذ ذلك الوقت: حبشة"(٥٧٠).

وبالمقابل فلقد وفد الكثير من الأحباش إلى الجزيرة العربية، وزخر المجتمع العربي (الجاهلي) بالكثير من الجماعات الحبشية إثر الغزو الحبشي لبلاد اليمن، وهي حوادث ظلت عالقة في ذاكرة المصنفين العرب، بالإضافة إلى غزو أبرهة للكعبة، وفوق ذلك هجرة المسلمين الأوائل إلى بلاد الأحباش واستجارتهم بـ(النجاشي) الذي لم يخيب رجاءهم، فكان لتلك المحطات التاريخية التي أشرنا إليها سابقاً دوراً كبيراً في تحديد الموقف الشعوري للعرب من الحبشة، الذي امتزج فيه السلبي بالإيجابي، وإن كانت الغلبة قد بقيت للعنصر الأخير الإيجابي، وهو ما تجلى بوضوح بالكثير من (الفضائل) التي أسبغها العرب على الأحباش وصاحبهم النجاشي، ولن تتغير تلك الصورة الإيجابية عن الأحباش إلاّ إثر الحروب الصليبية وبروز تفرعاتها على الجبهة الحبشية ما بين المسلمين والأحباش، وسيكون لهذه الأحداث دورها في بروز المدونة الشعبية (سيف بن ذي يزن) وهو اسم الملك العربي اليمني الذي قاد النضال ضد الأحباش في اليمن أثناء غزوهم لها قبل الإسلام.

يذكرنا الباحثون العرب بما فيهم الجغرافيون بهذه المدونة التاريخية الشعورية، التي تحولت مع الأيام إلى جزء من المحددات اللاشعورية للاستبصار العربي بحال الأحباش، نجد هذه المدونة عند ابن خلدون(٥٧١)، كما نجدها حتى عند القزويني الذي يحرص أن يكثف هذا التاريخ في صفحة واحدة، فيشير إلى أن ملكهم القديم "مطاع يقال له أبرهة بن الصباح"، وقد استولى الحبشة على اليمن "وكان عليهم أبرهة" وهو الذي "وجه عساكره من الحبشة ومعه اثنا عشر فيلاً ودنا من مكة.."(٥٧٢)، ثم ردهم الله على أعقابهم.

وبالمقابل فهو يذكرنا أن "منهم النجاشي الذي كان في عهد رسول الله.. واسمه أصحمة، وكان ولياً من

صورة الشعوب السوداء —م١٥

أولياء الله يبعث إلى رسول الله (محمد) الهدايا، والنبي (ص) يقبلها. وفي يوم مات (النجاشي) أخبر جبريل رسول الله بذلك، مع بعد المسافة، وكان ذلك معجزة لرسول الله... وفي يوم موته (موت النجاشي) صلى عليه (النبي) الصلاة مع أصحابه"(٥٧٣).

لهذا كانت الحبشة موضوعاً دائم الذكر في المعارف العربية، وكثيراً ما نجدها تعلي من شأن الأحباش ومن قدرهم. وظهرت مصنفات متعددة -كما مر معنا- تختص في ذكر فضائلهم، وأخرى تجنبت وضع الحبشة في (دار الحرب)، فيذكر ابن حوقل عن أهل الحبشة، في القرن العاشر الميلادي "وتقرب ألوانهم من العرب، بين السواد والبياض.. والجميع أهل سلم، وليس دارهم بدار حرب"(٥٧٤).

أما عن أصول الأحباش السلالية، فقد أعاد المسعودي نسلهم إلى "ولد حبش بن كوش بن حام. وأكبر

---

(٥٧٠) زيربو، تاريخ إفريقية السوداء، القسم الأول، المصدر السابق، ص١٤٦.

(٥٧١) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد الثاني، المصدر السابق، ص٧١٤-٧٢٠.

(٥٧٢) ابن محمد محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ودار بيروت، بيروت ١٩٦٠، ص٢١.

(٥٧٣) المصدر نفسه، ص٢٢.

(٥٧٤) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، المصدر السابق، ص٦١.

ممالكهم مملكة النجاشي، وهم على دين النصرانية، واسم مدينتهم الكبرى (كفر)، ولم تزل العرب على قديم الأيام تأتي هذه المملكة بالتجارات"[٥٧٥]. كما تحدث المسعودي الذي قام برحلات إلى شرق إفريقية، عن الهجرات الأولى التي قام بها ولد كوش إلى بلاد الأحباش والزنج.

لقد تعرف العرب على الحبشة وما يحيطها من بلدان، فوضعوها في إطار مثلث أضلاعه (الحبشة والبجة والنوبة) وهي البلاد التي في جنوب مصر، وبالتحديد جنوب أسوان التي ظلت بنظر المصنفين العرب - ولمدة طويلة - الحد الأخير لبلاد الإسلام، بعدها ندخل النوبة والبجة والحبشة، حيث وراءهم تقع بلاد الزنج. وحدّدوا تلك الممالك الثلاث بساحل بحر القلزم شرقاً، وبالنيل الذي يخترقها ويحددها في الغرب، فيتحدث المسعودي عن القلزم (الأحمر) الذي يتفرع من البحر الحبشي، وطوله ألف وأربعمائة ميل، وعرضه مائتا ميل، ويلاقي في ساحله الغربي "أرض مصر وأرض البجة ثم أرض الحبشة والسودان إلى أن يتصل بأقاصي أرض الزنج وأسافلها، فيتصل إلى بلاد سفالة من أرض الزنج.."[٥٧٦]. أما النيل فيخترق هذه الممالك من أطرافها الغربية، ولكن الحبشة تبدو في هذا المثلث البلداني كحبة العقد في قلب هذه الممالك، كما تبدو من الجهة الأخرى للمصنف العربي غاية في الاتساع، وكإحدى المحاور الكبرى في ممالك السودان، حيث تجاور في اتساعها جميع أطراف العالم الأسود، إذ ينتهي حدها الجنوبي إلى بلاد الزنج، ويحاذي حدها الشمالي والشمالي الشرقي بلاد النوبة والبجة، ويحفها من الغرب بلاد السودان الغربي أو ما يسمى أحياناً ببلاد التكرور، وكثيراً ما تنسب إليها شعوب القارة برمتها كما رأينا، فيقول المقريزي عن بلاد الحبشة "أولها من جهة المشرق إلى جهة الشمال بحر الهند المار من باب المندب إلى بلاد اليمن"، و"جهة الحبشة الغربية تنتهي إلى بلاد التكرور"[٥٧٧].

ويشير الأصطخري إلى أنها على "بحر القلزم.. فينتهي حد لها إلى بلاد الزنج، وحد لها إلى البرية بين النوبة وبحر القلزم، وحد لها إلى البجة والبرية التي لا تسلك"[٥٧٨]، ويقولون عنها "هي مملكة عظيمة المقدار، متسعة الأرجاء فسيحة الجوانب"[٥٧٩]. ويقول عنها ابن خلدون أنها "أعظم أمم السودان"[٥٨٠]. ويرجع المقريزي إلى التاريخ منوهاً إلى أنه "كانت مدينة المملكة في القديم، ويقال لها: أخشوم" وهي (أكسوم Aksoum)، ويذكر "أن بها كان النجاشي"[٥٨١].

وينقل القلقشندي عن العمري، أن أرضها صعبة المسلك لكثرة جبالها وعظم أشجارها، لدرجة أن ملكها يضطر عند خروجه إلى جهة ما أن يتقدمه رجال لإصلاح الطرق بقطع الأشجار أو إحراقها، وهم "قوم كثير عددهم"[٥٨٢]. وكانت عاصمتهم في قديم الزمان "أخشوم" التي هي أكسوم، ويقال لها (رفرفتا) حسب المقريزي، و(زرفرتا) عند القلقشندي، وكان بها كرسي مُلك النجاشي حين كان مستولياً على إقليم الحبشة[٥٨٣]. وأقاليمها اثنا عشر إقليماً، فبالإضافة إلى "أخشوم" هناك إقليم أمحرا (لعله Amhara) الذي كان به "مدينة المملكة زمن

---

(٥٧٥) المسعودي، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، الجزء الأول، ط٢، دار الأندلس، بيروت ١٩٦٦، ص٩٠.

(٥٧٦) المسعودي، مروج الذهب، الجزء الأول، المصدر السابق، ص٣٥١. وأيضاً الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٤٠. وأيضاً ابن حوقل، المصدر السابق، ص٥٠-٥٦.

(٥٧٧) تقي الدين المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، في "رسائل المقريزي"، تحقيق رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة ١٩٩٨، ص٥٣١.

(٥٧٨) الأصطخري، المصدر السابق، ص١٩.

(٥٧٩) القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الخامس، المصدر السابق، ص٣٠٢.

(٥٨٠) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، المصدر السابق، ص٤١٠.

(٥٨١) المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، المصدر السابق، ص٢٣١.

(٥٨٢) القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الخامس، المصدر السابق، ص٣٠٢.

(٥٨٣) المصدر نفسه، ص٣٠٣. والمقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، المصدر السابق، ص٢٣١.

القلقشندي، ثم إقليم شاوة (لعله Choa)، ثم إقليم داموت (Damot)، ثم إقليم لامنـان، ثـم السـبهو، ثـم إقليم الـزلح، ثـم إقليم عدل الأمراء (لعله إقليم عدال Adal)، ثم إقليم حماسا، ثم إقليم ياربـا، ثـم إقلـيم الطـراز الإسـلامي ويقصـد بـه الإقليم التي كانت الغلبة فيه للمسلمين(٥٨٤)، ويتمحور حول (زيلع Zeila) الساحلية وهـي التـي جنـوب جيبـوتي فـي بلاد الصومال الحالية"، معبراً عن اتساع المملكة "وبها أقاليم كثيرة العدد، مجهولة الأسماء، غير مشـهورة، ولا معلومة". ويشير المقريزي إلى أن لكل إقليم من هذه الأقـاليم الاثنـي عشر ملك، وهؤلاء الملـوك "الكل تحـت يـد الحطي ومعناه بالعربية: السلطان"(٥٨٥).

لا يقلل لون الأحباش الأسود بنظر المصـنفين العـرب، مـن علـو مكانـتهم ومـن امـتلاكهم للمزايا والفضـائل الحميدة، أو للمكانة الحضارية والثقافية اللائقة. وهم يختلفون حـول تحديـد عاصـمة ملكهـم، فبعضـهم كـأبي الفـداء يقول "إن قاعدة الحبشة مدينة جرمى"، أمـا القلقشـندي فيقـول أن قاعـدتها مدينـة (مرعدى) فـي إقلـيم أمحـرا(٥٨٦)، وغيرهم يضعها في مكان آخر، كقول المسعودي في القرن العاشر الميلادي "أما الحبشـة فاسـم مملكـتهم (كعبـر)، وهي مدينة عظيمة، وهي دار مملكة النجاشي"(٥٨٧). إلا أنهم يجمعون على "جلال قدر هذه المملكة".

فإذا كان ملكهم في القديم يسمى أبرهة، ففي زمن انبثاق الإسلام وهجـرة جماعـة المسلمين إليهـا فملكهـا اسـمه النجاشي، أما في زمـن القلقشـندي والمقريـزي وابـن خلـدون فكـان اسـمه (الحطـي). وكـان أحمـد بـن طولـون سـلطان مصر قد سمع بسعة معرفة رجل شديد الاطلاع على علم البلدان وحـال الشـعوب، فأحضـره رجالـه إليـه مـن صـعيد مصر عام ٢٦٠هـ-٨٦٤م، فسأله عن أحوال الحبشـة، فأجابـه الرجل العارفـة "لقيـت مـن ملـوكهم سـتين ملكـاً... كـل ملك منـهم ينـازع مـن يليـه مـن الملـوك، وبلادهـم حـارة، يابسـة مسـودة، ليبسـها وحرارتهـا، ولاسـتحكام الناريـة فيهـا تغيرت الفضة ذهباً لطبخ الشمس إياهـا لحرارتهـا ويبسـها وناريتهـا فتحولـت ذهبـاً"(٥٨٨)، وقـول هـذا الرجـل يعطينـا فكرة عن إحدى الصـور المتناقلة عن الأحباش.

وتحدث المقريزي في القرن الخـامس عشر الميلادي عن علاقة (الحطي) سلطان الحبشـة: إسـحاق بـن داود بن سيف بالمماليك الشراكس في مصر والأقباط، وعن تـأثير مصر في تقدم صـناعة السـلاح فـي الحبشـة، ثـم عـن توجه هذا الملك الحبشي نحو محاربة الإسلام، واسـتنجاده بالإفرنجـة، ولعـل هـذا أتـى فـي المناخـات العدائيـة التـي خلقتها الحروب الصليبية بين العرب وأوربا، ويُبرز المقريزي من خلال عرضـه التـاريخي تنـامي النزعـة العدائيـة للحبشة لدى العرب - المسلمين من جراء مناخات الحروب الصـليبية هذه، التي تأثر بها الأحباش ذاتهم، فيذكر أنـه قدم إلى سلطان الحبشة، من أمراء الدولة بمصر أمير يقال له (الطنبغا) فاراً من مصـر "وكـان يعـرف مـن أبـواب اللعب بآلات الحرب ومن أنواع الفروسية أشياء، فحظي عند الحطي وعلَّم عساكره رمي النشـاب واللعـب بـالرمح والضـرب بالسيف، وعمل لهم النفط فعرفوا ساعات الحرب.. وقدم إليـه مـن قبط مصـر نصـراني يعقـوبي يعـرف بفخر الدولة، فرتب له المملكة وجبى له الأمـوال، فصـار ملكـاً لـه سـلطان وديـوان، بعـد مـا كانـت مملكتـه ومملكـة آبائه همجاً لا ديوان لهم ولا ترتيـب ولا قـانون. فانضـبطت عنـده الأمـور.. فلمـا تحضـرت دولتـه وقويـت شـوكته وسوست له شياطينه أن يأخذ ممالك الإسلام، فأوقع بمن تحت يده فـي ممالـك الحبشـة مـن المسلمين وقـائع شـنيعة

---

(٥٨٤) القلقشندي، ج٥، المصدر السابق، ص٣٠٣. والمقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣١.

(٥٨٥) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣١.

(٥٨٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٠٢.

(٥٨٧) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص١٩. راجع أيضاً اليعقوبي، ج١، ص٢١٨. وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد السادس، ص٤١١ - ٤١٢.

(٥٨٨) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٣٤٩ - ٣٥٠.

طويلة، قتل فيها وسبى واسترق عالماً لا يحصيه إلاّ خالقه سبحانه.. ثم كتب إلى ملوك الإفرنج يحثهم على ملاقاته لإزالة دولة الإسلام وأوعدهم على ذلك"[٥٨٩].

وهذا يعكس التحول الذي أصاب الشعور العربي - الإسلامي تجاه الأحباش في ظروف التبدلات الكبرى التي ضربت بالعلاقات العربية الإسلامية مع أوربا أثناء الحروب الصليبية وما بعدها. وقد تناول وصف الرحالة والجغرافيين العرب بلاد الحبشة من جميع جوانبها، من حال الملك والإدارة إلى الحالة الاقتصادية للسكان، وأساليب حياتهم ومسالكهم الاجتماعية ومعتقداتهم؛ وكان القلقشندي في القرن الخامس عشر الميلادي أبرز الجغرافيين والموسوعيين العرب الذين كتبوا عن الحبشة وشرقي إفريقيا، حيث جمع ما كتبه سابقوه عنهم ولا سيما العمري، بالإضافة إلى معطيات زمانه، مستفيداً من مقابلاته للكثير من التجار والسفراء.

الدولة والسلطان:

أحاط المؤلفون العرب الحبشة باتساع ملكها وقوة سلطانها بالتقدير، ووسعوا دائرة هذا الملك حتى شملت أثيوبيا الحالية وقسم من بلاد السودان وبلاد الصومال وأرتيريا، لهذا ينقل القلقشندي عن العمري تقديره لملكهم الأكبر "الحاكم على جميع أقطارهم يسمى بلغتهم الحطي، ومعناها السلطان.. وأن تحت يده تسعة وتسعين ملكاً، وهو لهم تمام المائة"[٥٩٠]، وكان اسم سلطانهم في زمن العمري (عمدسيون) ومعناها: ركن صهيون، وكثرة ملوكهم دلالة على اتساع ملكهم، وامتداد سلطانهم.

ويخبرنا أن من عادات الملك عندهم، أنه "يجلس على كرسي حديد مطعم بالذهب، علوّه أربعة أذرع من الأرض، ويجلس أكابر الأمراء حوله على كراسي أخفض من كرسيه، وبقية الأمراء وقوف أمامه، ويحمل رجلان السلاح على رأسه"[٥٩١].

وإذا ركب الملك أو الأمير عندهم بغلاً، فإنه "يردف غلامه خلفه، بخلاف إذا كان راكباً فرساً فإنه لا يردف خلفه أحداً"[٥٩٢]؛ ومن عادات ملوكهم أيضاً، أن (الحطي) وجيشه لهم خيام "ينقلونها معهم في الأسفار والتنزهات، وإنه إذا جلس الملك يجلس على كرسي، ويجلس حول كرسيه أمراء مملكته وكبراؤها على كراسي حديد، منها ما هو مطعم بالذهب، ومنها ما هو ساذج على قدر مراتبهم"[٥٩٣].

ومن التقاليد الملكية المتبعة عندهم، أن الملك إذا ركب تقدمه "الحجاب والنقباء لطرد الناس، ويُضرب بالشبابة أمامه، ويُضرب معها بيوقات من خشب في رؤوسها قرون مجوفة، ويُدق على طبول معلقة في أعناق الرجال تسمى عندهم الوطواط، ويتقدم أمام الكل بوق عظيم يسمى الجنبا.. من قرن وحش"[٥٩٤].

أما سلاحهم ففي غالبه "الحراب والنشاب"[٥٩٥]، ويستعملون في القتال "السيوف والحراب والمزاريق والقسي، يرمون عنها بالنبل، وهو نشاب صغير.. ولهم درق (دروع) مدورة، ودراق طوال"[٥٩٦]، ويشير المقريزي أيضاً إلى أن عندهم "القنا" صامت ومجوف، ولهم "منابت لا تعرف بأرض مصر ولا الشام ولا العراق"[٥٩٧]، كما يشير إلى أن (الحطي) ليس له ديوان، لذا فعندما يتجه إلى الحرب، يأمر جنده بأن يلقي كل

---

(٥٨٩) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٣.
(٥٩٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٣.
(٥٩١) المصدر نفسه، ص٣٣٤-٣٣٥.
(٥٩٢) المصدر نفسه، ص٣٣٥.
(٥٩٣) المصدر نفسه، ص٣٢٣.
(٥٩٤) المصدر نفسه، ص٣٣٤.
(٥٩٥) المصدر نفسه، ص٣٣٤.
(٥٩٦) المصدر نفسه، ص٣٠٧.
(٥٩٧) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣١.

واحد منهم حجراً في مكان معين، وعند الرجوع من الحرب يأخذ كل منهم حجراً "فما فضل من الحجارة علموا به عدد من هلك منهم"[٥٩٨].

ثم يتحدث عن دور بعض المصريين المماليك والأقباط في تعليمهم تنظيم الديوان وبعض الأساليب الحربية كما مر معنا، ولا يتردد القلقشندي والعمري، في إطراء شجاعة بعض ملوكهم وعدالتهم في تطبيق الأحكام على الرعية، فيشهد على أن السلطان (عمدسيون) السالف الذكر "أنه من الشجاعة على أوفر قسم، وأنه حسن السيرة، عادل في رعيته"[٥٩٩]، حتى أن ملوكهم "يتصدون للحكم بأنفسهم، وإن كان عندهم القضاة والعلماء"[٦٠٠].

وينبهنا القلقشندي إلى أن القادة التابعين لسلطان الحبشة ليس عندهم "إقطاعات على السلطان ولا نقود كما بمصر والشام"[٦٠١]، إذ يلاحظ عدم انتشار (الإقطاع العسكري) في بلاد الحبشة، وهو أمر كان سائداً إلى حد كبير في زمن المماليك، على عهد القلقشندي والعمري؛ فالأمر عند الحبشة متروك لـ"من شاء منهم زرع واستغل، ولا يعارض في ذلك... وأكثر ما يعطى الأمير الكبير منهم مائتا بقرة"[٦٠٢]. وينبه ابن حوقل إلى حقيقة أن ابنة الأخت ترث الملك، وبالتالي فإن الحبشة تتبع الخط الأمومي السلالي لوراثة الملك، فيذكر أنه سمع عندما كان قريباً من بلاد الحبشة إلى واقعة مشابهة، حيث "كان ملكهم، وأنا بالناحية (أسابيوس كرجوة بن جوتي)... وتوفي فجلس ابن أخته أسطانبوس، وهو مقيم فيهم إلى وقتنا"[٦٠٣]، ثم يخلص إلى قاعدة من هذه الواقعة مفادها "ومن سنة جميع السودان إذا هلك الملك أن يقعد ابن أخته دون كل قريب وحميم من ولد وأهل"[٦٠٤].

الدين والعادات الاجتماعية:

يقول عنهم ابن حوقل في القرن العاشر الميلادي "وهم نصارى"[٦٠٥]، مع ملاحظة وجود المسلمين على أطرافهم، وهي حقيقة لاحظها معاصره المسعودي "فمن مدن الحبشة على الساحل: الزيلع والدهلك وناصع، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة"[٦٠٦]. غير أن المصنفين العرب اعتادوا بعد القرن العاشر الميلادي، مع ترسخ الوجود الإسلامي هناك، على تسمية القسم العربي من الحبشة باسم "الطراز الإسلامي"، ووصفوا عاصمته مدينة زيلع، وهو القسم الذي زاره المسعودي ورحل السيرافي إليه وإلى ما حوله من أطراف الساحل الموزمبيقي، كما زاره فيما بعد ابن بطوطة، ويقع في هذا القسم جيبوتي الحالية والصومال وأرتيريا، لهذا يكتفي القزويني في القرن الثالث عشر الميلادي بتقرير أن "أكثر أهلها نصارى يعاقبة"[٦٠٧]. كما لاحظ مؤلفونا إلى جانب ذلك، وجود فريق من الأحباش مايزال على الوثنية، فيتحدث ابن حوقل عن جماعة من الأحباش وثنية يسميها (بازين)، وتجاور جماعة (تغلين) المسلمة، قرب مدينة دنقلة التي تقع في جمهورية السودان الحالية، فيصف هؤلاء (البازين) على أنهم "أمم مقيمة في أخصاص كالقرى، لهم الماشية من البقر والزرع، ورياستهم بأيدي شيوخهم، وليس فيهم راجلٌ، وسلاحهم الحراب والمرَّان، ولا فارس فيهم، وليس لأحد عليهم طاعة ولا دين لهم، ولا هم متصلون بشريعة غير الإقرار بالله وحده والتسليم له، واسمه جل وعز عندهم:

---

(٥٩٨) المصدر نفسه، ص٢٣٣.
(٥٩٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٢.
(٦٠٠) المصدر نفسه، ص٣٣٥.
(٦٠١) المصدر نفسه، ص٣٣٥.
(٦٠٢) المصدر نفسه، ص٣٣٥.
(٦٠٣) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٦١.
(٦٠٤) المصدر نفسه، ص٦١.
(٦٠٥) المصدر نفسه، ص٦٠.
(٦٠٦) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص١٩.
(٦٠٧) القزويني، المصدر السابق، ص٢٠.

أذنة"[٦٠٨].

فنلاحظ من خلال مصنفات الرحالة والجغرافيين العرب، وعيهم لحقيقة أن الإسلام ترافقه اللغة العربية بدأ يخط طريقه وتأثيراته على المدن الساحلية من سواكن و(مصوع Massawa) على البحر الأحمر في الشمال، حتى زيلع قبالة خليج عدن، باتجاه الجنوب حتى الساحل الموزمبيقي.

إلا أن الحقيقة الثابتة عند الرحالة والجغرافيين العرب هي أن أغلب أهل الحبشة (نصارى) على مذهب اليعقوبية، فهم "يدينون بالنصرانية من قديم، ويعتقدون مذهب اليعقوبية، وهم يتشددون في ديانتهم تشدداً زائداً، ويعادون من خالفهم من سائر الملل أشد عداوة، ويعادون الطائفة الملكية (= الكنيسة الرومية-البيزنطية) من النصارى"[٦٠٩]، وهو ما يجعلهم على تبعية كنيسة الإسكندرية وبطريركها الذي هو تحت ذمة (حماية) المسلمين في "ديار الإسلام" في مصر، حيث "كرسي الإسكندرية قد صار لبطرك اليعاقبة تحت ذمة المسلمين بالديار المصرية من لدن الفتح الإسلامي، وهلم جراً، إلى زماننا.. ويتبع البطريرك القائم به على مذهب اليعاقبة الحبشة والنوبة، وسائر متنصرة السودان"[٦١٠]، وبالتالي فإن مطران كنيسة الحبشة على تبعية لبطريرك الإسكندرية، ويستمد شرعية تعيينه منه، وهو أمر يدفع ملك الحبشة رغم عظمته وقوته ومكانته، إلى طلب مودة سلطان مصر مراعاة منه للكنيسة الأم التي تقع في حماية الأخير، وطالما أن بطريرك الإسكندرية "صار لديهم كالخليفة على دين النصرانية عندهم، يتصرف فيهم بالولاية والعزل، ولا تصح ولاية ملك منهم إلا بتوليته"[٦١١]، وأن المراسيم المتبعة لتنصيب مطران جديد في بلاد الحبشة تتم عن طريق رسالة من ملك الحبشة إلى بطريرك الإسكندرية عن طريق سلطان مصر "بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر للبطرك المذكور (= الإسكندرية) بإرسال مطران إليهم (أي إلى الحبشة)، وذلك بعد تقديم سؤال ملك الحبشة، الذي هو (الحطي)، وإرسال رسله وهداياه.. وهم يدعون أنهم يحفظون مجاري النيل المنحدر إلى مصر، ويساعدون على إصلاح سلوكه تقرباً لصاحب مصر"[٦١٢].

ويصف لنا القلقشندي المراسيم الاحتفالية الخاشعة التي تصاحب ورود (كتاب) أو رسالة من بطريرك الإسكندرية أو إلى ملك الحبشة، حيث يُحمل هذا الكتاب على الرؤوس حتى وصوله لصاحبه، إذ إن "الأوامر البطريرك عنده (عند سلطان الأحباش) ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب إليه كتاباً فأتى ذلك الكتاب إلى أول مملكته، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس علَم، ولايزال يحمله بيده حتى يخرجه من أرضه، وأرباب الدولة في تلك الأرض كالقسوس والشمامسة حوله مشاة بالأدخنة، فإذا خرجوا من حد أرضهم تلقاهم من يليهم أبداً كذلك في كل أرض بعد أرض، حتى يصلوا إلى أمحرا"[٦١٣]، حيث في (أمحرا Amhara) مركز ملكهم.

وقد لاحظ المصنفون العرب عمق الوشائج التي تربط الحبشة بدار الإسلام ولا سيما مصر، فبالإضافة إلى الروابط الكنسية، فهناك ما تفرضه علاقة البلدين بالنيل، فيذكر القلقشندي مثالاً على ذلك، أنه لما توقف نهر النيل عن التدفق المعهود، في زمن (المستنصر بالله) الفاطمي، فإن المستنصر "أرسل البطرك الذي كان في زمانه إلى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجاريه"[٦١٤]. ويقدم القلقشندي ثبتاً واسعاً بتاريخ الكنيسة في الحبشة، وجذور الصراعات المذهبية التي انبثقت عنها الكنيسة اليعقوبية، وكل هذا بانفتاح وتفهم، إلى درجة الحيادية، دون أن

---

(٦٠٨) ابن حوقل، المصدر السابق، ص٦٢.
(٦٠٩) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٢.
(٦١٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٠٨.
(٦١١) المصدر نفسه، ص٣٠٨.
(٦١٢) المصدر نفسه، ص٣٢٣.
(٦١٣) المصدر نفسه، ص٣٠٩.
(٦١٤) المصدر نفسه، ص٣٢٣.

يتلبس ذلك العرض أية نزعة عدائية، فلقد ميز المصنفون العرب المسلمين ما بين الديانات الوثنية المدانة لديهم وبين الديانة المسيحية واليهودية كديانتين توحيديتين، وأطلقوا على أصحاب تلك الديانتين "أهل الكتاب" باعتبارهما جزء من تجليات وحي واحد توَّجهُ الإسلام وختمه، أو كجزء من ديانة العائلة الإبراهيمية (نسبة إلى النبي إبراهيم الخليل)، فتعامل المؤلفون المسلمون مع تلك الديانتين (المسيحية واليهودية) بتقدير، مع احتفاظهم بحذرهم تجاه بعض تعاليمهم ومظاهر طقوسهم التي اعتبروها تحريف عن الأصل الصحيح!. كما نظروا إليها على أنها إحدى مظاهر الترقي الحضاري، لإخراجها لهم من حالة الشرك الوثنية أو المجوسية إلى رحابة طريق التوحيد.

ولهذا فإن إدراكهم لواقعة أن الأحباش على دين المسيحية هي مسألة ترفع من شأن الأحباش في أعينهم أكثر مما لو كانوا وثنيين؛ ولهذا لا يبخل عليهم المؤلفون العرب بالإطراء، فيصفهم القلقشندي مستعيراً قول العمري "وهم قوم كثير عددهم، ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الإنساني لأنهم أجبر بني حام، وأخبر بالتوغل في القتال والاقتحام، وطول زمنهم في الأسفار وصيد الوحوش، وقتالهم عرباً من غير لامة (درع) تدفع عنهم ولا عن خيلهم"[٦١٥]، وهم فضلاً عن ذلك يتخلقون بالكثير من الصفات الأخلاقية الحميدة والسمات الحضارية، فهم "يصفحون عن الجرائم، ومن عاداتهم أن من رمى سلاحه في القتال حَرُم قتاله، ويكرمون الضيف، ولا ينقض الصديق منهم عهد صديقه، وإذا أحبوا أظهروا المحبة، وإذا أبغضوا أظهروا البغض، والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس، ولهم علوم وصناعات خاصة بهم، ولهم قلم يكتبون به من اليمين إلى الشمال كما في العربي، عدد حروفه ستة عشر حرفاً، لكل حرف منها سبعة فروع"[٦١٦].

وذكروا في وصفهم لمحياهم وأجسادهم أنه "يميل الكثير من ألوانهم إلى الصفاء"[٦١٧]، أما شعورهم "فليست في غاية التفلفل كما في أهل مالي وما يليها من جنوب المغرب، وفطنهم أنبه من غيرهم من السودان، وفطرُهم أذكى"[٦١٨]. ومن تقاليدهم أن "لكل طائفة منهم وسم في وجوههم"، أما أهل أمهرا مركز ملكهم فإنهم "يسمون (يوشمون) في الخدين والجبهة والأنف خطوطاً طوالاً"[٦١٩]. وينقل القلقشندي عن العمري في "مسالك الأبصار" وصفه لأزيائهم وما اعتادوا عليه من لباس، فيذكر أن من زيهم "أن لباسهم في الشتاء والصيف واحد: لكل واحد منهم ثوبان غير مخيطين: أحدهما يشد به وسطه، والآخر يلتحف به، ولا يعرفون لبس المخيط"[٦٢٠]، إلا أنهم يتميزون عن بعضهم في أن خواصهم وأجنادهم "يلبسون الحرير والأبراد اليمنية، والعوام يلبسون ثياب القطن"[٦٢١].

أما في المقاطعات الحبشية المسلمة أمثال زيلع، فقد جرت العادة أن الملك "يعصِّب رأسه بعصابة حرير تدور بدائر حول رأسه، ويبقى وسط رأسه مكشوفاً، والأمراء والأجناد يعصبون رؤوسهم كذلك بعصائب من قطن، والفقهاء يلبسون العمائم، والعامة يلبسون كوافي بيضاء طافيات"[٦٢٢]. وأهل الحبشة بشكل عام كما يقول المقريزي "لا يكادون يعرفون لبس المخيط، بل يرتدون ويتزرون (= رداء للنصف الأسفل من البدن) في

---

(٦١٥) المصدر نفسه، ص٣٠٢.
(٦١٦) المصدر نفسه، ص٣٠٢.
(٦١٧) المصدر نفسه، ص٣٠٣. وراجع المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٢.
(٦١٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٤
(٦١٩) المصدر نفسه، ص٣٠٣.
(٦٢٠) المصدر نفسه، ص٣٠٧.
(٦٢١) المصدر نفسه، ص٣٠٧.
(٦٢٢) المصدر نفسه، ص٣٣٤.

أواسطهم"[٦٢٣]، غير أن "السلطان والجند يتزرون بثياب مخيطة: يُشد وسطه بثوب، ويتزر بآخر، ويلبسون مع ذلك سراويل، ومن عداهم من الناس يقتصرون على شد الوسط والإتزار خاصة بلا لبس سراويل، وربما لبس القمصان منهم بعض الفقهاء وأرباب النعم"[٦٢٤].

معاش الحبشة (السكن، الزراعة، التجارة، الثروة):

يذهب المصنفون العرب بعيداً في دراستهم الإثنوغرافية لأهل الحبشة، كما لغيرهم من الشعوب السوداء، لتشمل أيضاً حالتهم الاقتصادية والمعاشية، والمسكن، وما يملكون من معادن، وزراعات وتجارات؛ فالحبشة كما يقرر المقريزي، ناقلاً معلوماته عن أناس على معرفة بالأحباش شاهدهم أثناء حجه إلى مكة "تسكن بيوتاً من قش تطلى بأخثاء البقر (لعله روث البقر)"[٦٢٥]، إلا أننا نقرأ عند القلقشندي أن مساكنهم، وخاصة ما يسموه "الطراز الإسلامي" فإنما تبنى "من طين وأحجار وأخشاب، مسقفة بجمالونات وقباب، وليست بذوات أسوار، ولها فخامة بناء، ومع ذلك فيها الجوامع والمساجد"[٦٢٦].

ويذكر القزويني أن طعام الأحباش من "الحنطة والدخن، وعندهم الموز والعنب والرمان"[٦٢٧]، ويذهب المقريزي إلى أن "جميع بلاد الحبشة تزرع على المطر مرتين فيحصل لهم في السنة الواحدة فعلان"[٦٢٨]. وينبت في أراضيهم الحبوب: الحنطة والشعير والحمص والعدس والبسلاء والذرة وبعض الباقلا، وعندهم حب يسمى (قنابهول) يستعملونه كالحنطة، وحنطتهم شبيهة بالحنطة الشامية، وحبة شعيرهم من مثيلها في الشام ومصر، وحمصهم يميل إلى الحمرة، وعندهم بزر الكتان وحب الرشاد، وعندهم القرع والبطيخ والبقول من الثوم والبصل والكزبرة الخضراء، وعندهم من الرياحين: الريحان والقرنفل والياسمين البري، ومن فواكههم: العنب الأسود والتين الوزيري وأصناف الحوامض خلا (ماعدا) النارنج، وعندهم شجر الزيتون والصنوبر والجميز، وفي بعض بلادهم الأبنوس[٦٢٩].

ويأكلون أيضاً من اللحوم "شحوم البقر والمعز وبعض شحوم الضأن، ومشروبهم اللبن البقري.. ويتداوون باللبن المذاب بالماء، وسمن البقر.. وعندهم عسل النحل.. أما الزيت الطيب فيجلب إليهم، وأدهانهم بالسمن، وأواني طعامهم فخار مدهون أسود"[٦٣٠].

ويوجد عندهم من المواشي: الخيل والبغال والبقر والغنم "وأغنامهم تشبه أغنام عيذاب واليمن"[٦٣١]، ويتخذ أهل الحبشة "الإبل، ويكتسبونها، ويشربون ألبانها، ويستخدمون ظهورها، وينتظرون لقاحها، وهي أجلّ بضاعة عندهم.. ويبيعونها... للتجار، فيخرجون إلى أرض مصر في البر والبحر"[٦٣٢].

وعندهم من الطيور الجوية: الصقور والبزاة والنسور والغراب والحجل والحمام والعصفور، ومن الطيور البرية: دجاج الحبش وأمثالها، ومن الطيور المائية: البط وسمك البوري وسمك يشبه الثعبان، وبنهرهم يوجد

---

(٦٢٣) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٢.
(٦٢٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٣٤.
(٦٢٥) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٢.
(٦٢٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٤.
(٦٢٧) القزويني، المصدر السابق، ص٢٠.
(٦٢٨) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣١.
(٦٢٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٠٦.
(٦٣٠) المصدر نفسه، ص٣٠٦.
(٦٣١) المصدر نفسه، ص٣٠٤.
(٦٣٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٤٦.

التمساح وفرس البحر[٦٣٣]، كما تعظم عندهم الحيات.

ويوجد في أراضيهم "معدن الحديد والذهب، ومعدن الفضة والنحاس والرصاص"[٦٣٤].

أما عن تجاراتهم، فيتحدث ياقوت الحموي عنها، فيذكر أن المعزة كانت أهم صادراتهم، حيث تجلب من بلاد الحبشة إلى سوق زيلع التي كانت خراباً في زمن الحموي، كما يحملون إلى سوق باضع (مصوع Massawa) أنياب الفيلة وبيض النعام، ويأتون من هناك: بالقسط والأظفار والأمشاط[٦٣٥]، ويذكر القلقشندي عن العمري، أنهم ليحصلوا على البضائع اللازمة لهم، فإنهم يقايضونها من عندهم "بالأبقار والأغنام والحبوب، أما الأسعار فالقمح والشعير اللذان هما أصل الطعومات ليس عندهم قيمة تذكر، لاستغنائهم عن ذلك باللحم واللبن"[٦٣٦].

ويتحدث المسعودي الذي زار الساحل الشرقي لإفريقيا، أن بين ساحل الحبشة الذي تقع عليه المدن التي يتكاثر فيها المسلمون: زيلع ودهلك وباضع، وبين ساحل اليمن "ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين"، لذا فإن مراكب صاحب (زبيدة) التي على الساحل اليمني "تختلف (تتردد) على ساحل الحبشة وتركب فيها التجار بالأمتعة"[٦٣٧].

وقد غلب المسلمون على سكان هذه المدن الساحلية المنسوبة إلى الحبشة، وذلك في القرن العاشر الميلادي، لذا سميت هذه المدن منذ ذلك الحين بـ"الطراز الإسلامي" وإن بقيت تخضع بتبعيتها إلى سلطان الحبشة، لهذا سنخصص لها فصلاً خاصاً، حيث ميزها الرحالة والجغرافيين العرب ورحالتهم عن بلاد الداخل الحبشية، وهي تتناثر في المكان الذي يسمى الآن الصومال وجيبوتي وأرتيريا، وتتصل فيما سماه الباحثون العرب بـ"سفالة الزنج".

الطراز الإسلامي:

وسميت هذه البلاد بـ"الطراز الإسلامي" ونسبها البعض إلى عاصمتها زيلع، فسميت (بلاد الزيلع)، ويعرض لها القلقشندي "وهي البلاد المقابلة لبر اليمن على أعلى بحر القلزم، وما يتصل به من بحر الهند، ويعبر عنها بـ"الطراز الإسلامي"، لأنها على جانب البحر كالطراز له.. وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام: بلاد الزيلع"[٦٣٨].

والحال أن الزيلع هي مركز هذه البلاد وعاصمتها الإقليمية، لذا نسبت إليها، ويعرفنا المقريزي بها قائلاً "إعلم أن بلاد الزيلع.. من جملة أراضي الحبشة، وعُرفت بقرية بجيرة البحر يقال لها: زيلع.. وطول أرض الزيلع براً وبحراً نحو شهرين، وعرضها أكثر من شهرين، إلاَّ أن أغلبها قفار غير مسكونة"[٦٣٩].

ونتعرف من القلقشندي والمقريزي على أن هذه البلاد تتألف من سبعة ممالك، أقواها عوداً (أوفات Ifat) طولها خمسة عشر يوماً، عامرة بالقرى، وأسعارها رخيصة بما فيها الموز تباع المائة موزة بدرهم، وثلاثون رطلاً من اللحم بدرهم ونصف، وعندهم فواكه كثيرة في جملتها قصب السكر، وملكها هو نفسه يحكم مدينة

---

(٦٣٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٠٤ - ٣٠٥.
(٦٣٤) المصدر نفسه، ص٣٠٧. وراجع المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣١.
(٦٣٥) الحموي، ياقوت: معجم البلدان، المجلد الأول، ص٣٢٤.
(٦٣٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٠٧.
(٦٣٧) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص١٩.
(٦٣٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٤.
(٦٣٩) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٤.

الزيلع و"يجلس على كرسي ويركب بالحتر (= يوصل بأسفل الخباء) والطبل والزمر"[٦٤٠]. وعساكرهم يصل عددهم إلى خمسة عشر ألفاً من الفرسان، وعشرون ألفاً من الرحالة، و"مضافتها" ومركز الملك فيها: زيلع "وهي فرضة من فرض هذه البلاد"، كما أنها "مدينة مشهورة وأهلها مسلمون، على ركن من البحر في وطاءة (منخفض) من الأرض، تنزلها التجار.... فيضيفونهم ويبتاعون لهم"، وليس عندهم بساتين ولا فاكهة، لكن فيها "مغاص لؤلؤ" وهي قبالة عدن من جهة الغرب إلى الجنوب[٦٤١].

فهي مركز تجاري هام للغاية بما فيه تجارة الرقيق، وكما قال عنها ابن سعيد المغربي هي "محط وإقلاع" كناية عن رواج تجارتها "ومنها يتوزع رقيق الحبشة إلى بلاد الإسلام"[٦٤٢]. ويروي أبو زيد السيرافي عن "سليمان التاجر" أنه كانت "تجلب جلود النمور منها، وهي أحسن الجلود وأنقاها" فضلاً عن تصديرها "للعنبر والذبل"[٦٤٣]، والأخيرة جلود سلاحف تصنع منها الأساور.

ويفصّل الإدريسي الأمر بقوله "وزالع صغيرة القطعة كثيرة الناس، والمسافرون إليها كثير، وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التي تصرف بها في بلاد الحبشة، ويخرج منها الرقيق والفضة، أما الذهب فهو فيها قليل، وشرب أهلها من الآبار، ولباسهم الأز[illegible] القطن"[٦٤٤].

وعندما زارها ابن بطوطة في عام ١٣٣٠م عابراً البحر إليها من (عدن) بعد أن حج [illegible] مزدحمة بالبشر والمراكب والتجارات، وساءه (قذارتها) لكثرة ما يذبحون على أرصفتها من جمال وأسماك "فهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة، إلاَّ أنها أقذر مدينة في المعمورة وأوحشها وأكثرها نتناً، وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقة"[٦٤٥]، وتقع في منطقة في القرن الإفريقي في الصومال حالياً، سماها العرب (بربرة) وقد قال ياقوت الحموي عن أهلها "هم طائفة من العربان غير الذين هم في المغرب، وبلادهم بين الحبشة والزنج.. ثم يمتد بر البربر على ساحل بحر الزنج"[٦٤٦]، لذا يقول عنها ابن بطوطة "وهي مدينة البرابرة... بلادهم صحراء مسيرة شهرين أولها زيلع وآخرها مقدشو.. ومواشيهم الجمال، وبها أغنام مشهورة السمن"[٦٤٧].

والبرابرة هؤلاء "هم طائفة من السودان شافعية المذهب"، إلا أن أهل زيلع "أكثرهم رافضة" أي من المنشقين عن الإسلام السني، وغادر ابن بطوطة زيلع من ليلته عن طريق البحر، وذلك لكثرة قذرها، إلى مدينة مقدشو (Magadichou عاصمة الصومال الحالية)، وهي مدينة أخرى تنتسب إلى أهل بربرة، وكان أول ما لفت نظره كثرة أهلها وازدحام مرفئها بالمراكب التجارية، ودقة تنظيم العلاقة بين التجار وزبائنهم في المدينة، وكثرة ما يذبحون من الجمال يصل إلى "المئتين كل يوم" ماعدا "الأغنام الكثيرة"، ويمتاز أهلها بأنهم "تجار أقوياء" صلتهم التجارية عميقة مع مصر، و"بها تصنع الثياب المنسوبة إليها، التي لا نظير لها، ومنها يحمل إلى ديار مصر وغيرها"[٦٤٨].

ومن الدلائل على عظمة موقعها ودورها التجاري الذي تقوم به، هو ما شاهده من أن "عادة أهل هذه

---

(٦٤٠) المصدر نفسه، ص٢٣٥.
(٦٤١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٦.
(٦٤٢) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٩٩.
(٦٤٣) أبو زيد الحسن السيرافي: رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله حبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٩، ص٨٨ - ٨٩.
(٦٤٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٤٤.
(٦٤٥) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص١٩٤.
(٦٤٦) الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، المصدر السابق، ص٣٤٣.
(٦٤٧) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص١٩٣.
(٦٤٨) المصدر نفسه، ص١٩٤.

المدينة" أنه متى وصل مركب إلى مرساها، تتجه إليها مراكب تسمى عندهم (الصنابق) تحمل "شبان من أهلها" يقومون بدور الوسطاء التجاريين، أو أن يكونوا مندوبين عن هؤلاء الوسطاء في مقدشو "فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه طعام، فيقدمه لتاجر من تجار المركب" باعتباره نزيله "فلا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان" باستثناء هؤلاء التجار الذين اعتادوا المجيء إلى مقديشو والإتجار بها "وحصلت لهم معرفة أهلها، فإنه ينزل حيث يشاء"[٦٤٩].

أما أمثال ابن بطوطة وهو (الفقيه) و(العالم)، فإنه ينزل عادة عند قاضي المدينة، لذا فعندما عرف هؤلاء الشبان الوسطاء بحال ابن بطوطة، قالوا "هذا نزيل القاضي"، وكان في إحدى المراكب رجلٌ من أصحاب القاضي، فلما علم بأمر ابن بطوطة بعث إليه بأحد طلبة العلم، فاصطحبوه إلى القاضي الذي رافقه في إقامته.

ولم يقتصر ابن بطوطة على إعطائنا وصفاً دقيقاً للحالة التجارية والسكانية والمذهبية لأهل مقدشو، بل عرفنا على أنماط سلوكهم الاجتماعي، وعاداتهم وتقاليدهم، وعلى طريقتهم في إلقاء التحية وفي الضيافة وفي الطعام، كما عرفنا على علاقة الرعية بالملك وموقع الحاكم من رعيته وحاشيته، وطريقتهم في التقاضي والحكم، كل ذلك بصفحات قليلة مكثفة.

لقد عرف ابن بطوطة من القاضي أن من عاداتهم أن ينزل الضيف المهم، في ضيافتهم، ولا سيما كحال ابن بطوطة: فقيه وحاج للديار المقدسة، حيث بادره القاضي بالقول "إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان"، كما علم أن من عاداتهم "أن يقولوا للسلطان: الشيخ" وكان حينها هو "أبو بكر ابن الشيخ عمر، وهو في الأصل من البرابرة، وكلامه بالمقدشي، ويعرف اللسان العربي"[٦٥٠]. وكان من عادة السلطان-الشيخ أن يسأل عند قدوم أي مركب إلى مرسى مقدشو، عن صاحبه وما يحمل ومن قدم فيه من التجار، وذلك ليعرف إن كان هناك "من استحق أن ينزل عنده أنزله".

وعندما وصل ابن بطوطة "دار السلطان" لاحظ حرصهم على إبلاغ السلطان-الشيخ على أنه آتٍ "من أرض الحجاز"، ولعل هذا الإعلان مصدره الأهمية التي يولونها لمن زار أماكن الحجيج الإسلامية المقدسة في الحجاز!. ولاحظ أن من عادات استقبالهم لضيف السلطان أنهم عندما كانوا أمام دار السلطان أتى أحد الرجال "بطبق فيه أوراق التنبول والفلفل، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفلفل، وأعطى للقاضي كذلك، وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق"[٦٥١].

ثم أنزلوا ابن بطوطة بـ(دار الطلبة) وهي المخصصة لضيافة الطلبة، وكانت "مفروشة مرتبة"، ولاحظ أن هناك وزيراً مكلفاً بالضيوف، وهو الذي دخل على ابن بطوطة، وعندما أتى بالطعام، ليقول له: "مولانا يسلم عليكم، ويقول لكم قدمتم خير مقدم".

أما عن طعامهم، فقد قدموا لابن بطوطة "الأرز المطبوخ بالسمن.. في صحفة خشب كبيرة"، ووضعوا فوقه ما يسمونه "الكوشان" وهو "الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول"، ومن وجباتهم طبخ "الموز قبل نضجه في اللبن، ويجعلونه في صحفة، ويجعلون اللبن المروب في صحفة، ويجعلون عليه الليمون.. وعناقيد الفلفل.. والزنجبيل الأخضر والعنب"، ومن عاداتهم "إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح

---

(٦٤٩) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٦٥٠) المصدر نفسه، ص١٩٤.
(٦٥١) المصدر نفسه، ص١٩٥.

والمخللات"[٦٥٢].

وهم يقدمون الطعام "ثلاث مرات في اليوم"، ولاحظ إفراطهم الشديد في الطعام لدرجة "أن الواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة"[٦٥٣].

ويتألف لباس أهل مقدشو من "فوطة خز (حرير) يشدها الإنسان في وسطه" وذلك عوضاً عن السراويل التي لا يعرفونها، وأيضاً "دراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي مبطنة، وعمامة مصرية معلمة"[٦٥٤]، وقد أهدوه طقماً منها.

ويظهر من وصف ابن بطوطة لصلاته في الجامع، وقد تصادفت مع صلاة الجمعة، أن السلطان - الشيخ يحرص على الصلاة في الجامع مع الأهالي، في مقصورة في المسجد، ليلتقي برعيته وبضيوفه، فلاحظ أنه عندما انتهوا من صلاتهم خرج السلطان معتماً "بعمامة كبيرة" فخاطب ابن بطوطة محيياً "قدمت خير مقدم وشرّفت بلادنا وآنستنا"، ثم وقف السلطان على قبر والده المنصوب في ساحة الجامع "فقرأ له ودعا" وسلم عليه الأمراء والوزراء والأجناد؛ وكان من عاداتهم في إلقاء التحية أن يضعوا سبابتهم على الأرض ثم يرفعونها فوق رؤوسهم "كعادة أهل اليمن".

وشاهد عند خروجهم من الجامع، أن السلطان بعد لبس نعليه "أمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل، وتوجه إلى منزله ماشياً.. ومشى الناس كلهم حفاة"، وكأنه لا يجوز لأحد أن ينتعل إذا كان في صحبة السلطان دون أن يأتيه أمره منه، وأما الرعية فتمشي حافية حوله احتراماً وتبجيلاً!. على أن تضرب بين يديه عند مغادرته الجامع أو توديعه للناس "الطبول والأبواق والأنفار"، وعند ضربها لا يجوز "أن يتحرك أحد، ولا يتزحزح من مقامه، ومن كان ماشياً وقف"[٦٥٥].

أما عن مراسيم (البلاط) فيحدثنا ابن بطوطة، أن السلطان أثناء اجتماعه بالحاشية لـ(المشورة) يدخل إلى قاعة المشورة، يجلس في مكان خاص به، ثم يقعد "الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هناك، ويفرش القاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه، والفقهاء والشرفاء معه"[٦٥٦]. ويدوم الاجتماع إلى أن تحين صلاة العصر.

أما في يوم السبت فتعقد المشورة "وذلك بأن يجلس الشيخ بمجلسه، ويجلس القاضي إلى يساره، ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه، ويدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه، وإذا كان هناك ضيوفاً جلسوا عن يمينه، ثم يدخل المشايخ والحجاج، بعدها يأتي الوزراء والأمراء، ثم وجوه الأجناد، فيسلمون وينصرفون"[٦٥٧].

ويخضع حفل طعام السلطان مع ضيوفه لطقس خاص تراعى فيه التراتبية في موقع الجلوس، وفي القرب والبعد من السلطان، فالجلوس مع السلطان-الشيخ لا يحظى به إلاّ الأقربون، إذ "يأكل بين يدي (أي الشيخ): القاضي والشرفاء ومن كان قاعداً في المجلس، ويأكل الشيخ معهم، وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معه"، أما سائر الناس فيأكلون بـ"دار الطعام"[٦٥٨].

أما بشأن نظام التقاضي، فهناك القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء، يقومون بوظيفة "الفصل بين الناس وأهل الشكايات"، فالقضايا المتعلقة بـ"الأحكام الشرعية" تولى القاضي الحكم بها "وما كان من سوى ذلك حكم فيها أهل الشورى، وهم الوزراء والأمراء"، والقضايا الخطيرة التي تحتاج "إلى مشاورة

---

(٦٥٢) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٦٥٣) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٦٥٤) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٦٥٥) المصدر نفسه، ص١٩٥.
(٦٥٦) المصدر نفسه، ص١٩٦.
(٦٥٧) المصدر نفسه، ص١٩٦.
(٦٥٨) المصدر نفسه، ص١٩٦ - ١٩٧.

السلطان" يكتبون له بها "فيخرج لهم الجواب من حينه"[٦٥٩].

ونلمس من خلال سرد "ابن بطوطة" الإثنوغرافي، أن "الدولة" أو حاكميها، لم تنفصل بعد عن "الرعية" إلا بفارق الدرجة، والشيخ-السلطان شبيه بشيخ العشيرة المتعاظمة القوة والانتشار أكثر من كونه ملكاً أو سلطاناً. كما يمكن اعتبار مقدشو امتداداً لسلطة مملكة (أوفات) الحبشية الإسلامية.

أما ياقوت الحموي فيشير إلى أن أهل مقدشو "مسلمون لا سلطان لهم، لكل طائفة شيخ"[٦٦٠]، وهم من البربر غير الذين في المغرب، كما يشير في مكان آخر إلى أن مقدشو كانت سوقاً مهمة لتصدير عود الصندل والأبانوس والعنبر والعاج[٦٦١]. كما ينبهنا ابن سعيد المغربي إلى أهميتها بوصفه لها "مدينة الإسلام المشهورة"، وأن أهل بربرة قد "أسلم أكثرهم"، وأن أول مدنهم على ساحل البحر الهندي من الجنوب مدينة (قرقونة Guardafui)، وشرقيها من مدنهم على جوف مرتفع: برمة[٦٦٢]. ويتحدث المسعودي الذي زار سواحل شرق إفريقيا عن ما يسميه (الخليج البربري) بما فيه من سكان وتجارة، حيث يقطن فيه "أنواع من السودان، واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وباضع (مصوع)، وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمر الحمر وهي لباسهم، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام، وهي أكبر ما يكون من جلود النمور وأحسنها للسروج"[٦٦٣]. ولقد وضع ابن سعيد المغربي نهر مقدشو كحد فاصل بين بلاد بربرة وبلاد الزنج، ولعل المقصود بنهر مقدشو وبمصبه الذي تحدث عنه ابن سعيد هو نهر (جوب Djaub) الذي يختلط عنده بنهر (دنبوق Denog)، ويقول عن نهر مقدشو ذاك (أي نهر جوب) "إنه ينحدر على شرقي بربرا.. ثم ينحدر على شرقي مقدشو.... وينصب في بحر الهند"[٦٦٤].

ويحدثنا الإدريسي ومن بعده ابن سعيد عن حال المدن والقرى الأخرى الواقعة في نطاق بلاد بربرة، والتي تقع في جنوبها ما يسميه العرب "سفالة الزنج"، فيذكر الإدريسي أن بلاد بربرة تتصل بأرض الحبشة على البحر وتحت طاعة الحبشة "وهي قرى متصلة وأولها قرية (جوة)، ومنها إلى (ياقطي) ستة أيام، ومنها إلى (بطا) البرية سبعة أيام"[٦٦٥]، ومدينة (بطا) بحرية خلف خط الاستواء، وفي شمالها على مائة ميل (باقصلي) وهي على جون، وفي شمالها (منقوبة)[٦٦٦] التي تبعد عن زالع خمسة أيام، وعن (أقنت) أربعة أيام، و(أقنت) مدينة صغيرة "ليست بكثيرة الخلق، وأكثرها خراب، وأهلها قليل، وأكثر أكلهم الذرة والشعير، وسمكهم موجود.. وعامة أهلها يعيشون من لحوم الصدف المتكون في تلك الأقاصير من البحر"[٦٦٧].

أما المملكة الثانية في "الطراز الإسلامي" فهي مملكة (دوارد) مجاورة لأوفات، وطولها خمسة أيام، وأهلها مسلمون على مذهب أبي حنيفة، ويتعاملون في "الحديد" كوسيلة للتبادل، وتسمى الواحدة من قطع الحديد (حنكة)، وعساكرها تماثل عساكر أوفات[٦٦٨].

والثالثة مملكة (هدية)، طولها ثمانية أيام "وهي أكثر الجميع عسكراً" ويبدو أنها كانت مركزاً لتجارة

---

(٦٥٩) المصدر نفسه، ص١٩٧.
(٦٦٠) الحموي، معجم البلدان، المجلد الأول، المصدر السابق، ص٣٤٣.
(٦٦١) المصدر نفسه، المجلد٤، ص٦٠٢.
(٦٦٢) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨١-٨٢.
(٦٦٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، مطبعة السعادة، المكتبة التجارية، مصر ١٩٦٤، ص٤.
(٦٦٤) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨١.
(٦٦٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٤٧.
(٦٦٦) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٩٨ - ٩٩.
(٦٦٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٤٦.
(٦٦٨) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٥. وراجع أيضاً القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٣٢٦ - ٣٢٧.

الرقيق الخصيان، إذ إن إليها "يجلب الخصيان الخدام الذين يُعرفون في أرض مصر بالطواشية"، وذلك لأن صاحب أمهرة أي ملك الحبشة كما يقول المقريزي يمنع من خصي العبيد، لهذا تأتي التجار بهؤلاء الرقيق إلى مدينة (وستلو) التي يقول عنها المقريزي "وأهلها همج لا دين لهم فتخصى بها العبيد، فإنه لا يوافق على ذلك في جميع بلاد الحبشة سواهم"[٦٦٩]، وعلى هذا فإن الخصاء لا توافق عليه الممالك المسيحية في الحبشة أو ممالك الإسلام فيها، إنما تجري في بلد أهله "لا دين لهم" كما يذهب المقريزي، أو كما يقول القلقشندي "أن الخدام تجلب إليهم من بلاد الكفار" ويعني ذلك مدينة "وستلو" أو "وشلو" الوثنية، لذا فإن "التجار إذا اشتروا العبيد يخرجون بهم إلى (وشلو) فيخصونهم بها لأجل زيادة الثمن، ثم يحمل من خصي منهم إلى مدينة هدية"[٦٧٠]، ومنها يتم بيعهم أو تسفيرهم إلى الموانئ المجاورة، لذا ففي معرض ذكر الإدريسي لمدينة (زبيد) اليمنية يشير إلى أن أهل الحبشة "يجلبون رقيقهم إليها"[٦٧١].

وتلي مدينة هدية مملكة (شرحا) أو شرخا، طولها ثلاثة أيام، وعرضها أربعة أيام، وعساكرها ثلاثة آلاف فارس مع مثلهم رجّالة، وأهلها إسلام على مذهب الحنفية[٦٧٢]، أما مملكة (بالي) فهي أكثر بلاد الزيلع خصباً، ويستعملون في مبادلاتهم البقر[٦٧٣]، وأيضاً هناك مملكة (دارة) وهي أضعف ممالك الزيلع، وأقلها خيلاً ورجالاً، وعساكرها لا يزيد عن ألفي فارس[٦٧٤].

ويضم القلقشندي إلى تلك الممالك الإسلامية جزيرة دهلك "وهي جزيرة في بحر القلزم، مشهورة على طريق المسافرين في بحر عيذاب إلى اليمن" وملكها من "الحبش المسلمين وهو يداري صاحب اليمن"[٦٧٥]. ويقدم لنا القلقشندي مستعيناً بكتاب العمري "مسالك الأبصار"، صورة شاملة عن حال تلك الممالك، طبيعة الحكم وارتباطاته، خبراتها الزراعية والحيوانية والتجارية، أزياء أهلها وعاداتهم وطقوسهم.

فهذه الممالك أهلها مسلمون وكذلك ملوكهم، إلا أنهم متفرقون، لذا فإنهم على تبعية لملك الحبشة المسمى (الحطي) "فلو اتفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم، قدروا على مدافعة الحطي أو التماسك معه"، لذلك فإن الحطي سلطان أمحرا يضع عليهم "قطائع مقررة تحمل إليه كل سنة من القماش الحرير والكتان، مما يُجلب إليهم من مصر واليمن والعراق"[٦٧٦]، فالحطي على ذلك "سلطانهم الأكبر"، وإن جميع ملوكهم وإن كانوا يورثون الملك لكن "لا يستقلُّ منهم بالملك إلا ما أقامه سلطان أمحرا"، "فهم له كالنواب"[٦٧٧].

وعند هذه الممالك من المواشي: الخيل العراب والبغال والحمير والبقر والغنم بكثرة، والماعز قليل عندهم، ومن الحيوانات المتوحشة: البقر والحمر والغزلان والمها والإبل والكركدن والفهد والأسد والضبعة، وعندهم جواميس، ومن الطيور الدواجن: الدجاج لكنهم لا يأكلونه "استقذاراً له لأكله القمامات والزبالات"، أما دجاج الحبش فيأكلونه وهو عندهم مستطاب، وعندهم الحبوب والحنطة والشعير والذرة.. والخردل، ومن الفواكه: العنب الأسود والموز والرمان والتوت الأسود والجميز بكثرة، ومن الحمضيات: الأترج والليمون والنارنج، كما يوجد عندهم تين بري وخوخ، إلا أنهم لا يأكلون الأخير.

---

(٦٦٩) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٥.
(٦٧٠) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٢٨.
(٦٧١) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٩٣.
(٦٧٢) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٣٢٨. والمقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٦.
(٦٧٣) المقريزي، الإلمام..، المصدر السابق، ص٢٣٦. والقلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٣٢٩.
(٦٧٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٣٦.
(٦٧٥) المصدر نفسه، ص٣٣٢-٣٣٣.
(٦٧٦) المصدر نفسه، ص٣٣٢.
(٦٧٧) المصدر نفسه، ص٣٢٩-٣٣٠.

وعندهم فواكه لا مثيل لها في مصر وبلاد الشام والعراق، منها شجر يسمى (كشباد) ثمره أحمر وطعمه ماوي، وشجر يسمى (كوش) ثمره مستدير كالبرقوق.. وشجر يسمى (طانة) ثمره أصفر وهو حلو وله نواة تؤكل معه، وثمرة أخرى تسمى (أوجاق) طعمه حريف مع بعض الحلاوة، وعندهم من أنواع المقاتي: البطيخ الأخضر والخيار والقرع، ومن الخضراوات: اللوبياء والكرنب والباذنجان والشمار والصعتر والملوخيا البرية(٦٧٨).

أما لباسهم، فقد جرت عادة ملوكهم أن يعصبوا رؤوسهم بعصابة حرير، والأمراء والجند يعصبون رؤوسهم بعصائب من قطن، ويلبس الفقهاء العمائم، والعامة الكوفية البيضاء، ويتزر السلطان والجند بالثياب غير المخيطة، تتألف من قطعتين الأولى تشد الوسط، ويتزر بالأخرى "ويلبسون مع ذلك السراويل"، ولكن ماعداهم من الناس فيقتصرون "على شد الوسط والإتزار خاصة بلا لبس سراويل، وربما لبس القمصان منهم بعض الفقهاء وأرباب النعم"(٦٧٩)، ويركبون الخيل بغير سروج، وأما سلاحهم فيتألف بشكل رئيسي من الحراب والنشاب(٦٨٠).

د- سفالة / الزنج

شهد الساحل الشرقي لإفريقيا، الممتد من مقدشو حتى (سفالة Sofala)، نهضة مستمرة في المدن، إذ أن العرب كانوا يقدمون إليها دائماً بأعداد كبيرة بغية التجارة(٦٨١)، وكان لهم علاقات متشابكة مع هذا الساحل الطويل، فانعكست هذه الخبرة العملية على التأليف النظري ولا سيما على ضوء الرحلات التي قام بها رجال كبار إلى هذه المناطق، التي دونوا فيها ملاحظاتهم ومشاهداتهم عنها وعن أهلها، حيث توصلوا إلى معرفة الساحل الشرقي حتى مضيق موزمبيق وجزيرة مدغشقر التي سموها (جزيرة القمر)، وأدركوا اتصال المحيط الهندي بالمحيط الأطلسي على الحافة الجنوبية للقارة الإفريقية، قبل أن تعبر السفن البرتغالية رأس الرجاء الصالح بقرون عديدة، وقد أطلق الجغرافيون العرب اسم (ساحل الزنج) على ساحل زنجبار أو الساحل الكيني، المجاور الجنوبي لما سموه خليج بربرة التي تقع عليه مقدشو، ولعل أقدم إشارة خطية إلى صلة العرب بتلك المنطقة هو ما جاء في كتاب الدليل الملاحي للبحر الأرتيري عن تردد السفن العربية على الساحل الإفريقي، وعن اختلاط العرب وتزاوجهم من الإفريقيات(٦٨٢)، واختلطوا بالوطنيين من كلوة وزنجبار (= الزنج) وممباسة وغيرها.

---

(٦٧٨) المصدر نفسه، ص٣٣٣.
(٦٧٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، المصدر السابق، ص٣٣٤.
(٦٨٠) المصدر نفسه، ص٣٣٤.
(٦٨١) زيربو: تاريخ إفريقيا، قسم١، المصدر السابق، ص١٩٩.
(٦٨٢) يوسف فضل حسن: الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، (ندوة) العرب وإفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية،

ولقد وصلنا منذ القرن العاشر الميلادي (مدونات) هامة للغاية، لرحالة وتجار وبحارة كبار عن تلك البلاد، ومن بين أقدم تلك المغامرات البحرية والتجارية الكبيرة الصاخبة التي جرت للعرب على تلك السواحل، تبرز مدونة أحد نواخذة (أحد رؤساء السفن) البحر العظام (برزك بن شهريار) وهي "عجائب الهند" في القرن العاشر الميلادي، نقل فيها تجاربه ومشاهداته في البحار الشرقية بما فيها بحر الزنج وسواحله، كما قدم "سليمان التاجر" ورفيقه "أبو وهب" وصفاً حياً لحياة تلك السواحل ومدنها وجزرها والمحاصيل والسلع التجارية فيها، ودون وقائع هذه الرحلة مباشرة عن أصحابها، المؤرخ والجغرافي أبو زيد السيرافي الذي عاصر المسعودي والتقى به، وقد استفاد المسعودي وهو المفكر الموسوعي الذي جمع بين اهتمامه بالجغرافية والتاريخ والفلسفة والحضارة والأديان، وبين كونه رحالة، لقد استفاد من حكايات هؤلاء التجار والمغامرين والبحارة، ونقل الكثير عن أخبارهم، وأضافها إلى خبراته الشخصية المستقاة من رحلاته ذاتها. ولم تكن تلك الرحلات ومدوناتها سوى بداية تعاظم التأليف العربي حول هاتيك البلاد في شتى الاتجاهات والوجوه.

الموقع السلالي والجغرافي:

بدأ المسعودي حديثه، عن شرق إفريقيا بالأسطورة القديمة، عن الهجرات الأولى التي قام بها أبناء كوش، الذين استقروا بالنهاية في الجزء الشرقي الجنوبي وفي بلاد الزنج وسفالة، فمن أولاد كوش بن كنعان الذين تجاوزوا نيل مصر وتفرقوا، كان منهم هؤلاء الزنج، الذين تفرعوا إلى أنواع "المكبر والمشكر وبربر، وغيرهم من أنواع الزنج"[٦٨٣].

أما عن امتداد بلاد الزنج وحدودها، فقد أشار ابن سعيد المغربي -كما رأينا- إلى أن الحد الفاصل بين بلاد بربرة وبلاد الزنج هو مصب نهر مقديشو في المحيط الهندي الذي لعله نهر جوب، أما امتداد بلاد الزنج جنوباً فتصل إلى بلاد (سفالة) أو محاذاة جزيرة القمر (مدغشقر)، وهو ما يشمل كينيا الحالية وزنجبار وموزمبيق، فيشير المسعودي إلى أن "مساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل (لعله مصب نهر جوب) إلى بلاد سفالة والواق واق، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ"[٦٨٤].

وينبهنا المسعودي على كثرة وقوة الزنوج، وذلك لأن خليج الزنج "وما ذكرناه عن الماء الجاري إلى بحر الزنج" هو "فارق (فاصل) بين بلاد الزنج وبين أقاصي بلاد أجناس الأحباش، ولولا ذلك الخليج ومفاوز من رمال ودهاك لم يكن للحبشة مقام في ديارهم من أنواع الزنج لكثرتها وبطشها"[٦٨٥]، وسكنت أجناس الزنج "في ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة"[٦٨٦].

ويعتبر المغربي أن مدينة (ملندة Malindi) "أول بلاد الزنج"[٦٨٧]، وقاعدة بلادهم "سفالة الزنج" التي موقعها جنوب خط الاستواء[٦٨٨]، أما آخر مدينة في بلاد الزنج فهي عند القزويني مدينة (سُفالة Sofala)[٦٨٩].

بحر الزنج وجزره:

ولقد تعرَّف العرب على سواحل بلاد الزنج (سواحل زنجبار وموزمبيق) ومدنها الساحلية، كما تعرَّفوا

ط٢، بيروت ١٩٧٢، ص٣٢.

(٦٨٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، مطبعة السعادة، المكتبة التجارية، ط٤، مصر ١٩٦٤، ص٥.

(٦٨٤) المصدر نفسه، ص٦.

(٦٨٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٠١.

(٦٨٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٦.

(٦٨٧) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٦٨٨) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٣٣٧.

(٦٨٩) القزويني، المصدر السابق، ص٥٩.

على البحار التي تحف بها، وبقيت علاقاتها في الداخل الإفريقي محدودة للغاية، والتي كانت تتم عن طريق الوسطاء من (الزنج) تسهيلاً للمقايضة التجارية.

فاخترقت سفنهم البحار طلباً لشتى العلاقات وفي مقدمتها التجارة، حيث لعبوا دور الوسيط التجاري ما بين هذه البلاد والعالم الخارجي: (دار الإسلام) والصين والهند، وكانت السفينة هي وسيلة الاتصال الأولى، لهذا نجد أن ابن بطوطة اعتمد في انتقاله من مقدشو إلى "كلوة" وهي في بلاد الزنج على ركوب البحر، قاطعاً خليج بربرة الذي يحف ببلاد الصومال الحالية إلى بحر الزنج (خليج موزمبيق Mozambique)، وهو أمر فعله قبله آلاف التجار والمغامرون والمهاجرون والعلماء بما فيهم سليمان التاجر وبرزك بن شهريار والمسعودي وابن فاطمة، ويحدثنا المسعودي عن مغامراته في العديد من البحار، ليقارنها ببحر الزنج فيقول "وقد ركبت عدد من البحار، كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن، وأصابني فيها الأهوال، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج، وفيه السمك المعروف بالأورال.. (الذي) طوله مائة ذراع"[٦٩٠].

ولقد "أجمع البحريون" كما يقول البحار الكبير برزك "على أن بحر بربرا وهو سبعمائة فرسخ، هو في الطريق إلى بلاد الزنج، من أعظم البحار قصراً، وللزنج في هذا البحر جزائر عظيمة من جانب واحد، والماء فيه.. يجري جرياناً شديداً، والمركب يقطعه في سبعة أيام"[٦٩١]. ويصدَّر من هذا البحر ومن سواحله الزنجية، و"يحمل الذبل من ظهور السلاحف، وهي التي تتخذ منها الأمشاط والقرون"[٦٩٢].

ويشير ياقوت إلى أن "من سواحلهم يُلتقط العنبر، ولا يوجد في غير سواحلهم، وهم أضيق الناس عيشاً... وأنهم يرون القطب الجنوبي عالياً يقارب أن يتوسط السماء"[٦٩٣]. وبحر الزنج كبحر القلزم تشتهر سواحله وجزره بالعنبر، الذي "تقذفه الأمواج.. ومبدأه من بحر الهند... غير أن أجوده ما وقع إلى بربرا، وحدود بلاد الزنج والشحر وما والاها، وهو البيض المدور الأزرق"[٦٩٤].

ولعب المسلمون الدور الأساسي في تجارة شرقي إفريقيا بالعالم الخارجي، كما قلنا، وكانت تجارة عامرة للغاية، ولا أدل على عظمة هذه التجارة مما ذكره برزك من أن حوالي ألف سفينة غادرت عُمان سعياً وراء منتجات هذا الساحل الإفريقي الشرقي، وكان العمانيون كما يقول المسعودي "يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبيلو في بحر الزنج"[٦٩٥]، لهذا تتجمع السلع من البلاد كافة على المحيط الهندي في عُمان، بما فيها البضائع الصادرة أو الواردة إلى بلاد الزنج وإفريقيا، ويشير المقدسي إلى قائمة هذه البضائع بقوله "فإلى عُمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران، والبقم والساج والسلسلم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والنارجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل، وغير ذلك، وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدروق والحبش والخدم وجلود النمور"[٦٩٦].

ويشير الإدريسي إلى سيطرة السفن العربية على خطوط التجارة البحرية هذه بقوله "وليس للزنج مراكب يسافرون فيها، وإنما تدخل المراكب من عُمان وغيرها إلى جزائر الزنج فيبيعون بها متاعهم، ويشترون متاع

---

(٦٩٠) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص١٠٨.
(٦٩١) برزك بن شهريار الناخذاة الرامهرمزي: كتاب عجائب الهند-برها وبحرها وجزائرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي-أبو ظبي ٢٠٠٠، ص١١٢.
(٦٩٢) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٤.
(٦٩٣) الحموي، المجلد الأول، ص٣٤٣.
(٦٩٤) أبو زيد الحسن السيرافي: رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي-أبو ظبي ١٩٩٩، ص٨٩.
(٦٩٥) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص١٠٧.
(٦٩٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص٩٧.

الزنج"[٦٩٧]. كما يروي المسعودي أن الذهب والعاج وعظام السلاحف وقرون الخرتيت والرقيق كانت تنقل كلها إلى آسيا الشرقية عن طريق سفن عربية متقنة الصنع عن طريق عُمان. وقد أظهر مصنفونا أن مادتي الذهب والعاج سيطرتا على تجارة (سفالة)، وكان مصدر الذهب (تانجانيقا Katanga) و(مونوموتابا Monomatapa)، كما سيطر على تجارة بلاد الزنج الشمالية: الحديد والنحاس والعاج، وسنتعرف على خريطة توزع الثروات والسلع التجارية في بلاد سفالة الزنج عند تعرضنا لمدنها وأصقاعها المختلفة.

ويلفت المسعودي نظرنا إلى الفارق بين السفن والمراكب المستعملة في البحر المتوسط ومثيلها في المحيط الهندي، بما فيه ما سموه البحر الحبشي أو بحر الزنج، إذ إن الأولى تستعمل المسامير بينما الثانية تستعمل الليف "لأن مراكب البحر الرومي (المتوسط) كلها ذات مسامير، ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها الحديد لأن ماء البحر (الحبشي) يذيب الحديد... فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها وطليت بالشحوم"[٦٩٨].

وجزائر الزنج كما يقول المسعودي (لا تحصى)، وتقف جزيرة (قنبلو) في مقدمة تلك الجزر التي بينها وبين "ساحل الزنج نحو يوم أو يومين، وفيها خلائق من المسلمين"[٦٩٩]. ويحدثنا ياقوت الحموي عن غنى هذه الجزر والسواحل بالأشجار، حيث لبحر الزنج "جزائر كثيرة كبيرة واسعة فيها غياض كثيرة وأشجار، لكنها غير ذات أثمار، وإنما هي نحو شجر الأبنوس والصندل والساج"[٧٠٠]، وأهم هذه الجزر (قنبلو) التي يعتقد البعض أنها جزيرة (زنجبار Zanzibar) وهناك أيضاً (ممبسة Momibasa) التي فضّل الكثير من المهاجرين العرب الاستيطان فيها على الاستيطان في الداخل تجنباً لاحتمال غارات السكان المحليين في الداخل.

يتحدث المسعودي عن جزيرة (قنبلو) باعتبارها "جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين، إلا أن لغتهم زنجية، غلبوا على هذه الجزيرة"[٧٠١]. ويشير الإدريسي في القرن (١٢م) إلى كثرة الأشجار فيها، وإلى جبالها الوعرة، وكثرة دوابها، وعينها الخرّارة التي تصب في البحر[٧٠٢]. بينما يشير إليها ابن سعيد أنها "كانت عامرة، وهي الآن خراب"، تقتصر وظيفتها على أنه "يأوي إليها من أخرم من المراكب واحتاج إلى الماء والحطب"[٧٠٣]، ويعتقد بعض الباحثين أنها (أنجوان) الحالية. وهناك جزيرة ممبسة وهي الآن ميناء كينيا، التي تبعد -حسب الإدريسي- مسافة "يومين عن (ملندة Malindi) على الساحل، ويتصف أهلها بأنهم "محترفون باستخراج الحديد من معدنه، والصيد للنمور... وهي على ضفة خور كبير (خليج) تدخله المراكب مسيرة يومين، وليس عليه شيء من العمارة"[٧٠٤].

وتتصف كلاب أهل هذه الجزيرة بالشراسة حيث "تغلب كل الذئاب وجملة السباع"، ويطلق عليها ابن سعيد اسم (ممبصة) التي في البحر، وغربيها خور كبير تدخله السفن، ويمتد ثلاثة أميال، ويسكنها كما يقول "ملوك السحرة" أو زعماء السحرة الذين تشتهر بهم مدينة ملندة، وجبلها الذي يسمي [٧٠٥] صورة الشعوب السوداء –م١٧ه جبل (رابي Rabaye) والذي تقابله جزيرة (بمبا Pamba)، وعندما زارها ابن بطوطة وجدها كبيرة تبعد عن

---

(٦٩٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٦٠-٦١.
(٦٩٨) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص١٦٣.
(٦٩٩) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧.
(٧٠٠) الحموي، المجلد الأول، ص٣٤٣.
(٧٠١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، المصدر السابق، ص٩٨.
(٧٠٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٤٩.
(٧٠٣) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٩٩.
(٧٠٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٥٩.
(٧٠٥) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٢-٨٣.

"أرض السواحل مسيرة يومين في البحر" وفيها الأشجار الكثيرة، حيث يوجد فيها "الموز والليمون والأترج (الكباد)، ولهم فاكهة يسمونها الجمون، وهي شبه الزيتون.. لكنها شديدة الحلاوة"[٧٠٦]، إلا أنهم يفتقرون إلى الزراعات، أي الحبوب، فيأتون بها (من السواحل)، ويعتمدون في طعامهم غالباً على "الموز والسمك". ولا يبخل عليهم ابن بطوطة في المديح، على الرغم من أنه وجد "الناس يمشون حفاة الأقدام"، وأنهم "شافعية المذهب، أهل دين وعفاف وصلاح، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان"[٧٠٧].

ويتحدث الإدريسي عن جزيرة (بذونة) فيصفها بأنها "قليلة العمارة، وحشة المساكن، قذرة البقاع"، أما عيش أهلها فيعتمد "على السمك ولحوم الصدف والضفادع والأحناش والفيران والورل والحيوان الذي يسمى أم حبين، وغير ذلك من الحيوانات.. وهم في طاعة الزنج"[٧٠٨]، ويعتمدون في صيدهم البحري على "شباك صغار يصنعونها من النبات ويربطونها بأرجلهم" فإذا أحسوا بالحسوت دخل شباكهم جذبوها إليهم"، ورغم خبرتهم في الصيد إلا أنهم "في فاقة وفقر". كما يحدثنا القزويني عن جزيرة "النجوبة" بأرض الزنج، يصفها بـ"العظيمة" بها "سرير ملك الزنج" وهي محطة للتجار حيث "تقصدها المراكب من جميع النواحي، ومن عجائب كرومها أنها تطعم في كل سنة ثلاث مرات"[٧٠٩].

ولقد ركب ابن بطوطة البحر إلى مدينة (كلوة Kilwa) التي كانت قد بلغت ذروة نشاطها في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، حيث سيطرت من موقعها على سواحل كينيا الحالية وعلى ذهب سفالا ونحاسها لارتباطها بالطرق المفضية إلى تانيك المادتين[٧١٠]، فوجد أكثر أهلها "زنوج مستحكمو السواد" ولهم وشم على وجوههم، أو كما يقول ابن بطوطة "شرطات في وجوههم"[٧١١]، وأغلبهم من أصول زنجية من (الليميين من خبادة)، إلا أن هذا لا يقلل بنظره من قيمتهم ومن قيمة مدينتهم المزدهرة، فأهلها "أهل جهاد لأنهم في بر واحد مع كفار الزنوج (أي الوثنيين)، والغالب عليهم الدين والصلاح، وهم شافعية المذهب"[٧١٢]، أما مدينتهم فيقول عنها "هي مدينة عظيمة ساحلية"، ثم يردف قائلاً:إنها "أحسن المدن وأتقنها عمارة، وكلها بالخشب، وسقف بيوتها الديس"[٧١٣]. وينبهنا إلى صلة المدينة بذهب سوفالة وبالأخص الذي يؤتى من مدينة يسميها "يوفي"، فيشير إلى أنه قد ذكر له بعض التجار "أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا، وأن بين سفالة ويوفى من بلاد الليميين مسيرة شهر، ومن يوفي يؤتى بالتبر إلى سفالة"[٧١٤].

ولا يخفي إعجابه بالسلوك الأخلاقي والسياسي والإداري لسلطان كلوة أبو المظفر حسن المكنى: أبا المواهب "لكثرة مواهبه ومكارمه"، فهو يخصص خُمس غنائمه في مقتضى ما حدده الشرع الإسلامي "في كتاب الله"، فيعطي لذوي القربى نصيبهم، كما يتصدق على (الشرفاء) وهم الذين تربطهم صلة نسب بآل البيت، فكان "الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها، ورأيت عنده شرفاء الحجاز جماعة". ومن مكارم هذا السلطان أنه في يوم الجمعة وعند الخروج من الصلاة قاصداً إلى داره، إذا اعترضه الفقراء أعطاهم ما يطلبون

---

(٧٠٦) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص١٩٧.
(٧٠٧) المصدر نفسه، ص١٩٧.
(٧٠٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٥٨-٥٩.
(٧٠٩) القزويني، المصدر السابق، ص٥٩.
(٧١٠) زيربو، تاريخ إفريقيا، ق١، ص٣٢٥.
(٧١١) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص١٩٧.
(٧١٢) المصدر نفسه، ص١٩٨.
(٧١٣) المصدر نفسه، ص١٩٨.
(٧١٤) المصدر نفسه، ص١٩٧.

"ومعظم عطاياهم من العاج، وقلما يعطون الذهب"، ويروي ابن بطوطة نادرة عن كرم هذا السلطان، وعن مدى تواضعه ورحمته برعيته، ومفادها أن السلطان اعترضه بعد رجوعه من الجامع أحد الفقراء من اليمن، الذي تمادى في طلبه، حتى أنه طلب من السلطان ثيابه التي يلبسها، فرجع السلطان إلى المسجد ودخل بيت الخطيب "فلبس ثياباً سواها، وخلع تلك الثياب، وقال للفقير: أدخل فخذها.. فعظم شكر الناس للسلطان"(٧١٥).

سفالة - الزنج (المدن، الثروات، السلطان، العقائد):

تختلط في وصف المصنفين العرب لبلاد الزنج وسفالة، الحديث عن المدن بالحديث عن طبوغرافية الثروات المعدنية والنباتية والبحرية بالدراسة الإثنوغرافية لعادات الأهالي وعقائدهم وأشكال السلطان المعتمدة عندهم، وأبرز من تحدث في هذا المجال هو المسعودي، الذي صاغ مشهداً متكاملاً لهذه البلاد بسكانها وعقائدها، وعاداتها وأشكال المُلك فيها، كما قدم لنا الإدريسي معلومات هامة عن تلك البلاد، وأعقبه ابن سعيد المغربي الذي ورث معطيات رحلة ابن فاطمة، فقدم لنا معلومات تتصف بالجدة والأصالة، حيث سمحت له أن يحدد بكثير من الدقة مواقع المدن والجبال ومجاري الأنهار، اعتماداً على ابن فاطمة ولا سيما في معلومات التي قدمها عن جزيرة القمر (مدغشقر) وما حولها، وهي آخر النقاط المعلومة في ذلك الحين، ثم تأتينا مشاهدات ابن بطوطة وتصنيفات أبو الفداء والقزويني والقلقشندي والدمشقي، إذا دخلنا ساحل بحر الزنج وغادرنا الجزر إلى الداخل باتجاه الغرب، وغادرنا بربرة الحبشية "النطاق الإسلامي"، واتجهنا عمقاً نحو الجنوب إلى بلاد الزنج، نلاحظ أن مؤلفينا العرب نظروا إلى تلك الحدود الفاصلة بين مقدشو إلى سفالة (أوسوفالا)، وبمحاذاتها جزيرة (مدغشقر Madagascar) وجبل القمر أو جبل (الندامة Cap Corrientes)، على أنها دوائر إقليمية متعاقبة، المحطة الأولى الكبرى وهي سفالة-الزنج، قسموها إلى منطقة شمالية، وهي بلاد الزنج، وهذه تطابق بلاد زنجبار أو بلاد كينيا الحالية، وبعدها المنطقة الثانية سفالة، وتطابق بلاد موزمبيق الحالية، وبين الزنج وسفالة في الشرق "مفازة"(٧١٦)، ثم تأتي الدائرة الثالثة الجنوبية، وتضم جزيرة القمر وما حولها، والتي تقف برأيهم على تخوم العالم غير المعمور الغامضة.

وإذا اتجهنا من الشمال إلى الجنوب لنتعرف على بلاد الزنج، نصادف المناطق المتاخمة لبلاد بربرة، فنصادف في المحطات الأول بلدة يسميها الإدريسي (قرنونة) "وهي قرية كبيرة مسكونة.. وأهلها يأكلون الضفادع والأحناش، وأشياء من القاذورات التي يعاف الناس أكلها، وهذه الأرض تليها بلاد الزنج"(٧١٧)، ويقول الإدريسي عن سكان أهل (قرنونة) إضافة إلى جارتها (بذونة) أنهم "كفرة"(٧١٨) وهذا النعت غالباً ما يعادل عند مؤلفينا الديانة الوثنية، ومدينة (بذونة) "قليلة العمارة.. وحشة المساكن قذرة البقاع" ويعيش أهلها على "السمك ولحوم الصدف والضفادع والأحناش والفيران والورل والحيوان الذي يسمى أم حبين، وغير ذلك من الحيوانات التي لا تؤكل"(٧١٩)، وهم لا يعتمدون في صيدهم على المراكب بل "يصيدون عوماً" ويستخدمون في ذلك -كما نوهنا سابقاً- "شباك صغار يصنعونها من النبات يربطونها بأرجلهم"، فإذا أحسوا بأن الحوت دخل شباكهم يجذبون تلك الشباك بأيديهم، ورغم هذا الصيد "فهم في فاقة" وعلى "طاعة

(٧١٥) المصدر نفسه، ص١٩٨.

(٧١٦) أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، ص١٥٢.

(٧١٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٨٤-٨٥.

(٧١٨) المصدر نفسه، ص٨٥.

(٧١٩) المصدر نفسه، ص٥٨.

الزنج"[٧٢٠].

وهكذا فكلما تعمقنا جنوباً في بلاد الزنج وابتعدنا عن الساحل إلى الداخل والجنوب، تصبح الأحوال أكثر تعقيداً وأقل ألفة واعتيادية، ويبرز التنوع والغريب والمفاجئ، فإذا تفحصنا وصفهم للمدن والقرى والمناطق الزنجية المختلفة، نلمس الاختلاف والتنوع في الثروة وطبيعة الطعام والأديان والأشكال الإدارية، فلا يوحدهم سوى خيط رفيع يرتبط بلونهم الجسدي وأشكال لباسهم وغلبة الديانة الوثنية عندهم، بالإضافة إلى ما يتصفون به من بأس وشجاعة ومقدرة على الخطابة، ولعل أقدم (الصور العامة) التي قدِّمت عن الزنج هي تلك الصورة التي لوَّنها (سليمان التاجر) ونقلها عنه السيرافي، حيث يقول "وبلاد الزنج واسعة"، أما نباتهم "فكل ما ينبت فيها من الذرة وهو أقواتهم، وقصب السكر، وسائر الشجر هو أسود عندهم"[٧٢١]. ولهم ملوك "يغزون بعضهم بعضاً"، يعتمدون على رجال "يعرفون بالمخزومين" نظراً لأنهم قد خزموا أنوفهم ووضعوا فيها حلق، توصَل بالسلاسل عند الحرب "ولم يزلَّ أحدهم عن مركزه دون أن يقتل" وهو من علائم الصلابة والشجاعة، وبالإضافة إلى فضيلة الشجاعة "لهم الخطب، فليس في الأمم كخطبائهم بألسنتهم".

وهناك قوم منهم يتعبدون الله "يستترون بجلد نمر أو جلد قرد"، فيجتمع بالناس منهم "يخطب عليهم ويذكرهم بالله جلَّ ذكره"، وينوه السيرافي أيضاً إلى أن للعرب عند الزنج (هيبة عظيمة) "فإن شاهدوا رجلاً عربياً سجدوا له، وقالوا: هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر، لجلالة التمر عندهم وفي قلوبهم"[٧٢٢]. فهذا التوقير للعرب مصدره الرئيسي ليس شعورهم بالنقص أمام العربي بقدر ما هو تعبير عن حاجتهم ورغبتهم في تذوق "ثمرة التمر" التي يصدرها العرب لهم.

ولقد أكمل المسعودي "هذه الصورة" ونماها في جميع الاتجاهات، ثم غذاها المؤلفون الذين أتوا بعده بالمعلومات المشاهدة والمتخيلة. حيث وصفهم المسعودي بأن لهم شفاهاً غليظة وحواجب ناتئة وشعور مفلفلة، ووصف عباداتهم الطوطمية أو عباداتهم للأسلاف وتقديسهم لملوكهم دون أي أثر للتبخيس أو التعالي، بل أظهر بعض الإعجاب في اشتراطهم استمرار الملك في حكمه بتمسكه بالعدل في أحكامه، رغم اعتقادهم بالأصل الإلهي للملك، فاسم الملك عندهم (وقيلمي) ومعناه "ابن الرب الكبير، لأنه اختاره لملكهم، والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حكمه وحاد عن الحق قتلوه وحرموا عقبه المُلك، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض.. ويسمون الخالق عز وجل: ملكنحو، وتفسيره: الرب الكبير"[٧٢٣]. فيضفي وصف المسعودي على الحاكم وعلى سلوك رعيته روح التمسك بالعدالة، وكراهية الظلم، على الرغم من إشارته إلى أن شريعتهم ليس لها أصل سماوي، إذ "ليس لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم ملكية (قوانين الحاكمين)، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم"[٧٢٤].

ويشيد بقوة ملوكهم، حيث "يركب وقليمي، وهو يملك ملوك سائر الزنوج، في ثلاثمائة ألف فارس"[٧٢٥]، وفضلاً عن ذلك يقر المسعودي بأن "الزنج أولو فصاحة في ألسنتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغبون في القرب من بارئهم، ويبعثوهم على طاعته"[٧٢٦]. ويعتمد الزنج

---

(٧٢٠) المصدر نفسه، ص٥٩.
(٧٢١) السيرافي، المصدر السابق، ص٨٦.
(٧٢٢) المصدر نفسه، ص٨٦-٨٧.
(٧٢٣) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٧٢٤) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص١٦-١٧.
(٧٢٥) المصدر نفسه، ص١٧.
(٧٢٦) المصدر نفسه، ص٦.

في قتالهم على (البقر) "فإنهم عليها يتقاتلون، بدلاً من الإبل والخيل، وهي... تجري كالخيل بسروج ولجم"[٧٢٧]، وبالإضافة إلى البقر فإن بلاد الزنج توجد فيها الفيلة "في نهاية الكثرة"، وفيلتهم "وحشية كلها غير مستأنسة" وهم لا يستعملونها بالحروب بل يقتلونها لاستغلال أنيابها في تجارتهم؛ ويعرّفنا على طريقتهم في الصيد التي تعتمد على الحيلة، وذلك "أنهم يطرحون لها نوعاً من ورق الشجر ولحائه وأغصانه.. في الماء" ثم يختفي الرجال الزنج، فإذا وردت الفيلة وشربت من ذلك الماء "حرقها وأسكرها فتقع.. فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها"، ويبيعونها إلى شتى البلدان "فمن أرضهم تجهّز أنياب الفيلة... فجهز الأكثر منها من بلاد عُمان إلى أرض الصين والهند"[٧٢٨]. ويغلب على استعمال "الهند للعاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد"، ويشير إلى ميزة فيلة الزنج على فيلة الهند، حيث "لا تعظم أنيابها بأرض السند والهند على حسب (أي بمقدار) ما تعظم بأرض الزنج"، أما الزنوج فإنهم لكثرة اصطيادهم للفيلة وجمعهم للعاج منها لا يستعملونها حلياً لهم، فهم غير "منتفعين بشيء من ذلك في آلاتها، وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلاً من الذهب والفضة"[٧٢٩]. ويكتفي الزنج من الفيلة استخدام جلودها وذلك "للدرق" أي الدروع وحسب.

وتتصف أرض الزنج رغم كثرة (الزرافة) فيها بخلوها من "الخيل والبغال والإبل لا يعرفونها، كذلك لا يعرفون الثلج والبرد"[٧٣٠]. ويلبس الزنج كما يقول القلقشندي "جلود النمور"[٧٣١]، ويعتمدون في أكلهم كما يقول المسعودي على "الموز وهي ببلادهم كثيرة.. والغالب على أقوات الزنج الذرة ونبت يقال له الكلاري يقلع من الأرض: كالكمأة والراسن، ومنه كثير في بلاد عدن وما يتصل بها من أرض اليمن... ومن غذائهم أيضاً: العسل واللحم"[٧٣٢]. ويشير الإدريسي "وجميع بلاد الزنج بضائعهم الحديد وجلود النمور الزنجية.. وليس عندهم دواب، وينقلون أمتعتهم على رؤوسهم"[٧٣٣].

ويفرق الدمشقي بين "الزنج الشماليين" الذين "لهم لسان فصاحة وبلاغة، حتى أن الخطب يضمنونها المواعظ المبكية، يخطبون بها في المحافل أيام أعيادهم ومشاهدهم"، وبين "الزنوج الواغلين في هذه النواحي" ويقصد الجنوب "ليس للكفار منهم ملة ولا نحلة وإنما لهم رسوم تضعها لهم ملوكهم"[٧٣٤]، وبعضهم في أقصى الجنوب "يأكلون الناس لشدة توحشهم"[٧٣٥].

ويعرفنا المصنفون العرب بما فيهم الإدريسي وابن سعيد المغربي على أهم المدن الزنجية (الزنجبارية) في ذلك الزمن، فهناك (ملندة Malindi) الساحلية، وهي على ضفة خور ماء عذب، وهي مدينة كبيرة كما يقول الإدريسي "وأهلها محترفون بالصيد براً وبحراً، يصيدون في البر النمور والذئاب.. وفي البحر ضروباً من الحيتان، فيملحونها ويتجرون بها"، كما يوجد عندهم "معدن الحديد يحتفرونه ويعملونه، وهو جلَّ مكسبهم

(٧٢٧) المصدر نفسه، ص١٧.

(٧٢٨) المصدر نفسه، ص١٦.

(٧٢٩) المصدر نفسه، ص٦.

(٧٣٠) المصدر نفسه، ص١٥.

(٧٣١) المصدر نفسه، ص٦. وأيضاً، القلقشندي، ج٥، المصدر السابق، ص٣٣٧.

(٧٣٢) القلقشندي، المصدر السابق، ص٣٣٧.

(٧٣٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، المصدر السابق، ص١٧.

(٧٣٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٦٠.

(٧٣٥) الدمشقي، المصدر السابق، ص٢٦٩.

وتجارتهم"[٧٣٦]. غير أن ابن سعيد -الذي يبدو أكثر دقة من الإدريسي- يتحدث عن أن هذا المعدن قرب جبل حراني الذي يقع شرق ملندة، إذ يعتبر أن من عجائب هذا الجبل الذي يدخل قسم منه في البحر "أن فيه معدن حديد يعم بلاد الزنج ويسافر (للتجارة) به إلى غيرها، وما في البر منه فيه حجر المغناطيس الجاذب للحديد"[٧٣٧]. ويقتبس أبو الفداء قول ابن سعيد المغربي، ويتحدث عن شهرة ملندة بالسحرة الزنج، إذ يزعم أهل ملندة أن هؤلاء السحرة "يسحرون الحيوان الضار حتى لا يضر إلاَّ لمن أرادوا ضره.. والسباع والنمور لا تعدوا عليهم"[٧٣٨]. ويشير الإدريسي في هذا السياق إلى مدينة (كوغة) التي تمارس نساؤها السحر "ولهن علم واسع ومهارة فائقة"[٧٣٩].

أما آخر بلاد الزنج عند الإدريسي فهي مدينة (البانس)، حيث تتصل بأرض سفالة بجانبها المليء بالذهب، وتتسم هذه المدينة بخصائص لافتة، فأهل هذه المدينة المزدحمة يعبدون ما يسمونه "الرجيم"، وهذا (الرجيم) "طبل كبير.. مجلَّد من وجه واحد، يربطون بذلك الجلد شريطاً يجذبونه به، فيكون له صوت هائل يُسمع على ثلاثة أميال"[٧٤٠].

يحكي لنا (برزك بن شهريار) حكاية عن بحارة وتجار عرب-مسلمين خرجوا من عُمان على مركب يريدون (قنبلة) في سنة (عشر وثلاثمائة هـ-٩١٧م) "فعصفت الريح وطرحت المركب إلى سفالة الزنج" فأيقنوا بالهلاك، فحملهم القوم هناك إلى ملكهم الذي كان "غلاماً جميل الوجه من بين الزنج حسن الخلق، فسألنا عن أخبارنا فعرفناه إنا قد قصدنا بلده". وتدور الحكاية بين هؤلاء البحارة وهذا الملك الشاب الجميل الحسن الخلق، فتمتلئ حوادثها بالرموز والدلالات التي تتعدى في معانيها العلاقات الفردية بين أبطالها الفرديين، إلى العلاقة بين حضارتين ممثلة بهؤلاء الأشخاص، لتعكس رؤية كل منهما للأخرى، ولتعكس أيضاً رؤية الراوي -الممثل للحضارة الإسلامية- المنفتحة على الآخر، والمليئة بالنزعة النسبية الإنسانية، والاعتراف بمكانة الآخر وأحياناً بتفوقه في بعض الجوانب.

فسألهم الملك الزنجي عن أخبارهم، ورغم كذبهم وانكشاف هذا الكذب له، سمح لهم بالتسوق في بلده، فيروي الناخذاة "وتسوقنا أطيب تسويق، ولم يلزمنا ضريبة ولا مؤنة إلا ما أهديناه له، وأهدى إلينا مثله وأكثر منه، وأقمنا في بلاده شهور"[٧٤١]، وهكذا عاملهم الملك بالرحمة وكرم ضيافة خارق للعادة، وختم عطفه وتسامحه معهم أنهم حين عزموا على الرحيل "قام ومشى معنا إلى الساحل ومع جماعة من أصحابه وغلمانه... وسار معنا إلى المركب، وصعد هو وسبعة أنفس من وجوه غلمانه"، وفي مقابل كرم نفس هذا الأمير وحمايته لهم وعطفه عليهم، كان الأمر في جانب هؤلاء التجار والبحارة العرب يسير بطريقة مختلفة وبنيات مختلفة، فقد سولت لهم أنفسهم الطماعة مكافأة هذا الأمير بالغدر فما فكروا إلاَّ بمقدار ما يحصلون من مال إذا استرقوهم، فيروي الناخذاة (إسمعيلويه) أنه لما صار الأمير وجماعته في المركب "قلت في نفسي هذا الملك يساوي في عُمان.. السبعمائة دينار"، فسولت له نفسه طمعاً أن يأخذ الأمير وحاشيته ليبيعهم عبيداً في عُمان، حيث طغت نزعة التجارة وأطماعها على ماعداها من نوازع إنسانية، فقادوا الملك وأصحابه معهم، ولم يأبهوا لما قاله الملك لهم بعد أن فطن لغدرهم به "أحسنت إليكم وما أخذت منكم شيئاً وجئت معكم لأودعكم.. فاقضوا حقي بأن تردوني إلى بلدي".

---

(٧٣٦) المصدر نفسه، ص٢٦٩.
(٧٣٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٥٩.
(٧٣٨) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٣.
(٧٣٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٥٩، وابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٣. وأبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، ص١٥٢.
(٧٤٠) الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن ١٨٩٤، (صورة في المكتبة الوطنية في حلب)، ص١٠.
(٧٤١) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٦٠.

وهكذا باعوا الملك "مع سائر أصحابه في جملة الرقيق"، ثم دارت الأيام والسنون، فاتجهوا مرة أخرى إلى قنبلة، فحملتهم الريح مرة أخرى إلى "سفالة الزنج"، فأحاطهم الزنج وساقوهم إلى دار الملك، وهم "لم يكلم أحد صاحبه من شدة الرعب"، ولما دخلوا القصر فوجئوا "وإذ بذلك الملك بعينه جالس على سرير" فخروا ساجدين له خائري القوى، فما كان من الملك إلاَّ أن قال لهم "ارفعوا رؤوسكم، فقد أمنتكم على أنفسكم وأموالكم"، ثم سمح لهم بدخول بلده والتسوق كما يشاؤون، وبعد أن استقروا حكى لهم كيف استطاع العودة إلى بلده بعد أن باعوه لأحد الرجال من البصرة، فعرف في البصرة الإسلام "وتعلمت بها الصلاة والصيام وشيئاً من القرآن، ثم اشتراه سيد آخر فذهب إلى بغداد، وشاهد "الخليفة المقتدر"، ثم غافل سيده وذهب مع قافلة الحج إلى مكة، وهناك قام بمناسك الحج، ولما خاف العودة إلى سيده، قصد بلاده التي وصل إليها بعد أن ذاق الأهوال "فوجدت أهلي على ما تركتهم، غير أنهم مقيمون على بساط الحزن، فأعدت عليهم وقتي.. وفرحوا، ودخلوا معي فيما دخلت فيه من دين الإسلام، وعدت إلى ملكي"، حيث هان على الملك عذاب الغربة والعبودية، وعذاب غدر البحارة التجار من العرب المسلمين أمام ما كسبه من إيمان، إذ قال لهم "وأنا مسرور لما منَّ الله علي به، وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان، ومعرفة الصلاة والصيام والحج، والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج، وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني"[٧٤٢].

ويبلغ الملك في النبل ذروته، وإحساس التجار والبحارة المسلمين العرب بالصَغار عند لحظة الوداع، فالملك ينظر إليهم بأسف لافتقارهم إلى الأمانة والنخوة، وهو يحس بتأنيب الضمير لأنه ترك سيده الذي اشتراه، ويريد أن يعوضه على خسارته، فيقول لهم بحسرة "لو كان فيكم خير ولكم أمانة لدفعت إليكم ثمني تردونه عليه، ووهبت له عشرة أضعافه بدلاً من صبره علي، ولكنكم أهل غدر وحيل"[٧٤٣]. فلم يبق لهذا الملك النبيل في لحظة الوداع تلك إلاَّ أن يشدّد على الرغبة بالتواصل والتلاقي "امضوا، فإن رجعتم فبهذه المعاملة أعاملكم، وأزيد في الإحسان إليكم، وعرفوا المسلمين أن يأتونا، فإنا نحن صرنا إخواناً لهم.. أما تشييعكم إلى المركب فمالي إليه سبيل"[٧٤٤].

تختزن هذه الحكاية معان كثيرة تتركب نواتها المحورية من ذلك الاستقطاب الخطير مابين الطرف العربي الإسلامي الذي تقف معه الحضارة الزاهية والدين الخاتم وذروة الوحي، لكن أفراده التجار البحارة تطغى عليهم الروح "الكلبية" والطمع الخسيس على حساب الكرامة الإنسانية والنبل، ويقف في الطرف الآخر حضارة "بدائية" يظن بها البحارة المسلمون أن أبناءها "يأكلون البشر" ويفتقرون إلى الدين الإسلامي أو أديان الكتاب، ومع هذا فإن فيهم هذا الملك النبيل بحكمته وترحابه بالغريب وكرمه، وعند المقارنة بين أخلاقية هؤلاء البحارة ممثلي الحضارة العربية الإسلامية وهذا الملك النبيل، فإن الكفة ترج لصالح الأخير، فلا يتبقى سوى ذلك الاعتبار الأكيد للدين الإسلامي الذي مصدره بلاد العرب، والذي يعترف الملك النبيل نفسه بتفوقه وسموه، وهو ما يخلق الأرضية الملائمة للأخوة الإسلامية عند الجانبين!.

كان الانطباع السائد في المتخيل العربي عن سفالة، هي أنها بلاد الذهب والحديد كما يقول الإدريسي "وجميع بلاد سفالة يوجد التبر به، ولا يعدله شيء في الطيب والكثرة والعظم، وهم مع ذلك يفضلون النحاس على الذهب، ومنه حليهم، وهذا التبر الموجود في أرض سفالة كبير المقدار.. وتبر سفالة.. ينسكب بلا صنعة

(٧٤٢) برزك بن شهريار، عجائب الهند، المصدر السابق، ص٦٠.
(٧٤٣) المصدر نفسه، ص٦٦.
(٧٤٤) المصدر نفسه، ص٦٧.

تدخله"[٧٤٥]. ولكن الإدريسي عندما يذكر مدينتي جنطة ودندمة الساحليتين، يشير إلى أن أهلهما "ليس بأيديهم شيئاً يتصرفون به ويتعيشون منه إلاَّ الحديد، وذلك لأن بلاد سفالة توجد في جبالها معادن الحديد الكثير"[٧٤٦]، وهذا الحديد يأخذه التجار "إلى سائر بلاد الهند وجزائرها، فيبيعونه بالثمن الجيد لأن بلاد الهند أكثر تصرفهم وتجارتهم بالحديد"، ومقارنة بحديد الهند، يبدو له حديد "سفالة أكثر وأطيب وأرطب"[٧٤٧].

ومدينة صيونة (لعلها مدينة شيونة Chaionh، أو سينا Sena) هي قاعدة سفالة ومركزها، وتقع على خور كبير تدخله السفن، وفي هذه المدينة كما يشير ابن سعيد "ملك السفالين"، أو "رئيس البلاد" حسب الإدريسي[٧٤٨]، الذي يشير أيضاً إلى أن جماعات تسكنها من "بلاد الهند والزنوج"، والزنج هؤلاء حسب ابن سعيد يعبدون "الأوثان والحجارة، ويصبون عليها دهن السمك الكبار، وأكثر معاشهم من الذهب والحديد، ولباسهم جلود النمر"[٧٤٩].

وهناك مدينة (جسطة الصغيرة) على البحر في الجنوب، التي "بها يوجد التبر كثيراً، وهو غلتهم وشغلهم.. ومنه معاشهم"، وهي على خور كبير تدخله المراكب، ويدخل إليهم "تجار بلاد المهراج.. ويجالسونهم ويتجرون معهم"، ويعتمدون في أكلهم على "السلاحف البحرية ولحوم الصدف، وعندهم الذرة قليلاً"[٧٥٠].

أما مدينة (دغوطة) فتقع حسب ابن سعيد تحت جبل الندامة على خليج القمر (خليج موزمبيق)، وتعتبر هذه المدينة "آخر مدن سفالة، وآخر العمارة"[٧٥١]، وبما أن هذه المدينة محاذية لأطراف العالم المعمور، يقول الإدريسي "وأهلها عراة لا يستترون بشيء من الثياب، لكنهم يستترون بأيديهم عند التقائهم بالتجار الداخلين إليهم.. ونساؤهم محتجبات لا يدخلن الأسواق ولا المحافل لأنهن عراة.. وبأرضها التبر مثلما يوجد بغيرها من أرض سفالة"[٧٥٢].

ويضعون "مدينة سفالة" في آخر أرض الزنج، ومركزاً رئيسياً لثروة الذهب، وفي المنطقة التي تتم فيها المقايضة التجارية أو "التجارة الصامتة" بين التجار وأهل البلاد، يقول عنها القزويني، مكرراً معلومات الحموي "سُفالة آخر مدينة تعرف بأرض الزنج، بها معدن الذهب، والحكاية عنها كما هي ببلاد التبر، من أن التجار يحملون إليها الأمتعة، ويضعونها في أرض قريبة منهم ويرجعون، ثم أن سُفالة، وهم سودان يأتون ويتركون ثمن كل متاع بجنبه، والذهب السفالي معروف عند تجار الزنج"[٧٥٣].

جزيرة القمر وماحولها:

لعل ابن سعيد المغربي هو أفضل من أعطى معلومات عن جزيرة القمر أو جزيرة مدغشقر وماحولها اعتماداً منه على معطيات رحلة ابن فاطمة، فقدم تقريراً عن تلك المنطقة اتسم بالجدة والأصالة والحصافة التي لا تخلو من شوائب المتخيل الأسطوري، وذلك لملء الفجوات المعرفية المتبقية عن هذا الجزء الغامض السفلي من العالم المعمور أو "المعمور خلف خط الاستواء" حسب تعبير ابن سعيد.

---

(٧٤٥) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٧٤٦) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٦٩.
(٧٤٧) المصدر نفسه، ص٦٨.
(٧٤٨) المصدر نفسه، ص٦٨. راجع ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٤.
(٧٤٩) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٤. راجع، الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٦٨.
(٧٥٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٧٩.
(٧٥١) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٥. راجع، أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، ص١٥٢.
(٧٥٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، المصدر السابق، ص٨٠.
(٧٥٣) القزويني، المصدر السابق، ص٤٤. راجع أيضاً، الحموي، المجلد الثالث، المصدر السابق، ص٢٤.

ففي شرقي (صبونة) وهي في أقصى جنوب سفالة، يوجد جبل يسميه ابن سعيد جبل الملطم، وعلى جنوبيه يقع خليج القمر (أو مضيق موزمبيق)، وفي جنوبه في أقصى الجنوب (جبل الندامة) أو جبل القمر، الذي على شرقيه تقع جزيرة القمر ومدنها. وجبل الملطم هذا كبيرٌ، يمتد شرقاً مائتي ميل وكأنه مصد للريح الموسمية الهابة من الشمال إلى الشرق "فكثيراً ما يلطم المراكب التي تدفع بها الريح الشمالية إليه"، فإن تجنبه المسافرون واتجهوا شرقاً سلموا، وإن تجاوزوه نحو الجنوب دخلوا في الخليج جنوباً، فربما "تحملهم المياه والرياح إلى جبل الندامة فهلكوا"، وهناك توجد "عمائر القمر (الجزيرة).. متصلة مع الجبل المنسوب إليهم"[٧٥٤].

ويكون البحر عامراً في شرقي جبل الندامة، وفي هذا البحر الشرقي وعلى طوله (جزيرة القمر)، وفي شماليه خليج القمر (مضيق موزمبيق)، فإذا زل المركب عن بحر الهند، أو بحر الزنج الذي هو جزء من الأول "ندم على ما فرط فيه من الاحتياط، واستسلم للقضاء، فإما أن ينكسر عليه، وإما أن يدخل حلقة فلا يخرج له خبر ولا يُعلم ما جرى له، ويقال أن هناك دورات لاتزال تدور بالمركب حتى تغرق، ويسمي المسافرون في بحر الهند ذلك المكان: بحر الخراب وبحر سهيل، لأنهم إذا وصلوا إليه رؤوا سهيلاً مقارناً لرؤوسهم"[٧٥٥].

فجزيرة القمر التي تمتد في البحر المحاذي (جبل الندامة) شرقاً، تطوقها المياه من جميع جهاتها، إلا أن البحر الذي يمر مع طولها في الجنوب "يختلط من الجنوب بالبحر المحيط" الذي يدور حول العالم المعمور، ويقال أن هذا الجزء الجنوبي منها "لا يدخله أحد لا من أهل الجزيرة ولا من غيرها، ومن وقع إليه تلقاه في دوراته"، وعلى هذا فإن شواطئ مدغشقر الجنوبية لا تصلح للملاحة حسب تصور مصنفينا، فلا يبقى للمسافرين والتجار والسفن سوى الإبحار إلى شواطئها الشرقية والشمالية والغربية المحاذية لخليج القمر، أي لمضيق موزمبيق، أو كما يقول المسعودي "وإنما سفرهم في البحر الشمالي الهندي وبحر الجهتين الشرقية والغربية"[٧٥٦].

ويبالغ ابن سعيد في طول جزيرة القمر، إذ يقدّر "طولها أربعة أشهر وعرض الواسع منها نيف وعشرين يوماً"[٧٥٧]، ولعل سبب هذه المبالغة في طولها هو أنه اختلطت عليه جزر السيشيل بجزيرة القمر وربما بغيرهما.

أما مدينة (ليرانة) التي تبدو أنها أهم مدنها، فيشير ابن سعيد إلى دخول ابن فاطمة إليها، حيث رأى "أنها للمسلمين كمقدشو، وأهلها مجتمعون من الأقطار، وهي بلد حط وإقلاع"، وتقع "على خور كبير على البحر"[٧٥٨]. الذي وجد فيها مسلمين كثر وإلى جوارهم أقوام مختلفين، وذلك لأن المدينة كانت تجذب التجار من كل مكان، ويقال أنها كانت المدينة الوحيدة التي وجدها البرتغاليون عندما نزلوا الجزيرة عام ١٥٠٦م.

ويتحدث ابن سعيد عن العاصمة ويسميها (ملاي) التي تقع على شرقي مدينة ليرانة، ويسكن فيها "ملك ملوك الجزيرة، وقد يكون سلطاناً مستولياً على جميع الجزيرة أو أكثرها"[٧٥٩]، هناك مدينة (وهمي)، ويخمن بعض الباحثين المعاصرين أنها على خليج (فوهيمار Vohemare)، وعلى شرقيها خور، وفي آخره (مدينة بلبق) "وهي أيضاً من قواعد ملوك الجزيرة"، ويعتقد ابن سعيد أن شرقي هذه المدينة (بلبق) تقع جزيرة سرنديب (أي

---

(٧٥٤) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٧٥٥) المصدر نفسه، ص٨٥.

(٧٥٦) المصدر نفسه، ص٨٨.

(٧٥٧) المصدر نفسه، ص٨٤. راجع أيضاً، النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، دون تاريخ، السفر الأول، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٧٥٨) ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص٨٤.

(٧٥٩) المصدر نفسه، ص٨٤.

سيلان)، ولعلها جزيرة (سانت ماريا Saint Maria)، كما يذكر مدينة خافورا ويملي، كما هناك مدينة (قمرية) التي كانت "قاعدة الجزيرة القديمة"، وينسب ابن سعيد أهل هذه المدينة إلى "بنو عامور بن يافث، ويشاركهم النسبة إلى عامور الصين"، فكان سكانها في الأصل من بلاد الصين، في مشارق الأرض "ثم تفاتنوا وأخرجهم (ملك) الصين إلى جزائر"، وكان اسم ملك هذه الجزر (قامرون)، ويميل بعض الباحثين إلى اعتبار ذلك إشارة إلى شعب خمير (كمبوديا) الذين كانوا يقطنون فيما مضى في آسيا العليا ثم جاوروا الصين في جزر بورما وملايو وأندونيسيا، ومن هذه الجزر خرج جزء من شعب القمر (الخمر) واتجهوا ليستوطنوا جزيرة مدغشقر (جزيرة القمر) وإفريقيا الشرقية، وهو ما يجعل نص ابن سعيد يطابق المعلومات التاريخية(٧٦٠)، لهذا يقول ابن سعيد عن أهل الجزيرة "وصورهم أميل إلى أهل الصين منهم إلى أهل الهند، وكذلك لباسهم وعبادتهم (الأبداد) كأهل الهند والصين"(٧٦١).

وعلى هذه الجزيرة الكبيرة أنهار عظيمة كنهر (خافورا) الذي على شطيه الأشجار الكبيرة التي "يُصنع من الشجرة الواحدة منها مركب يجدف فيه مئة رجل" حيث يحفرونه في الشجرة، كما "يصنعون من هذه الأخشاب دياراً (بيوتاً) على مراكب ويرسونها في حبال، فإذا كره أحد منهم جاره حل حبال داره وخلص منه"(٧٦٢).

وعند أهل الجزيرة بقر يستعملونها للجر، عمل الواحدة منها "قدر ثلاثة من بقر أرضنا"، وزيتهم من شحم الدواب الكبير التي يصيدونها في بحرهم، كما عندهم حشيش تلون بها الأشياء "وتجلب للعراق واليمن"، وينبت فيها "الموز والسكر والنارجيل الذي يصنعون منه مراكبهم"(٧٦٣). ويذكر أن فيها "الطائر الكبير الرخ" وهو طائر تردد ذكره عند الدمشقي وابن الوردي في عبارات تحاكي الأساطير، كما أشار إليه ماركو بولو، ويظن أنه الطائر الذي يسمى: البطروس، ويقول عنه ابن سعيد مجارياً شطط الخيال "إنه يغطي بظله سرية ويخطف بمخالبه فراخ الفيلة، ويمزقها فراخه، ويصنعون من قصبه قناطر على مياههم"(٧٦٤). وهذا الشطط في التخيل ليس غريباً، طالما نحن على (برزخ) أطراف العالم الغامض وفي (حضرة) المجهول منه!.

---

(٧٦٠) المصدر نفسه، (انظر تعليق المحقق رقم ٣٤) ص٢٢٢-٢٢٣.
(٧٦١) المصدر نفسه، ص٨٨.
(٧٦٢) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٧٦٣) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٧٦٤) المصدر نفسه، ص٨٧.

الباب الثاني

ممالك السودان الغربي

تقاربت وسائل اتصال العرب - المسلمين ببلاد السودان الغربي وممالكه مع حال علاقتهم بالسودان الشرقي، فقد اتصلوا بهم عن طريق المبادلات التجارية، وعن طريق نشر الإسلام الذي أتى هنا بشكل رئيسي على أكتاف التجار، والمبشرين الدينيين، وعن طريق الهجرة والاستقرار وإنشاء جاليات عربية-إسلامية على أطراف المدن التجارية الرئيسية، وبادلهم "السودان" الزيارات خاصة تلك التي أتت عن طريق الحج إلى مكة المكرمة أفراداً وملوكاً وسلاطين.

إذ تعرف العرب تدريجياً على تلك الممالك التي قامت في الأقاليم الواقعة ما بين شمال الغابات الاستوائية وجنوب الصحراء الكبرى، أي منطقة السافانا التي توصف أحياناً بالإمبراطوريات السافانية فكانت غانة أقدم تلك الإمبراطوريات، ثم مالي والسنغي، ثم قامت إمبراطورية الهوسا، وتمثلت في عدد من دول الهوسا: كانو وكاتسنا وكبي وغيرها، وهناك إمبراطورية بورنو ثم كانم، فقد تجسدت التحركات القبلية والسكانية في ممالك وسلطنات وكيانات سياسية، يمكن إدراك ملامحها إذا تفحصناها حسب الترتيب المكاني وانطلاقاً من الغرب إلى الشرق، لوجدنا أولاً السنغاليون والسونينكيون والفورما وصنغاي وقبائل الهوسا وأهل كانم وبورنو سكان وادي دارفور، واتجهت تلك التجمعات بصلاتها إلى البلاد العربية الإسلامية التي جاورتها شمالاً، إما نحو طرابلس أو نحو مصر أو المغرب الأقصى[٧٦٥].

ولم تكن المعرفة العربية للتشكيلات السياسية الثقافية تلك، في البداية، إلاّ أصداء الروايات المتناقلة شفوياً عن التجار ومن رافقهم من علماء دين أو مغامرين، فكانت معرفتهم مجزأة غامضة، لكنها اغتنت تدريجياً بالمعطيات التي نقلها الرحالة والجغرافيون العرب من تجاربهم المباشرة أو مشاهداتهم الشخصية أو ما دونوه عن الرواة، ومعها أصبحت مدوناتهم أكثر دقة واتزاناً عن الحالة السياسية والثقافية، والحضارية، وعن مصادر الثروات والبيئات الطبيعية لتلك البلدان، إذ حفلت بلاد السودان الغربي منذ القرن السابع الميلادي -وباطراد- بآلاف من العلماء المسلمين والمستوطنين والرحالة والتجار من شتى أصقاع العالم الإسلامي، كما سافر بالمقابل الكثير من الوطنيين السودان إلى بلاد الإسلام قاصدين مكة لأداء فريضة الحج، أو مكة والمدينة والقيروان وفاس والقاهرة لطلب العلم في معاهدها الكبرى، ثم ما لبثت أن نهضت مراكز العلم والثقافة في تلك البلاد، وهو ما جعل لبعض مدن السودان الغربي شهرة واسعة في بلاد العرب المسلمين، مثال: كومبي صالح ومالي وجني وتنبكت وولاتة وتكدة ونقارة[٧٦٦].

وانعكست تلك العلاقات العملية على المعرفة النظرية، وتردد أصداء ذلك منذ القرن التاسع الميلادي في التأليف العربي، والذي ردد أسماء بعض بلدان السودان الغربي وأجناسه وممالكه، فنجد ذلك عند اليعقوبي وابن

---

(٧٦٥) نقولا زيادة، إفريقيات، ص٣١١.

(٧٦٦) إبراهيم علي طرخان: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ الغربي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣، ص٦.

الفقيه والفزاري، ثم أصبح التأليف الجغرافي أكثر دقة في القرن العاشر مع دراسات المسعودي وابن حوقل، حيث زار الأول شرق إفريقيا والثاني غربها، ثم أعطت دراسات البكري دفقاً قوياً لدراسة ممالك السودان الغربي وقبائله وحياته الثقافية، توالت بعدها دراسات الجغرافيين ومصنفات الرحالة التي وجدت ذروة تألقها مع ابن بطوطة وليون الإفريقي (الوزان) والعمري والقلقشندي وابن خلدون، مروراً بالإدريسي وابن سعيد المغربي والغرناطي والدمشقي والقزويني.

ولقد تفاوتت معرفة معالم تلك البلاد وممالكها من مؤلف إلى آخر، وإن رددوا أصداء ممالكها الكبرى ولا سيما غانة ومالي والسنغي وممالك الهوسا وبورنو والكانم، وأعطوا بالإجمال صورة عامة عن حياة شعوب تلك الممالك، لكن بقي هذا التفاوت في الإدراك بين مؤلف وآخر ورحالة وآخر، من حيث شمول موضوعه أو عمقه، فبعض المؤلفين لم يميز بدقة بين ذكره لاسم مدينة ودولة، كما اختلفوا في تصنيف عدد الممالك والسلطنات، وفي تصنيف أهميتها، وهناك قليل من المصنفين - رحالة كانوا أم جغرافيين - من أخضع السودان الغربي برمته لدراسة تصنيفية شاملة، كما فعل العمري والقلقشندي والبكري وليون الإفريقي (الوزان)، كما أن هناك جغرافيين ورحالة أمثال الإدريسي وابن سعيد المغربي والغرناطي، أخضعوا دراساتهم لتلك البلاد لتصنيف أشمل يتعلق بالتقسيم الإقليمي للعالم المعمور، كما أن هناك من طغى على دراساته إبراز رؤوس الموضوعات المتعلقة بالممالك التي تعرّض لها؛ ومن المؤلفين من التبست لديه أماكن ومواقع البلدان وعددها، من هنا نلاحظ هذا التفاوت في تعداد أسماء ممالك السودان الغربي، فوصل عدد الممالك الكبرى التي ذكرها الوزان إلى خمسة عشر مملكة، والمعروف أنه قام برحلتين إلى تومبوكتو، ومن المحتمل أنه قام في الأولى عام ١٥٠٤م، والثانية أنها سنة ١٥١٢م، ولا نعرف بالضبط الأماكن التي زارها، فهو يذكر أسماء هذه الممالك بادئاً من الغرب إلى الشرق: ولاتة، جنة Djenne، مالي Mali، تومبكتو، غاءو (كوكو-غاوغة Gao)، غوبر Gober، أغادس، كانو Kano، كانست Katsina، زقزقة، أنغارة Ouangura، بورنو Bornou، غاوغة، والنوبة؛ ويعلق "وهذه الممالك الخمس عشر، التي يقع أغلبها على نهر النيجر"[٧٦٧]، ويخمن الوزان أن الناس في السودان يتكلمون "لغات متنوعة"، ويسمي الوزان تلك اللغات: سغي (سونغي-سنغاي) وهي اللغة الدارجة في عدة مناطق مثل: ولاتة وتومبكتو وجنة ومالي وغاغو، وهناك لغة أخرى تدعى (غوير) تستعمل في بلاد غوير، و(كاتوا) و(كاسيتا) وزقزق وأغوانكارا (يقصد لغة الهوسا)، وتوجد لغة أخرى دارجة في بورنو (لغة الكانوري) تشبه اللغة الشائعة في غاءو (لغة الكانمبو)[٧٦٨]. ويعترف الوزان أن "تقسيم بلاد السوادن إلى ممالك يكون بعضها مجهولاً مع ذلك بالنسبة لنا، وتكون بعيدة عن مدى تجارتنا"[٧٦٩].

ولقد عدد لنا اليعقوبي (القرن التاسع الميلادي) ممالك السودان الغربي، فذكر: مملكة الزغاوة ومملكة ملل (مالي) ومملكة الكوكو (لعلها السنغي) ومملكة غانا[٧٧٠]. كما التبست لدى الدمشقي -عند تعداده لبلدان السودان الغربي- المدن بالممالك، وما يسميه "البلدان" بالمدن، فرأى أن أقربها من صحارى البربر "مدينة كوكو"، حيث أحل الدمشقي هنا المدينة محل المملكة، ثم ذكر "ومن بلاد السودان بلد غانة" وأيضاً "مدينة غيارو" و"مدينة برستة" و"مدينة برخي" وبلد كانم ومدينة جني ومدينة التكرور ومدينة سمغارة ومدينة مغزا ومدينة ماتان ومدينة ناجوا. ويتحدث عن "طائفة تسمى بلملة وايرزن " وعن "مجالات تمم ومجالات

---

(٧٦٧) ليون الإفريقي (الوزان)، ص٤١.

(٧٦٨) المصدر نفسه، ص٤٨.

(٧٦٩) المصدر نفسه، ص٤١.

(٧٧٠) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مجلد١، ص٢١٩.

ددم"[771].

بينما نجد القلقشندي يولي الأهمية الأولى للممالك ويعرضها بطريقة مدرسية منظمة، فيتحدث عن "بلاد البرنو" و"بلاد الكانم" وهما شمال نيجيريا الحالية، وبلاد مالي و"الصوصو" وتعنيان لديه قوم ومملكة، ثم "بلاد غانة" و"بلاد التكرور" التي يجمع بين أعمدتها خمسة ممالك[772]. ويعتمد ابن خلدون على ابن سعيد المغربي في تقديره: أن أمم السودان الغربي بأجمعها "تسع عشرة أمة" تتوزع في الشرق، وفي الغرب (السودان الغربي) تبدأ هنا بـ"زغاوة" التي تجاور البجة ويليها الكانم وبعدها "الكوكو" ويليها "نفالة" والتكرور ولمى وتمم وجلي وكوري وأفكرار "ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانة في الغرب"[773].

وللوقوف عند الصورة العامة التي كونها رحالتنا وجغرافيونا ومصنفونا عن تلك الممالك وشعوبها وثقافتها، سننظر إلى تلك النصوص المتعلقة بموضوعنا هذا كنص متكامل يعكس وجهة نظر الثقافة العربية من هؤلاء "السودان"، غير أن ما يهمنا في عرضنا هو إبراز زاوية "النظر العربية" تلك، أي الجانب التخيلي الممتزج بأحكام القيمة ومعاييرها، دون إهمال الجانب المعرفي، أي استكشاف حدود المعرفة العربية لتلك البلاد ولموقعها الحضاري الفعلي. وليس في نيتنا تقديم دراسة في التاريخ عن تلك الشعوب أو دراسة جغرافية لها، وإن كنا لا نهمل كلا الجانبين وذلك بقدر اهتمام مصنفينا بهما، إذ إن تركيزنا على المواقف والأحكام والأشكال التخيلية التي حددت "وجهة النظر" العربية تجاه الإنسان الأسود، ورسمت موقفهم العاطفي الوجداني منهم.

وسنعتمد في ترتيب عرضنا لممالك السودان الغربي على الأساس الزمني لنهوض تلك الممالك وبروز أدوارها السياسية والثقافية؛ ومن هنا سنبدأ بـ"بلاد التكرور" التي يعتقد أنها تأسست كمملكة حول العاصمة تكرور منذ بداية القرن التاسع الميلادي، ثم دولة غانا التي تأسست عام ٨٥٠م، وبعدها دولة مالي التي نشأت نواتها في القرن التاسع الميلادي، وتوسعت لاحقاً، بعد تضعضع غانا عام ١٠٧٦م على يد المرابطين، وهذه الدول الثلاث قامت حول حوض نهر السنغال، أما دول حوض النيجر فأهمها دولة السنغي التي شملت بتوسعها - تقريباً- أطراف الدول الثلاث السابقة، ثم دولة بورنو - كانم التي تقوم على أنقاضها الآن أجزاء من: تشاد والنيجر ونيجيريا والكمرون.

أ- بلاد التكرور وماحولها

يعتقد أن المسعودي قد أشار إليها في "أخبار الزمان" باسم (الكور) باعتبار أهلها "ولد السودان" وباسمهم "سميت المملكة التي هي أعظم ممالك السودان وأجلَّها قدراً، وكل ملك لهم يعطي ملك (الكركر) الطاعة، وتنسب إلى الكركر ممالك كثيرة"[774]. وفي الحقيقة أن لتبجيل المسعودي للكركر أساس واقعي، إذ يعتقد أن مملكة التكرور قد تأسست منذ وقت مبكر على الضفة اليسرى لنهر السنغال Senegal، ربما تعود إلى القرن الأول

---

(٧٧١) الدمشقي، ص٢٤٠-٢٤١.

(٧٧٢) القلقشندي، ج٥، ص٢٧٩-٢٩٢.

(٧٧٣) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٢.

(٧٧٤) المسعودي، أخبار الزمان، ج١، ص٨٧-٨٨.

الميلادي، إلا أنها شهدت ميلاد ازدهارها عندما تجمعت قبائل السنغال حول العاصمة تكرور عام ٨٥٠م[٧٧٥]. وعندما كتب عنها المسعودي كانت في عز أيامها، حيث كانت من الممالك النهرية المهمة التي تقع على منافذ الطرق التجارية الصحراوية القادمة من سجلماسة وولاتة وأوليل، وقد ازدهر في حوض النهر حولها دول-مدن مهمة (سيلا Silla، وقلنبو Galam، وصنغاتة) التي لاحظ بعض مؤلفينا تبعيتها إلى بلاد التكرور.

ولعل البكري هو أول من أطلق اسم "التكرور" على هذه البلاد، حين أطلقه على مدينة التكرور الواقعة على الضفة اليسرى من نهر السودان (السنغال) باعتبارها عاصمة لإمارة سودانية مهمة. وقد تعرف عليهم البكري وهم على الإسلام، وكانوا قبل ذلك مثل ما كان عليه "ساير السودان.. من المجوسية وعبادة الدكاكير (الأصنام)، والدكور عندهم الصنم"[٧٧٦]. أما إسلام أهل التكرور فيعيده البكري إلى زمن ملك التكرور وارجابي بن رابيس (ت ٤٣٢هـ-١٠٤٠م) الذي كان له الفضل أيضاً في إسلام أهل (سلا) عندما ولي هذا الملك أمرهم "أسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليها، وحقق بصائرهم فيها، وتوفي وارجابي سنة اثنين وثلاثين وأربعمائة (هـ)"[٧٧٧]. وهو ما يشير إلى أن إسلامهم أتى قبل الحركة المرابطية، كما يشير أيضاً إلى أهل سلي "أسلموا على يدي وارجابي رحمه الله"[٧٧٨]، ويقول عن سلي أنها تقع "على شاطئ النيل" ويقصد بذلك نهر السنغال انطلاقاً من اعتقاد المؤلفين العرب بأن أنهر إفريقيا كلها هي تفرعات لنهر النيل، وتبعد عن مدينة غانة مسيرة عشرين يوماً، وبعد أن أسلمت (سلي) اتجه ملكهم -كما يقول البكري- إلى أن "يحارب كفارهم" ويقصد الوثنيين عبدة الأصنام، والذين لا يبعدون عنهم سوى "مسيرة يوم واحد"، وتمثلوا لديه في أهل مدينة قلنبو (لعلها غالام Galam) "وهي على النيل، وأهلها مشركون"، وأيضاً مدينة (ترنفة) و(زافقو)، ولا يبخل علينا البكري بالمعلومات عن (سلي) التي تبدو أنها تابعة إلى (التكرور) فيشير إلى أن أهلها يتبايعون في "الذرة والملح وحلق النحاس وأزر (من إزار) لطاف من قطن يسمونها الشكيات"[٧٧٩].

أما عن حيواناتهم "فالبقر عندهم كثير، وليس عندهم ضأن ولا معز"، وفي نيلهم يوجد "حيوان يشبه الفيل في عظم خلقه وفنطسته وأنيابه، يسمونه (ففو)" لا ندري إذ كان يقصد فرس النهر، وأهل سلي يصطادونه، إذ إن من عادته السباحة على ظهره، فيقصدونه بمزاريق حديد في أسفلها حلقة مربوطة بالحبال "فيرمونه بالعديد منها، فيغوص ويضطرب في أسفل النيل، فإذا مات طفا على الماء، فيجذبونه ويأكلون لحمه"[٧٨٠]، كما أنهم يصنعون من جلده الأسواط التي يسمونها "السرافيات". أما المدن - الدول (الكفار) التي تحيط ببلاد التكرور، فبالإضافة إلى (قلنبو) هناك ترنفة، وهي بلد واسعة، يشتهرون بزراعة القطن الذي يصنعون منه الأزر التي يلفون بها جذعهم الأسفل "فهي بلد عريض وعندهم تصنع الأزر المسماة بالشكيات.. وهي أربعة أشبار في مثلها.. وليس في بلدهم كثير قطن، غير أنهم لا تكاد تخلو دار أحدهم من شجرة القطن"[٧٨١]. ومن الأحكام المعتمدة عندهم أن يتركوا لصاحب الشيء المسروق الحكم فيما إذا كان يجب "بيع السارق أو قتله"، كما أنهم يحكمون "في الزاني أن يسلخ من جلده" وهو ما يشير إلى حرصهم على عفة المرأة.

وتتصل العمارة من ترنفة هذه إلى (بلد الكفار) الآخر زافقو، وهؤلاء "يعبدون حية كالثعبان العظيم، ذا عرق

---

(٧٧٥) زيادة، إفريقيات، ص٥٢.
(٧٧٦) البكري، ص١٧٣.
(٧٧٧) المصدر نفسه، ص١٧٣.
(٧٧٨) المصدر نفسه، ص١٧٣.
(٧٧٩) المصدر نفسه، ص١٧٣.
(٧٨٠) المصدر نفسه، ص١٧٣.
(٧٨١) المصدر نفسه، ص١٧٣.

وذنب" وهذا الثعبان يأوي في مغارة بمفازتهم، وقد "بنوا على فم المغارة عريش وأحجار" وشيدوا أيضاً مسكناً لأناس يقعدون هناك "متعبدين معظمين لتلك الحية"، كما يعلقون "نفيس الثياب وحر المتاع على ذلك العريش، ويضعون له جفان الطعام وكأس اللبن والشراب"[782]. ويروي الحكايات المتداولة عن طقوس تعبُّد هؤلاء القوم، وطريقة توليتهم لملوكهم بالعودة إلى هذه الأفعى للاستدلال من إشارة منها على مباركتها للملك الجديد، فهم إذا أرادوا إخراج هذه الأفعى إلى العريش "تكلموا كلاماً وصفروا صفيراً معلوماً، فتبرز إليهم"، وفي حال موت ملكهم بادروا إلى جمع كل "من يصلح للملك وقربوهم إليها، وتكلموا بكلام يعلمونه" فيعتقدون أنه على إثر ذلك ستدنوا الأفعى منهم "وتشمهم رجلاً رجلاً، حتى تنكز أحدهم بأنفها" وهي إشارة على مباركتها له بالملك، أما إذا أراد معرفة عدد سنين ملكه، فعلى هذا الملك بعد أن وقع عليه الاختيار أن يلحق بالأفعى إلى حجرها، ليجذب بأشد ما يقدر عليه شعيرات من ذنبها "فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات"[783]. ولاحظ البكري أيضاً أن مملكة بريس تقع "بغربي غيارو على النيل (=السنغال) يسكنها المسلمون وماحولها مشركون"[784].

و(بريس Prissa) هذه تابعة للتكرور، ويروي عن جماعة ادعائهم إن في بريس ماعز يتولد عن طريق احتكاكه في شجرة هناك، ويشير مؤلفونا إلى علاقة بلاد التكرور وتوابعها ببلاد الجنوب الغنية بالذهب للحصول على الذهب والرقيق.

عكس الإدريسي وابن سعيد المغربي التبدل الحاصل في حياة بلاد التكرور وممالكها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، ففي عهد الإدريسي أصبحت التكرور سلطنة إسلامية غاية في الأهمية، امتد نفوذها باتجاه مناجم الذهب التي تبعد اثنتا عشر مرحلة (= ٤٠٠كم) عن التكرور، وغدت بريس خاضعة لها، بالإضافة إلى مدينة سلي، واتخذ ملك التكرور لقب "السلطان" الذي لا يبخل عليه الإدريسي في الإطراء، فهو "سلطان مؤمن" ويمتلك مظاهر القوة إذ "له عبيد وأجناد وحزم وجلادة"، بالإضافة إلى مظاهر الرحمة برعيته "وعدله مشهور، وبلاده آمنة وادعة"[785]. ومدينة التكرور الذي يقيم فيها هذا السلطان تبعد عن سلي يومين "وهي أكبر من مدينة سلي وأكثر تجارة" حيث تتبادل مع بلاد المغرب المنافع التجارية، فيجلب إليها "أهل المغرب الأقصى: الصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم (الرقيق).."[786].

وذكر ابن سعيد المغربي أن صاحب التكرور أي سلطانها "يسبي رقيق لملم Lemlem"[787]، ليستخدمه أو يتاجر به. وهذه البلاد في أقصى الجنوب، أما مدينة سلي التي هي "من عمالة التكرور" فقد أصبح فيها كما يقول الإدريسي "مجتمع السودان، ومتاجر صالحة، وأهلها أهل بأس ونجدة"[788]. وتتصف مدينة (بريس) بدورها التجاري الهام، فهي وإن كانت "كالقرية الحاضرة" فإن "أهلها متجولون تجار، وهم في طاعة التكرور"[789]. ويعتبرها ابن سعيد أشهر بلاد التكرور، حتى إذا ضعف سلطان التكرور "انفرد صاحب بريسا بنفسه"[790]. ويشير ابن سعيد المغربي إلى قلنبو على أنها غدت "فرضة مشهورة، كانت في زمن أبي عبيد البكري للكفار، أما في عصرنا فما على شاطئ النيل (نهر السنغال) من بلاد التكرور مدينة إلا ودخلها الإسلام، وجميعها لسلطان

(٧٨٢) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(٧٨٣) المصدر نفسه، ص١٧٤.
(٧٨٤) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(٧٨٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٨.
(٧٨٦) المصدر نفسه، ص١٨.
(٧٨٧) ابن سعيد المغربي، ص٩١.
(٧٨٨) الإدريسي، ص١٨.
(٧٨٩) المصدر نفسه، ص١٩.
(٧٩٠) ابن سعيد المغربي، ص٩١.

التكرور"[٧٩١]، وهو إشارة للتحول الكبير في حوض السنغال وفي بلاد التكرور إلى الإسلام.

الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية:

يمتزج الوصف الموضوعي في نصوص رحالتنا وجغرافيينا لبلاد التكرور وأهلها بأحكام القيمة، وكذلك بالتخييل لملء الفجوات المعرفية؛ ومما يمكن ملاحظته أن لون البشرة السوداء لهذه الشعوب لم يقف عثرة أمام إنصافهم لها، وإظهارهم الجوانب المضيئة من حياتها، وركزوا على المعايير "الحضارية" و"الخلقية" و"الدينية" عند حكمهم على مساهماتها وموقعها، وإذا كان هناك من مركزية ما، فقد تجلت فقط في اعتبارهم الإسلام الدين الخاتم، الذي يتمم ديانات الوحي السابقة لها ويكملها، إيمانهم بالشراكة التي تجمع ديانات التوحيد، لصدورها من وحي واحد، فهي "أديان كتاب"، ولكن مع انتقال أي شعب إلى (الإسلام) تبطل هذه (الميزة) طالما "أن المؤمنين أخوة"، لذا حافظوا على أحكامهم السلبية تجاه الأديان الوثنية التي عادلوها مع "الكفر"، وإن كان هذا الحكم الأخير لم يمس تقديرهم لأي مظهر حضاري تجلى عندهم، فالإيمان شيء والحضارة والمدنية شيء آخر، وإن كان الدين أحد مظاهره.

ولقد لاحظوا الحراك الديني في بلاد التكرور، وانتقالهم من "الكفر" أي من عبادة (الدكاكير) أي الأصنام أو الأفعى، إلى الإسلام، وهو ما أدخل هذه الشعوب "في أخوة الإيمان"، كما لاحظوا بروز هيكلية للدولة وللبناء السياسي لديهم، وأطروا في هذا البناء جوانب القوة والسطوة فيه، فضلاً عن اعتماد سلطان التكرور في أحكامه على العدل، حيث أشاروا إلى اعتماد أهل التكرور في تسلحهم بـ"القسي والنشابات.. والدبابيس.. يتخذونها من شجر الأبنوس، ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة، أما قسيهم فإنها من القصب الشوكي، وسهامهم منه، وأوتارها من القصب"[٧٩٢]. وعاينوا بدقة الدور التجاري الكبير الذي تقوم به ممالك التكرور ما بين الشمال الإفريقي المسلم وبلاد الجنوب السوداني صاحبة ثروة الذهب والرقيق، مع إظهارهم للسلع المتبادلة بين بلاد التكرور والعالم الخارجي.

ونبهنا ابن سعيد أن أهل التكرور قسمان "قسم تحضّر ويسكن المدن، وقسم رجاله في البوادي"[٧٩٣]، ويشير الإدريسي إلى الحالة نفسها، بذكره أن أكثرهم "لا يكون لها مأوى ولا مستقر إلاَّ على النيل بعينه (= السنغال)، وسائر الأرضين المجاورة للنيل صحارى خالية لا عمارة فيها"[٧٩٤]، وهذا التباين يعكس نفسه على طريقتهم في اللباس، فهم بشكل عام في "باديتهم عراة" غير أن "المسلمين منهم يسترون فروجهم بعظام أو جلود، والكفار لا يستترون"[٧٩٥]. ونفهم من ابن سعيد أن الغالب على أهل الحضر الاحتشام، إذ إن "الغالب على لباس السودان التكرور وغيرهم الجلود، وإذا احتشم الواحد منهم كان الجلد مدبوغاً، ومن خالط البيض (أي الشمال الإفريقي) وتخصص اتخذ لباسه من الصوف والقطن، وذلك مجلوب له"[٧٩٦].

وينبت في بلاد التكرور على ضفتي السنغال "القصب الشوكي وشجر الأبنوس والشمشار والخلاق والطرفاء والآتل. (وبلادهم) غياضاً متصلة، وبها تقيل وتسكن مواشيهم، وإليها يميلون ويستظلون عند شدة الحر". أما حيوانات التكرور ففي غياضهم "الأسد والزرائف والغزلان والضباع والأفيال والأرانب

---

(٧٩١) المصدر نفسه، ص٩٠-٩١.

(٧٩٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٠.

(٧٩٣) ابن سعيد المغربي، ص٩١.

(٧٩٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٨.

(٧٩٥) ابن سعيد المغربي، ص٩١

(٧٩٦) المصدر نفسه، ص٩١.

والقنافذ"، أما في نهر السنغال فتوجد "أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار، ومنها طعام السودان يتصيدونه ويملحونه ويدخرونه"[٧٩٧]. أما أهل المدن فيزرعون "البصل والقرع والبطيخ، ولا حنطة حنطة عندهم أكثر من الذرة.... وجل لحومهم الحوت، ولحوم الإبل المقددة"[٧٩٨]، وليس في بلادهم "شيء من الفواكه الرطبة إلاَّ ما يجلب إليها من التمر من سجلماسة"، ويذكر ابن سعيد أن "الغالب على أكلهم القطانية (عصايد غير مخمرة)، والخبز عندهم لا يوجد إلا طرفة (نادراً) عند الملوك"[٧٩٩].

أما حليهم فهي "النحاس والخرز، والنظم من الزجاج، والباذوق، ولعاب الشيخ، وأنواع المجزعات من الزجاج"[٨٠٠]. ويعتمدون في بناء بيوتهم على "الطين والخشب"[٨٠١]، ولا يبني "بالجص والآجور إلاَّ الملك، أو من أذن له في ذلك من أهل الرفه والتخصص (الخاصة).."[٨٠٢].

ويروي لنا القزويني عن الفقيه علي الجنحاني المغربي الذي زار مدينة التكرور، على أنها "مدينة عظيمة لا سور لها، وأهلها مسلمون وكفار، والمُلك فيه للمسلمين"، ويذهب القزويني إلى "أن أشراف المسلمين يلبسون قميصاً طولها عشرون ذراعاً... ونساء الكفار يسترون قبلهن بخرزات العقيق.. ومن كانت نازلة الحال (فقيرة) فخرزات العظم"، كما أنهم يذبحون الزرافة التي هي كثيرة عندهم، مثل ذبح البقر، وعندهم "السمن والعسل والأرز رخيص جداً"[٨٠٣].

وإذا كان المؤلفون العرب قد أطلقوا اسم التكرور حتى القرن الثالث عشر الميلادي على بلاد معينة من بلاد السودان الغربي، وعلى مملكة تقع على النيل (السنغال)، حتى أن الحموي في "معجم البلدان" وتحت مادة "تكرور" يشير إلى أنها "بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج"، إلاَّ أنه فيما بعد ومع تبدل العلاقات السياسية في السودان الغربي، وصعود إمبراطورية مالي التي ضمت في كنفها بالإضافة إلى إمبراطورية غانة والسنغي، فقد ألحقت بلاد التكرور إليها، فقد صار بعض المؤلفين مثل الدمشقي يقرن بين "التكرور" وبلاد السودان الغربي أو المنطقة الممتدة ما بين النيجر والنيل المصري، أو ما يعرف حالياً بـ"السودان الأوسط". أما فضل الله العمري فقد عادل بين "بلاد التكرور" وإمبراطورية مالي أحياناً، وإن كان في تقسيمه لإمبراطورية مالي يضع "التكرور" كجزء من خمسة عشر قسماً تتألف منها مالي، غير أنه يشير أن صاحب مالي "هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور"[٨٠٤]. وحذا القلقشندي حذو العمري في النظر إلى بلاد التكرور، من حيث إمكان إطلاقها على بلاد إمبراطورية مالي، في الوقت الذي هي فيه جزء منها.

---

(٧٩٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٠.

(٧٩٨) المصدر نفسه، ص٢٠.

(٧٩٩) ابن سعيد المغربي، ص٩١.

(٨٠٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٠.

(٨٠١) المصدر نفسه، ص٢٠

(٨٠٢) ابن سعيد المغربي، ص٩١.

(٨٠٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، المصدر السابق، ص٢٦.

(٨٠٤) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، الباب العاشر، عن الدكتور صلاح الدين المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٣، ص٤٤.

ب- مملكة غانة Ghana

يمكن الاستخلاص من المؤلفات العربية الوسيطة أن دولة غانة القديمة قامت في المنطقة الواقعة ما بين حوض السنغال الأعلى ومجاري النيجر العليا، اللذان يظن المصنفون العرب أنهما من تفرعات النيل، وتبعد عن غانة الحالية شمالاً قرابة ألف ميل، وتقع أطلالها على الحدود الجنوبية لموريتانيا الحديثة، وضمن أراضي مالي الحالية. ويبدو أن نشاطها يعود تقريباً إلى القرن الخامس الميلادي، وكان لموقعها على الطريق التجاري الكبير الذي يصل شمال إفريقيا بمصادر الذهب أثره الكبير في انتعاشها وفي اقترانها بالذهب في المخيال العربي الوسيطي. ويرجع الفضل للجغرافيين والرحالة العرب في تعريف العالم بغانة القروسطية، فإن "القليل الذي نعرفه عن غانة مصدره الجغرافيون العرب"[٨٠٥] كما يقول بانيكار، ويذهب زيربو "أن مملكة غانة هي أول إمبراطورية سوداء نعرف أحوالها معرفة تكاد تكون موثوقة، ونحن نعتمد في ذلك بالدرجة الأولى على كتابات المعلمين العرب"[٨٠٦]. وكان محمد بن إبراهيم الفزاري (القرن الثامن الميلادي) أول من أشار إليها، بوصفها "مملكة بلاد الذهب"، وذلك في كتابه "السند هند الكبير" الذي أعده للخليفة العباسي المنصور (ت ١٥٨هـ-٧٧٥م)، كما أشار إليها الخوارزمي أبو جعفر محمد بن موسى في "زيج الخوارزمي" الذي ألفه ما بين عامي (٨٣٦ و٨٣٧م)[٨٠٧]. وأشار إليها اليعقوبي نهاية القرن الثالث الميلادي في "تاريخه" بقوله "مملكة غانة، ملكها عظيم الشأن، وفي بلاده معادن الذهب، وتحت يده عدة ملوك، فمنهم مملكة عام ومملكة سامة، وفي هذه البلاد كلها الذهب"[٨٠٨].

ويقرنها ابن الفقيه بالذهب وعجائبه، فعنده أن "بلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتاً في الرمال كما ينبت الجزر، ويُقطف عند بزوغ الشمس، وطعامهم الذرة واللوبياء، ويسمون الذرة الدخن، ولباسهم جلود النمور، وهي هناك كثيرة"[٨٠٩].

ويلفت المسعودي انتباهنا بحصافة إلى أن الذهب يقع في بلاد متصلة في غانة، وهي إشارة إلى بلاد (ونقارة Ouangara) منطقة الذهب الرئيسية، كما ينبهنا إلى "التجارة الصامتة" التي تجري مع أصحاب الذهب الجنوبيين، حيث يذكر "ومملكة غانة، وملكها عظيم الشأن، ويتصل ببلاده معادن الذهب، وبها منهم أمم عظيمة"، وبعد أن يشير إلى (التجارة الصامتة) التي تجري بين أصحاب الذهب الجنوبيين والتجار، يقول "وتحت يد ملك غانة عدة ملوك، وممالك كلها فيها الذهب ظاهر على الأرض يستخرجه أهله، ويعملونه مثل

---

(٨٠٥) بانيكار، ص٧٣.
(٨٠٦) زيربو، ص١٧٠.
(٨٠٧) زيادة، إفريقيات، ص٣٤٣-٣٤٤.
(٨٠٨) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مجلد١، ٢١٩.
(٨٠٩) ابن الفقيه، ص٨٧.

التبن"[٨١٠]. أما ابن حوقل الذي وصل في رحلاته إلى جوار غانة، فقد لاحظ العلاقات التجارية الحميمة التي تربط غانة بأودغست وسجلماسة الصحراويتين، كما شهد بغنى ملكها الذي بدا له "أيسر من على وجه الأرض من ملوكها، بما لديه من الأموال والمدخرة من التبر، المثار على قديم الأيام للمتقدمين من ملوكهم"[٨١١].

لكن الحلقة الحاسمة في التأليف العربي حول غانة أتت مع البكري في القرن الحادي عشر الميلادي، ثم أتى بعده الإدريسي وابن سعيد والغرناطي وابن خلدون، وغيرهم من الباحثين، ليكملوا الصورة التي صاغ البكري هيكلها العام.

العاصمة والملك ومظاهر القوة:

نستطيع مع لحظة البكري، التي تعتبر نقطة المحرق للتأليف العربي حول غانة، أن نستشرف انطلاقاً منها، بعد ضم مساهمات ماقبله ومابعده من المصنفين العرب، الصورة العامة لغانة في المتخيل العربي، وحدود المعرفة العربية لها في ذلك الزمان.

دوَّن البكري كتابه "المسالك والممالك" في قرطبة، ودرس فيه غانة مازجاً التاريخ بالجغرافية بالإثنوغرافيا دون أن يشاهد تلك البلاد مباشرة، لكنه استفاد من أرشيف ديوان حكام الأندلس الأمويين بما يحويه من سجلات ووثائق، كما استعان بالأخبار المتواترة المشهورة وبما سمعه من التجار والرحالة والمغامرين والحجاج الذين زاروا تلك البلاد أو خرجوا منها "ولقد أكدت الحفريات الحديثة الكثير من أقواله"[٨١٢].

وأول ما يوضحه هو اسم غانة يطلق على عاصمة المملكة، ويمثل لقباً للملك "وغانة سمة ملكهم، واسم البلد أوكار"[٨١٣]. ويذهب القلقشندي مع أبو الفداء بالاتجاه نفسه "وقاعدته (أي الملك) مدينة غانة.. وهي محل سلطان بلاد غانة"[٨١٤]، وقد أثار تحديد موقع "العاصمة" بالإضافة إلى اسمها جدل الباحثين المعاصرين، إلا أن وصف البكري للمسافات التي تفصلها عن أماكن محددة بالإضافة إلى وصفه للمدينة نفسها أعطى إشارات مهمة للباحثين، فهي "متقنة المباني حسنة المنازل، ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، وبينها وبين مدينة أودغست خمسة عشر يوماً"[٨١٥]، وأما "الطريق من غانة إلى غيارو Ghiarau إلى مدينة سامقندي فأربعة أيام"، وبين كوغة (وتسمى غوا وكوكو Gao) "ومدينة غانا مسيرة خمس عشرة رحلة"، وبينها وبين (تادمكة Tadmakka) مسيرة خمسين يوماً[٨١٦].

لذا يبدو عند المقارنة أن الموقع المكتشف حديثاً لمدينة كومبي صالح Koumbi Saleh في جنوب موريتانيا الحالية "أفضل موقع تنطبق عليه أوصاف البكري، الذي حدده بدقة"[٨١٧]، ومما يساعد على هذا التفسير إشارة محمود كعت (القرن السادس عشر الميلادي) ذات المغزى "وكان اسم مدينته (أي ملك غانة) هو (كومبي) وهي مدينة ذات اعتبار"[٨١٨].

ويصف البكري مدينة غانة العاصمة وصفاً أخاذاً نتعرف فيه على علو مكانتها وغناها، وإلى حالة المركزية

---

(٨١٠) المسعودي، أخبار الزمان، ج١، ص٨٨.
(٨١١) ابن حوقل، ص٩٨.
(٨١٢) زيربو، ص١٧١.
(٨١٣) البكري، ص١٧٤.
(٨١٤) القلقشندي، ج٥، ص٢٨٤.
(٨١٥) البكري، ص١٦٨.
(٨١٦) المصدر نفسه، ص١٧٧ و١٧٩ و١٨١.
(٨١٧) زيربو، ص١٧٧.
(٨١٨) محمود كعت بن الحاج المتوكل الكعتي: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش، باعتناء هوداس، باريس ١٩١٣، ص٤١.

السياسية للدولة الغانية متمثلاً في دور العاصمة المحوري، والتي يباشر فيها الملك سلطته انطلاقاً منها، يساعده وزراؤه ومساعدوه، بالإضافة إلى وصفه للتعايش بين السكان المسلمين والوثنيين الذين كان الملك نفسه على دينهم، رغم اعتماده الكبير على المسلمين، ومن خلال ذلك نتعرف على مدى تغلغل الإسلام في بلاد غانة، ومدى اعتماد البلاط الملكي عليهم، كما نتعرف على الطقوس الدينية للغانيين وطريقة دفنهم لموتاهم وطريقة توريثهم الملك، ولباسهم وطعامهم وتجارتهم.. والتوزيع الطبوغرافي للسكان، وعلى أماكن عبادتهم.

ومدينة غانة كما تبدو للبكري "مدينتان سهليتان: إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً، أحدها يجتمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم، وحواليها آبار عذبة منها يشربون، وعليها يعتملون الخضروات"[٨١٩]. أما المدينة الثانية فهي على ستة أميال من الأولى، ويسميها مدينة الملك، تحيطها الغابات المقدسة لذا "تسمى بالغابة"، وفيها مسجد يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين "على مقربة من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات أو شعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم، وفيها دكاكيرهم (أصنامهم)، وهناك سجون الملك لا يخرج من يدخلها أبداً"[٨٢٠].

فالمدينة تعاني الانقسام الاجتماعي - السكاني بين المسلمين وأصحاب عبادة "الدكاكير" في ظل تعايش وتكامل، فكل طرف في منطقة خاصة به، على الرغم من التبعية السياسية للملك الذي مازال على عبادة "الدكاكير"، فهي مدينة يتعايش فيها الإسلام مع الوثنية: دين الحكام ودين القسم الرئيسي من الرعية، ويذهب هذا التعايش إلى درجة أن "تراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب ماله وأكثر وزرائه"[٨٢١]، فيبدو الإسلام والمسلمين في حالة تمدد وتغلغل في المجتمع الأهلي والمجتمع السياسي، شبيه بحال المسيحيين في القسطنطينية قبل أن ينحاز قسطنطين إلى المسيحية.

ويشير البكري إلى أن "اسم ملكهم اليوم هو سنة ستين وأربعمائة (= ١٠٦٧م): تنكامنين، وولي سنة خمس وخمسين (وأربعمائة)، وكان اسم ملكهم قبله: بسى"[٨٢٢]، وكان لايزال على الوثنية وعبادة الدكاكر، إلاَّ أن هذا لم يمنع البكري من إطرائه، فهو "محباً للعدل، مؤثراً للمسلمين"[٨٢٣]. ويعتمد توريث الملك لديهم على اتباع خط العائلة الأمومية، أو خط الوراثة الخؤولية أي أن ابن أخت الملك هو الذي يخلفه في الملك، فالملك السابق "بسى هو خال تنكامنين"، وهذا النظام التوريثي هو "سيرتهم (عادتهم)، ومذهبهم"، وتفسير البكري لهذا التقليد هو "أن الملك لا يكون إلاَّ في ابن أخت الملك، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه، ولا يقطع على صحة اتصاله"[٨٢٤].

وإلى جانب شهادته بعدل الملك تنكامنين وبرعايته للمسلمين، وهو الملك الوثني والأسود، فإنه يشهد على عظمة ملكه "فتنكامنين هذا شديد الشوكة، عظيم المملكة مهيب السلطان"[٨٢٥].

ويبدو أن رخاء غانة قد أدهش المسافرين المسلمين الذين نقل عنهم البكري، وكان مجلس الملك كبير يضم كبار وجوه مملكته بما فيهم المسلمين، وكان من عادة الملك الاحتفاظ ببعض أبناء ولاته في بلاطه كرهائن، يشاركهم المشاورة.

---

(٨١٩) البكري، ص١٧٥. ولقد تحول وصف البكري للعاصمة الغانية على أنها مدينتان، إلى "صورة نمطية" كررها المؤلفون الذين أتوا بعده، فيذكر الإدريسي في نزهة المشتاق، ص٢٣. "وغانا مدينتان على ضفتي البحر الحلو"، وأيضاً القلقشندي، ج٥، ص٢٨٤. وراجع ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٢. والقزويني، ص٩٧. واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص١٩٤. وياقوت الحموي، مجلد٤، ص١٨٤.

(٨٢٠) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٨٢١) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٨٢٢) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٨٢٣) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٨٢٤) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٨٢٥) المصدر نفسه، ص١٧٥.

ويعكس لنا البكري في وصفه لمجلس الملك: أبهة المملكة، وحاشية الملك، والطقوس أو المراسيم المصاحبة لذلك الاجتماع، والمصاحبة للقاء والحاشية للملك، فالملك يجلس للناس ويبحث المظالم في قبة "يكون حوالي القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة، ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الجحف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده وقد ضفروا رؤوسهم على الذهب، وعليهم الثياب الرفيعة، ووالي المدينة، بين يدي الملك، جالس في الأرض وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض، وعلى باب القبة كلاب منسوبة، لا تكاد تفارق موضع الملك وتحرسه، وفي أعناقهم سواجير الذهب والفضة، يكون في الساجور، عدد رمانات ذهب وفضة، وهم ينذرون (يعلنون) بجلوسه بطبل يسمونه دباً، وهو خشبة طويلة منفورة، فيجتمع الناس"[٨٢٦].

وكان الملك يضم في حاشيته المسلمين، كالمترجمين وخازن الملك وغالبية وزرائه، كما ذكرنا، وذلك لتسامح الملك ولكفاءة المسلمين، فكان بلاطه خليط من المسلمين وعبدة الأصنام وعلى رأسهم الملك تنكامنين، إذ أن "ديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير".

وعند مقابلة الرعية للملك تقتضي منهم تحية خاصة تختلف عن تحية "أصحاب دينه" له: "فإذا دنا أهل دينه جثوا على ركبهم، ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له. وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقاً باليدين"[٨٢٧]. ولعل هذا فيه إشارة إلى رفض المسلمين السجود لغير الله، وهي مسألة نجدها عند "الغزال" عندما زار ملك النورمنديين في الشمال الأوربي، وعندما أرسل خليفة بغداد الرسل إلى بلاط بيزنطة، ولقد تفهَّم الملك الغاني هذا الاعتقاد، أما تحية (أصحاب دينه) فتكون بإهالتهم التراب على رؤوسهم وتسمى "التتريب".

وكان الملك يحكم بلاده الواسعة من خلال ولاة ينوبون عنه، وفي مجلسه كان يجلس إلى جانبه والي غانة نفسها، وإلى جانب الولاة هناك القاضي الذي يسميه البكري "الأمين" الذي يحكم بين الناس، فيقول ابن الوردي (ت ١٥٢٤م) "كان ملك غانة ممالك عديدة فيها ملوك من تحت يده"[٨٢٨]، ولقد دأب المصنفون العرب على مدح عدالة سلاطين السودان. وكان من مظاهر عظمة هذه المملكة وقوتها، هو ضخامة جيشها الذي يصل عدده إلى "مايتي ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألفاً"[٨٢٩]. كما تتسع حدودها لتتصل كما يشير الإدريسي "من غربها ببلاد مفزارة، ومن شرقها بلاد ونقارة، وبشمالها الصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر، وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية Lem Lem وغيرها"[٨٣٠]. وقد نوه ابن حوقل من قبل بتبعية المدينة التجارية الهامة أودغست لملك غانة بقوله "وملك أودغست هذا يخالط غانة، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها"[٨٣١]. ويشير البكري بوضوح أن أودغست كانت تابعة لغانة قبل سيطرة المرابطين عليها، ويعلل غزوة المرابطين لها، لأنهم "نقموا عليهم (على أهل أودغست)، أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة"[٨٣٢]، ويحدثنا البكري أيضاً عن مدينة (برسنى) التابعة لغانة، في غربي غيارو "يسكنها مسلمون، وماحولها مشركون"[٨٣٣].

كانت الحياة في مدينة الملك متصلة بشارع عريض "وبمساكن متصلة، ومبانيها بالحجارة وخشب السنط،

---

(٨٢٦) المصدر نفسه، ص١٧٦.
(٨٢٧) المصدر نفسه، ص١٧٦.
(٨٢٨) ابن الوردي، أبو البركات محمد بن أحمد: تاريخ ابن الوردي، نشر هيلاندرة، لندن (نسخة مصورة - المكتبة الوطنية بحلب)، ص١٦٠.
(٨٢٩) البكري، ص١٧٧.
(٨٣٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤.
(٨٣١) ابن حوقل، ص٩٨.
(٨٣٢) البكري، ص١٦٨.
(٨٣٣) المصدر نفسه، ص١٧٧.

وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حايط كالسور"[٨٣٤]. ويصف الإدريسي بعد مايقارب المائة عام من تقرير البكري، قصر ملك غانة الذي بناه عام ٥١٠هـ - ١١١٦م، على أنه "على ضفة النيل، وقد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه، وزينت مساكنه بضروب من النقوش والأدهان وشمسيات الزجاج"[٨٣٥]. ويضيف إلى ذلك الكعتي، وصفاً لاصطبلات الملك، حيث "كان لكل من الخيول الألف التي يملكها الملك مفروش خاص ينام عليه، ولكل واحد منها في عنقه وفي قدمه رسن من الحرير ووعاء من النحاس ليبول فيه. ولكل واحد ثلاثة من السواس يعتنون به، أحدهم لطعامه والثاني لشرابه والثالث لبوله وبرازه"[٨٣٦].

وبين وصف الإدريسي هذا ووصف البكري، يشير المصنفين العرب إلى تعرض غانة إلى هزة سياسية عميقة جراء غزو المرابطين المسلمين لعاصمتها سنة ٤٦٩هـ-١٠٧٦م، وقد نوه ابن خلدون إلى هذه الغزوة المرابطية إلا أنه بالغ في تأثيرها التدميري بقوله "ثم أن أهل غانة ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين (المرابطين) المجاورين لهم من جانب الشمال، مما يلي البربر، كما ذكرناه، وعبروا إلى السودان واستباحوا حماهم وبلادهم، واقتضوا منهم الأتاوة والجزى، وحملوا كثيراً منهم على الإسلام فدانوا به"[٨٣٧]. غير أن الإدريسي وابن سعيد والغرناطي يشهدون على ازدهار غانة مجدداً وتوطد قوتها، وترافق هذا التحول مع تبدل أصاب دين الحكام، حيث تبنت الأسرة الحاكمة الجديدة الإسلام، وتحول غالبية الغانيين إلى الإسلام.

مع إدراك التحولات الحاصلة بعد البكري، إلاّ أن المصنفين العرب الذين أتوا بعده تناقلوا صورته عن العاصمة الغانية، وكأنها أضحت "صورة نمطية ثابتة"، وقد أضاف الإدريسي إلى هذه (الصورة) واقع ازدهار غانة في القرن الثاني عشر الميلادي وتوسع علاقاتها التجارية وأسلمة أهلها، بعد أن تغلبت على أزمة الغزو المرابطي، وذلك بقوله "وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطراً، وأكثرها خلقاً، وأوسعها متجراً، وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها... ومن سائر بلاد المغرب الأقصى، وأهلها مسلمون"[٨٣٨]. كما أصبح ملك غانة مسلماً ومن سلالة ابن عم النبي يتبع الخلافة العباسية، وكما يقول الإدريسي "من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي"[٨٣٩].

ويشهد الزهري (ت ٥٥٦هـ-١١٦٠م) على قوة جيش الغاني اعتماداً على أسلحته الحديدية، قبل عام ١١٥٠م، فهو يشير إلى أن سكان غانة قاموا بحملات حربية ضد جيرانهم، وانتصروا عليهم بفعل أسلحتهم الحديدية من السيوف والحراب والرماح والخناجر، فضلاً عن القوس والنشاب. في حين جيرانهم يحاربون بقضبان من الأبنوس[٨٤٠].

وذكر البكري ومعه الإدريسي وابن سعيد المغربي بعض المدن التابعة لغانة، كمدينة غيارو التي يسميها الإدريسي غيارة، التي تبعد عن مدينة الملك "ثمانية عشر يوماً، في بلاد معمورة بقبائل السودان، مساكن متصلة"

---

(٨٣٤) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(٨٣٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣.

(٨٣٦) كعت، ص٣٩-٤٠.

(٨٣٧) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٣.

(٨٣٨) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣.

(٨٣٩) المصدر نفسه، ص٢٣.

(٨٤٠) عن طرخان، إمبراطورية غانا الإسلامية، د.إبراهيم علي، وزارة الثقافة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر ١٩٧٠، ص٦٣-٦٤.

وفيها "من المسلمين كثير"[٨٤١]، وتقع على ضفة النيل (السنغال)، وأهلها حسب الإدريسي "أهل نجدة ومعرفة"، ويضيف الإدريسي إلى ذلك هو أنهم يغيرون على جيرانهم الجنوبيين أهل لملم "ليغنموا ويرجعوا إلى بلدهم.. من السبي من أهل لملم"[٨٤٢]، وهي إشارة إلى اهتمامهم بتجارة الرقيق. كما يتحدث الإدريسي عن مدينة غربيل، على سفح جبل، يشرب أهلها من مياه النيل (نهر السنغال)، أما لباسهم فمن "الصوف، وأكلهم الذرة والحوت وألبان الإبل.. ويتصرفون.. في ضروب التجارات"[٨٤٣].

كما أن هناك مدينة سامغندي، وتبعد عن مدينة غانة أربعة أيام، يقول البكري عن أهلها، أنهم "أرمى السودان بالنشاب"[٨٤٤]. ويسمي ابن سعيد هذه المدينة سامقدي، ويذكر أن جبلها (جبل سامقدي) كبير، وفيه "عقاقير ونباتات من منافع تلك البلاد، ويأوي إليه خلق من كفرة السودان المهملين المعروفين بسامقدي"[٨٤٥]. كما يشيرون إلى مدن أخرى: باسيكور Bassikura في الشرق، وديارا Diara في الغرب، وكانياجا Kaniaga موطن الصوصو Sosso في الجنوب الشرقي.

الموقع السلالي:

يذهب المسعودي إلى أن حكام غانة الأوائل أتوا من بلاد الحبشة، أو تفرعوا عن أولاد حام الذين عبروا النيل غرباً، ويشير في مؤلفه "أخبار الزمان" إلى أنهم من أولاد (سودان بن كنعان)[٨٤٦]، ولقد فصل الأمر في "مروج الذهب" كما رأينا، وشرح كيف سار ولد كوش بن كنعان بعد أن قطعوا النيل، فسارت طائفة منهم إلى المشرق "وهم النوبة والبجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب.. ومنهم الزغاوة والكانم ومركة وغانة وغير ذلك من أنواع السودان". وقد ذهب اليعقوبي المذهب ذاته، وهو ما يقربهم إلى الجنس العربي طالما أنهم يمتون بصلة بأولاد كنعان، الذين أصلهم من بلاد الشام، ولعل النسبة إلى أصول شرقية هو أمر مألوف لدى الكثير من ملوك السودان أمثال ملك مالي وملك بورنو، وقد مال إلى ذلك كلاً من كعت والسعدي (القرن ١٦م)، إذ استبعدا الأصول الزنجية لملوك غانة الأوائل، أشار الأول "واختلف أي قبيلة هم كانوا منها، قيل من وعكري Wakora (ومعناها ملك الذهب)، وقيل من ونكر وهو ضعيف لا يصح، وقيل من الصنهاجة وهو أقرب عندي، لأنهم يقولون في نسبهم اسكُعُ صوبَ.... والأصح أنهم ليسوا من السودان والله أعلم"[٨٤٧]. أما السعدي فلا يذكر سوى أن الحكام كانوا من العنصر الأبيض، وأن هناك أربعة وأربعين أميراً، اثنان وعشرون منهم حكموا قبل الهجرة النبوية، واثنان وعشرون بعدها، إذ يقول "وقيمع هو الذي بدأ السلطنة في تلك الجهة، وأراد إمارته غانة، وهي مدينة عظيمة في أرض باغن Baghnana، قيل أن سلطنتهم كانت قبل البعثة، فتملك حينئذ اثنان وعشرون ملكاً، وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكاً، وعدد ملوكهم أربعة وأربعون ملكاً، وهم بيضان في الأصل.."[٨٤٨].

ويميل الباحثون المعاصرون إلى حقيقة أن قبائل السوننك Soninke تشكل أهم القبائل المكونة لسكان غانة، وتضم السوننك فروعاً مختلفة، واستعمل الفولاني والهوسا Housa والسنغي Sengi تسمية أخرى على السوننك هي: انجرا أو انكر Ungara، ونقارة Wangara، وعكرى Wakara، وهو مصطلح يطلق على (الماندنجو

---

(٨٤١) البكري، ص١٧٧.

(٨٤٢) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٦.

(٨٤٣) المصدر نفسه، ص٢٦.

(٨٤٤) البكري، ص١٧٧.

(٨٤٥) ابن سعيد المغربي، ص٩٢.

(٨٤٦) المسعودي، أخبار الزمان، ج١، ص٨٨.

(٨٤٧) كعت، ص٤٢.

(٨٤٨) السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله: تاريخ السودان، باعتناء هوداس، باريس ١٩٦٤، ص٩.

Mandigis) كما عُرفت به مناطق الذهب[٨٤٩].

وقد قامت أسرة من (السوننك) السوداء في القرن الثامن الميلادي، وهي أسرة سيس Sisses، بطرد الأسرة الحاكمة البيضاء (كيمع) وحلت محلها في حكم غانة، ومنها ملك غانة تنكامنين الذي عرَّفنا عليه البكري، وقد صوَّر كعت هذا الانقلاب بقوله "ثم أفنى الله ملكهم (= من أسرة كيمع) وسوّى أراذلهم على كبرائهم.. وقتلوا جميع أولاد ملوكهم.."[٨٥٠].

ولعل هذه الأسرة الحاكمة (السنكي) قد انقطعت وفقدت حكم غانة بعد الغزوة المرابطية، أو لعلها بقيت حاكمة بعد أن أسلمت مع غالبية الغانيين، وبقيت في السلطة حتى انهيار دولة غانة في نهاية القرن الثالث عشر، وتحولت إلى تابعة للسنغي أولاً، ثم لإمبراطورية مالي تالياً، لكن المصنفين العرب وفي مقدمتهم الإدريسي وابن سعيد المغربي والمقريزي يذهبون مذهباً آخر، حيث أكد الإدريسي أن ملك غانة في زمنه (القرن ١٢م) كان عربياً من سلالة علي بن أبي طالب، ويتبع في ولائه الخلافة العباسية[٨٥١]. ويشير ابن سعيد المغربي "وهو (أي سلطان غانة) من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنه، وهو كثير الجهاد للكفار"[٨٥٢].

التحول الديني:

عرَّفنا البكري من خلال وصفه للعاصمة غانة، التوزع الطبوغرافي الديني، حيث يسكن في مدينة الملك (=الغابة) عبدة الدكاكير (الأصنام)، فديانة الغانيين الأصلية "المجوسية وعبادة الدكاكير"، لهذا يوجد حول مدينة الملك "قباب وغابات وشَعراء (ربما شجر الحمض) يسكن فيها سحرتهم" الذين على هذه الغابة "يقيمون دينهم، وفيها دكاكيرهم، وقبور ملوكهم"، فيصف البكري هذه الغابة على أنها عالم تكتنفه أسرار ديانتهم بما فيها أصنامهم وقبور ملوكهم التي هي موضوع للتقديس لديهم، ولهذا أقاموها في الغابة السحرية المقدسة، ولكل هذا فقد وضعوا على "تلك الغابة حرس لا يمكن لأحد من دخولها ولا معرفة ما فيها"[٨٥٣]. ورغم أن الملك من عبدة الدكاكير لكنه كان متسامحاً مع المسلمين، بل كانوا مقربين منه ومن سلطته.

ويبدو أن الغانيين كانوا يؤمنون بالمذهب الحيوي، أي الاعتقاد بوجود حياة وراء كل شيء، فضلاً عن إمكانية البقاء بعد الموت، لهذا فقد تضمنت مراسيمهم للدفن المتعلقة بالملك ما يفيد بوجود حياة بعد الموت، حيث يترافق الدفن بطقوس خاصة، لا نعلم إن كان للعامة طقوساً مشابهة لها أو طقوساً خاصة بهم، فمن عادات دفن الملك لديهم أن يدفنوا معه خدمه والمقربون إليه، فضلاً عن طعامه وشرابه، مع طقوس خاصة مرافقة لعملية الدفن، وهو ما يذكرنا بعادة الدفن لدى الروس القدماء كما وصفها ابن فضلان في رحلته الشهيرة، ويصف البكري عملية الدفن هذه بدقة مذهلة وبحيادية لا تحمل أي استصغار "وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج، ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفراش والوطا، فأدخلوه في تلك القبة، ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل بها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالاً ممن كان يخدم طعامه وشرابه، وأغلقوا عليهم باب القبة، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة. ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي (تصبح) كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم، إلاّ من موضع واحد"[٨٥٤]، ويشير أيضاً إلى أن من عاداتهم أن "يذبحوا لموتاهم الذبائح، ويقربون لهم

---

(٨٤٩) طرخان، إمبراطورية غانة، ص١٨-٢٠.
(٨٥٠) كعت، ص٤٢.
(٨٥١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣.
(٨٥٢) ابن سعيد المغربي، ص٩٢.
(٨٥٣) البكري، ص١٧٥.
(٨٥٤) المصدر نفسه، ص١٧٦.

الخمور"[٨٥٥]، وهي عادة يتبعها - كما يبدو - العامة والملوك معاً.

وفي زمن البكري، كان المسلمون يجاورون في سكناهم أصحاب عبدة الأصنام ويتعايشون معهم في العديد من المدن الغانية بما فيها العاصمة، وهو ما يدل على قدم دخول الإسلام إلى غانة، والطابع السلمي لانتشاره. ويميل بعض المصنفين العرب للاعتقاد بدخول الإسلام مبكراً إلى غانة، فحسب القلقشندي "كان أهلها مسلمون في أول الفتح"[٨٥٦]. ويميل البكري إلى هذا الادعاء إذ يؤكد على وجود جماعة في غانة من بقايا الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه -حسب ادعائه- إلى غانة، حيث يقول "وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين، من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة، إلاَّ أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان، حسان الوجوه"[٨٥٧]. فهؤلاء المسلمين الذين أتوا فاتحين، ارتدوا إلى الوثنية وعبادة الأصنام، إلا أنهم لم يتبادلوا التناسل مع شعب غانة.

أما في زمن الإدريسي، فنعلم أن ملوك غانة غدوا مسلمين، مع غلبة الإسلام على غانة وأهلها، حتى أن ملوكهم كانوا حريصين على الحصول على الشرعية وذلك بإظهار ولائهم للخلافة ببغداد؛ إلى أن ضم غانة ملوك السنغي عام ١٢٠٣م، وما لبث أغنياؤها المسلمين أن لجؤوا إلى (والاتا) التي طبعوها بطابعهم.

ثروة الذهب وأشياء أخرى:

اقترن اسم غانة في المخيلة العربية بالذهب وبثروتها الطائلة منه، لدرجة أن ابن الفقيه تحدث عن "بلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتاً في الرمل كما ينبت الجزر"، وأورد هذا القول - إضافة إلى ابن الفقيه- كثير من الجغرافيين العرب والمؤرخين كاليعقوبي. وجعلت هذه الثروة الطائلة من الذهب الرحالة الغرناطي يشير في تقريره الرحلي إلى أن "غانة ينبت في رمالهم التبر"[٨٥٨]، وكان تجار شمال إفريقيا يحملون حجارة الملح من سجلماسة على الجمال "فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزناً بوزن الذهب، وربما باعوا وزناً (من الملح) بوزنين (من الذهب) أو أكثر، على قدر كثرة التجار وقلتهم"[٨٥٩]. وكما يقول ابن حوقل "وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام"[٨٦٠]، وعملية التبادل هذه لا يمكن فهمها إلاَّ لتراكم الذهب في غانة، وقلة الملح، وبالمقابل غنى بلاد الشمال الإفريقي بالملح وافتقارهم إلى الذهب؛ ويتردد الجغرافيون بين القول بأن الذهب يوجد في أرض غانة نفسها، وبين توزعه بين غانة وأرض ونقارة المجاورة لغانة، والتي تبدو لهم الخزان الرئيسي للذهب. فالبكري مثله في ذلك مثل الغرناطي والمسعودي واليعقوبي والهمذاني وابن الفقيه، يشدد على غنى أرض غانة نفسها بالذهب، وعلى احتكار الملك نفسه لهذه الثروة، وهو مصدر غناه الذي يتجلى في وصف البكري للبلاط الملكي، حيث كان الذهب يموه ويغمر كل شيء في القصر، من سلاسل الكلاب وسيوف الغلمان إلى ثياب الملك وضفائر الأمراء. وفيما تناقله الجغرافيون العرب، الرواية القائلة إن الملك يمتلك كتلة ضخمة من الذهب، يقول الإدريسي "والذي يعلمه أهل المغرب علماً يقينياً لا اختلاف فيه، أن له في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلاً، من ذهب تبرة واحدة، خلقها الله خلقة تامة، من غير أن تسبك في نار أو تطرق بآلة، وقد نفذ فيها ثقب، وهي مربوطة لفرس الملك.. وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان"[٨٦١].

---

(٨٥٥) المصدر نفسه، ص١٧٦.
(٨٥٦) القلقشندي، ج٥، ص٢٨٤.
(٨٥٧) البكري، ص١٧٩.
(٨٥٨) الغرناطي، أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق د.إسماعيل العربي، دار الجيل - بيروت والآفاق الجديدة -المغرب، ١٩٩٣، ص٣٩.
(٨٥٩) المصدر نفسه، ص٣٩.
(٨٦٠) ابن حوقل، ص٢٠١.
(٨٦١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣.

ويشير البكري إلى أن أفضل الذهب في غانة "ما كان بمدينة غيارو.. فإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها الملك (له)، وإنما يترك للناس هذا التبر الدقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون"[٨٦٢]. ونعلم من البكري أن اسم حبة التبر تسمى عندهم (ندرة) و"عند الملك ندرة كالحجر الضخم"[٨٦٣]. إلا أن الإدريسي يعطي لذهب ونقارة المجاورة مكانة الصدارة "وتتصل مملكته (ملك غانة) وأرضه بأرض ونقارة، وهي بلاد التبر الموصوفة به كثرة وطيباً"[٨٦٤].

وأرض ونقارة هذه، كما وصفها الإدريسي بإسهاب كانت مركز للذهب ولتجارته، وأن "أهلها أغنياء التبر"، وبأنها تبعد عن مدينة غانة ثمانية أيام، وهي "بلاد التبر المشهور بالطيب والكثرة"، وهي جزيرة طولها ثلاث مائة ميل، وعرضها مائة وخمسون ميلاً، والنيل (السنغال) يحيط بها من كل جهة طوال السنة "فإذا كان في شهر أغشت (أغسطس)، وحمى القيظ، وخرج النيل وفاض، وغطى هذه الجزيرة أو أكثرها، وأقام عليها مدته التي من عادته أن يقيم عليها، ثم يأخذ في الرجوع والجذر، ورجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحثاً، يبحثون طوال أيام رجوع النيل، فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيراً أو قليلاً من التبر، وما يخيب منهم أحد. فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر، وتاجر بعضهم، واشترى أكثرة وارقلان (وارجلان Ouargla، وهي على الحدود الليبية) وأهل المغرب الأقصى، وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم، فضربون دنانير يتصرفون بها في التجارات والبضائع.

هكذا في كل سنة، وهي أكبر غلة عند السودان، وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم"[٨٦٥].

وأطلق ابن سعيد المغربي على ونغارة هذه اسم "جزيرة التبر"، "وفي هذه الجزيرة يجدون التبر الكثير يلمع بالليل إذا حسرت المياه الزائدة عن رملها، وعلى هذه الجزيرة مدن مشهورة منها مدينة سمغارة، ومن مدن التبر غيارو"[٨٦٦]. وقد احتكر ملك غانة هذه الثروة الذهبية، فهو كما يقول البكري "ولملكهم (ضريبة) على حمار الملح (ومقدارها) دينار ذهب في إدخاله البلد، وديناران في إخراجه، وله على حمل الناس (حمولة الرجل) خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل"[٨٦٧]. ويتحدث ابن سعيد المغربي أن حوالي مدينة (كوغة) معادن التبر بكثرة، وتبادله بسلع مقابله "وأكثر ما تجهز إليها بالملح والنحاس والودع"[٨٦٨]. ولعل التجار الشماليون عندما يأتون ببضائعهم التي تضم المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية والأرجوانية، وخواتم النحاس، واللؤلؤ الأزرق، والملح والبلح والتين من الصحراء الكبرى ومن شمال إفريقية يتجهون بواسطة تجار غانة جنوباً إلى هذه البلاد (ونقارة)، التي سماها المسعودي "بلاد الذهب" التي يفصلها (حد) عن غانة، فيمارس التجار عنده ما يسمى بـ(التجارة الصامتة) مع السكان الجنوبيين "فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكيسة عليه وانصرفوا، فيأتي أولئك السودان ومعهم الذهب فيتركونه عند الأمتعة وينصرفون، ويأتي أصحاب الأمتعة فإذا أرضاهم (أخذوه)، وإلا عادوا فرجعوا، فيعود السودان فيزيدونهم حتى تتم المبايعة"[٨٦٩].

وعلى هذا تصبح مادة الذهب أساس ثروة الملك ومادة رئيسية للتجارة الدولية، فضلاً عن تجارة الرقيق

---

(٨٦٢) البكري، ص١٧٦-١٧٧.
(٨٦٣) المصدر نفسه، ص١٧٧.
(٨٦٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣.
(٨٦٥) المصدر نفسه، ص٢٥.
(٨٦٦) ابن سعيد المغربي، ص٩٣.
(٨٦٧) البكري، ص١٧٦.
(٨٦٨) ابن سعيد المغربي، ص١٧٩.
(٨٦٩) المسعودي، أخبار الزمان، ج١، ص٨٨.

المجلوبة من بلاد الجنوب، ونعرف إلى جانب ذلك ما تزخر به غانة من ثروات زراعية وحيوانية، فعندهم خيل قصيرة والماعز، وشجر الأبنوس الجيد المجزع، وفضلاً عن ذلك فهم يطبقون دورة زراعية "يزرعون مرتين في العام مرة على ثرى النيل (السنغال) إذا خرج عندهم، وأخرى على الثرى"[٨٧٠].

أما مدينة (مداسة) وهي مدينة متوسطة، كثيرة العمارة، شمال النيل (السنغال)، فتشتهر بزراعة الأرز والذرة، ويعيش أهلها من أكل الحوت، ومن تجارة التبر[٨٧١].

عادات وأزياء:

رأينا عادة "التتريب" حيث يهيلون التراب على رؤوسهم، وهي تحية الرعية الوثنية إلى مليكهم، التي سنراها في بلاطات السودان الأخرى، في مالي والسنغي، ورأينا كيف (ينذرون) عند اجتماع الملك بقرع الطبول، إلاَّ أن من عاداتهم أيضاً أن الغانيين الذكور "أجمع يحلقون لحاهم، ونساؤهم يحلقن رؤوسهن"[٨٧٢]، وكلتا العادتان غير محببتين عند العرب المسلمين، بالإضافة إلى إغداقهم الخمور على قبور الموتى، وإن كانت عادة الذبح تبقى محببة عند المراقب المسلم.

وجرت العادة أن يتزيّا الملك الغاني بزي خاص، يتميز به مع حاشيته عن سائر رعيته، فالملك "يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة، عليها عمايم القطن الرفيعة"[٨٧٣]. ويتجلى لباس الملك الخاص في أنه الوحيد في مملكته الذي يرتدي الثياب المخاطة "ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيره، وغير ولي عهده، وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم"[٨٧٤]، لكن هذه الثياب الأخيرة غير مخيطة، يلف العامة بها أجسادهم.

ويتعرض الإدريسي لأنواع اللباس عندهم، وذلك بعد مايقارب القرن تقريباً من تقرير البكري، فيلاحظ أن "لباس أهل غانة الأزر والفوط والأكيسة، كل واحد على قدر همته"[٨٧٥]، وهي ألبسة لا تتعرض عادة إلى الخياطة يلف بها الجسد، أما لباس الملك فيتألف من "إزار حرير يتوشح به، أو بردة يلتف بها، وسراويل في وسطه، ونعل شوكي في قدمه.. وله حلية حسنة، وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده"[٨٧٦].

ومن العادات المتعلقة بموكب الملك، أنهم "يحملون له بنود كثيرة وراية واحدة، وتمشي أمامه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش التي في بلاد السودان"[٨٧٧].

أحكام عامة (الناس وحكامهم):

لم يشوب العرض التأليفي العربي عن أهل غانة أية مواقف تبخيسية استصغارية بهم، بل تلوّن ذلك التأليف بالكثير من ملامح الإعجاب، وأول مظاهر الإعجاب هذه تمثلت في أنهم أشعرونا من خلال عرضهم، وكأنهم أمام مملكة عظيمة الحضارة كثيرة المدن، هذا بالإضافة لما تكتنزه من ثروة وغنى وخاصة الذهب، وعندما تعرضوا للحكم على أهل غانة أنفسهم، لم يخفوا إعجابهم بهم، حتى بشكلهم الجسدي، وهو ما يحاكى في قول الرحالة الغرناطي، حيث

---

(٨٧٠) البكري، ص١٧٧.
(٨٧١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٥.
(٨٧٢) البكري، ص١٧٥.
(٨٧٣) المصدر نفسه، ص١٧٥.
(٨٧٤) المصدر نفسه، ص١٧٥.
(٨٧٥) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤.
(٨٧٦) المصدر نفسه، ص٢٤.
(٨٧٧) المصدر نفسه، ص٢٤.

يصفهم "وأهل غانة أحسن السودان سيرة، وأجملهم صوراً، سبط الشعور، فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة"[٨٧٨].

ويطري كلاً من البكري والإدريسي على سلوك ملوكهم العادل تجاه رعاياهم، واهتمامهم بشؤونهم، إذ إن الملك بذاته يباشر بشؤون الناس إذ "يجلس للناس والمظالم في قبة" وحوله حاشيته كما رأينا، وأظهر البكري بصورة جلية مدى تسامح الملك مع المسلمين، وهو من عبدة الأصنام، وتقريبه لهم من حاشيته، واحترامه لهم حتى أنه جنبهم تحية "التتريب" له كما يفعل رعياه الوثنيون، ويذهب الإدريسي بصورة أبعد بقوله "وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه، ومن سيرته في قربه من الناس وعدله فيهم، أن له جملة قواد يركبون إلى قصره في صباح كل يوم، ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه، فإذا وصل إلى باب القصر سكت، فإذا اجتمع إليه جميع قواده، ركب وصار يقدمهم، ويمشي في أزقة المدينة، ودائر البلد، فمن كان له مظلمة أو نابه أمر تصدى له، فلايزال حاضراً بين يديه حتى يقضي مظلمته.. ثم يرجع إلى قصره، ويتفرق قواده"[٨٧٩].

ويحرص الملك على القيام بجولة ثانية عند المساء شبيهة بجولة الصباح "وركوبه كل يوم مرتين، سيرة معلومة"[٨٨٠].

ويعرفنا البكري على الطريقة التي يتبعها الغانيون لإثبات التهمة، يسميها "حكم الماء" "وببلاد غانة حكم الماء، وذلك أنه من ادعي عليه بمال أو (دم) أو غير ذلك، عمد أمينهم (قاضيهم) إلى عود فيه حرافة ومرارة وزُقة، وصب عليه من الماء قدراً، فأسقاه المدعى عليه، فإن رماه من جوفه عُلم أنه بريء وهنئ بذلك، وإن لم يرمه وبقي في جوفه صحَّت الدعوة عليه"[٨٨١]

ج- إمبراطورية مالي

عندما كان البكري يؤلف كتابه "المسالك والممالك"، كانت مالي مجرد إمارة صغيرة وحسب، إلاَّ أنه ترك وراءه تقريراً مهماً للغاية عن حالها الديني، على الأقل، فنعلم منه أن ملكها قد أسلم على يد أحد الشيوخ المسلمين، الذي كان ضيفاً على مالي، فسمي من قبل رعيته إثر ذلك "مسلماني"، ويحكي "قصة" بصدد مناسبة إسلام الملك تناقلها بعده المؤلفون العرب، فغدت حدثاً ثابتاً في السرد التاريخي عن مالي، ويُعتقد أن هذا الحدث قد وقع فعلاً إبان حكم المسلماني، وهو ما يقارب حسب تقدير بعض الباحثين منتصف القرن الحادي عشر الميلادي. ففي تلك الأثناء - حسب رواية البكري - تعرضت مملكة مالي للجفاف والقحط للعديد من السنين، ومن أجل الحصول على المطر ضحى الملك والأهالي بالكثير من رؤوس الماشية قرباناً لآلهتهم الوثنية طلباً للماء، أو كما يعبر البكري "فاستقوا بقرابينهم من البقر، حتى كادوا يفنوها، ولا يزدادون إلاَّ قحطاً وشقاء" حتى يئسوا، وتصادف ذلك بأنه كان عند الملك ضيف من المسلمين "يقرأ القرآن ويعلم السنة"، فشكا إليه الملك أمرهم ومحنتهم، فقال له الضيف المسلم: "أيها الملك لو آمنت بالله تعالى، وأقررت بوحدانيته، وبمحمد عليه السلام، وأقررت برسالته، واعتقدت شرائع الإسلام كلها، لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك، وأن تعم الرحمة أهل

(٨٧٨) الغرناطي، ص٣٩.
(٨٧٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٣.
(٨٨٠) المصدر نفسه، ص٢٤.
(٨٨١) البكري، ص١٧٩.

بلدك"[٨٨٢]، فانتهى الملك إلى الإسلام وأخلص نيته "فأقرأه (الشيخ) من كتاب الله، وعلمه من الفرائض والسنن"، وفي إحدى ليالي الجمعة أمره فتطهر.. وألبسه ثوب قطن كان عنده، وصعد به إلى ربوة من الأرض، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يصلي يأتم به "فصلَّيا من الليل ما شاء الله، والمسلم يدعو والملك يؤمن (يقول آمين)، فما انفجر الصباح إلاَّ والله قد أعمهم بالسقي"، فكان من نتيجة ذلك أن أعلن الملك إسلامه أمام رعيته "فأمر الملك بكسر الدكاكير، وإخراج السحرة من بلاده، وصح إسلامه وإسلام عقبه وأهل مملكته، فسمّوا ملوكهم منذ ذاك: بالمسلماني"[٨٨٣].

فالتأليف العربي المبكر لم يذكر مالي إلاَّ لماماً، فإذا غضضنا الطرف عن إشارة اليعقوبي المبهمة فإن أول من أعطى فكرة مقبولة عن مالي هو البكري، ثم تولى الاهتمام بها بعد أن توسعت وأصبح لبلاطها علاقات واسعة مع بلاد شمال إفريقيا ومصر، ومع تكاثر الرحلات العربية إليها ولا سيما رحلة ابن بطوطة وقبلها رحلة ابن فاطمة، وما دونه الكتاب العرب عن شهود مباشرين أقاموا بها وعرفوا أحوالها كما فعل العمري بتدوينه لشهادة "الشيخ الثقة: أبو عثمان سعيد الدكاكي، وهو ممن سكن مدينة يني (العاصمة) خمسة وثلاثين سنة" حسب تعريف العمري، أو كما فعل ابن خلدون بشهادة من قال عنه "الشيخ عثمان فقيه أهل غانة، وكبيرهم علماً وديناً وشهرة" الذي صادفه بمصر عندما كان الشيخ في طريقه إلى الحج عام ٦٩٩هـ-١٤٠٣م، وأيضاً ما دونه المؤرخون والجغرافيون والرحالة عن (لقاءات التعارف الحضاري) التي نشأت بمناسبة حجيج بعض ملوك مالي، ومرورهم بمصر، وخاصة حوادث حج منسا موسى التي دونها بشكل خاص العمري، وتعرفنا على نبذات منها من القلقشندي وابن خلدون والمقريزي، هذا فضلاً عن رحلة الوزان الذي ادعى أنه ركب نهر النيجر "منطلقين من تومبوكتو شرقاً، وسرنا مع تيار الماء حتى مملكة جني (وهي عاصمة مالي) وحتى مملكة مالي، وكلاهما إلى الغرب من تومبوكتو"، تضاف إليها شهادة الإدريسي وابن سعيد المغربي والغرناطي.

وإذا عدنا إلى البكري، فإن سلطان مالي الذي سمّته رعيته التي كانت تعبد الأوثان (الدكاكير) بـ"المسلماني"، بينما يعتقد ابن خلدون ويؤيده المقريزي أن اسمه الأصلي كان "برمندار"، وقد حج بعد إسلامه ماراً بمصر "فاقتفى سننه والحج (إلى مكة) ملوكهم من بعده"[٨٨٤]. ويقتفي القلقشندي أثر ابن خلدون منوهاً "ويقال إن أول من أسلم منهم ملك اسمه (برمندار).. ثم حج بعد إسلامه، فاقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده"[٨٨٥]، ويعتقد الباحثون المعاصرون أن هذا الملك قد حج عام ١١٥٠م. أما الوزان الذي ادعى أنه زار مالي، فيذهب إلى أن أول حاكم مسلم، ولعله يقصد مسلماني "هو الذي كان عماً ليوسف (بن تاشفين المرابطي) ملك مراكش، وقد ظلت السلطة بيد حفدة أخوته حتى عصر أسكيا (أسكيا الحاج محمد سلطان مالي)..."[٨٨٦]، لكن ما ذهب إليه الوزان لا يمكن الاعتداد به، ولم يشاركه فيه أحد من المصنفين.

وقدم الإدريسي صورة مشوشة عن مالي في بداية تكوينها، حيث يشير إلى أنها تقع في منطقة لملم الوثنية، التي يغير على أهلها: غانة والتكرور وبريسي وأهل سلي لاغتنام الرقيق، ويجاور مالي قرية (دو Do) الكبيرة نسبياً، والتي يعيش فيها يهود في جهل وعدم تقوى، وسكان دو هذه عندما يصلون إلى سن البلوغ: يكوون وجوههم لتصبح لهم علامات تدل على قبائلهم وذلك "بوسم وجهه وصدغاه بالنار، وذلك علامة لهم"[٨٨٧].

---

(٨٨٢) البكري، ص١٧٨.

(٨٨٣) المصدر نفسه، ص١٧٨.

(٨٨٤) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٣.

(٨٨٥) القلقشندي، ج٥، ص٢٩٣. وراجع المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر الدكتور جمال الدين الشيال، مصر ١٩٥٥، ص١١٠.

(٨٨٦) الإفريقي (الوزان)، ص٥٣٩.

(٨٨٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٩-٢٢.

وكانت مالي قرية كبيرة ليس لها أسوار، وبيوتها من الطوب المحروق، إلاَّ أن الإدريسي أرشدنا إلى أن النواة المؤسسة لدولة مالي، هي في منطقة قبائل الماندينغو أو ونقارة. ولعل ما قدمه ابن سعيد المغربي عن مالي أكثر غموضاً، ففي الوقت الذي كانت فيه مالي قد أصبحت إمبراطورية مسلمة يتحدث عن عاصمتها (ملل) باعتبارها "مدينة الكفار المهملين، لعل مرد ذلك إلى مصادره المتقادمة زمنياً، والمأخوذة عن الإدريسي ومعطيات رحلة ابن فاطمة.

بيبلوغرافيا سلاطين مالي:

عرض ابن خلدون جدولاً زمنياً عمن تعاقب من سلاطين على مالي، وقد استقى معلوماته تلك من فقهاء كبار من غانة ومالي، فكانت قريبة من الواقع، رغم الثغرات التي نجدها عنده في تأخيره توقيت دخول الإسلام إلى مالي، وقد استعار معلوماته فيما بعد العمري والقلقشندي والمقريزي.

ويعتقد أنه بعد إسلام (برمندار) بمائة عام، انتقل الملك إلى أسرة (كيتا Keita) وذلك حوالي عام ١١٥٠م، وأول ملوك هذه الأسرة سندياتا الملقب بـ"ماري جاطة" (١٢٣٠-١٢٥٥م)، الذي تعاظمت في عهده سيطرة مالي، وهو الذي يشير إليه ابن خلدون بقوله "وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو Sosso، وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطة، ومعنى ماري عندهم الأمير، الذي يكون من نسل السلطان، وجاطة: الأسد"[٨٨٨].

وأشار القلقشندي إلى أن ماري جاطة هذا جمع بين تغلّبه على صوصو، وانتزاعه "ما كان بأيديهم من مُلكهم القديم (وبين) ومُلك غانة الذي يليه إلى البحر المحيط، ويقال أنه ملك عليهم خمسة وعشرين سنة"[٨٨٩]. ومن بعد ماري جاطة ولي عليهم ابنه منسا ولي (ت ١٢٧٠م) أي السلطان علي، إذ أن "معنى منسا: السلطان، ومعنى ولي بلسانهم علي، وكان منسا ولي هذا من أعظم ملوكهم، وحج أيام الظاهر بيبرس (الذي حكم ١٢٦٠-١٢٧٧م)..."[٨٩٠]. أما بعد منسا ولي، فقد ولي عليهم أخوه (واتي)، وأعقبه أخوهم (خليفة) وكان أحمقاً يرسل السهام على الناس فيقتلهم بدون سبب "فوثبوا عليه فقتلوه".

وهنا ينتقل السلطان إلى سبط من أسباط ماري جاطة يسمى بأبي بكر (ت ١٣٠٣م)، وذلك تطبيقاً للمبدأ الوراثي في العائلة الأمومية كما يشير ابن خلدون والقلقشندي، إذ كان أبو بكر هذا "ابن بنته (لماري جاطة) فملكوه على سنن العجم في تمليك الأخت وابن الأخت"[٨٩١]، واستمر أبو بكر حفيد ماري جاطة في الحكم مدة عشر سنوات (١٢٧٥-١٢٨٥م). ثم تغلب على المُلك بعد أبو بكر بطريق القوة "مولى من مواليهم اسمه ساكورة Sakoura (ت ١٣٠٠م)، ويقال سيكرة"، وقد حج ساكورة، ماراً بمصر في أيام الملك الناصر، لعلها في زمن سلطة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (١٢٩٨-١٣٠٨م)، وقُتل عند مرجعه بناجورا[٨٩٢]، وهي على بعد عشرين كيلو متر من طرابلس الغرب، على طريق الواحات الذي نشط، في تلك الأثناء، كطريق للحج والتجارة.

وقد لاحظ مصنفونا محاولات ساكورة لتوسيع مالي وتعزيز قوتها على حساب الممالك المجاورة كبلاد السنغي (كوكو) والتكرور وغانة، فيشهد ابن خلدون "وكانت دولته ضخمة اتسع فيها نطاق ملكهم وتغلبوا على الأمم المجاورة لهم، وافتتح بلاد كوكو، وأضافها في مملكة مالي، واتصل ملكهم في البحر المحيط وغانة

---

(٨٨٨) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٣. والقلقشندي، ج٥، ص٢٩٣.

(٨٨٩) القلقشندي، ج٥، ص٢٩٣-٢٩٤.

(٨٩٠) المصدر نفسه، ص٢٩٣. وابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٤. والمقريزي، الذهب المسبوك، ص١١٠-١١١.

(٨٩١) ابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ص٣٩٣.

(٨٩٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٣٩٤. والمقريزي، الذهب المسبوك، ص١١١.

بالمغرب، إلى بلاد التكرور في المشرق، واعتز سلطانهم وهابتهم أمم السودان، وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقيا"[٨٩٣].

ولقد خلف ساكورة في الملك (قو) بن السلطان ماري جاطة، ثم أتى بعده ابنه (محمد بن قو)، ثم انتقل بعده من (ولد ماري جاطة) إلى أولاد أخيه (أبي بكر)، من هنا تولى الحكم منسا موسى بن أبي بكر[٨٩٤] أشهر سلاطين مالي وأعظمهم، حيث بلغت مالي في عهده ذروة قوتها ومجدها، ويبدو من رواية انتقال السلطة إليه والتي رواها بنفسه لابن أمير حجاب في القاهرة، عندما كان في طريقه إلى الحج، أن من كان قبله في الملك هو (محمد بن قو) الذي ذاعت شهرته لمحاولته اكتشاف المحيط الأطلسي، إذ قام بتجهيز مائتي سفينة مملوءة بالأطعمة وأرسلها في رحلة اكتشاف، فلم يعد منها إلاَّ رجل واحد، ولكن هذا السلطان الطموح والمتشكك قام بتجهيز ألفي سفينة أخرى، خصص نصفها للطعام والماء، وذهب بنفسه على رأس هذه الأرمادا، بعد أن خلف وراءه المانساموسى (١٣١٢-١٣٣٢م)، فذهب ولم يعد، فاستقر الملك إلى السلطان منسا موسى[٨٩٥].

وقد اهتم المؤلفون العرب بأخبار منسا موسى، حيث أضفوا على سيرته الجلال والعظمة، وقد أثارت حوادث حجه إلى مكة وبمروره بمصر خيال مصنفينا، وقد حفظها لنا بشكل خاص العمري.

ويسجل مصنفونا واقعة بداية تهاوي عظمة مالي بعد وفاة منسا موسى، الذي دام حكمه كما يقول ابن خلدون خمسة وعشرين عاماً، وقد ملك بعده ابنه منسا مغا "ومعنى مغا عندهم محمد"، وخلفه بعدها "منسا سليمان بن أبي بكر (ت ١٣٦٠م)، وهو أخو منسا موسى "واتصلت أيامه أربعة وعشرين سنة"[٨٩٦]، وفي عهده شهدت الإمبراطورية نوعاً من التمزق، وتأتي حوادث رحلة ابن بطوطة إلى مالي عن طريق سجلماسة في عهد هذا السلطان. ثم يخلفه ماري جاطة بن منسا مغا بن منسا موسى، "واتصلت أيامه أربعة عشر عاماً، وكان أشر والٍ عليهم بما سامهم من النكال والعسف وإفساد الحرائم"[٨٩٧].

ويشير ابن خلدون إلى أن القاضي الثقة أبو عبد الله محمد بن وانسولي، وهو من أهل سجلماسة "ذكر لي عن هذا السلطان جاطة أنه أفسد ملكهم وأتلف ذخيرتهم، وكاد أن ينتقص شأن سلطانهم"[٨٩٨]. حتى أن الحال انتهى به في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان من جملة الذخيرة الموروثة عن أسلافه، وهو حجر يزن عشرين قنطاراً من المعدن الذهبي غير المسبوك وغير المعالج بالنار "فباعه لتجار مصر المترددين إليه بأبخس ثمن، وصرف ذلك كله في الفسوق"[٨٩٩]، وهلك سنة خمس وسبعين وسبعمائة (هـ) (=١٣٨١م)، وخلفه ابنه موسى (الثاني)، فكان على عكس أبيه، حيث "أقبل على العدل وحسن السيرة" إلى أن تغلب على دولته وزيره (ماري جاطة)، وكان هذا الوزير قوياً، ورجلاً حصيفاً شجاعاً، كما يصفه مصنفونا، استطاع أن يعيد أثناء إدارته الحكم قوة مالي القديمة، ووسع دائرة سيطرتها، فهو قد "دوخ أقطار الشرق من بلادهم، وتجاوز تخوم كوكو، وجهز إلى منازلة تكرت بما وراءها من بلاد الملثمين"، وتكرت (تكدا) التي هي جنوب ليبيا، تقع على بعد سبعين مرحلة من بلد واركلا (وارجلا) في الجانب القبلي

---

(٨٩٣) ابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٤.

(٨٩٤) ابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٤.

(٨٩٥) العمري، ابن فضل الله: مسالك الأبصار، الباب العاشر، عن الدكتور صلاح المنجد، مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٣، ص٦٠.

(٨٩٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٧.

(٨٩٧) المصدر نفسه، ص٤١٧.

(٨٩٨) المصدر نفسه، ص٤١٧.

(٨٩٩) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٧. وابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٨.

الغربي.. وعليهم طريق الحاج من السودان[٩٠٠].

ويبدو لنا من وصف المؤلفين العرب، أن ماري جاطة كان آخر حاكم قوي لمالي، بدأت بعده صروح تلك الإمبراطورية بالتهاوي تدريجياً، حيث تحكمت بدءاً منه عادة تغلب العسكريين المتنافسين على السلطة، ويعرفنا القلقشندي على تسلسل الملك بعده، إذ يخلف منسا موسى الثاني (ت٧٨٩هـ-١٣٩٢م) أخوه (منسا مغا) الذي قُتل بعد سنة من حكمه، فحكم بعده صندكي (أي الوزير Sandigui) زوج أم منسا موسى، ثم "وثب عليه بعد أشهر رجل من بيت ماري جاطة، ثم خرج من ورائهم، من بلاد الكفرة، رجل اسمه محمود يُنسب إلى (منسا قو) بن (منسا ولي) أي علي، وغلب على الملك"[٩٠١].

ويكمل كعت والسعدي تصوير الفصل الأخير من تمزق مالي وتآكلها، حيث تغلب حاكم السنغي الذي يسميه كعت (شي مادُغ) "على ملكى (=ملك مالي)، وكان أصلهم تحت ملّكي"[٩٠٢]، وبحلول عام ١٤٣٠م، حسب ما يشير كعت والسعدي، تغلبت الطوارق على أروان وولاتة وتمبكت، وكان ذلك إيذاناً بتدهور مالي[٩٠٣].

وهكذا قدم مصنفونا صورة تقريبية عن تسلسل السلطة والملك في مالي، أثناء صعودها وهبوطها؛ وخاصة تلك الفترة التي تبدأ بالمسلماني أو ببرمندار الذي أسلم على يد أحد الشيوخ، أما قبل ذلك فتظل الصورة غامضة للغاية. ونكتشف خلال هذا التسلسل عظمة سلاطين مالي وما وصلت إليه مالي من توسع وقوة ومكانة حضارية.

نظام المُلك وآلياته وأجهزته:

تعامل جغرافيونا ورحالتنا مع مالي كدولة عظمى لها مكانتها الحضارية المتميزة في التاريخ، وعندما نطالع ما كتبوه عنها يراودنا الإحساس بأننا في حضرة أمة جليلة المكانة، ولا نلمس ما يبخس من نظرتهم هذه إليها كونها أمة سوداء. وهو ما ينطبق على نظرتهم إلى سلاطينها العظام كمنسا موسى وسليمان والمسلماني.

بلغت مالي درجة كبيرة من الاتساع، إذ ينقل العمري عن الشيخ عثمان سعيد الدُكاكي، وهو ممن سكن مدينة (يني) العاصمة خمسة وثلاثين سنة "أنها هي مربعة، طولها أربعة أشهر أو أزيد، وعرضها مثل ذلك... جميعها مسكونة إلاً ما قل"[٩٠٤]. ولقد ضمَّت مالي الكثير من الممالك المجاورة، التي توسعت على حسابها، فضمَّت أجزاء من غانة وبلاد التكرور والسنغي (كوكو)، وتحولت إلى أقاليم في تقسيماتها الإدارية، وكانت (يني) عاصمتها، وهي على أحد روافد نهر النيجر (سانكراني Sankarane)، فيشير العمري والقلقشندي، أن مالي "تشمل من الأقاليم: غانة وزافون وترنكا وتكرو وسنغانة وبانبغو وزارفيرطا وتنبرا ودرمودا وزاغا وبراغوري وكوكو.. وإقليم مالي الذي به قاعدة الملك: مدينة يني"[٩٠٥].

قُسِّمت هذه المملكة إدارياً إلى أربعة عشر إقليماً "والاسم المطلق (الذي يطلق) في هذه الأقاليم كلها: مالي قاعدة إقليم هذه المملكة، ذوات المدن والقرى والأعمال: أربعة عشر إقليماً"[٩٠٦]، ويخبرنا العمري أنه "ليس في مملكة صاحب هذه المملكة من يطلق عليه اسم ملك إلاً صاحب غانة، وهو كالنائب له"[٩٠٧]، ثم يضيف إلى

(٩٠٠) ابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٨.
(٩٠١) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٧-٢٩٨. وابن خلدون، المصدر السابق، ص٤١٨.
(٩٠٢) كعت، ص٤٢.
(٩٠٣) السعدي، ص٩.
(٩٠٤) العمري، الباب العاشر (عن المنجد)، ص٤٥.
(٩٠٥) المصدر نفسه، ص٤٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٨٦.
(٩٠٦) العمري، المصدر السابق، ص٤٥.
(٩٠٧) المصدر نفسه، ص٤٥.

مجال نفوذ مالي مناطق الجنوب، أو مناطق ما يُعرف بلملم أو ونغارة، التي يصفها بأنها "في طاعة سلطان هذه المملكة بلاد مفازة التبر، يحملون إليه التبر في كل سنة، وهم كفار همج"[٩٠٨]، كما يخضع له في الشمال "قبائل من البربر بيض".

ويتردَّد مؤلفونا بين تسمية عاصمتها يني أحياناً ومالي أحياناً أخرى، أو لعل مركز العاصمة انتقل ما بين يني ومالي. ونبهنا جغرافيونا إلى أن هذه المملكة بلغت من القوة إلى درجة أنها لو أرادت السيطرة المباشرة على بلاد الذهب الجنوبية لاستطاعت، غير أنها لم تفعل ذلك لخشيتها من أن تفقد الذهب، وذلك لذيوع أسطورة بينهم مفادها أن ملوك مالي "قد جربوا أنه ما فتح أحد منهم مدينة من مدن الذهب ونشأ بها الإسلام ونطق بها داعي الأذان، إلاَّ قل وجود الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم، ويزداد فيما يليهم من بلاد الكفار، وأنه لما صح هذا عندهم على التجريب أبقوا بلاد التبر بأيدي أهلها الكفار"[٩٠٩]. فتخيل الماليون المسلمون نوعاً من التناقض بين انتشار الإسلام في الجنوب وحصولهم على الذهب، ولعل مؤدى ذلك هو أن تلك المناطق الجنوبية كانت المخزن الكبير لتجارة الرقيق إلى جانب الذهب، فإذا ما انتشر الإسلام، الذي يحرم استرقاق المسلم، بين أهل الجنوب، فقدوا من جراء ذلك الثروة الناتجة عن الرقيق.

ولقد تناسب تخيلهم لعظمة ملوك مالي مع مقدار تصورهم هذا لعظمة وقوة هذه المملكة، ولمدى اتساعها الهائل، لهذا أطنب مؤلفونا في تقدير مكانة هؤلاء الملوك ومدى ما يتصفون به من شجاعة وعدل وقوة وفروسية، تؤهلهم ليقفوا في مصاف الملوك العظام للعالم، من هنا قول صاحب الفتاش "ويد سلطان مل مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة، وكنا نسمع من عوام عصرنا يقولون: سلاطين الدنيا أربعة، ماخلا السلطان الأعظم سلطان بغداد، وسلطان مصر، وسلطان برنا، وسلطان مل"[٩١٠].

ويصف مصنفونا سلاطين مالي بأنهم يتمتعون بسلطة مطلقة، وتمتزج فيها طاعة الرعية والحاشية للمنسا-السلطان بنوع من التقديس له، وهو يستعين بإدارة البلاد (بأرباب الوظائف) المؤلفة من "الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين، وأن السلطان لا يكتب شيئاً في الغالب بل يكلُ كل أمر إلى صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصّله، وكتابتهم بالخط العربي"[٩١١]. هذا بالإضافة إلى عساكره، والذي يطلق على قادتهم اسم (الفرارية) حسب شهادة ابن بطوطة، ويقف في طليعة مساعدي السلطان نائبه الذي يعرف باسم (قنجا)، ويقوم مقامه أثناء غيابه، ويساعده في تصريف شؤون البلاد؛ وقد تصادفت رحلة ابن بطوطة مع تولي (قنجاموسى) النيابة، وفي الوقت نفسه كان والياً للعاصمة[٩١٢].

وهناك منصب الوزير (صندكي) الذي لعب أدواراً خطيرة في تاريخ السلطنة، ففي حال وجود سلطان ضعيف أو صغير السن، فربما يمسك بأمور السلطة كما حدث أيام السلطان منسا موسى الثاني. ويطلق اسم (كي Koi) على حاكم الولاية، كما يطلق لقب (كي مل) على منسا مالي نفسه[٩١٣]. ويليه في المكانة حكام القرى ولقبه (فربا)، فكان فربا يولاتن زمن رحلة ابن بطوطة اسمه (فربا حسين) الذي لم يعجب ابن بطوطة لغطرسته وتعاليه على البيض[٩١٤]. واعتمد سلاطين مالي على طبقة من العبيد المحرومين، إن كان في حاشيتهم أو في تعيينهم قادة

---

(٩٠٨) المصدر نفسه، ص٤٥.

(٩٠٩) المصدر نفسه، ص٤٥. والقلقشندي، ج٥، المصدر السابق، ص٢٨٧.

(٩١٠) كعت، ص٤٢.

(٩١١) القلقشندي، ج٥، ص٢٩٨.

(٩١٢) ابن بطوطة، ص٥٣٠-٥٣١.

(٩١٣) المصدر نفسه، ص٥٣١. والسعدي، ص٨.

(٩١٤) المصدر نفسه، ص٥٢٥.

لجيوشهم، وبعضهم استقدموهم من مصر، يقفون خلف السلطان أثناء جلوسه على عرشه، وهم نحو ثلاثين مملوكاً يبتاعهم من مصر ويحمل أحدهم مظلة بيده.

وأكثر ما تتجلى عظمة سلطان مالي وأبهته، في مشهد جلوسه على العرش، وقد كثَّف القلقشندي عناصر هذا المشهد، نقلاً عن العمري بقوله "أما جلوس السلطان في قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة، على دكة كبيرة من آبنوس، كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع، عليها أنياب فيلة في جميع جوانبها، الناب إلى الناب، وعنده سلاح من ذهب كله: سيف ومزراق وقوس وتركاش ونشاب، وعليه (أي يرتدي السلطان) سراويل كبيرة، مفصّل من نحو عشرين نصفية، لا يلبس مثله أحد منهم، بل هو من خصوصيته، ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكاً من الترك وغيرهم ممن تبتاع له من مصر، بيد واحد منهم جتر (مظلة) من حرير عليه قبة، وطائر من ذهب صفة بازي يُحمل على يساره. وأمراؤه جلوس حوله يميناً وشمالاً. ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخص يغني له وهو سيافه، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وتنهى (تصل) إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه، ولا يكتب شيئاً في الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه، وحوله أناس بأيديهم طبول يدقون بها، وأناس يرقصون، وهو يضحك منهم، وخلفه صنجقان (علمان كبيران)، وأمامه فرَسان مشدودان محصلان لركوبه (معدَّتان لركوبه) متى أحب"[٩١٥].

ولا تكتمل أبهة هذه الصورة دون ذكر ما يتخللها من تحريمات وسلوكيات مفروضة أو محددة بدقة، فلا يجوز أن يعطس أحد في مجلس السلطان "ومن عطس في مجلسه ضُرب ضرباً مؤلماً، لا يسامح أحد في مثل ذلك، فإذا نُعت (أخِذ بغتة) أحداً منهم العطاس، انبطح في الأرض وعطس حتى لا يُعلم به، أما الملك فإنه إذا عطس ضرب الحاضرون بأيديهم على صدورهم. ولا يدخل أحد دار السلطان منتعلاً كائناً من كان، ومن لم يخلع نعليه قتل.. وإذا قام عليه أحد من أمرائه أو غيرهم وقف أمامه زماناً"[٩١٦]. وعليه أن يقوم بحركات معقدة ليمثل أمامه.

ومن العلائم الأخرى الشاهدة على احترام الرعية للسلطان إلى درجة القداسة، هي عادة "التتريب" أي أن يهيل المرء على رأسه التراب، لإظهار التحية للملك أو لإظهار الشكر أو العرفان "فإن أنعم على أحد بإنعام، أو وعده وعداً جميلاً، أو شكره على فعل، تمرغ ذلك المنعم عليه بين يديه من أول المكان إلى آخره، فإذا وصل إلى آخر ذلك المكان أخذ غلمان ذلك المنعم عليه أو من هو من أصحابه من رماد يكون موضوعاً آخر مجلس الملك، معداً هناك دائماً لأجل مثل هذا، فيذر في رأس المنعم عليه، ثم يعود متمرغاً إلى أن يصير إلى بين يدي الملك"[٩١٧].

وتحتل موسيقى البلاط مكانة كبيرة في مجالس السلطان-منسا، لتضفي عليها الفخامة اللازمة، فالطنبور والقيثارات والأبواق العاجية تشنّف لأصواتها المتداخلة الفخمة آذان الحضور، بالإضافة إلى صدوح هذه الموسيقى في تلك الجلسات الملكية، فإن العادة قد جرت أيضاً أنه إذا كان السلطان قادماً من سفر، راكباً على فرسه وعلى رأسه الجتر (المظلة)، وينشر علماً فوق رأسه، عندئذ "تضرَب أمامه الطبول والطنابر والبوقات بقرون لهم فيها صناعة محكمة"[٩١٨]، ويشهد ابن بطوطة على مظاهر التعظيم للسلطان، عند رؤيته العلاقة بين الرعية وسلطان سليمان، فيستنتج "والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم، وأشدهم تذللاً، ويحلفون باسمه فيقولون: منسى سليمان كي"[٩١٩].

---

(٩١٥) القلقشندي، ج٥، ص٣٠٠. وأيضاً العمري، مسالك الأبصار، الباب العاشر، ص٥٢.
(٩١٦) القلقشندي، ص٣٠٠. والعمري، المصدر السابق، ص٥٣.
(٩١٧) العمري، المصدر السابق، ص٥٤. والقلقشندي، المصدر السابق، ص٣٠١.
(٩١٨) القلقشندي، المصدر السابق، ص٣٠١.
(٩١٩) ابن بطوطة، ص٥٣١.

ولاستكمال صورة العظمة تلك، يروي القلقشندي والعمري ادعاء سلاطين مالي انتسابهم إلى عم النبي علي بن أبي طالب[920]. ويبدو كما روى العمري والقلقشندي وابن خلدون، أن القاعدة المعتمدة عندهم لوراثة العرش في العهد الوثني، هي في الغالب قاعدة الأسرة الأمومية في التوريث، أي يتولى أبناء الأخت وأبناء البنت الوارثة. حتى أنهم اتبعوا هذه القاعدة في العهد الإسلامي أحياناً، كما جرى في ولاية أبي بكر عام ١٢٧٥م، وهو ابن بنت ماري جاطة. حيث يذكر القلقشندي "وملك بعده، أي المنسا خليفة"، سبط من أسباط ماري جاطة "المتقدم ذكره، اسمه (أبو بكر) على قاعدة العجم في تمليك البنت وابن البنت[921]. إلاَّ أنهم مالوا في العهد الإسلامي إلى قاعدة تولية الولد الأكبر خلافة أبيه السلطان الراحل، أو تولية الأخوة الخلافة، الواحد بعد الآخر مع مراعاة السن.

وجرت العادة في مالي أن تشارك الزوجة التي تلقب بـ(قاسا) زوجها في الحكم، وقد تنبّه ابن بطوطة عند زيارته لمنسا سليمان إلى ذلك، فوجد أن زوجة السلطان (قاسا) "شريكة في الملك على قاعدة السودان، ويذكرون اسمها على المنبر"[922].

ويعتمد سلطان مالي على جيش قوي، ويعد هو القائد الأعلى له، فيخوض الجيش المعارك الحاسمة تحت قيادته مباشرة، ولقد فتح منسا موسى "بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان، ذوات أعمال وقرى وضياع"[923]، ويُعرف كبار قادة الجيش أو أمرائه باسم "الفرارية"، يقودون الفرق المختلفة لجنود الفرسان أو لجنود المشاة، ويحضرون احتفالات السلطان-المنسا، وفي مواكبه[924]. ويتألف الجيش من فرق من الفرسان والمشاة، وحدثنا العمري عن جيش مالي في عهد منسا موسى بقوله "ومقدار عسكره مئة ألف نفر، منهم عشرة آلاف فارس فرسان خيالة، وسائر رجاله لا خيل لهم ولا مراكب، والجمال عندهم موجودة، لا يعرف بها ركوب كور"[925]. ويشير السعدي إلى أن لسلطان مالي "قائدان، واحد منهما صاحب اليمين يسمى سنقر زومع، والآخر صاحب الشمال يسمى فرن سرا، وتحت يد كل واحد منهما كذا وكذا من قيادة الجيش"[926].

ولا نعلم ما إذا كان لفرسان وأمراء الجيش "إقطاعات" من الأرض، مثل فرسان الأيوبيين ومن بعدهم المماليك، لكننا نعرف أن لهم مخصصات سخية من السلطان "ولأمراء هذا الملك وجنده إقطاعات وإنعامات، من أكابرهم من يبلغ جملة ماله على الملك في كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب، ويتفقدهم بالخيل والقماش، وهمته كلها في تجميل زيهم وتمصير مدنه"[927].

ولعل منسا موسى أبو بكر، ومنسا سليمان، أكثر من حظي من ملوكهم بالاهتمام والدراسة، الأول لتسليط الضوء عليه وعلى سيرته من قبل العمري وابن خلدون والقلقشندي والمقريزي، أثناء مكوثه في القاهرة وهو في طريق الحج، والثاني لما تركه ابن بطوطة وراءه من تقرير عن زيارته إلى مالي في عهده، فصار لدينا لوحتين باهرتي الأضواء عن حياة مالي الروحية والسياسية والدينية، كانت بمثابة وصف إثنوغرافي لمالي وأهلها.

الحاج منسا موسى - أبو بكر (٧١٢ - ٧٣٧هـ / ١٣١٢ - ١٣٣٧م)

---

(٩٢٠) القلقشندي، المصدر السابق، ج٥، ص٢٩٨.
(٩٢١) المصدر نفسه، ص٢٩٤.
(٩٢٢) ابن بطوطة، ص٥٣٤.
(٩٢٣) القلقشندي، المصدر السابق، ص٢٩٤. والعمري.
(٩٢٤) ابن بطوطة، ص٥٣٢.
(٩٢٥) العمري، الباب العاشر، ص٥٣.
(٩٢٦) السعدي، ص١٠.
(٩٢٧) العمري، الباب العاشر، ص٥٤.

لا تقتصر رحلة منسا موسى على أنها عرفتنا، من وجهة نظر عربية، على شخصية ذلك السلطان الأسود، وبحاشيته وببلاده، بل أيضاً كانت شكلاً من أشكال "حوار الحضارات" عبر عملية التعارف المضنية تلك، تخللتها محاولة ممارسة إرادة السلطة وإرادة المعرفة معاً، وتصارعت بها الرغبة في التلاقي والرغبة المحمومة في إثبات التفوق، وقد عكست وجهة النظر العربية إلى ذلك المشهد برمته انفتاح نظرتهم على العالم، وبما تحمله من نزعة نسبية نحو مواقع الحضارات وعلاقاتها.

يتفق الجميع مع ابن خلدون على أن السلطان موسى حج سنة ٧٢٧هـ-١٣٢٤م، ويخبرنا المقريزي أن دخوله القاهرة كان يوم الأحد الخامس عشر من جماد الأول سنة ٧٣٧هـ، أي في ١٠ مايو ١٣٢٤، وأقام فيها قبل ذهابه إلى مكة[٩٢٨]، ترك بعده أهل القاهرة يعيشون في ذكرى كرمه وسخائه وشهامته وكثرة الذهب الذي أغدقه في أسواق القاهرة وعلى رجالها، باختصار خلف "صورة مبهرة" عكسها كتابنا بأمانة وموضوعية، فضلاً عن الإعجاب والتبجيل اللذان لم يحول دونهما اختلاف لون البشرة.

أول ما يطالعنا في تلك الصورة، الغنى الهائل لمالي ولسلطانها، وهو ما تجلى في كمية الذهب المحمول بقافلته، لدرجة وصلت عند ابن خلدون إلى "ثمانين حملاً من التبر كل حمل ثلاثة قناطير"[٩٢٩]، ثم ما رافق ذلك من إغداق الهدايا والعطايا على كبراء القاهرة وعامتها وأسواقها، جعلت الجميع يتحدث عن ثروة سلطان مالي الهائلة، وعن كرمه وسخائه النبيل. وقوّى من تلك (الصورة النمطية) التي تجعل من بلاد السودان بلاداً للذهب، كما جعل الناس على استعداد لتقبل ما يذاع من أساطير أو حقائق عن ذهب مالي، ولهذا ينقل العمري عن الأمير أبو الحسن علي بن أمير حاجب، الذي كان يجتمع بكثرة مع السلطان موسى، قوله "وحدثني السلطان موسى أن الذهب حمى له، يُجمع متحصلة كالقطيعة، إلاَّ ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السرقة"[٩٣٠]، وأن الذهب في بلاده، وفي البلاد المجاورة التابعة له يوجد على نوعين: نوع ينبت في زمن الربيع عقب الأمطار في الصحراء، وله ورق شبيه بالنخيل أصوله التبر، والنوع الآخر يوجد في جميع أيام السنة في أماكن معروفة على ضفاف النيل (النيجر)، فتحفر حفائر هناك وتؤخذ أصول الذهب كالحجارة والحصى[٩٣١]. وشهد العرب المصريون تلازم هذا الغنى والثراء عند أهل مالي بالكرم والسخاء، فمنسا موسى أغدق العطايا في كل صوب. فكل الأحمال من الذهب التي أتى بها منسا موسى، أكانت ثمانين حملاً حسب ابن خلدون، أو مائة حمل حسب العمري، فإنها لم تكفه لنفقاته، حتى اضطر للاستدانة من التجار المصريين في النهاية، وقد وصفه ابن أمير حاجب "كان كريماً جواداً كثير الصدقة والبر، خرج من بلده بمئة وسق (حمل) من الذهب أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر... حتى احتاج إلى القرض من مصر، فاستدان على ذمته من التجار بمكاسب كثيرة وافرة جعلها لهم، بحيث حصل لهم في ثلاث مئة دينار سبع مئة دينار ربحاً"[٩٣٢]. فذاع صيته عند المصريين، فيذكر العمري "وقد بلغني أول قدومي مصر... حديث وصول هذا السلطان، ورأيت أهل مصر لهجين بذكر ما رأوه من سعة إنفاقهم.."[٩٣٣].

ولقد استقى العمري معلوماته الكثيرة عن رحلة منسا موسى من (ابن أمير حجاب) ومن الأمير (أحمد بن الحاكي المهمندار) الذي انتدبه سلطان مصر آنئذ (محمد بن قلاوون) وهو في الفترة الثالثة من حكمه (١٣٠٩-١٣٤٠م)، لمرافقة منساموسى أثناء زيارته لمصر، فقد ذكر له (المهمندار) "لقد أفاض هذا الرجل بمصر فيض

---

(٩٢٨) المقريزي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٥.
(٩٢٩) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٦.
(٩٣٠) العمري، الباب العاشر، ص٥٧.
(٩٣١) المصدر نفسه، ص٥٧.
(٩٣٢) المصدر نفسه، ص٦١. والقلقشندي، ص٢٩٦.
(٩٣٣) العمري، المصدر السابق، ص٦١.

الإحسان، لم يدع أميراً مقرباً ولا رب وظيفة سلطانية حتى وصله بجملة من الذهب. وقد كسب أهل مصر عليه وعلى أصحابه في البيع والشراء والعطاء والأخذ ما لا يُحصر، وبدلوا الذهب حتى أهانوا في مصر قدره، وأرخصوا سعره"[٩٣٤]، ولكثرة ما تدفق من ذهب في أسواق القاهرة نزل سعره "لقد كان الذهب مرتفع السعر بمصر إلى أن جاء إليها.. فنزلت قيمته ورخص سعره"[٩٣٥].

ولم يبخل المصنفون العرب على الماليين ممثلين بسلطانهم وبأمرائهم، في إظهارهم الجوانب الإيجابية في شخصيتهم، فإلى جانب الرفاه والغنى، والكرم والسخاء، وجدوا منسا موسى مثال الأخلاق والتقوى والاستقامة، فقال عنه ابن خلدون "كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، له في العدل أخبار تؤثر عنه"[٩٣٦]، ويشهد ابن أمير حجاب على تقواه، إذ كان خلال "مدة مقامه بمصر، قبل توجهه إلى الحجاز الشريف، وبعده، على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله.... وكان هو ومن معه على مثل هذا، مع حسن الزي في الملبس والسكينة والوقار"[٩٣٧]. ولشدة تمسكه بالدين وتقواه، كان "في جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاورهم من كفار السودان"[٩٣٨]، ويقصد بالكفار وثنيي الجنوب، في الغابات الاستوائية. وكان محباً للعمران، فاستقدم من مكة، كما يذكر ابن خلدون، خبير البناء الأندلسي "شاعر الأندلس أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن، وصحبه إلى بلاده، وكان له اختصاص وعناية"[٩٣٩]، وذلك لإقامة المنشآت العمرانية، ومساجد ودور للسلطان.

هكذا نظر المصنفون العرب باحترام إلى أهل مالي ممثلين بسلطانهم وحاشيته، والإعجاب بهم، باعتبارهم يمثلون حضارة زاهية سخية وغنية، ويتصف سلوك أهلها بالتقوى والتهذيب، بالإضافة إلى الصدق والبراءة والكرم، لدرجة أن هؤلاء المصنفين وجدوهم في بعض الجوانب السلوكية الأخلاقية يبزون أهالي مصر العرب، ولا سيما في التعامل الشخصي، وفي سلوك الطرفين تجاه بعض كما تجلى في ميدان التعامل التجاري، ففي مقابل سخاء الرجل (المالي) وإحساسه بالاطمئنان لأنه في مركز دار الإسلام، كان يقابله التاجر المصري بالتحايل لكسب ماله، فكسب أهل مصر من السلطان وصحبه الماليين "في البيع والشراء والعطاء والأخذ مالاً لا يحصى" كما يشير العمري، والذي تحدث عن "تجار مصر والقاهرة عما حصل لهم من المكاسب والربح عليهم، فإن الرجل منهم (من مالي) يشتري القميص أو الثوب والإزار وغير ذلك بخمسة دنانير وهو لا يساوي ديناراً واحداً"[٩٤٠].

وهكذا ظهر الماليون والمصريون بصورتين يبدو الرجحان الأخلاقي فيهما للجانب المالي، ففي الوقت الذي كان فيه المصريون العرب يمارسون عليهم أساليب التحايل والغش، كان الماليون "في غاية سلامة الصدور والطمأنينة، يجوز (ينطلي) عليهم مهما حزر عليهم، ويأخذون كل قول يُقال بالقبول والصدق"[٩٤١].

ولكن في النهاية تكشفت عندهم حقيقة الأمر "ثم ساءت ظنونهم بأهل مصر غاية الاستياء لما ظهر لهم من غشهم لهم في كل قول، وفي تزاحمهم المفرط عليهم في أثمان ما يُباع عليهم من الأطعمة والسلع، حتى إنهم لو رأوا اليوم أكبر أئمة العلم والدين، وقيل لهم أنه مصري، أمهنوه وأساؤا به الظن، لما رأوا من سوء معاملتهم"[٩٤٢].

ولقد أظهرت عروض العمري والقلقشندي والمقريزي لموقف الطرفين، في هذا اللقاء على مسرح

---

(٩٣٤) المصدر نفسه، ص٦٣-٦٤.
(٩٣٥) المصدر نفسه، ص٦٥.
(٩٣٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٥.
(٩٣٧) العمري، الباب العاشر، ص٦٥.
(٩٣٨) المصدر نفسه، ص٦٧.
(٩٣٩) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٥.
(٩٤٠) العمري، الباب العاشر، ص٦٤.
(٩٤١) المصدر نفسه، ص٦٤.
(٩٤٢) المصدر نفسه، ص٦٤.

التاريخ، تميُّز الماليين في بعض الجوانب الأخلاقية على العرب المصريين، دون تحيُّز لأبناء قومهم المصريين العرب. إلاَّ أن هذا كله يجب ألاَّ يخفي إعجاب أهل مالي بعمران بلاد العرب المسلمين، ولم يقلل من مرجعية بلاد العرب المسلمين الدينية، وهو ما تجلى في استجلاب السلطان لبنائين عرب وأيضاً فقهاء، وإلحاحه على اصطحاب رجال يعود نسبهم إلى ابن عم النبي (علي بن أبي طالب)، وحرصه على شراء مجموعة كتب "فقه المالكية" من مصر، بل إنه عند عودته لبلاده أظهر رغبته كما يقول العمري "في التخلي عن الملك ويتركه لابنه محمد (منسا مغا) ويعود إلى مكة المعظمة".

لقاء السلطانين (بين حوار الحضارات وإرادة الهيمنة)

تتداخل في أجواء لقاء سلطان مالي وسلطان مصر محمد بن قلاوون رغبات التعاون والتفاهم والتقارب، والاتصال والاحترام، مع نزوع خفي ومحموم نحو إرادة الهيمنة، وإثبات تفوق الذات الحضارية وتعاليها ومركزيتها، فنجد في كل إشارة من هذا اللقاء، كتلة ممتلئة بالرموز المتعلقة بهذا التنافس الممتزج بإرادة التفاهم.

ونفهم من رواية العمري، أن منسا موسى كان متردّداً في زيارة السلطان قلاوون، ربما لأنه كان يرغب أن يأتي سلطان مصر نفسه ليدعوه، لا أن يرسل له الأمير المهمندار، أو لعله سمع أن من عادات بلاط قلاوون أن يفرض السجود على زائر السلطان المصري، إشارة لخضوع الضيف، مهما كانت قوته ومكانته الملكية، لا سيما إن علمنا أن مصر كانت آنئذ المركز السياسي لبلاد الإسلام في المشرق، بدلاً من بغداد، فكان هذا التردد مرده رفض منسا موسى أن يكون تابعاً لأحد، وأن يعترف بأن مكانة بلاده أقل من القاهرة. فيشرح المهمندار الأمر "وحاولته أن يطلع القلعة، ويجتمع بالسلطان، فأبى علي وامتنع، وقال: أنا جئت لأحج لا لشيء آخر"[٩٤٣]. لكن المهمندار يعرف السبب الأعمق لهذا الامتناع، فمنسا موسى تتنازعه رغبة التقارب مع السلطان مع رغبة أقوى، وهي رغبة إثبات الذات والاعتداد بموقفه الشخصي وموقع بلاده الحضاري، فيهمس المهمندار للعمري "أنا أفهم أنه يرى الحضور نقصاً عليه، لما يضطر إليه تقبيل الأرض أو اليد"[٩٤٤]، ولقد عرف المهمندار ذلك الكبرياء الشخصي والحضاري في إصرار منسا موسى على أن يكلمه بواسطة الترجمان "مع إجادة معرفته التكلم باللسان العربي". لكن المهمندار يلح مجدداً على منسا موسى لأنه يعرف "المراسيم السلطانية تتقاضى في إحضاره"، ولأنه يعرف رغبة السلطان قلاوون المحمومة بالتعاون مع السلطان المالي وتقوية علاقاته معه، كممثل لبلد مسلم كبير في إفريقيا السوداء، ولأنه يحرص على ثبات وتقوية علاقاته التجارية، وتعزيز مكانة طريق الواحات التجاري بينهما، المار بتكدة (تكرت)، وهو طريق الحج الذي سلكه منسا موسى نفسه، وسلكه أيضاً ابن بطوطة في عودته من مالي، بالإضافة إلى ذلك فإنه يريد أن يلمح (إشارة) من سلطان مالي تدل على اعترافه بتفوق مكانته ومكانة بلاده، فمازال المهمندار يلح حتى وافق، وعندما دخل السلطان موسى القلعة، ووصل إلى حضرة سلطان مصر، أتت اللحظة الحاسمة، فيذكر المهمندار أنهم قالوا له "قبِّل الأرض، فوقف وأبى إباء ظاهراً، وقال: كيف يجوز هذا؟"، عندها أتى إليه من ينقذ الموقف برمته "فأسرَّ إليه رجل عاقل كان معه كلاماً ما نعلمه، فقال: أنا أسجد لله الذي خلقني وفطرني، ثم سجد، وتقدَّم إلى السلطان، فقام له بعض قيام وأكرمه، وأجلسه إلى جانبه، وتحدثا حديثاً طويلاً"[٩٤٥].

وهكذا حل ذلك الحكيم المرافق لسلطان مالي تلك المعضلة الخطيرة، فسهَّل عملية سجود سلطانه، باعتباره سيوفق بذلك بين التقيد بمراسيم السجود في بلاط قلاوون، وبالتالي إرضاء سلطان مصر، وبين رفضه للخضوع

---

(٩٤٣) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٩٤٤) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٩٤٥) المصدر نفسه، ص٦٢. والقلقشندي، ج٥، ص٢٩٥.

لغير الله، وذلك بإظهار أن نيته من السجود هو التوجه إلى الله وليس إلى سلطان مصر. لكن المقريزي ذهب باتجاه آخر، وادعى أن سلطان مصر أعفاه من هذا التقليد، فحينما "طلع إلى القلعة ليسلم على السلطان، وامتنع عن تقبيل الأرض، فلم يُجبر على ذلك، غير أنه لم يمكَّن من الجلوس في الحضرة السلطانية، وأمر السلطان بتجهيزه إلى الحج"[٩٤٦]، ويعني هذا أن منسا موسى قد تمسك بموقفه الصلب حتى النهاية، وهو وصف يؤيده ابن حجر العسقلاني بقوله، إن "ملك التكرور قدم حاجاً سنة ٧٢٤ في رجب. فأدخِل إلى السلطان، فامتنع عن تقبيل الأرض، وقال: لا أسجد لغير الله، فأعفاه السلطان وقربه وكرمه وأحسن تجهيزه إلى الحجاز"[٩٤٧].

وزاد السلطانان من إكرام بعضهما في الهدايا والعطايا، وقدَّم سلطان مصر إليه كل إشارات التكريم والتبجيل، فبعث إليه "بعدة من الخلع الكاملة له ولأصحابه، ولكل من حضر معه، وخيلاً مسرجة ملجمة له ولأعيان من معه... وأجرى عليه الإنزال والإقامات الوافرة مدة إقامته". ولما آن أوان الحج، بعث إليه "بمبلغ كبير من الدراهم، وجمال وهجن خاص... وأتباع لأصحابه.. وأزواد جمة، وركَّز له العليق في الطريق، ورسم لأمراء الركب بإكرامه واحترامه"[٩٤٨].

ابن بطوطة في مالي:

تركنا ابن بطوطة، وهو في طريقه إلى ولاتة، التي يسميها أيوالاتن وهي أول المدن الشمالية لمالي، فعلينا الآن أن نتتبع رحلته في مالي من حين دخوله إليها في ولاتة، التي كانت آخر أقاليم مالي الشمالية، حتى وصوله العاصمة نياني أو مالي حسب ابن بطوطة، ثم نتبع خروجه منها إلى تنبكت وكوكو عن طريق تكدا التجاري، لنتعرف على انطباعاته عن تلك البلاد وعن أهلها.

فيذكر أن أيوالاتن تبعد شهرين كاملين عن سجلماسة، وهي أول عمالة السودان، أي مالي، يديرها "نائب السلطان فربا حسين"، "وفربا معناها النائب" وكان محاطاً برجال من قبائل مسوفة الصحراوية، ولاحظ ابن بطوطة أنه جرت العادة في ولاتة أن التجار يضعون أمتعتهم وبضائعهم في رحبة، أي باحة واسعة "ويتكفل السودان بحفظها"، وهكذا بعد أن حفظت جماعة ابن بطوطة بضائعهم، توجهوا إلى (الفربا) فوجوده جالساً "على بساط في سقيف" وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي، وكبراء المسوفة وراءهم، ووقف التجار بين يديه، وهو يتكلم عن طريق الترجمان "احتقاراً لهم" وهو ما أثار امتعاض ابن بطوطة، وجعله يندم على قدومه "لبلادهم، لسوء أدبهم، واحتقارهم للأبيض"[٩٤٩]. فقد عمم ابن بطوطة موقف الفربا المتغطرس هذا على الماليين جميعاً!.

وهذا ما جعل ابن بطوطة يحمل منذ البداية انطباعاً سيئاً عن الماليين، والذي سيخف مع تقدمه في بلاد مالي، فتعرف على "مشرف أيوالاتن، ويسمى منشاجو" الذي دعا القافلة إلى ضيافته، فلم يرد ابن بطوطة الذهاب لولا إلحاح صحبه، فأتته صدمة ثانية من الوجبة التي قدّمها المشرف لهم "وهي جريش أنلي مخلوط بيسير عسل ولبن، قد وضعوه في نصف قرعة صيروه شبهة الجفنة"[٩٥٠]، فما كان منه إلاَّ أن علق على هذا الطعام قائلاً "فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم"[٩٥١]، لدرجة أنه فكر بالسفر مع حجاج ولاتة، لولا أنه يريد التوجه "لمشاهدة حضرة ملكهم".

---

(٩٤٦) المقريزي، الذهب المسبوك، ج٢، ص١١٢.
(٩٤٧) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ-١٤٥٦م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص١٥٤-١٥٥.
(٩٤٨) المصدر نفسه، ص٦٣.
(٩٤٩) ابن بطوطة، ص٥٢٥.
(٩٥٠) المصدر نفسه، ص٥٢٥.
(٩٥١) المصدر نفسه، ص٥٢٥.

فحمل ابن بطوطة انطباعاً سلبياً عن أهل ولاتة ولا سيما بعد أن شاهد تخفّفهم من قواعد الدين الإسلامي، خاصة فيما يخص علاقتهم بالمرأة، ونظام وراثتهم الأمومي، فقال "وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينسب أحد إلى أبيه بل ينسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود"(٩٥٢).

ومما زاد استغرابه في سلوكهم، هو ذلك التناقض الذي وجده بين تمسكهم الجدي بالإسلام والمواظبة على العبادات الإسلامية وتعلم الإسلام، وبين سلوكهم المتخفّف تجاه المرأة "فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن، أما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال، ولا يحتجبن مع مواظبتهم على الصلوات، ومن أراد التزوج منهن تزوج، لكنهن لا يسافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هناك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، كذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره، فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك"(٩٥٣). والأدهى من ذلك، أنه دخل يوماً على قاضي ولاتة نفسه، بعد أن استأذنه، فوجد عنده "امرأة صغيرة السن بديعة الحسن، فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني ولم يدركها الخجل، وقال لي القاضي: لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتي. فعجبت من شأنهما، فهو من الفقهاء الحجاج"(٩٥٤).

وفي يوم آخر دخل بيت مقدم رحلته أبي محمد يندكان المسوفي، فوجده قاعداً على بساط، وعلى السرير الذي في وسط داره امرأة وبجانبها رجل يتحدثان، فاستفسر عنهما، فقال له المسوفي: إنها زوجته وبجانبها صاحبها، وعندما شرح ابن بطوطة له أن ذلك مخالف للشرع، قال له المسوفي: "مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وأحسن طريقة، لا تُهمة فيها، ولسن كنساء بلادكم"(٩٥٥). فقطع ابن بطوطة علاقته معه من يومها امتعاضاً على موقفه ذاك. ولكن إلى جانب ذلك فإنه لا يخفي إعجابه بنساء ولاتة، حيث يقول عنهن "ولنساؤهم الجمال الفائق، وهن أعظم شأناً من الرجال"(٩٥٦).

أما عن طبيعة ولاتة، فقد وجدها شديدة الحر، فيها القليل من النخيل، يزرعون في ظلها البطيخ، ولحم الضأن كثير فيها، وثياب أهلها يستوردونها من مصر، وأكثر سكانها من مسوفة(٩٥٧).

وفي طريقه إلى مالي العاصمة، التي تبعد أربعة وعشرين يوماً عن ولاتة، وجد الطريق كثيرة الأشجار، التي لكبرها تستظل قافلة بظل شجرة منها، وبعضها لا أشجار لها، وبعضها يضع فيها النحل عسله فيأكله المارة، كما أن في أشجار هذه الغابة التي بين ولاتة ومالي ما يشبه ثمرة الأجاص والتفاح والخوخ والمشمش، ويستخرجون من الأرض حباً يشبه الفول، طعمه كطعم الحمص، وعندهم ثمرة الغرتي وهي ثمرة كالأجاص شديدة الحلاوة... يستخرجون منها الزيت يطبخون به، ويسرجون السروج، ويقلون به، ويسطحون به الدور. والقرع ببلادهم يعظم، ويصنعون منه الجفان بعد قطع القرعة نصفين، فإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه وفرشه، وأوانيه التي يأكلون فيها من القرع(٩٥٨).

والمسافر في بلاد مالي لا يحتاج إلى مال أو زاد، فقط يكفيه أن "يحمل قطع الملح، وحلي الزجاج.. وبعض السلع العطرية (التي) أكثر ما يعجبهم فيها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت"، وهي الأشياء اللازمة لقرى ومدن

---

(٩٥٢) المصدر نفسه، ص٥٢٥.
(٩٥٣) المصدر نفسه، ص٥٢٦.
(٩٥٤) المصدر نفسه، ص٥٢٦.
(٩٥٥) المصدر نفسه، ص٥٢٦.
(٩٥٦) المصدر نفسه، ص٥٢٥.
(٩٥٧) المصدر نفسه، ص٥٢٥.
(٩٥٨) المصدر نفسه، ص٥٢٧.

مالي، فإذا وصل هذا المسافر إلى قرية، جاءت نساء السودان، فبادلن بضاعته من الملح والحلي والعطر، بما عندهم من "بأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني"[(٩٥٩)].

ومر ابن بطوطة في طريقه على نهر النيجر، الذي يسميه (النيل)، وقبل وصوله لمدينة مالي العاصمة كتب إلى محمد بن الفقيه الجزولي، ليكتري له داراً، وكان أول نزوله العاصمة عند مقبرتها، "إلى محلة البيضان"، فوجد للعرب المسلمين (البيض) محلة خاصة بهم، شبيهة بعاصمة غانة التي تحدث جغرافيونا عن مدينتين منفصلتين في العاصمة ذاتها..

ورغم الصورة الإيجابية التي أخذها ابن بطوطة من خلال معرفته لقاضي مالي عبد الرحمن، حيث وجده "وهو من السودان حاج فاضل، له مكارم أخلاق، وبعث إلي بقرة"، ولمعرفته الترجمان (دوغا)، وهو "من أفاضل السودان وكبارهم، وبعث إلي بثور"[(٩٦٠)]، إلا أن هذه الصورة الإيجابية لم تستطع التغطية على الانطباع السلبي الذي تولد لديه في بداية إقامته، فهو الذي اعتاد في رحلاته في العالم، من الصين إلى شمال القوقاز وبيزنطة، على تكريم الملوك والأمراء له في كل مكان، أصابته الخيبة بعد عشرة أيام من وصوله، من "العصيدة" التي قدمت له وهي من مادة "القافي" المفضلة لديهم على سائر الطعام "فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنا ستة فمات أحدنا، وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشي علي فيها"[(٩٦١)]. فلم ينقذه إلاَّ دواء مسهل صنعه بعض المصريين هناك من عروق نبات، وخلطه بالأنيسون والسكر. أما صدمته الأخرى، فأتت من استصغاره لعطية سلطان مالي، وكان آنئذ منسا سليمان (ت ١٣٦٠م) التي حسبها في البداية خلع وأموال "فإذا هي ثلاث أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالفرتي، وقرعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي"[(٩٦٢)]، ومن هنا يأتي قوله في السلطان سليمان "وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء"[(٩٦٣)].

وقد دفعه انزعاجه الكبير من تقصير السلطان في إكرامه، أن صارحه مباشرة عند لقائه به أول مرة، بقوله "إني سافرت بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولي ببلادك أربعة أشهر، ولم تضفني ولا أعطيتني شيئاً، فماذا أقول عنك عند السلاطين؟"، فأنكر السلطان معرفته بقدومه "فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجري علي.. وثلاثين مثقالاً وثلثاً، وأحسن إلي عند سفري بمائة مثقال ذهباً"[(٩٦٤)]، وهو ما جعل نفس ابن بطوطة تهدأ وترتاح.

فيصف لنا فخامة مجلس السلطان، ومراسيمه المعقدة، والمهابة التي تحيط بجلسته، وحوله أعوانه وأمرائه وحجابه وترجمانه، فالسلطان يقعد في أغلب أوقاته في قبة لها مدخل في داره، لها طبقات ثلاث من الخشب مغطاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاث مغشاة بصفائح الذهب، وعليها ستائر ملفوفة ترفع عند مجلسه. وهو يعطي إشارة البدء أثناء جلوسه، بإخراج "شرابة حرير فيها منديل مصري، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق". عندها يخرج من باب قصره نحو ثلاثمائة من العبيد يحملون القسي، والرماح بأيديهم والدرق، ويأتون بفرسين مسرجين ملجمين، ومعهما كبشان لاعتقادهم بأنها تنفع لصد "العين" احترازاً من حسدها وسحرها.

وعند جلوسه في القبة، يخرج ثلاثة من عبيدهم مسرعين، فيدعون نائبه (قنجاة موسى) والفرارية الأمراء، ثم يأتي الخطيب والفقهاء يقعدون أمام السلحدار، ويقف (دوغا-الترجمان) على باب المجلس (المشور) بثياب فاخرة، متقلداً سيفاً غمده من ذهب، وفي رجله الخف والمهاميز "لا يلبس أحد، في هذا اليوم، خفاً غيره" وفي يده

(٩٥٩) المصدر نفسه، ص٥٢٧.
(٩٦٠) المصدر نفسه، ص٥٢٩.
(٩٦١) المصدر نفسه، ص٥٢٩.
(٩٦٢) المصدر نفسه، ص٥٢٩.
(٩٦٣) المصدر نفسه، ص٥٣٠.
(٩٦٤) المصدر نفسه، ص٥٣٠.

رمحان صغيران أحدهما من ذهب والثاني من فضة، وأسنتهما من حديد.

ويجلس الأجناد والفتيان وغيرهم خارج قاعة المجلس (المشور)، في شارع متسع مظلل بالأشجار، وكل فراري بين يديه أصحابه حاملين الرماح والقسي والأطبال والأبواق. حيث يصنعون الأبواق من أنياب الفيلة، وتصنع آلات طربهم من القصب والقرع، ولها أصوات عجيبة، ويقف الفرارية على فرسانهم كل منهم له كنانة على كتفه، وقوسه بيده، وأصحابه مشاة وفرسان. وفي هذا المجلس الكبير "من أراد أن يكلّم السلطان كلم دوغا (الترجمان)، ويكلم دوغا لذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان"[٩٦٥].

ويجلس السلطان سليمان في بعض الأيام بالمشور تحت شجرة على مصطبة لها ثلاث درجات مفروشة بالحرير، يرفع عليها الشط (وهو قبة من الحرير) وعليه طائر ذهبي، ويخرج السلطان من باب في ركن القصر، حاملاً قوسه بيده، وكنانته بين كتفيه، وعلى رأسه شاشية ذهب "وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة، من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس"، ويقف بين يدي السلطان المغنون حاملين قنابر الذهب والفضة، وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد المسلحين، وعند جلوس الملك على المصطبة "تضرب الطبول والأبواق والأنفار"[٩٦٦]، ثم يأذن بعدها لنائبه والفرارية والدوغا للمثول في مجلسه، وتقف الناس في الشارع.

ويصف لنا ابن بطوطة بدقة المراسيم المتعلقة بمثول رجال السلطان أو أفراد الرعية أمامه، وعادة (التتريب) لديهم للإعراب عن التحية أو الشكر أو الخضوع، ومعها التمرغ على الأرض أمامه[٩٦٧]. ولاحظ ابن بطوطة إلى جوار الفخامة المحيطة بالسلطان، حرص الأخير الهائل على نشر العدل ومعه الأمن في ربوع مالي، فقد سمع ابن بطوطة أثناء حضوره لإحدى المجالس السلطانية قول منسا سليمان إلى الأمراء والحضور "إني بريء من الظلم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم ولم يعلمني به، فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله، ولما قال هذا الكلام، وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبرأوا من الظلم"[٩٦٨].

كما شهد في إحدى أيام الجُمَع، مجيء أحد التجار إلى باب المجلس يعرض مظلمته من مشرف ولاتة (منشاجو) الذي أخذ منه ستمائة مثقال، فما كان من السلطان إلا أن بعث لإحضاره "للحين، فحضر بعد أيام... فثبت للتاجر حقه فأخذه، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله"[٩٦٩]، لذا استنتج ابن بطوطة "فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء"[٩٧٠]. ومن النتائج الفعلية لانتشار العدل في ربوع مالي، سيادة الأمن والأمان، وهي من صفاتهم الحسنة، التي يتصف بها أهل مالي، إلى جانب جملة من المزايا الأخلاقية التي يجدها فيهم ابن بطوطة، فهو ينوه إلى أن هناك عندهم "شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها، ولا المقيم من سارق وغاصب، ومنها (أي الأفعال الحسنة) عدم تعرضهم لمن يموت ببلادهم من البيضان، ولو كان القناطير المقنطرة، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقه. ومنها مواظبتهم للصلوات، والتزامهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام"[٩٧١].

---

(٩٦٥) المصدر نفسه، ص٥٣٠-٥٣١.
(٩٦٦) المصدر نفسه، ص٥٣١.
(٩٦٧) المصدر نفسه، ص٥٣٢.
(٩٦٨) المصدر نفسه، ص٥٣٤.
(٩٦٩) المصدر نفسه، ص٥٣٤.
(٩٧٠) المصدر نفسه، ص٥٣٥.
(٩٧١) المصدر نفسه، ص٥٣٥.

وإلى جانب فضائل العدل والأمان والحرص على مال الغريب الأبيض، يبجل ابن بطوطة من أفعالهم الحسنة أيضاً والفاضلة التدين والتمسك بطقوس العبادة الإسلامية، فمن زيادة حرصهم على صلاة الجماعة، يبعث كل إنسان غلامه بسجادته المصنوعة من سعف شجر يشبه النخيل، ويبسطها في أرض المسجد، وهم يحرصون على لبس الثياب الحسان يوم الجمعة لاحترامهم للصلاة، حتى إذا "لم يكن لأحدهم إلاَّ قميص خلق، غسله ونظفه وشهد به يوم الجمعة"، ومن أفعالهم الحسنة أيضاً "عنايتهم بحفظ القرآن العظيم"، حتى أنهم يضعون لأولادهم قيود إذا قصروا، فلا تفك حتى يحفظونه، ويروي أنه دخل يوماً على القاضي يوم العيد، فوجد أولاده مقيدين، وعلم السبب عدم حفظهم القرآن.

لكن إلى جانب تلك المزايا الحسنة التي وجدها في أهل مالي، نوه ابن بطوطة بمشاهد عن الماليين لا تليق بتدينهم ذاك، فجعلها من مساوئهم، وأغلب تلك المساوئ متعلقة بترك المرأة تتخفَّف من الضوابط الخلقية للإسلام، ولا سيما التعري والاختلاط الزائد بالرجال، فيشير "ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات؛ ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهن على تلك الصورة، فإن من عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان، ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا.

ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات، وتعري بناته"(٩٧٢). حتى أن ابن بطوطة رأى في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وهي ليلة فضيلة للغاية، رأى "نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره (قصر الملك) عرايا، ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر".

ويضيف ابن بطوطة إلى الخصال السيئة تلك "ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدباً... ومنها أن كثيراً منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير"(٩٧٣).

وهكذا تمتزج عند ابن بطوطة الأحكام الإيجابية ببعض الأحكام السلبية عن حياة مالي الأخلاقية والاجتماعية، بمعلوماته الزاخرة بالفائدة عن عادات ذلك الشعب ووقائع معاشه وسكناه، والطبيعة المحيطة به، وطعامه وشرابه ولباسه ومعماره.

ويحكي لنا عن طريق عودته من (مالي)، ليعرفنا على مدن أخرى لمالي تقع على النيجر الذي يظنه النيل، مثل تنبكت وكوكو بالإضافة إلى تكدا على أطراف الصحراء، فأخبرنا أن مدينة تنبكو تبعد عن النيل (النيجر) أربعة أميال، وأن أكثر سكانها من الشعوب الصحراوية "مسوفة أهل اللثام" وحاكمها يسمى (فربا موسى)، وفيها قبر الشاعر أبي إسحاق الساحلي الغرناطي (الطويجن) وهو البنَّاء الذي أتى بن منسا موسى بعد حجه من مكة.. ومن تنبكتو ركب النيل (النيجر) في "مركب منحوت من خشبة واحدة"، وكانوا يشترون من القرى التي تصادفهم في طريقهم الطعام والسمن بما يحملونه فيقايضونه "بملح وبالعطريات وبحلي الزجاج". ويُعتقد أن تمبكتو قد تأسست عام ١٠٠٠م، سرعان ما برزت أهميتها على منحى النيجر، حيث تنزلها القوافل الآتية من الشمال والشرق في طريقها إلى مالي، حيث كانت تتحكم بالتجارة الصحراوية والنهرية.

وذكر الوزان أن اسم تومبكتو حديث العهد، ويرجع بتأسيسها إلى عهد منسا موسى "فهي اسم مدينة بناها ملك يدعى منس موسى في عام ٦٠٠هـ على مسافة اثني عشر ميلاً من فرع النيجر"(٩٧٤)؛ وقد زارها الوزان في العهد السنغالي، ووصف آثارها الباقية؛ والحال أنه يمكن القول إن منسا موسى جدد تمبكت وزادها ازدهاراً، ولا سيما بعد أن جدد مسجد (سنكوري Sankore) عام ١٣٢٥م، وهو المسجد الكبير الذي بنته في الأساس سيدة

---

(٩٧٢) المصدر نفسه، ص٥٣٦.

(٩٧٣) المصدر نفسه، ص٥٣٦.

(٩٧٤) الإفريقي (الوزان)، ص٥٤٠.

تعرف باسم سنكري، فعمل منسا موسى المئذنة وجعل القبور ملاصقة له[٩٧٥].

ومروا على بلد نسي ابن بطوطة اسمه، وعليه أمير فاضل حاج يسمى "فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة، لا يتعاطى أحد النزع في قوسه"، ووجد عنده كتاب "المدهش لابن الجوزي" دليل اهتمامه بالتفقه بالدين، وشرب عنده مشروب يسمى الدقنو من "ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن، وهم يشربونه عوض الماء"، فوجد أن "فربا سليمان" ذاك رجل فاضل، حتى أنه قال فيه "لم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل"[٩٧٦].

أما مدينة كوكو (غاو Gao) التي أرجع ابن خلدون سيطرة مالي عليها إلى منسا ساكورة، حيث "فتح كوكو وأصارها في مملكة أهل مالي"، والتي لعلها أصبحت نواة دولة السنغي مقبلاً، فيصفها ابن بطوطة بأنها "مدينة كبيرة على النيل (النيجر)، ومن أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبها الفقوس العناني الذي لا نظير له"[٩٧٧].

ويذكر بصدد حديثه على (كوكو) أن نقد مالي بما فيها كوكو يعتمد على الودع، أو حسب قوله "وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع"[٩٧٨]. أما في مدينة تكدا (تكرت) الغنية بمناجم النحاس، فيجد أن بيوت أو "ديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر، وماؤها يجري على معادن النحاس، فيتغير لونه وطعمه بذلك، ولا زرع بها إلاّ يسير القمح"[٩٧٩]، كما أن بها الذرة، ولا ينسى تذكيرنا بخطورة العقارب وكثرتها فيها؛ وأهمية التجارة في حياة تكدا وبشكل أساسي تصديرها النحاس إلى مصر وغيرها "فلا شغل لأهل تكدا غير التجارة، يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلبون من كل ما بها حسان الثياب وسواها، ولأهلها رفاهية وسعة حال، ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم"[٩٨٠].

ووصف ابن بطوطة بشيء من التفصيل طريقة استخراج النحاس من تكدا مستخدمين الرقيق "ومعدن النحاس بخارج تكدا، يحفرون عليه في الأرض، ويأتون إلى البلد، فيسبكونه في بيوتهم، ويفعل ذلك عبيدهم وخدمهم، وإذا سبكوه نحاساً أحمر، صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ"[٩٨١]. ويستعملون تلك الرقاق أداة للتبادل أو كما يقول "وهي صرفهم"، ويشتروا بالرقاق "اللحم والحطب"، بغلاظها "العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح"[٩٨٢]. كما يتاجرون بالفائض من النحاس فيحملون النحاس "إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار، وإلى زغاي، وإلى بلاد برنو"، وبالمقابل فإنهم يأتون من تلك البلاد "الجواري الحسان والفتيان، وبالثياب المجسدة"[٩٨٣]. وفي تكده أتت لابن بطوطة الأوامر بالعودة إلى سلطانه في فاس أبو العنان، فقفل راجعاً.

وكان قد نقِل عن السلطان موسى قوله في مصر، أن عنده مدينة اسمها زكرى التي يُعتقد أنها تكدا، وأن فيها "معدن النحاس الأحمر، يُجلب منه قضبان إلى مدينة يني" العاصمة، وأشار إلى عملية استبدالهم لمعدن النحاس ذاك بذهب الجنوب (الكفار)، قائلاً "ليس لي في مملكتي شيء ممكّس (مجزي ومفيد) سوى هذا النحاس المعدني... ونحن

---

(٩٧٥) السعدي، ص٦٢-٦٣.
(٩٧٦) المصدر نفسه، ص٥٣٩.
(٩٧٧) المصدر نفسه، ص٥٣٩.
(٩٧٨) المصدر نفسه، ص٥٣٩.
(٩٧٩) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(٩٨٠) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(٩٨١) المصدر نفسه، ص٥٤١.
(٩٨٢) المصدر نفسه، ص٥٤١.
(٩٨٣) المصدر نفسه، ص٥٤١.

نبعثه إلى بلاد الكفار نبيعه وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب"[٩٨٤]. وكان ابن خلدون الذي زار بسكرة عام ٧٥٤هـ-١٣٥٣م، قد تحدث عن قافلة مصرية تجارية ضخمة من تكدا إلى مصر، فقد صادف في بسكرة صاحب تكرت (تكدا)، فأخبره الأخير عن كثافة التجارة الدولية المتجهة إلى مالي عبر تكدا "قال لي: اجتازنا هذا العام سفر من تجار المشرق إلى بلد مالي، كانت ركابهم اثنتي عشر ألف راحلة، وذكر لي غيره أن ذلك هو الشأن في كل سنة، وهذا البلد في طاعة سلطان مالي"[٩٨٥].

صلات ومراسلات دولية:

يقف ابن بطوطة في مقدمة رسل الملوك والرحالة الذين جمعوا بين الأغراض الدبلوماسية وربما الجاسوسية والأغراض المعرفية، حاملاً معه فضول المكتشف، ولعل من أغراض زيارته أن يعرف لمولاه أبي العنان مصادر الذهب، أو على الأقل الطريق التجاري الكبير الشرقي الذي يمر بتكدا والواحات المصرية، ويصل مالي مع مصر على حساب علاقاتها مع بلدان المغرب ولا سيما فاس. إلا أن تاريخ العلاقات بين بلاد الشمال الإفريقي بما فيها مصر ومالي امتلأت بالسفارات ومعها هداياها ورسائلها.

ويقف في مقدمة التواصل الرسمي بين مالي ومصر حج ما يقارب سبعة من سلاطين مالي إلى مكة عبر مصر، الذي نقل كثيراً من تفاصيلها، وبالأخص رحلة منسا موسى حاجاً. وإلى جانب حج الملوك هناك حج العامة المار بمصر، حتى أنهم في مصر خصصوا رواق في جامع الأزهر لأهل التكرور، إلى جانب إنشاء الماليين في القاهرة "مدرسة ابن رشيق" لتدريس الفقه المالكي[٩٨٦].

وقد تواصلت الصلات بين بلاد شمال إفريقيا ومالي، فإلى جانب موجات التجار الكثيفة والمهاجرين والمغامرين والدعاة والمبشرين، أوفد ملوك الطرفين الوفود لدعم تلك الصلات وتوطيدها، فبالإضافة إلى سفارة ابن بطوطة إلى مالي، أو ما يقابلها، كان من أشهر سفارات مالي إلى المغرب تلك السفارة التي أتت في عهد ماري جاظة الثاني بن منسا مغا بن منسا موسى (ت ١٣٧٤م)، إلى سلطان المغرب أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن (ت ١٣٦١م)، حيث أن السلطان المالي السابق له المتوفى -وهو السلطان سليمان- قد أرسل هذه السفارة،

فأمر بإعادتها ليضيف إليها الزرافة التي تحولت إلى ما يشبه الأعجوبة في بلاد مراكش. وقد وصلت هذه السفارة في صفر (٧٦٢هـ-١٣٦١م)، فأشار إليها ابن خلدون وإلى الزرافة التي معها "وأتحف ملك المغرب لعهده السلطان أبا سالم بن السلطان أبي الحسن بالهدية المذكورة سنة اثنين وستين (وسبعمائة هـ)، وكان فيها الحيوان العظيم الهيكل المستغرب بأرض المغرب المعروف بالزرافة، تحدث الناس فيه، من متفرق الحلى والشبه في جثمانه ونعوته دهراً"[٩٨٧].

وإضافة إلى دهشة المغاربة العرب المسلمين (بأعجوبة) الزرافة، فقد أثار استغرابهم تحية (التتريب) التي أداها رسل مالي إلى سلطان المغرب المريني.

العدل في مالي:

أشاد العمري وابن بطوطة والقلقشندي وغيرهم، بعدالة حكام مالي وإنصافهم للمظلوم واقتصاصهم من الظالم، ومساواتهم الجميع أمام القانون أو الشرع، ولقد كان السلطان يشرف بنفسه على الأحكام في مجالسه، وكان نوابه (الفربا) يقومون بالدور نفسه وإلى جانبهم قضاة الشرع من الفقهاء، حيث كانوا يتولون إقامة الأحكام الشرعية، ويماثل صاحب الفتاش بين قضاء السنغي ومالي، ويأخذ على سبيل المقارنة حال تنبكتو بحال (جعب

---

(٩٨٤) العمري، الباب العاشر، ص٦٦. والأعشى، ج٥، ص٢٩٠-٢٩١.

(٩٨٥) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٧، ص٥٢.

(٩٨٦) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٢، ص١٧١. والقلقشندي، ج٥، ص٢٨١.

(٩٨٧) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٧.

Dio)، فيقول "وهي أي تنبكت يومئذ (أيام حكم السنغي) ليس فيها حكم إلاَّ حكم متولي الشرع، ولا سلطان فيها، والقاضي هو السلطان، وبيده الحل والربط وحده، ومثلها في أيام سلطنة (مل) جعب، ليس لأحد فيها إلاَّ قاضيها، ومن دخلها كان آمناً"[٩٨٨].

واهتم السلاطين باستقدام الفقهاء من المشرق لتعليم الدين، ولتولية أحكام القضاء أحياناً، فذكر العمري أن سلطان منسا موسى "جلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك". وقد رأينا كيف أطرى رحالتنا وجغرافيونا عدل حكام مالي ولا سيما عدل منسا موسى، وعدل منسا سليمان كما وصفه ابن بطوطة، ولعل ما نقله العمري عن حال القضاء وأحكامه عند السلطان منسا موسى يعطي نموذجاً لمؤسسات القضاء وكيفية اشتغالها في مالي، حيث يقول "والشكاوى والمظالم تنهى إلى هذا الملك (منسا موسى) فيفصلها بنفسه، وفي الغالب لا يكتب شيئاً بل أمره بالقول غالباً، وله قضاة وكتاب ودواوين، هذا ما حدثني به الدكاكي"[٩٨٩].

وعلى هذا يبدو إن القضاة المتفهمون بالشرع في المدن الكبيرة أو الضواحي كانوا يفصلون في النزاعات التي تقوم بين الأفراد والجماعات، ويسهرون على تطبيق قواعد الشرع.

السلوك الاجتماعي (بين الاعتقاد الإسلامي والعادات المحلية):

اشتكى الرحالة والمصنفون العرب من التفاوت الذي لاحظوه بين تمسك الماليين بالعقيدة الإسلامية ودأبهم على حفظ القرآن وعلى الصلاة والعبادات الأخرى بما فيها الحج وتحمل مشاق الطريق إليه مع بعد مسافته، وبين مواظبتهم على عاداتهم القديمة لا سيما تلك المتعلقة بالمرأة.

كان المذهب السني المالكي هو السائد في مالي، وقد رأينا حرص منسا موسى على شراء مجموعة مؤلفات الفقه المالكي، ولعل الإسلام دخل بعمق في المجتمع المالي في المدينة والريف، لذا يبدو ما قاله الدمشقي عن أهل مالي، فيه تقليل من كثافة الإسلام، إذ يشير إلى أنهم "ينقسمون إلى كفار ومسلمين، المسلمون يسكنون المدن ويلبسون المخيط، والكفار طوائف وهم لملم وتمم ودمدم، فمن قارب المسلمين يسترون فروجهم، ومن بعد عنهم يأكلون من وقع إليهم من الناس"[٩٩٠]، فهو يعطي انطباعاً أن الإسلام متمركز في المدن فحسب، وكلما ابتعدنا عنها تزايد الوثنيون الذين ويطلق عليهم اسم "كفار". ولعل المناطق التي ذكرها بنفسه هي مناطق تلك الشعوب الجنوبية التي تقطن في الغابات الاستوائية، ولكن هذا لا يمنع من وجود الكثير من الوثنيين هنا وهناك في ريف مالي أو مدنها، وبالمقابل انتشار بعض الفرق الإسلامية المنشقة عن الإسلام السني كالخوارج الأباضية الذين صادفهم ابن بطوطة في طريقه إلى عاصمة مالي، وذلك في قرية (زاغري) بعد ولاتة، فكانت زاغري هذه "يسكنها تجار السودان.. ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الأباضية من الخوارج"[٩٩١].

لكن غالبية الماليين انحازوا إلى الإسلام، ولاحظ رحالتنا مدى حرصهم على أداء العبادات والتمسك بشعائر الدين ورموزه الموحية، فقد وجدنا مع ابن بطوطة مواظبتهم على الصلاة والانخراط في صلاة الجماعة في المساجد، وضربهم أولادهم لحفظ القرآن، وتشوقهم لفريضة الحج، وإجلالهم لمن حج منهم، واعتناءهم الشديد بشهر رمضان، حتى أن الفرارية الأمراء كانوا يأتون بطعامهم إلى قصر السلطان للمشاركة معاً في الإفطار، وقد تصادف أن كان ابن بطوطة في ليلة القدر - أي ليلة السابع والعشرين من رمضان- في بلاد منسا سليمان، فقدَّم له السلطان ولأصحابه العطايا، ويذكر صاحب الفتاش، أنه "إذا كانت ليلة القدر يأمر (الحاكم) بطبخ الطعام،

---

(٩٨٨) كعت، ص١٧٩-١٨٠.
(٩٨٩) العمري، الباب العاشر، ص٥٦.
(٩٩٠) الدمشقي، ص٢٦٨.
(٩٩١) ابن بطوطة، ص٥٢٧.

ثم يجعل المطبوخ في المائدة، أي القدر، ويحملها فوق رأسه وينادي قراء القرآن، وصبيان المكتب، أن يأكلوها، والقدر على رأسه يحملها وهو قاعد، وهم قائمون يأكلون، تعظيماً لهم"[992].

وحرص سلاطين مالي ولا سيما سليمان وموسى، ومعهم رعيتهم، على تشييد المساجد، فبنى سلطان موسى كما يقول العمري "المساجد والجوامع والموادن، وأقام به الجُمع والجماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب مالك"[993]. كما اشتهر بأنه كان يأمر أثناء عودته من الحج عام ١٣٢٥م، في كل مدينة من بلاد مالي قد زارها يوم الجمعة[994]، مستعيناً آنئذ بالمهندس المعماري الأندلسي (الطويجن). ويبدو أن اللغة العربية أصبحت لغة الثقافة السائدة في مالي، تبجيلاً منهم للغة القرآن، حتى أن منسا موسى كان ينطق العربية.

ولقد حضر ابن بطوطة وشاهد احتفالهم بعيدي الأضحى والفطر، فلاحظ حرصهم على إظهار فرحهم وتمجيدهم لهذين العيدين، حيث "خرج الناس إلى المصلى، وهو قريب من قصر السلطان، وعليهم الثياب البيض الحسان، وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان (رداء أسود)، والسودان لا يلبسون الطيلسان إلاَّ في العيد، ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام، وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان، وهم يهللون ويكبرون... ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان، وتكلم بكلام كثير، وهناك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب"[995]، فلقد كانت الصلاة وجميع الشعائر الإسلامية وخطبة الجامع، بما فيها خطبة العيد تؤدى باللغة العربية، لذا كان هناك مترجم يترجمها للغة المحلية الماندنغو.

وكان للمساجد عندهم حرمة خاصة، وقدسية تجعلها أحياناً مستجاراً للمظلوم أو ملجأ من الظالمين، وحتى دار خطيب الجامع لها حرمة، ولقد لاحظ ابن بطوطة هذا بوضوح، فعندما تزوج السلطان سليمان على زوجته الكبرى (قاسا) بنت عمه، وولى مكانها زوجته الأخرى (بنجو)، أظهرت بنات عمه تعاطفهن مع زوجته الأولى (قاسا) وامتعاضهن من الثانية "فغضب على بنات عمه فخفن منه، واستجرن بالجامع فعفى عنهن"[996]، ولما زاد غضبه على زوجته قاسا، وخشيت من بطشه "استجارت بدار الخطيب، وعادتهم أن يستجيروا هناك بالمسجد، وإن لم يكن فبدار الخطيب"[997].

ومن مظاهر تقربهم من المسجد وتبجيلهم له، أنهم دأبوا على دفن موتاهم في رحابه "وتلك عادة السودان أهل المغرب، لا يدفنون موتاهم إلاَّ في رحاب مساجدهم وجوانبها"[998].

وعلى الرغم من هذا التمسك العميق بمظاهر الإسلام وشعائره وعباداته ورموزه، فإن رحالتنا وجغرافيينا أشاروا إلى بعض الفجوات في سلوكهم الذي يبتعدون فيه عن "الإسلام القويم" ولا سيما فيما يخص علاقتهم بالمرأة كما قلنا سابقاً، كالتعري الفاضح للفتيات الذي شاهده ابن بطوطة في قصر السلطان سليمان، والذي لم يقتصر على الجواري بل شمل بنات السلطان نفسه، وبنات عمه يظهرن أمامه وأمام الأغراب عاريات؛ وهذا موضوع خطير يمس في العمق مظاهر الطهرية الإسلامية التي ألفها ابن بطوطة والتي تحرص على حجب (عورة المرأة)، كما لاحظوا تخففهم من الضوابط الشرعية الناظمة لعلاقة المرأة بالرجل، وهو أمر شاهده ابن بطوطة في "مالي"، كسماح قاضي مالي لنفسه بصحبة غير شرعية مع فتاة

(٩٩٢) كعت، ص١٨٠.
(٩٩٣) العمري، الباب العاشر، ص٤٣.
(٩٩٤) السعدي، ص٧.
(٩٩٥) ابن بطوطة، ص٥٣٤.
(٩٩٦) المصدر نفسه، ص٥٣٤.
(٩٩٧) المصدر نفسه، ص٥٣٥.
(٩٩٨) السعدي، ص٦٢-٦٣. كعت، ص١٢١.

صغيرة السن، واستغرابه من مقدم رحلته أبي محمد يندكان المسوفي لافتقاده إلى الغيرة، وإباحته لزوجته وصاحبها بالتلاطف على سرير أمامه!. وهي المفارقة نفسها التي وجدها ابن أمير حاجب -كما يروي العمري- مع منسا موسى، حيث وجد إلى جانب "ظهور الإسلام بينهم وتمذهبهم بمذهب المالكية" أن من عادة أهل مملكة منسا موسى أنه عندما تكبر أو تنشأ "لأحد منهم بنت حسناء قدمها له (للسلطان) أمة موطوءة، فيملكها بغير تزويج.. مع كون هذا السلطان موسى كان متديناً محافظاً على الصلاة والقراءة والذكر"[٩٩٩]. ولقد ناقشه ابن أمير حجاب وقال له "إن مثل هذا لا يجوز، ولا يحل لمسلم شرعاً ولا نقلاً"، فتساءل السلطان موسى: ولا للملوك؟ فأجابه: ولا للملوك. فقال السلطان "والله ما كنت أعلم، وقد تركت هذا، ورجعت رجوعاً كلياً عنه"[١٠٠٠].

كما تخيل العمري أن من عادات أهل مالي "أن لا يُدفن عندهم ميت إلاَّ إذا كان ذا قدر وحشمة، وإلاَّ فكل من كان سوى هؤلاء ممن لا قدر له، والفقراء والغرباء، فإنه يُرمى رمياً بالفلاة مثلما يُرمى باقي الميتات"[١٠٠١]. ولعل هذا الحكم فيه بعض المبالغة، فربما بقيت أقلية لا تتبع طقس الدفن، وهي مسألة غاية في الأهمية إسلامياً، أما الأكثرية المطلقة أغنياء وفقراء فإنها تدفن موتاها، وهو ما نجد دليله فيما لاحظه ابن بطوطة من حرصهم على دفن موتاهم بجوار المساجد أو بداخلها.

العمران والثروة الطبيعية والاقتصادية:

تكاثرت المدن في إمبراطورية مالي، واشتهر الكثير منها كالعاصمة يني أو مالي، وكانت الأخيرة كما رآها ابن بطوطة تضم الكثير من العلماء من البيض والسود، وهناك مدينة يني أو جني التي تكاثر فيها العلماء حتى بلغ عددهم حسب السعدي نحو ٤٢٠٠ عالماً، كما تكاثرت المدارس في تلك المدن بالإضافة إلى مدينة زاغة وكوكو وتنبكت، وانتشرت المدارس والجوامع والقصور؛ وقد لاحظنا اهتمام منس موسى باستقدام المهندس الأندلسي معه لتشييد القصور والمساجد، فبنى له قصراً "ببناء قبة مربعة الشكل استفرغ فيها إجادته.. وأضفى عليها من الكلس ووالى عليها بالأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب"[١٠٠٢].

ويذكر العمري أن "مدينة يني ممتدة طولاً وعرضاً، تكون طول بريد تقريباً، وعرضها كذلك، لا يحيط بها سور، وأكثرها متفرقة. وللملك عدة قصور يستدير بها سور محيط بها، وفرع من النيل (النيجر) يستدير بهذه المدينة من جهاتها الأربع... وبناء هذه المدينة بأياد من الطين، مثل جدران بساتين دمشق... وسقوفها بالأخشاب والقصب، وغالب سقوفها قباب أو جملوناتها كالأقباء، وأرضها تراب مرمل"[١٠٠٣]. ولاحظ ابن بطوطة أن عمارة تاكد "مبنية بالحجارة الحمر"، كما لاحظ ثراء تنبكتو وضخامة مدينة كوكو على النيجر.

ومالي غنية بالثروات، فإذا تركنا جانباً ثروتها الذهبية والنحاسية التي تحدثنا عنها، فقد أشاروا إلى أنها "بلاد مخضرة نخيلة، وجبالها ذوات أشجار برية مشتبكة غليظة السوق"، وأكثر أقواتهم من الأرز والفوتي الذي يخرج من حب يشبه الخردل يؤكل، وعندهم أيضاً القليل من الحنطة، وقوتهم الرئيسي يعتمد على الذرة، ويزرع عندهم اللوبيا والقرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان والكرنب والملوخيا، ومن الفواكه الجميز وشجرة يسموها زبيزور يخرج منها ثمر لذيذ الطعم، وشجر يسمى قومى ثمرها مثل السفرجل، وأيضاً شجرة الفارتي ثمرها شبيه الليمون

---

(٩٩٩) العمري، الباب العاشر، ص٥٨.
(١٠٠٠) المصدر نفسه، ص٥٨.
(١٠٠١) المصدر نفسه، ص٥٥.
(١٠٠٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٤١٦.
(١٠٠٣) العمري، الباب العاشر، ص٤٦-٤٧.

وطعمها شبيه الكمثرى، يستخرجون منه شبيه السمن أو الزيت، يؤكل كالسمن وتوقد منه السرُج والقناديل ويصنع منه الصابون[١٠٠٤].

وعندهم من الخيول: الأكاديش والبغال، والبقر والغنم والحمر، ولا يوجد من الأخير إلاَّ صغير الجثة وذميم الخلق، وعندهم أيضاً الجواميس البرية، وفي صحاريهم أنواع الحمر والبقر والغزلان والنعام والفيلة والآساد والنمور، وفي نيلهم التماسيح[١٠٠٥].

ويعتمدون في معاملاتهم التجارية-التبادلية على "الودع، وأن التجار أكثر ما تجلب لهم الودع، وتستفيد به فائدة جليلة"[١٠٠٦].

مظاهر من سلوكهم الثقافي (الطعام، اللباس):

يبدو أن الذرة -كما رأينا- تشكل مادة رئيسية في غذائهم، وأن أكثر الوجبات انتشاراً عندهم هي الذرة المجروشة التي تضاف إليها الصلصات أو العسل واللبن، لكننا وجدنا ابن بطوطة المتأنق في مأكله لم يستطع هضم عصيدتهم، فقد أضافه مشرف ولاتة منشاجو على جريش أنلى (الأذرة) مخلوطاً بيسير عسل ولبن، وضعوه في نصف قرعة على شكل جفنة، فشرب الحاضرون وانصرفوا، كما كانت من الصدمات الأولى لابن بطوطة أن (العصيدة) التي أطعمها لهم فقيه (مالي) العاصمة، من طبخ زوجته، ابنة عم السلطان، فقد صنعتها "من شيء شبيه القلقاس يسمى القافي، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعنا مرضى"[١٠٠٧]، فلم تعجبه أيضاً، ويبدو أن ابن بطوطة يميل إلى أكل اللحوم في الغالب.

ويلخص القلقشندي أشكال لباسهم بقوله "لباسهم عمائم بحنك مثل الغرب (المغرب)، وقماشهم بياض من ثياب قطن تنسج عندهم في نهاية الرقة واللطف تسمى الكمصيا، ولبسهم شبيه بلبس المغاربة، جباب ودراريع بلا تفريج. والأبطال من فرسانهم تلبس أساور من ذهب، فمن زادت فروسيته لبس معها أطواقاً من ذهب، فإن زادت لبس مع ذلك خلاخل من ذهب، وكلما زادت فروسية البطل ألبسه الملك سراويل متسعة وسراويهم ضيقة أكمام الساقين متسعة الشرج، وأهل هذه المملكة يركبون السروج.. كأنهم من العرب، إلاَّ أن هؤلاء يبدؤون في الركوب بأرجلهم اليمنى بخلاف غيرهم من سائر الناس، ولا يعرف عندهم ركوب الجمل"[١٠٠٨].

د- مملكة السنغي

قامت مملكة السنغي وترعرعت في المنطقة الوسطى من حوض نهر النيجر وما حولها، أي في ذلك الفضاء الجغرافي الذي نهضت فيه عبر العصور دول القبائل-مدن، حول المدن الرئيسية التي كان أشهرها: جني

(١٠٠٤) المصدر نفسه، ص٤٧-٤٩.
(١٠٠٥) المصدر نفسه، ص٤٧ و٥٠-٥١.
(١٠٠٦) المصدر نفسه، ص٦١.
(١٠٠٧) ابن بطوطة، ص٥٢٩.
(١٠٠٨) القلقشندي، ج٥، ص٢٩٩.

وتمبكتو وغاو و(دندي Dendi)، ولقد أطلِق اسم سنغي على تلك المنطقة وعلى القبائل التي سكنتها وعلى اللغة المستعملة فيها، وإذا كانت تلك المنطقة قد تمركزت أصلاً حول منعطف النيجر، فإنها ما لبثت أن اتسعت مع اتساع نفوذ السنغي وازدياد قوتها ونفوذها، وغدت غاو عاصمتها ومدينتها الكبرى.

يُعيد بعض الباحثين بداية تشكل دولة السنغي إلى القرن السابع الميلادي، وذلك على يد زعيم بربري جعل كوكو عاصمته، ولما توسعت شمالاً انتقل مركز العاصمة إلى غاو في أواخر القرن العاشر الميلادي، ويُعتقد أن الإسلام قد وصل إليها في وقت مبكر وذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[١٠٠٩].

وقد ساهمت السنغي في ضعضعة غانا، ثم ما لبثت أن خضعت إلى سيطرة مالي ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، حين حاولت مالي -مع جملة أسباب أخرى- السيطرة على مخارج الذهب في منطقة غابة (الأكان Akam Forest)[١٠١٠]. فعلى الرغم من قيام السنغي منذ (٧٠٠م) غير أنها لم تبرز على الساحة الدولية للسودان الغربي إلاَّ في وقت متأخر جداً، حيث قام بينها وبين مالي نزاع وظلت خاضعة لمالي منذ أيام السلطان المالي ساكورة وحتى نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، لكنها كانت خلال ذلك و"كلما تمزقت مالي تحت وطأة الفتن كان باستطاعة غاو تأكيد استقلالها"[١٠١١].

ولم تستطع السنغي توسيع رقعتها إلاَّ أثناء فترة الفوضى التي أعقبت وفاة موسى الثاني، حينها اغتنم (سُني علي Sonni Ali) أو (علي كُلُن Ali Kolan) (ت ٨٩٧هـ-١٤٩٤م) الفرصة وبدأ محاولته للاستقلال بالسنغي، ومع (سني محمد داع Muhammad Dao) توسعت السنغي غرباً على حساب (ميم Mema)، وشيئاً فشيئاً امتدت حدودها حتى شملت المسافة الواقعة على منحنى نهر النيجر إلى الطوراق في الشمال، وجاورت شعوب المندنغو في الجنوب، إلى بيرنو وكانم وتشاد في الشرق، وأخضعت الموسي Mossi في عهد اسكيا الحاج محمد (ت ٨٩٨هـ-١٤٩٣م)، حيث بلغت في عهد هذا السلطان أقصاها، وتسرب نفوذها إلى شمال نيجريا الحالية، ودانت لها كاتنسا وغوبر وكانو، وشملت سطوتها منطقة السافانا[١٠١٢]. فامتدت على النيجر من دند في الجنوب الشرقي إلى جني وماسة في الجنوب الغربي، وسيطرت على (هرياند Haribanda) و(الحجر Al Haijr) في المناطق الداخلية لمنعطف النيجر وإلى أرض الموسى، وأخذت (باغن Baghane)، وبسطت سيطرتها على الصحراء من ولاتة إلى تغازا[١٠١٣].

ومع سيطرة السنغي على ملح تغازة، احتكت مع سلطة السعديين في مراكش، مع طموحهم للتوسع جنوباً لتأكيد زعامتهم في العالم الإسلامي بالتنافس مع العثمانيين. فبعد أن استطاع السعديون عام ١٥٨٨م إيقاع الهزيمة المنكرة بالملك البرتغالي في موقعة "القصر الكبير" والذي كان إيذاناً باستفحال صراع الهيمنة على النيجر، في ظل خوف مراكش من الزحف الأوربي، وتصاعد هيمنة العثمانيين على العالم الإسلامي، وطمعهم في ذهب السنغي وبسط هيمنتهم على ملح تغازة، أتى الاصطدام المراكشي بإمبراطورية السنغي عام ١٥٩١م إيذاناً بهز كيان السنغي وتفككه.

وقد أدرك الجغرافيون والرحالة العرب بصورة مبكرة مكانة هذا الشعب ومملكته على النيجر، حيث تتبعوا تنامي قوة هذه المملكة وامتدادها حتى تفككها في القرن السادس عشر الميلادي، فتحدث اليعقوبي عن "مملكة الكوكو" باعتبارها "أعظم ملوك ممالك السودان، وأجلها قدراً، وأعظمها أمراً، وكل الممالك يعطي لملكها

(١٠٠٩) زيادة، إفريقيات، ص٣٥٧.

(١٠١٠) د.عز الدين عمر موسى: دراسات إسلامية-غرب إفريقيا-تأثير الغزو المراكشي على السنغي، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٩٩، ص٦٧.

(١٠١١) بانيكار، ص١٢١.

(١٠١٢) المصدر نفسه، ص١٢١.

(١٠١٣) موسى، دراسات إسلامية، ص٧٧-٧٨.

الطاعة ويقرون له بالرئاسة"[١٠١٤]، ويشير إلى انتساب عدة ممالك إليها بالتبعية: مملكة الهربر ومملكة صنهاجة ومملكة تذير ومملكة الزبانير ومملكة أرور[١٠١٥]، ومملكة تفاروت، وهي أسماء لممالك لا نستطيع معرفة ما يقابلها اليوم، إذا استثنينا صنهاجة التي لم تكن على كل حال تابعة لها آنئذ.

وكتب المهلبي عام ٩٩٦م أن ملك غاو (كوكو) مسلم، وأنه يقيم مع حاشيته من النبلاء على الضفة الغربية، على حين تقع الأحياء التجارية على الضفة الشرقية، ويتردد عليها التجار من كل بلدان العالم، ويلبس الملك والنبلاء القمصان والعمائم، ويركبون الخيل المسرجة. ونقل ياقوت الحموي عن المهلبي أيضاً قوله أن الكوكو أمة وبلاد من السودان، وهي في الإقليم الأول "وملكها يظاهر رعيته الإسلام، وأكثرهم بظاهرية، وله مدينة على النيل (النيجر) من شرقيه اسمها سرناة.. وله مدينة غربي النيل سكنها هو ورجاله وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه، ومصلى الجماعة بين المدينتين، وله مدينته قصر لا يسكنه معه أحد.. وجميعهم مسلمون، وزي ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم، ويركبون الخيل أعراء..."[١٠١٦].

ولعل البكري هو الذي أعطى أوفى تقرير عن حال السنغي حتى القرن الحادي عشر الميلادي، وهو ما يقارب ما قدمه عن حال غانة، إذ يشير إلى دخول الإسلام إلى "مملكة كوكو"، وإلى أن العائلة الحاكمة مسلمة، وأن اسم معاصره من ملوكها فندة، وتنقسم مدينة كوكو إلى قسم للمسلمين وآخر لعبادة الدكاكير، وأن ملوكهم يستمدون شرعيتهم من إظهارهم الطاعة لخليفة المسلمين في بغداد، ويبدأ البكري وصفه في ذكر أن مدينة كوكو "مدينتان، مدينة الملك ومدينة المسلمين، وملكهم يسمى فندا، وزيهم كزي السودان من الملاحف وثياب الجلود، وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم. وهم يعبدون الدكاكير كما تفعل السودان، ويُضرب بجلوس الملك الطبل، وترقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة"[١٠١٧]. ويتحدث عن عادة صارمة تربط انتهاء الملك من طعامه في الصباح ببدء اندفاع أهل الكوكو إلى العمل، فتصبح إشارة انتهائه من طعامه بمثابة الإذن للرعية بالتحرك، والتصرف فـ"لا يتصرف أحد منهم في مدينته حتى يفرغ من طعامه ويقذف باقيه في النيل، فيجلبون (من الجلبة) عند ذلك ويصيحون فيعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه"[١٠١٨].

وترتبط بمراسيم تقلد الملك للعرش، وبإضفاء الشرعية عليه، أن يتقلد الملك بعض الأشياء التي تدل على تبعيته لمركز الخلافة والتي يدعون أنها أتتهم هدية من أمير المؤمنين "وإذا ولي منهم ملك دُفع إليه خاتم وسيف ومصحف، يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم وملكهم"[١٠١٩]. ويشهد البكري أن ملوكهم مسلمون، فلا "يملِّكون غير المسلمين"[١٠٢٠].

وبما أن الإسلام قد انتشر في مدينة كوكو ومناطق تخوم الصحراء والساحل، وصولاً إلى المنطقة الاستوائية، فقد دأب البكري على ذكر أماكن الوثنيين في تلك المناطق، وأشار إلى غنى منطقة السنغي بأشجار الصمغ الذي يبادل به القطن من الإمارات العربية في الأندلس، كما أشار إلى أهمية سلعة الملح بالنسبة لهم، فيشير إلى أن "تجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم، والملح يُحمل (إليهم) من بلاد البربر يقال لها توتك، من معدن تحت الأرض إلى تادمكة ومن تادمكة إلى كوكو"[١٠٢١].

ويبدو أن السنغي عندما كان البكري يكتب مدونته "المسالك والممالك" كانت تتوسع قليلاً على حساب

(١٠١٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢١٩.
(١٠١٥) المصدر نفسه، ص٢١٩.
(١٠١٦) الحموي، مجلد٤، ص٥٦٢.
(١٠١٧) البكري، ص١٨٣.
(١٠١٨) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(١٠١٩) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(١٠٢٠) المصدر نفسه، ص١٨٣.
(١٠٢١) المصدر نفسه، ص١٨٣.

القبائل المجاورة، إلاَّ أنها لم تكن قد تحولت بعد إلى كيان سياسي كبير، فحتى عندما ضمتها مالي كان حجمها محدوداً نسبياً، ويذكر السعدي أن منسا موسى السلطان المالي قام وهو في طريق عودته من حجه، باصطحاب أميرين من السنغي هما سلمن نار وعلي كُلن، واحتجزهما في عاصمته نيامي ليضمن ولاء السنغي، ويذكر السعدي في هذا الصدد "فلما بلغا مبلغ الاستخدام أخذهما سلطان مل لأنهم في طاعته حينئذ للخدمة على عادتهم (في احتجاز) أولاد الملوك الذين في طاعتهم"[١٠٢٢].

وفي صدد إسلام السنغي الذي يشير إليه البكري في القرن الحادي عشر الميلادي، يذكر السعدي الذي اعتمد كثيراً على الفقيه الكبير أحمد بابا، ودخلت كتاباته ضمن المجال التداولي للثقافة العربية الإسلامية، في سياق تعقبه لشجرة ملوك السنغي قبل مجيء عائلة (سني Sanni)، أن أول من اعتنق الإسلام الملك (زكُسي) وهو الملك الذي يضعه السعدي في حلقة السلالة الملكية لعائلة (زا Za أو Dia)، والتي يعتقد السعدي وكعت، أنها ذات أصول يمنية، ويعتقد السعدي أنه قد تقلد الملك من هذه الأسرة "أربعة عشر ملكاً ماتوا جميعاً في الجاهلية، وما آمن أحد منهم بالله ورسوله (ص)، والذي أسلم منهم زاكس، يقال له في كلامهم: مسلم دم، معناه أسلم طوعاً بلا إكراه رحمه الله، وذلك في سنة أربعمائة من هجرة النبي (أي ١٠٠٩م).."[١٠٢٣].

ولعل الرواية المتعلقة بتأسيس أسرة (زا) المالكة وإرجاعها إلى أصول يمنية -التي قصها السعدي- إنما تعود إلى الفقيه أحمد بابا أو إلى المداولات الشفهية الشعبية، أو جزئياً إلى البكري الذي أشار إلى "أسطورة" وصول تجار من البربر أو من العرب اليمنيين إلى ضفاف منحنى النيجر، وأنقذوا ساكنيها من خوفهم من حوت كانوا يقدمون القرابين له لتجنب خطره.

وبصرف النظر عن تطابق تلك الروايات أو أساطير الأصول مع الحقيقة، فإنها كانت تتوافق مع عادة الكثير من ملوك السودان المسلمين في ادعاء نسبهم إلى العرب، ولا سيما إلى آل بيت النبوة، وذلك تشرفاً وتعزيزاً لسلطتهم الرمزية.

أما الإدريسي فيشير إلى أن مدينة كوكو "مشهورة الذكر، من بلاد السودان الكبيرة"، ويشيد بقوة ملكها وسطوته وعدم تبعيته لغيره، فهو "ملك قائم بذاته (مستقل)، خاطب لنفسه، وله حشم كثير ودخله كبير، وقواد وأجناد، وزي كامل وحلية حسنة، وهم يركبون الخيل والجمال، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم"[١٠٢٤]، ولعل هذا التقرير يتوافق مع وضع السنغي التي تمددت حينها على حساب غانة، وتعزَّز موقعها، قبل أن يتم إلحاقها بمالي. وبالإضافة لإشادته بقوة شكيمة أهل كوكو وشجاعتهم، يبحث الإدريسي عن التفاصيل المهمة في حياتهم، فيحدثنا عن لباسهم الذي يجده يختلف عندهم مع اختلاف الطبقة الاجتماعية مشيراً أن "لباس عامة أهل كوكو الجلود يسترون بها عوراتهم، وتجارهم يلبسون القداوير والأكيسة، وعلى رؤوسهم الكرازي، وحليهم الذهب، وخواصهم وجلتهم (أجلائهم) يلبسون الأزر، وهم يداخلون التجار ويجالسونهم، ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقايضة"[١٠٢٥].

ولا يبخل الإدريسي علينا بشيء من العجائب عن نباتات أرض كوكو، فيعلمنا أنه ينبت في أرضها العود المسمى بعود الحية الذي يشتهر هناك بتأثيره على الأفاعي، فإذا وضعوه على جحر الأفعى "خرجت إليه مسرعة"، ثم إن الذي يمسك بهذا العود ويستعمله لإخراج الأفاعي من جحورها "يجد في نفسه قوة عند أخذها"،

(١٠٢٢) السعدي، المصدر السابق، ص٦.
(١٠٢٣) المصدر نفسه، ص٢-٣.
(١٠٢٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٨.
(١٠٢٥) المصدر نفسه، ص٢٨.

كما يروي ما يتداوله أهل المغرب عن القوة السحرية لـ"عود الحية" الذي إذا أمسكه إنسان بيده "أو علَّقه في عنقه لم تقربه حية البتة"[١٠٢٦].

أما ابن سعيد المغربي، فرغم استفادته من الإدريسي ومن رحلة ابن فاطمة، فلقد أعطانا معلومات غامضة عن السنغي يكتفي فيها بنسبة الكوكو إلى المدينة العاصمة للملك، ويقول أيضاً أنهم "كفار"[١٠٢٧] ويقصد بذلك أنهم وثنيون، وهو ما يجعل معلوماته متقادمة قياساً على معلومات البكري والإدريسي.

وركز أبو حامد الغرناطي في وصفه لبلاد السنغي-الكوكو على وصف الناس الذين فيها، وحيواناتهم وتجارتهم، فهذا الرحالة الكبير الذي جاب شرق أوربا وتزوج هناك، لم يقاوم شغفه في متابعة أسفاره، فاخترق إفريقيا السوداء وسجَّل انطباعاته عنها أو ما سمعه عنها من أخبار، وقد تصادف وجوده بالمغرب مع وجود أناس من أهل الكوكو، فنقل عنهم ما سمعه منهم، إلاَّ أنه مقارنة بالصورة الإيجابية التي عرَّفنا بها عن غانة، يعطي هنا صورة سلبية عن كوكو، هي "الصورة النمطية" التي أذاعها الجغرافيون القدماء ولا سيما اليونانيون عن سكان تخوم العالم في الجنوب؛ ولعل الغرناطي الذي لم يزر بلاد السنغي كان يعتقد أنهم في أقصى الجنوب، إذ يقول عن محياهم "**قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، ورائحتهم كريهة كالقرون المحرّقة**"[١٠٢٨]. ولا يجد فيهم ما يعتزون به سوى كونهم شعباً محارباً، أو كما يقول "فلا خير فيهم إلاَّ في الحرب"، وفي حربهم يستعملون النبل التي يزيدونها فتكاً بغمرها بالسم فـ"يرمون بنبل مسموم بدماء حيّات صفر، لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه"[١٠٢٩]. وقسيهم على أنواع، إذ يؤكد "ورأيت قسيهم وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار، كل سهم شبر، ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة، قد شدّوه بلحاء شجر، يصيبون الحدق (حدق العيون).."[١٠٣٠].

أما عن طعامهم فـ"إن الأفاعي وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، ولا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين إلاَّ بالحية الصفراء التي في بلدهم.."[١٠٣١]، كما تحدث عن استعمالهم طرائق خاصة متقنة في اصطيادهم لتلك الأفاعي حيث يصنعون "ألواح صغار مثقبة غير نافذة، يصفرون في تلك الثقب، فيصوتون بأصوات عجيبة، فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين، فيأخذونها ويأكلونها"[١٠٣٢]. ولا ينسى التذكير بعلاقاتهم التجارية، حيث يسهب في الحديث عن جلودهم الفاخرة التي يصدرونها إلى بلاد الشمال الإفريقي وربما إلى أوربا، إذ أن عندهم "أنواع من جلود الماعز المدبوغة دباغة عجيبة، الجلد الواحد يكون غليظاً كثيراً، ليناً محبباً بلون البنفسج... يتخذون منه الخفاف للملوك، ولا يبل بالماء، ولا يفي مع لينه ونعومته وطيب رائحته، يباع الواحد بعشرة دنانير، تبلى خيوط الخف ولا يبلى هو ولا ينقطع، يغسلونه بالماء الحار، فيغدو كأنه جديد، يتم توارثه[١٠٣٣].

و فيما بعد اكتفى أبو الفداء بجمع معلومات الإدريسي وابن سعيد والمقريزي، ذاكراً "أنها (كوكو) مقر صاحب البلاد، وهو كافر، يقابل من غربيه مسلمي غانة، ومن شرقيه مسلمي الكانم"[١٠٣٤]، مكرراً بذلك أخطاء

(١٠٢٦) المصدر نفسه، ص٢٩.

(١٠٢٧) ابن سعيد المغربي، ص٩٣.

(١٠٢٨) الغرناطي، ص٤٠.

(١٠٢٩) المصدر نفسه، ص٤٠.

(١٠٣٠) المصدر نفسه، ص٤٠.

(١٠٣١) المصدر نفسه، ص٤٠.

(١٠٣٢) المصدر نفسه، ص٤٠.

(١٠٣٣) المصدر نفسه، ص٤١.

(١٠٣٤) أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، ص١٥٩.

ابن سعيد المغربي بتجاهله لإسلام أهل كوكو. ولعل مرد هذا الغموض الذي بدأ يكتنف السنغي وعاصمتها كوكو يعود إلى سيطرة مالي عليها منذ القرن الثالث عشر وحتى مطلع القرن الخامس عشر، حين حاولت مالي السيطرة على مخارج الذهب في منطقة غابة الأكان (Akan Fart) الممتدة من جني إلى تنبكتو، ومن غاو إلى تادمكة، ربما لأن إنتاج الذهب في (بير Bure) بدأ يضعف في القرن الثالث عشر، وبدا إنتاجه أكثرة وفرة في غاو وجني[١٠٣٥].

وجمع القلقشندي بين ما قاله صاحب "الروض المعطار" والمهلبي وابن سعيد، فيذكر أن السنغي أو أهل كوكو "يركبون الخيل والجمال.. ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم"، ويكرر معلومات ابن سعيد عن "كفرهم"، رغم أن السنغي كانت في زمن القلقشندي من أعظم ممالك السودان التي بات أغلب سكانها مسلمين، كما يذكر أن "لباس عامة أهلها الجلود يسترون بها عوراتهم، وتجارهم يلبسون الأكيسة، وعلى رؤوسهم الكرازين، ولبس خواصهم الأزرق"[١٠٣٦].

السنغي في عيون الوزان:

كان الوزان المعروف في أوربا بـ(ليون الإفريقي) شغوفاً في صباه بالثقافة وباستنساخ شواهد قبور العظماء من الرجال، ولا يوازي شغفه هذا سوى كلفه بالترحال والتجوال لمعرفة أحوال العالم، ولقد قيض له أن يروي تعطشه ذاك وهو في السابعة عشر من عمره، وذلك عندما اصطحبه خاله في رحلته (السفارية) إلى بلاد السنغي، حاملاً رسالة من سلطان فاس إلى سلطان السنغي أبي بكر أسكيا محمد، لتوثيق العلاقة بين البلدين المسلمين في فاتحة القرن السادس عشر المليء بالمخاطر، وذلك في عام ١٥٠٤م على وجه التقريب، فقادته رحلته الأولى هذه عبر جبال الأطلسي وسجلماسة إلى المنبسط الصحراوي ثم إلى ولاتة وتومبكتو اللتان أضحتا حاضرتين للإمبراطورية السنغالية في زمن أعظم سلاطين السنغي قاطبة أسكيا محمد الذي حكم ما بين (١٤٩٣-١٥٢١م) حيث باعتلائه العرش أسس لأسرة ملكية جديدة هي أسرة أسكيا، ووسع مملكته إلى حدودها القصوى، وقام بحجته الشهيرة التي ذاع صيتها بطريقة مماثلة لحجة السلطان المالي منسا محمد؛ وقد تحدث الوزان عن حجته تلك بقوله، أنه "عندما فرغ من نشر السلام والهدوء في مملكته، شعر برغبة في أداء شريعة الحج إلى مكة، وأنفق في هذه الحجة كل خزينته، وبلغت ديونه خمسين ألف دينار"[١٠٣٧]، ولقد وصف كرم أسكيا محمد وعدله الذي نشره في بلاده، كما سجل كلٌّ من السعدي وكعت وقائع تلك الحجة بطريقة مفصلة، حيث التقى في مكة بالخليفة العباسي المتوكل، فقدّم له الولاء، والذي عينه بدوره والياً على بلاد السودان، حيث روى السعدي "ولقي في ذلك الأرض المبارك: الشريف العباسي، فطلب منه أن يجعله خليفة في أرض سغي، فرضى له بذلك وأمره أن يسلم في أمرته التي هو فيها ثلاثة أيام ويأتيه في اليوم الرابع، ففعل. وجعله خليفته. وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة من عنده، فكان خليفة صحيحاً في الإسلام"[١٠٣٨].

وأثناء رجوعه إلى مصر التقى بالشيخ عبد الرحمن السيوطي، فتأثر بآراء الأخير؛ ولقد أذاع كعت تلك الحوارية التي جرت ما بين الاثنين، مقدماً لذلك برواية السيوطي لحديث نبوي مزعوم يتنبأ فيه محمد (ص) بأن يكون اثنان من (السودانيين) من الخلفاء، بالمعنى الحقيقي للخلافة النبوية وليس مجرد خلافة أمر واقع، وهو ما

(١٠٣٥) موسى، دراسات إسلامية - غرب إفريقية، ص٦٧.

(١٠٣٦) القلقشندي، ج٥، ص٢٨٥.

(١٠٣٧) الوزان، ص٥٣٤ - ٥٣٥.

(١٠٣٨) السعدي، ص٧٣. ويذكر أيضاً كعت، ص١٢ "خرج يوم الجمعة ونادى أسكي الحاج محمد وأجلسه بمجلس البلدة الشريفة مكة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين، أنه خليفة بأرض التكرور".

يرفع من شأن السودان ومن مكانتهم الرمزية في التاريخ الروحي للإسلام؛ ورداً على سؤال أسكي محمد عن الخلفاء الذين ذكرهم النبي أنهم سيأتون بعده، أجابه الشيخ السيوطي "هم اثنا عشر، خمسة منهم بالمدينة، واثنان بمصر، وواحد بالشام، واثنان بالعراق، وقد مضى هؤلاء كلهم وبقي اثنان بأرض التكرور أنت أحدهما"[١٠٣٩].

وهكذا صادفت رحلة الوزان الأولى عهد ذلك السلطان العظيم أسكيا محمد، وفي رحلته الثانية التي يعتقد أنه قام بها في عام ١٥١٢م، وذلك بتكليف من سلطان فاس الذي حمَّله رسالة إلى أسكيا محمد العظيم، الذي تحدث عنه الوزان نفسه، مما يدل على معرفته به وبمكانته، لولا أنه أرجع نسبه إلى أصول ليبية، فيقول عنه "والحقيقة أن ملك تومبكتو الحالي أبو بكر أسكيا، هو من عرق أسود، وقد سمّى قائداً عاماً لقوم سوني علي، وملكاً على تومبكتو وغاءو، وهو من أصل ليبي"[١٠٤٠].

ولقد عبر الوزان في رحلته الطريق الممتدة ما بين فاس وتومبكتو إلى مصر، ماراً ببلاد الهوسة وبورنو وكانم ومملكة غاوغة في شرق تشاد، ويمكننا الوثوق بأن الوزان قد مر برحلتيه إلى تومبكتو، لعل الأولى عام ١٥٠٤م والثانية كما يظن عام ١٥١٢، لكننا لا نعرف بالضبط المدن والبلاد التي زارها، إلاَّ أنه من المؤكد أنه وصل إلى تومبكتو في طريقه إلى مصر، وربما زار العاصمة غاو[١٠٤١].

ولقد أشار عند حديثه عن رحلته النهرية إلى جني ومالي-لعله يقصد عاصمة مالي نياني Nian أو مالي "ركبنا من هذا النهر (النيجر) بالفعل منطلقين من تومبكتو شرقاً، وسرنا مع تيار الماء إلى مملكة جني وحتى مملكة مالي، وكلاهما على الغرب من تومبكتو"[١٠٤٢]، ويؤكد على أنه لم يلزمه سوى اثني عشر يوماً بمحاذاة النيجر لبلوغ مدينة غاو. فدَّون الوزان انطباعاته عما شاهده وخبره في رحلته الطويلة إلى مدن السنغي أو التابعة لسلطانها، أو ما سمعه عنها من أهالي السنغي أو ممن عرفوها، حيث اعتمد في وصفه وتقصيه ذاك على تناول مدينة إثر أخرى، فقدم صورة إثنوغرافية شاملة عن حياة أهل تلك المدينة بما فيها علاقاتها التجارية وثرواتها وأشكال السلطة عندها، مطلقاً على كل مدينة اسم (مملكة) مع معرفته بتبعيتها بالنهاية للسلطان (أسكيا محمد) والذي عرف مدى سطوته ومكانته السياسية في حياة تلك البلاد، مازجاً تدوينه الموضوعي بأحكامه العامة المستقاة من ثقافته العربية الإسلامية التي ظلت تلازمه كمرجعية مؤسسة رغم أسره وتغربه في البلاط البابوي وإعلان نصرانيته، فامتزج الموضوعي في وصفه في التخيلي والقيمي، ومع أننا لا ندري ما مدى تأثير ترحيله مع عائلته من بلاد الأندلس بعد سقوط غرناطة على تكوين موقفه من "الآخر"، إلاَّ أننا نلمس بعض الأحكام التبخيسية هنا وهناك بحق أهل السنغي، يجاورها تقديره وإطراؤه لبعض جوانب الحياة الأخرى عندهم.

لقد تواقتت رحلة الوزان مع زوال عظمة مالي بعد أن تحولت السيادة إلى إمبراطورية السنغي في زمن أسكيا محمد الذي حول تمبكتو -كما يشرح الوزان- إلى عاصمة مملكته، وبذلك تحول مركز الثقل التجاري والاقتصادي إلى انحناءة النيجر وإلى تمبكتو على وجه خاص. كما عكس الوزان لنا التبدلات الحاصلة على تلك المدن التي زارها أو سمع بها نتيجة لهذا التحول الكبير، فيظهر من خلال تقصيه حال بعض المدن وخاصة ولاتة التي يسميها (غوالاطة) وتومبكتو -وهما مدينتان كان ابن بطوطة قد خبرهما ووصفهما قبله بمئتي عام، وبيَّن الفارق الحاصل لأوضاعهما بعد هذا الزمن الطويل، وتبدل السيادة من مالي إلى السنغي.

ولاتة Walata:

(١٠٣٩) كعت، ص١٢-١٣.

(١٠٤٠) الوزان، ص٥٣٥.

(١٠٤١) المصدر نفسه، هامش المحقق رقم (٢٨)، ص٤١.

(١٠٤٢) الوزان، المصدر السابق، ص٣٨.

كان لولاتة مكانتها الكبيرة عندما زارها ابن بطوطة، إلا أنها تبدو في وصف الوزان بعد تبدل الأزمان "مملكة صغيرة ذات وضع هزيل بالقياس إلى الممالك الزنجية الأخرى، فهي لا تحوي في الواقع من الأمكنة المأهولة سوى ثلاث قرى وأكواخ مبعثرة بين بعض حدائق النخيل"[١٠٤٣].

ولقد أعاد الوزان هذا التبدل السلبي في حياة ولاتة إلى إهمال ملوك السنغي لها بعد الإمبراطور سُني علي (ت ٨٦٩هـ-١٤٧١م)، وهو من الذين ساهموا في تحويل السنغي إلى إمبراطورية، بالإضافة إلى تحول مركز التجارة إلى تنبكتو وغاو، أو كما يقول "كان لدى الكثير من تجار بلاد البربر عادة القدوم إليها، ولكن منذ عصر سوني علي الذي كان رجلاً عظيماً، ترك التجار ولاتة شيئاً فشيئاً، وذهبوا إلى تومبوكتو وإلى غاءو، حتى لقد أصبح أمير ولاتة فقيراً وبدون سلطة"[١٠٤٤]. ويشير إلى تبعيتها إلى ملك تومبكتو إذ "يدفع الأمير الذي يحكمهم (لأهل ولاتة) أتاوة لملك تومبوكتو"[١٠٤٥]، ويروي كيف أغار ملك تومبكتو عليها، وهرب أمير ولاتة إلى أن تم الاتفاق "على دفع ضريبة محددة".

وحياة أهل ولاتة أقرب إلى حياة الصحراويين من حياة الزنوج، حيث يلاحظ أن "نمط حياة أهل ولاتة وعاداتهم هي نفسها التي نجدها عند جيرانهم سكان الصحراء"[١٠٤٦]. ولا ينبت في أرض ولاتة "سوى القليل من الحب في هذا البلد: أي الدخن ونوع آخر من الحب مدور أبيض اللون كالحمص، ولا يرى مثله في أوربا (لعله الذرة البيضاء)، وتعاني المنطقة ندرة اللحم"[١٠٤٧].

وصوّر بعض السلوكيات الاجتماعية وتنظيم السلطة عندهم، بقوله "ومن عادة الرجال والنساء أيضاً أن يبقوا وجوههم ملثمة، وكل تنظيم مدني مجهول في المنطقة، فلا يوجد رجال بلاط ولا قضاة، ويعيش هؤلاء الناس في حالة قصوى من الإملاق"[١٠٤٨]، وهو حال مختلف عما شاهدهم عليه ابن بطوطة، ولا ينسى الوزان أن يطلق أحكامه العامة، وتقييمه العام على البشر أنفسهم في ولاتة، فتأتي أحكامه بوجهين يتداخل فيهما التبجيل بالتبخيس، وذلك عند قوله "وهم أناس حالكوا السواد وأدنياء، لكن لطاف جداً خاصة مع الأغراب"[١٠٤٩].

تمبكتو Tombouctou:

أعاد الوزان تأسيس تمبكتو إلى منسا موسى سلطان مالي، ولعل هذا يعود إلى ما شيده ذلك السلطان فيها من أبنية، ولا سيما تجديده لبناء جامعها الكبير، بينما يشير بعض الباحثين إلى أن الطوارق أسسوها في القرن الحادي عشر الميلادي، كمحطة لتخزين بضائعهم التي عهدوا بها إلى عبد يدعى (تينيوتو) فتحول هذا الاسم مع تقادم الأيام إلى (تونيوتوتو) على لسان السود، ولفظها العرب (تونبوكتو)، ثم توسعت مع الأيام وكبرت[١٠٥٠].

ويذكّرنا الوزان بالأبنية الكبرى التي بناها منسا موسى وبأكواخ عامة الناس المحيطة بها، ويعرّفنا على المواد التي صنعت منها، فيطل على المدينة بإطلالة واسعة يتقرى فيها عن مساكنها وأحوالها، واصفاً بساطة وتواضع مساكنها باستثناء القصور والجامع "وبيوت تومبوكتو هي أنواع مصنوعة من أعمدة مطلية بالطين مع سقوف من القش. ويقع في وسط المدينة الجامع المبني بحجارة منحوتة مع طين الكلس على يد مهندس من الأندلس مولود في مدينة المانة، كما أن هناك قصراً كبيراً بناه المهندس حيث يسكن الملك، وبها كثير من دكاكين

(١٠٤٣) المصدر نفسه، ص٥٣٥.
(١٠٤٤) المصدر نفسه، ص٥٣٦.
(١٠٤٥) المصدر نفسه، ص٥٣٦.
(١٠٤٦) المصدر نفسه، ص٥٣٦.
(١٠٤٧) المصدر نفسه، ص٥٣٦.
(١٠٤٨) المصدر نفسه، ص٥٣٦.
(١٠٤٩) المصدر نفسه، ص٥٣٦.
(١٠٥٠) المصدر نفسه، هامش المحقق رقم (٣٦)، ص٥٣٩.

الصناعة والباعة ولا سيما حاكة قماش القطن"[١٠٥١].

ويشير إلى أنه يكثر في تمبكتو "الحبوب والمواشي"، وتبعاً لذلك فهم يستهلكون بكثرة "الحليب والسمن"، بينما يفتقرون إلى الملح الذي يجلبونه "من تغازة التي تبعد عن تومبوكتو بنحو خمسمائة ميل (٨٠٠كم).."، ويروي لنا أنه كان موجوداً هناك في تومبوكتو "في وقت كان فيه سعر حمل الملح ثمانين ديناراً"[١٠٥٢]. ويعلمنا الوزان بأنه لا يوجد في تلك البلاد من الخيول "سوى بعض البراذين الصغيرة، يستخدمها التجار في أسفارهم، وكذلك رجال بطانة الملك أثناء تجوالهم في المدينة"، أما الخيول الأصيلة أو كما يقول "أكرام الخيول" فتأتيهم من بلاد البربر في قوافل، التي ما أن تصل حتى "تُعرض أمام الملك، الذي يأخذ منها العدد الذي يرغب، ويدفع سعرها المناسب"[١٠٥٣]. فكانت الخيول الأصيلة أو الأحصنة من السلع الرئيسية التي تستوردها من شمال إفريقيا.

وكان للمدينة موقعها التجاري الممتاز، حيث يقوم العرب وسكان الشمال الإفريقي المسلمين بدور الوسيط التجاري، وقد أشار الوزان إلى هذا بقوله "وتصل أقمشة أوربا إلى تومبوكتو، ويجلبها تجار من بلاد البربر"[١٠٥٤]، فضلاً عن جلبهم الملح والأحصنة، ويستخدمون في تعاملاتهم وتبادلاتهم التجارية "قطع الذهب الصافي عوضاً عن العملة المسكوكة، في حين يستخدم الودع لشراء الأشياء البسيطة، وهي قواقع مجلوبة من بلاد فارس (ولعل الأصح من جزر المالديف).."[١٠٥٥].

ولقد نبّه الوزان إلى حالة العداء التي يكنها ملك تمبكتو لليهود "فهو لا يرغب أن يسكن أحد منهم في المدينة، وإذا بلغه أن تاجراً من بلاد البربر يتردد عليهم أو يتاجر معهم يصادر أرزاقه"[١٠٥٦]. ولا ندري ما مصدر هذا العداء الذي يكنه أسكيا محمد لليهود، أهو لعصبية دينية إسلامية؟ والحال أن الاجتماع السياسي الإسلامي ألِف بشكل دائم وجود اليهود في كنفه، وتعامل مع اليهود كـ"أهل كتاب" ومن "أهل الذمة". أم كان ذلك نتيجة تكاثرهم غير المعهود الذي تواقت مع طرد الإسبان لهم بعد سقوط الممالك العربية هناك وآخرها غرناطة؟ أم لتنافس تجاري للسلطان نفسه له علاقة به؟. وذلك إذا علمنا حجم النفوذ الذي يتمتع به التجار على بلاط الملك، لا سيما "أن الملك الحالي أعطى اثنين من بناته زوجتين لأخوين تاجرين بسبب ثرائهما"[١٠٥٧].

ويلاحظ الوزان اليسر والغنى الذي تمتعت به المدينة، حتى أن للملك "خزينته كبيرة من العملة، ومن سبائك الذهب، وتزن إحدى هذه السبائك ألف وثلاثمائة رطل (أي ٤٠٠ كغ).."، فضلاً على أن "السكان واسعوا الثراء، ولا سيما الأغراب الذين أقاموا في البلاد"[١٠٥٨].

ولا ينسى الوزان تسجيل واقعة الازدهار الثقافي في المدينة، الذي أسهم الملك فيه من خلال دعمه للثقافة وللمهتمين بها، فراج "الكتاب العربي" عندهم حتى أنه أصبح من سلع الاستيراد الرئيسية، وهو ما أشار إليه الوزان بقوله "ويباع هنا الكثير من الكتب المخطوطة التي من بلاد البربر، ويجنى من هذا البيع ربح يفوق كل بقية السلع"[١٠٥٩]، ولعل هذا الرواج لسوق الكتاب مرده إلى تشجيع الأسكيا محمد لأصحاب العلم، حيث "يوجد

(١٠٥١) الوزان، المصدر السابق، ص٥٣٩-٥٤٠.
(١٠٥٢) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(١٠٥٣) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(١٠٥٤) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(١٠٥٥) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٥٦) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٥٧) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(١٠٥٨) المصدر نفسه، ص٥٤٠.
(١٠٥٩) المصدر نفسه، ص٥٤٢.

في تومبوكتو العديد من القضاة والعلماء والأئمة، ولجميعهم مرتبات طيبة من الملك، وهو يكرّم الأدباء"[١٠٦٠].

وقد شهد كعت على ارتفاع عدد المدارس التي تدرّس القرآن في تمبكتو في ذلك العصر إلى مائة وثمانين مدرسة، وكان المدرسون يقومون بالتدريس في المساجد، ويلقي الأطباء المغاربة الدروس على تلاميذهم في تمبكتو وجني، وقد اشتهر (أحمد بابا) كأحد أشهر المثقفين المسلمين السود في ذلك العصر، حيث وصلت مؤلفاته إلى اثنتي عشر مجلداً من بينها معجمه عن علماء المذهب المالكي، ورسالته في شعوب السودان الغربي[١٠٦١].

ونلاحظ إعجاب الوزان بفخامة البلاط الملكي وتناسقه التنظيمي، الذي بدا له "جيد التنظيم للغاية وذو أبهة"[١٠٦٢]، كما لا يخفي إعجابه بالملك، فهو الإضافة إلى رعايته للثقافة، فإن موكبه يتمتع بأبهة خاصة، ويتمتع بجيش يمنحه السطوة والقوة، أما عندما يسرد لنا طريقة تحيته من قبل أهل بلاده والسفراء التي تقتضي "التتريب"، أو حديثه عن الأسرى الذين يغنمهم في الحرب ويكون مصيرهم العبودية، فهو يسرد تلك الحوادث بحيادية دون أحكام سلبية، فالملك عندما يذهب من مدينة إلى أخرى "يمتطي جملاً وتقاد الخيول بأيدي الخدم المسلمين، فإذا أراد الحرب تعقل هذه الجمال ويركب الجنود خيولهم، وفي كل مرة يريد أحد مخاطبة الملك يجثو أمامه ويأخذ التراب ويحثوه على رأسه وكتفه، هذه طريقة التعبير عن الاحترام ولكن هذا غير مطلوب إلاَّ من الذين لم يسبق لهم أن خاطبوا الملك سابقاً أو من السفراء، ولدى الملك ثلاثة آلاف فارس وعدد لا يحصى من المشاة بالأقواس المصنوعة من خشب (الشجرة) البرية، ويرمي هؤلاء بسهام مسمومة، وحين يحرز النصر يبيع في تومبكتو أسراه حتى الأطفال الذين غنموا في المعركة"[١٠٦٣]. ويستخدم أهل تنبكتو في مدينتهم "الكثير من الرقيق بين الرجال والنساء"[١٠٦٤] ولعل أغلبهم يعمل في الاستخدامات المنزلية، أما الانطباع الأقوى الذي شكله الوزان عن أهل تمبكتو، فهو حبهم للمسرات والتخفف من متاعب الحياة بالمرح، وعزف الموسيقى والرقص عليها، إذ يقول "ولأهل تومبوكتو طبع مرح، ومن عاداتهم التريض في المدينة أثناء الليل... وهم يعزفون بالآلات الموسيقية ويرقصون"[١٠٦٥].

غاءو Cao:

اتجه الوزان بعد تومبكتو راكباً نهر النيجر شرقاً إلى أن وصل غاو العاصمة أو كوكو، ولعل أسكيا محمد كان يستخدم غاو وتمبكتو معاً كعاصمتين لبلاده، فوجدها "مدينة كبيرة شبيهة بالسابقة (أي تمبكتو) بدون سور، وتبعد.. مسافة أربعمائة ميل تقريباً عن تومبوكتو إلى الجنوب الشرقي (الأصح ٤٥٠ كم).."[١٠٦٦]. ويطغى على المدينة الوظيفة التجارية والنشاط التجاري الكبيرين، فضلاً عن كونها مقر الملك، وتتلون أحياؤها ومساكنها بالانقسام الاجتماعي، لذا وجد الوزان "بيوتها قبيحة في معظمها، ومن بينها بيوت جميلة المظهر جداً حيث يقيم الملك وحاشيته، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائماً في المنطقة مع بضائعهم"[١٠٦٧].

فكانت غاو مركزاً تجارياً هاماً تتجمع فيه البضائع من كل مكان، لذلك "يقصدها عدد لا يحصى من السود الذين

(١٠٦٠) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٦١) كعت، ص٩٤ و١٠٨-١٠٩ و١١٣.
(١٠٦٢) الوزان، ص٥٤١.
(١٠٦٣) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٦٤) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٦٥) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٦٦) المصدر نفسه، ص٥٤٢.
(١٠٦٧) المصدر نفسه، ص٥٤٣-٥٤٤.

يجلبون كمية كبيرة من الذهب ليشتروا به أشياء مجلوبة من أوربا ومن بلاد البربر "[١٠٦٨]. كما لاحظ أن "هذه المدينة مطمئنة بالأمان أكثر من تومبوكتو، والخبز واللحم فيها متوافران لأقصى حد، لكن لا يمكن العثور فيها على خمر ولا على فواكه"[١٠٦٩]. ويكثر فيها البطيخ والخيار واليقطين الممتاز والكثير من الأرز، وتزدحم أسواقها بـ"عدد لا يحصره عدد من الرقيق من ذكور وإناث"[١٠٧٠]، فكانت الفتاة التي عمرها خمس عشرة سنة في هذه السوق تساوي حوالي ستة دنانير، والشاب مثل هذا القدر تقريباً، أما الأطفال الصغار ومتقدمو السن فيساوون نصف المبلغ الذي يساويه الشباب، وأغلب هذا الرقيق مُعد للتصدير. وفي مقابل ذلك فإن السوق الداخلية لغاو تجذب الكثير من البضائع المستوردة التي يدفع أهل غاو وتجارها للحصول عليها مبالغ طائلة، وذلك لوجود ثروة طائلة بين أيديهم، وعلى هذا "فإذا كانت عائدات المملكة ضخمة فإن نفقاتها أضخم، فالحصان الذي يساوي في أوربا عشرة دنانير يباع هنا بأربعين إلى خمسين ديناراً، وأردأ قماش صوفي في أوربا (له ثمن غال) تباع هنا الكانا (اسم لقماش إيطالي) منه بأربعة دنانير، والأقمشة الرقيقة مثل قماش (موناكشينو) و(منمنمو) يباع بخمسة عشر ديناراً أو على الأقل ثلاثة، كذلك الحال بالنسبة للمهاميز والأعنة، وكل سلع الخياطة والعطارين أيضاً غالية جداً كذلك، والعشر من الملح يساوي ديناراً في هذه البلاد"[١٠٧١].

ولكن إذا كانت المدينة على هذا الحال من الرفاه والغنى والانفتاح التجاري على العالم الخارجي، فإن ريفها ولا سيما باديتها ضنكة، إذ تتألف "بقية المملكة من بلدان صغيرة ومن قرى يعيش فيها الزراع والرعاة، يلبس هؤلاء في الشتاء جلود الأغنام وفي الصيف يمشون حفاة عراة، غير أنهم يسترون عوراتهم بقماش صغير، وأحياناً يحمون باطن أرجلهم بنعال من جلد الجمل".

على الرغم من بؤس الريف والبادية وحياتهما الخشنة، يضاف إليها الضرائب القاسية التي يفرضها الملك على سكانها، فإن الوزان يوجّه أحكاماً قاسية عليهم "إذ لا يمكن العثور على شخص في مساحة مائة ميل يعرف الكتابة والقراءة إلاَّ بمشقة، ولكن ملكهم يعاملهم كما يستحقون لأنه لا يترك لهم سوى ما يكفيهم للعيش، بسبب ثقل الضرائب التي يقسرهم على دفعها"[١٠٧٢].

في مقابل هذا البؤس الذي يعم الريف والبادية، ترفل غاو بمظاهر الثراء، وهو ما يتجلى على نحو صارخ في حياة البلاط الملكي، الذي امتزج في وصف الوزان له: المهابة والعظمة والبذخ، بالتنظيم الدقيق وبإشراف الملك المباشر على شؤون رعيته من ساحة قصره، فـ"لدى الملك قصر خاص مخصص لعدد ضخم من النساء والمحظيات والعبيد، ومن الخصيان المعينين لحراسة هاته النسوة، ولديه كذلك حرس كبير العدد من فرسان ومن مشاة مسلحين بالأقواس، ويوجد بين الباب العام والباب الخاص في قصره باحة كبيرة محاطة بسور، ويمتد كل طرف من هذه الباحة رواق يستخدم للاستقبالات، مع أن الملك يباشر بنفسه كل قضاياه، فإن لديه كثير من الموظفين كالكتاب والمستشارين والقادة والنواب"[١٠٧٣].

جنة أو جني Djenne:

يذكر الوزان أن جني تتاخم المملكة السابقة (جاو)، حيث تبعد عنها ما يقارب خمسمائة ميل (=٨٠٠ كم، والمسافة الحقيقية ٤٥٠ كم)، وتمتد على نهر النيجر مسافة مائتين وخمسين ميلاً، ويلمّح بصورة خاطئة على طريقة الجغرافيين العرب، إلى أن نهر النيجر ينتهي في الجنوب في البحر المحيط، باعتباره جزءاً أو فرعاً من نهر

(١٠٦٨) المصدر نفسه، ص٥٤٤.
(١٠٦٩) المصدر نفسه، ص٥٤٤.
(١٠٧٠) المصدر نفسه، ص٥٤٤.
(١٠٧١) المصدر نفسه، ص٥٤٥.
(١٠٧٢) المصدر نفسه، ص٥٤٥.
(١٠٧٣) المصدر نفسه، ص٥٤٤.

النيل[١٠٧٤]. ويشير إلى رواج تجارتها وغنى وارداتها الزراعية والحيوانية، حيث يكثر عندها الشعير والماشية والأرز، والسمك والقطن، وشاهد كيف يبادل أهلها قطنهم بالسلع المستوردة من أوربا وشمال إفريقية، فيجني سكان تلك البلاد من جراء ذلك "أرباحاً عظيمة من تجارة الأقمشة القطنية، التي يمارسونها مع تجار البربر، ويبيع لهم هؤلاء بالمقايضة الكثير من الأقمشة الأوربية"[١٠٧٥]. كما يستوردون "النحاس والأسلحة مثل الخناجر" يقايضونها بالإضافة إلى القطن بالعملة الذهبية التي يستعملونها، وهي من "ذهب غير مسبوك، أي التبر، كما يستعملون قطعاً الحديد لتسديد ثمن أشياء زهيدة القيمة كالحليب والخبز والعسل، وتزن الواحدة من هذه القطع رطلاً، ونصف رطل، أو ربع رطل"[١٠٧٦].

ويذكر أن من عادة تجار تومبكتو أن يُحضروا بضائعهم إلى غاو في "مراكب صغيرة ضيقة جداً، مصنوعة من جذع شجرة مجوفة"[١٠٧٧]، ورغم تدفق السلع التجارية على جني، فإن الوزان لاحظ أنه "لا تنبت أية شجرة مثمرة في هذه البلاد، لهذا لا يُرى أية ثمرة سوى التمر الأسود من ولاتة أو نوميديا"[١٠٧٨].

وحدثنا عن الطريقة التي أمسك بها أسكيا محمد بالسلطة، على حساب سن علي، وعلى انتقال إقامته أحياناً إلى غاو، التي تبدو أكثر بساطة من تمبكتو، لذا يسميها "قرية كبيرة"، رغم أن الذي "يسكنها: الملك والفقهاء والعلماء والوجهاء من الناس، وكل البيوت التي يسكنها هؤلاء الناس هي الأكواخ: مطلية بالطين ومغطاة بالقش"[١٠٧٩].

ولقد أظهر الوزان إعجابه بأناقة أهل جني، من خلال وصفه للباسهم، فهم "ذو هندام جيد جداً، ويصنعون لثاماً كبيراً من القطن، أسود وأزرق، يتغطون به حتى رأسهم، ولكن الفقهاء والعلماء يلبسونه أبيض اللون"[١٠٨٠].

كاتسنة Katsina:

ذكرها الإدريسي وابن سعيد المغربي بطريقة عابرة وفي أزمنة مختلفة، لكنها تبدو بطريقة أوضح عند الوزان رغم اقتصار عرضه على ملاحظات سريعة عنها، وإلى جوارها يتقدم بأحكام باترة في وقت كانت فيه تابعة للسنغي، وذلك منذ عام ١٥١٣م، أثناء توسع أسكيا محمد على حساب الهوسة، فيشير الوزان إلى واقع تلك التبعية بقوله "وكان هؤلاء السكان في الماضي تحت حكم مستقل، لكن هذا قتِل على يد أسكيا، وفني نصف السكان، وأصبح أسكيا سيد المملكة"[١٠٨١].

يتحدث عنها الوزان باعتبارها محاطة بالجبال الوعرة، وأراضيها الوعرة، بينما واقعها الفعلي لا يتعدى إحاطتها ببضعة قباب صخرية، ولكن رغم وعورة أرضها فهي عنده "جيدة للشعير والدخن"، ولا يتجاوز عدد سكانها "سكان أية قرية، ثلاثمائة أسرة"[١٠٨٢]. وأمام وصفه وحكمه على أهلها هؤلاء، يظهر موقفاً تبخيسياً متعالياً، فهو يقول بصرامة "وهنا يجتمع الفقر والدناءة" ثم يردف "والسكان حالكوا السواد، ولهؤلاء السكان أنوف غليظة

(١٠٧٤) المصدر نفسه، ص٥٣٧.
(١٠٧٥) المصدر نفسه، ص٥٣٧.
(١٠٧٦) المصدر نفسه، ص٥٣٧.
(١٠٧٧) المصدر نفسه، ص٥٣٨.
(١٠٧٨) المصدر نفسه، ص٥٣٧.
(١٠٧٩) المصدر نفسه، ص٥٣٨.
(١٠٨٠) المصدر نفسه، ص٥٣٨.
(١٠٨١) المصدر نفسه، ص٥٥٠.
(١٠٨٢) المصدر نفسه، ص٥٥٠.

بشكل قبيح، وشفاه سميكة"[١٠٨٣].

مدينة كابارة:

يخبرنا الوزان أن ملك تومبكتو أرسل نائبه ليبسر لسكان كابارة "المقابلات الملكية، وتوفير مشقة مسيرة اثنتي عشر ميلاً" أي ليبت بشؤونهم القضائية وغيرها، بما في ذلك الإشراف على مينائها، بدلاً عن سلطان السنغي نفسه، ونعلم أنه عندما مر الوزان في المدينة كان نائب الملك قريباً للسلطان ويدعى أبو بكر ولقبه باغارمة، فيظهر إعجابه بعدله وذكائه قائلاً "ولكنه كبير القدر بسبب ذكائه وكثرة عدله"[١٠٨٤]. وتعتمد المدينة في غذائها على السمك والحليب والزبدة واللحمة، إلا أن خلطهم لتلك الأغذية يسبب لهم أمراض كثيرة، وتعتمد تومبكتو في غذائها عليها لدرجة أن "نصف الأقوات الموجودة في تومبوكتو تقريباً تأتي من كابارة"[١٠٨٥].

زقزق:

أشار الوزان إلى أن زقزق تبعد مسافة مائة وخمسين ميلاً تقريباً عن كاتسنة، أي تتاخم الأراضي النيجرية، وأهلها من الأغنياء الذين يزاولون التجارة، وتنقسم أراضيها إلى مناطق حارة وأخرى باردة، وهذه الأخيرة بردها قارس لا يستطيع السكان احتماله شتاءً، فيعمدون إلى وضع مواقد كبيرة في أرضية أكواخهم "يوقدون فيها الكثير من الجمرات، ويضعونها تحت سررهم المرتفعة نوعاً ما، وبذلك ينامون"[١٠٨٦].

ويخبرنا أن زقزق كانت مملكة مستقلة إلى أن قتل أسكيا محمد ملكها "وأعلن نفسه ملكاً على هذه المملكة"، وتنتج أراضي زقزق "الفواكه وتكثر فيها المياه والغلال، وتتشابه البيوت والقرى مع البيوت التي تكلمنا عنها"[١٠٨٧]، ويقصد بذلك بيوت جني وتمبكتو وبقية بلاد السنغي.

مملكة أغادس Agades:

تقع على التخوم الصحراوية، إلا أنها تبعت السنغي في عهد أسكيا محمد، وهو موضوع أشار إليه الوزان، بالإضافة إلى ذلك، فأغلب سكان تلك المدينة التي يحدثنا عنها الوزان هم من السود، لذلك يسميها الوزان "مدينة السود"، ويستدرك قائلاً "لكنها تكاد تكون أقرب مثيلاتها إلى مدن البيض، هذا إذا استثنينا ولاتة، وبيوتها غاية في إتقان البنيان على نمط بيوت بلاد البربر، لأن كل سكانها تقريباً من التجار الأغراب، وفيها القليل من السكان المحليين"[١٠٨٨].

فتبدو له هذه المدينة كأنها محطة هامة للتجارة، ويعمل فيها قسم كبير "من هؤلاء السود صناعاً أو جنوداً لدى ملك المدينة"، بينما يستخدم التجار عدداً كبيراً من العبيد الذين يستخدونهم بشكل خاص في حراسة قوافلهم على الطريق بين كانو وبورنو، لحمايتها من عدد لا يحصى من القبائل المنتشرة في الصحراء، لهذا فإن هؤلاء التجار يزودون حراسهم العبيد "بالحراب والسيوف والأقواس، حتى أنهم أخذوا يستعملون اليوم راشقات السهام"[١٠٨٩]. وفيما عدا ذلك فإنهم يستخدمون هؤلاء العبيد في شتى الأعمال، بعد استقرارهم في المدينة، ويحتفظون بعدد منهم لحاجتهم الشخصية ولحراسة بضائعهم.

(١٠٨٣) المصدر نفسه، ص٥٥٠.
(١٠٨٤) المصدر نفسه، ص٥٤٣.
(١٠٨٥) المصدر نفسه، ص٥٤٣.
(١٠٨٦) المصدر نفسه، ص٥٥١.
(١٠٨٧) المصدر نفسه، ص٥٥١.
(١٠٨٨) المصدر نفسه، ص٥٤٦.
(١٠٨٩) المصدر نفسه، ص٥٤٧.

أما المناطق الأخرى التابعة لأغادس، أي مناطقها الجنوبية، فمعيشة الناس هناك مختلفة، حيث "ينصرف الناس لتربية الماعز والأبقار، ويعيشون في أكواخ من أغصان أو من حصر ينقلونها على الثيران، عندها ينتجعون وينصبونها حيث يرعون حيواناتهم، كما يفعل العرب"(١٠٩٠).

ويحيط ملك أغادس نفسه بحرس كبير العدد، وله قصر في قلب المدينة، ويعود بأصوله كما يعتقد الوزان، إلى الأقوام الليبية.

يعود الوزان للحديث عن مالي أو نياني عاصمة مالي، التي غدت آنئذ تابعة للسنغي، فيذكر أنها ماتزال مشهورة بكثرة اللحم والقطن والغلال، كما يوجد فيها عدد كبير من الصناع ومن الباعة المحليين والأغراب، الذين يتمتعون برعاية الملك، ومايزال "السكان أغنياء بسبب تجارتهم، لأنهم يقدمون لجنة ولتومبوكتو كثيراً من المنتجات ولديهم عدد من الجوامع نظراً لعدم وجود مدارس"(١٠٩١)، والأهم من ذلك هو حكمه الذي يطلقه على أهل مالي-نياني، بالمقارنة مع بقية السودان، أو الذين تضمهم إمبراطورية السنغي، إذ يقول "هؤلاء هم الأكثر تمدناً وذكاء واعتباراً من جميع الإسلام السود"(١٠٩٢).

هـ- إمبراطورية البرنو- كانم وممالك أخرى Pornou-Kanem

لعل مملكة برنو-كانم هي أهم ممالك الهوسة Haossa في العصر الوسيط، والتي ذكر العديد منها المؤلفون العرب في مؤلفاتهم، فبالإضافة إلى بورنو وكانم تحدثوا عن: داورا، غوبير، كاتسنة، زاربا، بيرام، رانوا، ويعتقد "أن بورنو إلى الغرب والجنوب من بحيرة تشاد، والكانم في الشمال الشرقي"(١٠٩٣). ويبدو أنه على الأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى المحاذية للحدود الليبية الجنوبية، جرى لقاء وتزاوج ما بين البدو والحضر، فساهم هذا المزج في التأثير على (الزاغاوة) القبائل البدوية السوداء، التي ترجع أصولها إلى شعب تيدا الذي كان يقطن منطقة تيبستي(١٠٩٤)، وقد وصل الزاغاوة إلى حافة الصحاري الليبية جنوباً بمحاذاة بحيرة تشاد في القرن التاسع الميلادي، ولعلهم ساهموا في تأسيس عدة ممالك تنسب إلى شعوب الهوسة؛ وقد أشار اليعقوبي إلى (الزغاوة) باعتبارهم شعباً أسوداً أقام في كانم، وعلى أنه من جملة الشعوب السوداء التي أقامت ممالك عدة، فيقول "أما السودان الذين غربوا، وسلكوا نحو الغرب، وأنهم قطعوا البلاد، فصارت لهم عدة ممالك: أولها مملكة الزغاوة، وهم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم، ومنازلهم أخصاص القصب، وليسوا بأصحاب مدن، ويسمى ملكهم (كاكرة)، ومن الزغاوة صنف يقال لهم الحوضين (لعلهم الهوسة) ولهم ملك من الزغاوة"(١٠٩٥).

ويتحدث ابن خلدون بعد خمسة قرون من اليعقوبي، عن الشعب نفسه، فيشير إلى أن زغاوة يلون البجة إلى الغرب "وهم مسلمون، ومن شعوبهم ناجرة، ويليهم الكانم، وهم خلق عظيم والإسلام غالب عليهم، ومدينتهم حميمي. ولهم التغلب على بلاد الصحراء، إلى فزان، وكان لهم مهادنة مع الدولة الحفصية من

(١٠٩٠) المصدر نفسه، ص٥٤٧-٥٤٨.
(١٠٩١) المصدر نفسه، ص٥٣٩.
(١٠٩٢) المصدر نفسه، ص٥٣٩.
(١٠٩٣) شكيب أرسلان، الدعوة الإسلامية في إفريقيا، عن حاضر العالم الإسلامي، تأليف لوثروب ستودارت، مجلد٣، نقله إلى العربية عجاج نويهض، دار الفكر، ط٣، ١٩٧١، ص٢٢.
(١٠٩٤) زيربو، ج١، ص٢٥٥-٢٥٦.
(١٠٩٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج١، ص٢١٩.

أولها"[١٠٩٦].

ولقد قامت مملكة كانم-بورنو بالفعل حول بحيرة تشاد، وكانت التجارة مصدر ثروتها وقوتها، وإذا كانت قامت كنواة لدولة في القرن التاسع ميلادي، فإنها توسعت وتعزَّزت مكانتها ما بين القرنين الثالث عشر والقرن السادس عشر الميلاديين، وخلال هذه القرون تعزَّز فيها الإسلام وتوطد[١٠٩٧]، وكانت تقع على مفترق الطريق التجاري الهام بين النيجر وتشاد، الذي ازدهر منذ القرن الثاني عشر الميلادي، وعلى الطريق الواصل بين طرابلس من جهة وبلاد السودان إلى الغابات المدارية، وبين حوض النيجر ومصر؛ وقد قامت على أجزاء من تشاد الحالية، وإفريقيا الوسطى، وشمال نيجيريا، والكميرون. وقد أشار البكري إلى أهلها في القرن الحادي عشر، على أنهم مازالوا مشركين (أي وثنيين)، مع إشارته إلى احتمال أصول عربية لبعضهم، فيقول "وبلد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء صحراء زويلة، وهم سودان مشركون، ويزعمون أن هناك قوماً من بني أمية صاروا إليهم عند محنتهم بالعباسيين، وهم على زي العرب"[١٠٩٨]، أي يرتدون اللباس العربي.

ويذكر البكري فتح عقبة بن نافع الفهري ودان (فزان) عام ٤٦هـ-٦٦٦م، وأخذ ملوكها.. ثم سألهم هل وراءكم من أحد؟ قالوا "نعم، أهل جاوان، وهو قصر عظيم على رأس المفازة على رأس جبل وعر وهو قصبة كوار (وهي تابعة للكانم) فسار إليها خمس عشرة ليلة فحاصرها شهراً"[١٠٩٩].

وكتب الإدريسي أن هناك أربع مجموعات في حوض تشاد، أو حول بحيرة كوري، حيث في الشمال تقع (كوار) والزازاج أو زقزق إلى الشمال من تشاد ومركزهم تشاد، والباغرمي البدو، والكانمبو (أهل الكانم) كانوا أقوى هذه المجموعات، وسمى عاصمة الكانم: انجيمي، بينما أطلق عليها ابن سعيد اسم جيمي، وأشار إلى أنها "صغيرة جداً، وأهلها قليل، وهم في أنفسهم أذلة"[١١٠٠]. أما عن مدينة ماتان التي تبعد عن انجيمي ثمانية أيام، فهي أيضاً "مدينة صغيرة، وتجارتها قليلة، ولهم جمال ومعز"[١١٠١]، ونعلم من الإدريسي أن مدينة (تملمة) التي هي من أرض كوار الواقعة في نطاق مملكة الكانم، أنها مدينة صغيرة إلاَّ أنها مليئة بالسكان، وفيها نخيل ومواشي، ولكن "أهلها عراة شقاة، شربهم من مياه الآبار... وبها معدن شب ليس بالكثير الجودة يبيعونه في كوار، ويخلطه التجار بالشب الطيب ويسافرون به إلى جميع الجهات"[١١٠٢].

ولقد ألقى الإدريسي نظرة عامة فاحصة على مناطق التخوم الصحراوية، الممتدة جنوب أرض فزان، والمحاذية لبحيرة تشاد (كوري) إلى أرض (زغاوة السودان)، فوجدها أكثرها صحارى متصلة.. وجبال جرد لا ثبات فيها، ثم تعرض إلى أهل زغاوة فخصهم بأحكام قاسية "وهم أكثر الناس فساداً، ونكاحاً، وأغزرهم أبناء وبنات، وكلما توجد منهم المرأة إلاَّ ويتبعها أربعة أولاد وخمسة، وهم في ذاتهم كالبهائم لا يبالون بشيء من أمور الدنيا إلاَّ بما كان من لقمة أو نكحة، وغير ذلك لا يخطر على بال"[١١٠٣]. فضلاً عن ذلك فإن الجرب "لا يفارق أعناقهم.. وهم مشهورون، وبه يعرف الزغاويون في جميع الأرض، وقبائل

(١٠٩٦) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المجلد٦، ص٤١٢.
(١٠٩٧) زيادة، إفريقيات، ص٣١٨.
(١٠٩٨) البكري، ص١١.
(١٠٩٩) المصدر نفسه، ص١٣.
(١١٠٠) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٩.
(١١٠١) المصدر نفسه، ص٢٩.
(١١٠٢) المصدر نفسه، ص٢٩.
(١١٠٣) المصدر نفسه، ص١١٠.

السودان. وهم عراة يسترون عوراتهم فقط بالجلود المدبوغة من الإبل والبقر"[١١٠٤].

لعل مرد تلك الأحكام القاسية هو كون الزغاوي لا يزال على البداوة، وتخلو حياته من نظام الدولة ورابطة الدين التوحيدي، وخلو حياته الاجتماعية من التعفف تجاه المرأة.

أصبحت صورة شعوب الكانم والبورنو أكثر وضوحاً عند ابن سعيد المغربي، معتمداً بذلك على معطيات رحلة ابن فاطمة، فضلاً عن الإدريسي نفسه، فابن فاطمة هو الوحيد من الجغرافيين العرب - وقد تبعه ابن سعيد في ذلك- الذي وضع مملكة الكانم بعد بحيرة تشاد مباشرة، فالبكري يحدد موقع مملكة الكانم وراء صحراء زويلة، وأن ما ذكره ابن سعيد استناداً إلى ابن فاطمة، عن امتداد حدود الكانم شرقاً إلى ضفاف نيل مصر، يتفق مع ما ذكره المقريزي، ولو أن الأخير لا يشير إلى مجاورة الكانم لبحيرة تشاد[١١٠٥]، فوصف بحيرة كوري (تشاد) على أن طولها ألف ميل، ووسعها عند الرأس تسع درجات ونصف، ووسع وسطها أربعمائة ميل وخمسون ميلاً، ويكون وسع ذيلها ثلاثمائة وستون ميلاً، ثم يضيف "قال ابن فاطمة: ولم أر جانبها وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناهم بالجانب الشمالي"[١١٠٦].

كما أنه يعلم بدخول الإسلام إلى بلاد كوار والكانم وبورنو، فيذكر أن "بلاد كوار، وهم سودان مسلمون وقاعدتهم اسمها كوار، وهي الآن داخلة في طاعة سلطان كانم. وفي غربيها على مرحلتين بحيرة كوار المشهورة"[١١٠٧]. كما أن على شرقي كوار بحيرة السول، ومياه هاتين البحيرتين حلوة، فيها الأرى (سمك البوري) الذي يملحونه ويتاجرون به حيث "يحملونه إلى البلاد"، وفي الثانية حوت كثير الشوك، ويقع على هاتين البحيرتين الصراع بين "سكان كوار، برابرة الصحراء، وأعراب فزان"[١١٠٨].

ويوجد في مدينة "القصبة" "نخل وكلأ، ويوجد في أرضها الشب، الذي يحمل إلى البلاد"[١١٠٩].

ويُكبر المغربي من إسلام أهل كوار الكانميين، وكياستهم الحضارية، واقتباسهم حضارة الشمال، فيقول "وتخلقوا بأخلاق البيض في لبس الصوف والقطن والبرود"[١١١٠]. ويذكر تنازع الوثنية والإسلام والمسيحية في الشعوب السوداء التي تقع شمال جبل لونيا على الحدود الكانمية "يوالون منهم بلاد الكانم مسلمون، والذين يوالون النوبة نصارى، والذين يوالون زغاوة أهل أوثان"[١١١١]. أما على الطرف الغربي لجبل لونيا "فأهلها برابرة يكثرون من التجارة والسفر إلى بلاد السودان، وهم في طاعة الكانم"[١١١٢].

أما عن عاصمة الكانم، فيشير إلى أن "قاعدة الكانم جيمي، وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير، (وهو) محمد من ولد سيف بن ذي يزن، وكانت قاعدة جدوده الكفرة (الوثنيين) قبل أن يسلموا مدينة مانان، ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء المسلمين في بلاد الكانم"[١١١٣]. ولقد تناقلت المصنفات العربية - بعد البكري، الذي اكتفى بإخبارنا عن وجود جالية من أصول عربية من بني أمية في الكانم- أسطورة مفادها أن "سيف"، أي العائلة المالكة في الكانم، تعود بنسبها إلى سيف بن ذي يزن، وينقل القلقشندي

(١١٠٤) المصدر نفسه، ص١١٠.
(١١٠٥) المغربي، راجع هامش المحقق، ص٢٢٨.
(١١٠٦) المصدر نفسه، ص٩٤.
(١١٠٧) المصدر نفسه، ص١١٤.
(١١٠٨) المصدر نفسه، ص١١٤.
(١١٠٩) المصدر نفسه، ص١١٤.
(١١١٠) المصدر نفسه، ص١١٤.
(١١١١) المصدر نفسه، ص١١٥.
(١١١٢) المصدر نفسه، ص١١٥.
(١١١٣) المصدر نفسه، ص٩٥.

عن أبو الفداء والعمري أن سلطان كانم المسلم هو من ولد (سيف بن ذي يزن) "وأول من بث الإسلام فيهم الهادي العثماني، ادعى أنه من ولد (عثمان بن عفان)"[١١١٤]. ويثير المقريزي أيضاً مسألة النسب في "الإلمام" مستعيداً أقوال من سبقه. وينطبق الأمر نفسه على العائلة الملكية في البرنو، إذ يشير القلقشندي إلى رسالة وردت من ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية، إلى السلطان برقوق، يذكر فيها "أنه من ذرية سيف بن ذي يزن"[١١١٥].

فإذا عدنا إلى سرد ابن سعيد المغربي، الذي يحاول أن يعطينا انطباعاً عن المناطق المختلفة لكانم، فنجده يذكر أنه في بحيرة كوري (تشاد) جبل اسمه (لوراطس) ويقال له جبل الذهب، فيزعم أن السودان تدَّعي أن الذهب الموجود في بلاد النيل عند (مدة)، إنما هو من معادن هذا الجبل، ويتميز هذا الجبل بأنه "لا يقدر أحد على قربه من كثرة ما فيه من الثعابين والوحوش المهلكة، وجوانبه الساحلية ملأى بالتماسيح وخيل النيل"[١١١٦].

ويقع على السفح الشرقي لجبل مقوس، وهو الجبل الفاصل بين الكانم وكوكو (السنغي)، مجالات الكانم وأتباعهم من البرابرة الذين أسلموا على يد سلطان الكانم، كما أن مجالات الزغاويين، ومعظمهم مسلمون تحت حكم الكانم[١١١٧].

وعلى بحيرة كوري-تشاد مدينة (جاجة) الكانمية، وهي "كرسي مملكة منفردة ولها مدن وبلاد، وهي الآن لسلطان الكانم"، وهي مشهورة بالخصب وكثرة الخيرات، وبها الطواويس والببغاء والدجاج والرقط، والغنم البلق التي على قدر الحمير الصغار، وتكثر الزرافة في أرض جاجة، كما أن في شرقيها دار صناعة الكانم[١١١٨]. ولسلطان كانم سطوة على مملكة كوارة ومملكة فزان "وقد أيده الله وكثر نسله وعساكره"، وهي من مظاهر عظمة هذا السلطان وبأسه، حتى أن "الثياب تحمل إليه من الحضرة التونسية"[١١١٩]، وهو ما يدل على توطد علاقة ملك كانم بدول المغرب العربي، فضلاً عن اهتمامه برعاية رجال العلم "وعنده الفقهاء"، وله مدينة تسمى سابين يتخذها مستنزه له، تبعد عن جيمي العاصمة أربعون ميلاً، وفواكه بلاد كانم كما يقول ابن سعيد "لا تشبه فواكهنا، ويوجد عندهم الرمان والخوخ الكثير... وقصب السكر.. وكذلك العنب والقمح"[١١٢٠]، ونعلم من ابن سعيد أن "تاجوة قاعدة الزغاويين.. قد أسلم أهلها ودخلوا في طاعة الكانمي"[١١٢١].

ويشير ابن خلدون إلى تلك العلاقة التي نوه بها ابن سعيد، والتي تربط ملوك الكانم بسلاطين تونس، حيث أرسل سلطان أودنمة الكانمي (٦٥٥هـ-١٢٥٧م) إلى السلطان الحفصي بتونس هدية: زرافة، ووصف النجاح الذي أصاب هذا التواصل عبر إهداء الزرافة العجيبة "وفي سنة خمس وخمسين (وستمائة) وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان، وهو صاحب برنو... وكان فيها الزرافة، وهو الحيوان الغريب الخلق... فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليه الخلق من أهل البلد حتى غص بها القضاء"[١١٢٢]. وقد كانت هذه السفارة

(١١١٤) القلقشندي، ج٥، ص٢٨١.
(١١١٥) المصدر نفسه، ص٢٧٩.
(١١١٦) المغربي، ص٩٥.
(١١١٧) المصدر نفسه، ص٩٦.
(١١١٨) المصدر نفسه، ص٩٤-٩٥.
(١١١٩) المصدر نفسه، ص٩٥.
(١١٢٠) المصدر نفسه، ص٩٥.
(١١٢١) المصدر نفسه، ص٩٧.
(١١٢٢) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مجلد٦، ص٦٥١-٦٥٣.

الكانمية في عهد السلطان الحفصي أبو عبد الله المنتصر الذي حكم تونس ما بين (١٢٤٩-١٢٧٧م).

وقدم القلقشندي صورة مكثفة عن الكانم، استناداً إلى مصنفات من سبقوه وعلى الأخص العمري، فذكر أن الكانم "هم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد"، وهي بلاد قحط وشظف وسوء مزاج. وغالبهم عيشهم على الأرز والقمح والذرة، وفي بلادهم ينبت التين والليمون واللفت والباذنجان والرطب، بالإضافة إلى الفواكه التي لا تشبه فواكه بلاد العرب، فضلاً عن الرمان والخوخ وقصب السكر[(١١٢٣)].

وعاصمتهم مدينة جيمي، وملكهم رغم ضعف سلطانه أو كما يقول القلقشندي "على حقارة سلطانه، وسوء بقعة مكانه، في غاية لا تدرك من الكبرياء، يمسح برأسه عنان السماء، مع ضعف أجناده، وقلة متحصّل بلاده، لا يراه أحد إلاَّ في يوم العيد"[(١١٢٤)]، أما خلال أيام السنة فلا يكلم أحداً أو يقابله حتى لو كان أميراً، إلاَّ من وراء حجاب. لكن هذا لا يقلل من استقامة أحكامهم، وذلك لأن "العدل قائم في بلادهم، ويتمذهبون بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه"[(١١٢٥)].

أما معاملاتهم وتبادلاتهم فيعتمدون على "قماش يُنسج عندهم اسمه داندي، طول كل ثوب عشرة أذرع فأكثر.. ويتعاملون أيضاً بالودع والخرز والنحاس المكسور والورق، لكنه جميعه يسعَّر بذلك القماش"[(١١٢٦)]، فكانت قطعة القماش (دندي) بمثابة النقد المتداول.

وتذهب الروايات المتداولة إلى أن السلطان انتقل إلى بورنو خلال حكم عثمان بن زينب (١٢٧٩-١٣٠٠م)، وهو السلطان- أو الماي التاسع عشر من سلسلة مايات البرنو، الذي عُرف بالمؤلفات العربية باسم الهادي العثماني، وهو الذي ادعى نسبه إلى سلالة الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان، حيث يروي القلقشندي عن العمري، أن "أول من بث الإسلام فيهم الهادي العثماني، ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ملكها، ثم صارت بعده لليزنيين (نسبة إلى سيف بن ذي يزن).."[(١١٢٧)].

وحفظ لنا القلقشندي رسالة هامة للغاية من أحد سلاطين-مايات برنو، واسمه عثمان بن إدريس (الماي الثالث والثلاثين، حكم ١٣٩٢-١٤٢٥م)، إلى سلطان مصر برقوق، يشكو فيها تعرّض قبائل جذام العربية لرعاياهم وأسرهم واسترقاقهم، كما يشكو من تجار الرقيق العرب، جاء فيها ".. فقد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو ابن عمي، اسمه إدريس بن محمد، من أجل الجانحة التي وجدناها، وملوكنا، فإن الأعراب الذين يسمون (جُذاماً) وغيرهم قد سبوا أحرارنا: من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا، وغيرهم من المسلمين. ومنهم من يُشرك بالله، يمارقون الدين. فغاروا على المسلمين فقتلوهم قتلاً شديداً، لفتنة وقعت بين أعدائنا.. ونحن بنو سيف بن ذي يزن، والد قبيلتنا، العربي القرشي، كذا ضبطناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها، في بلد بورنو كافة حتى الآن، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ليبيعونهم لجُلاب (لتجار) مصر والشام وغيرهم..."، ثم يستطرد عارضاً طلبه في ردع المارقين هؤلاء "فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى أسوان، فإنهم قد اتخذوه متجراً، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم وأمرائكم ووزرائكم وقضاتكم وحكامكم وعلمائكم، وينظرون (لينظروا) ويبحثون ويكشفون، فإذا وجدوهم فلينزعوهم

(١١٢٣) القلقشندي، ج٥، ٢٨٠-٢٨١.
(١١٢٤) المصدر نفسه، ص٢٨١.
(١١٢٥) المصدر نفسه، ص٢٨١.
(١١٢٦) المصدر نفسه، ص٢٨١.
(١١٢٧) المصدر نفسه، ص٢٨١.

من أيديهم..."[١١٢٨].

وبلاد البرنو كما يقول القلقشندي "هم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد..."[١١٢٩]، وتحد بلاد البرنو التكرور من الشرق، ومن الشمال بلاد إفريقية (تونس)، ومن الجنوب الهمج، أما عاصمتها كما يقول القلقشندي فهي مدينة كاكا، ومن مدنهم أيضاً (كتنسلي)[١١٣٠].

وقد تميزت بورنو-الكانم بالدور التجاري وأيضاً الصناعي، وهو ما عوّض إلى حد ما محدودية الأراضي الزراعية، فكان ملوكهم يتباهون بثروتهم، وفخامة قصورهم وأشيائهم، وما يدخرونه من مظاهر الملك، وهو ما أبرزه الوزان عند وصفه لحال بورنو، إذ يقول: إن "الملك الحالي استدعى تجاراً من بلاد البربر لجلب خيول له كي يبادلوها بالعبيد، أي حصان واحد مقابل خمسة عشر عبداً أو عشرين"[١١٣١].

ويخبرنا الوزان بأن "الملك يتيه فخراً بثرائه، وبالخزينة العظيمة التي يملكها، ورأيت تجهيزات خيوله والمهاميز والركابات والأعنة واللجامات، وكلها مصنوعة من الذهب، كما أن القصعات والأواني الأخرى التي يستخدمها لطعامه وشرابه هي أيضاً من الذهب الخالص"[١١٣٢].

(١١٢٨) المصدر نفسه، ج٨، ص١١٧-١١٨.

(١١٢٩) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٧٩.

(١١٣٠) المصدر نفسه، ص٢٧٩.

(١١٣١) الوزان، ص٥٥٤.

(١١٣٢) المصدر نفسه، ص٥٥٤-٥٥٥.

القسم الخامس

السودان في التخوم القصوى للعالم المعمور
(القفر والعماء)

ظلت الفكرة القائلة باستحالة السكن في الأقاليم الحارة الجنوبية، وانعدام الحياة في نقطة ما في جنوب خط الاستواء، هي الفكرة السائدة التي سيطرت على المتخيل العربي والتأليف العربي عن الشعوب الجنوبية الإفريقية المتناثرة على حافة العالم الغامضة، ومما ساهم في تدعيم ثبات هذه النظرة استمرار حالة الجهل بواقع تلك الشعوب، حتى أن التجارة بين العرب وبين تلك الشعوب الجنوبية كانت لا تتم إلاَّ بالواسطة، وكانت هذه التجارة تتسم بطابع خاص، يحتجب فيها الجنوبيون أصحاب الذهب في مناطق الغابات الاستوائية عن الوسطاء من أقرانهم السود في مناطق السافانا، أي شعوب السودان الغربي، وشعوب سفالة الزنج، يضاف إلى ذلك سطوة النظرة الفلكية-الجغرافية الموروثة عن بطلميوس، والجغرافيين الفلكيين العرب، وهي نظرية جاهزة منمطة سدت فراغاً معرفياً كان مازال قائماً آنئذ، رغم الاختراقات المعرفية العربية للرحالة العرب وجغرافيوهم -فيما بعد- في أجزاء كبيرة من الجنوب، والتي لم يتح لبطلميوس وورثته القيام بها، لكن وكما قال كراتشكوفسكي "وبالرغم من أن العرب قد كشفوا في القرون التالية للخوارزمي عن وجود نقاط عديدة مأهولة على الساحل الشرقي لإفريقية، وفي الهند وجنوب شرق آسيا، فإن النظرة القائلة باستحالة السكن في الإقليم الحار قد برهنت على أنها أقوى من الملاحظة العملية المباشرة"[١١٣٣].

ولم تتأثر سيادة هذه الفكرة بالاعتراضات التي أبداها مفكرون عرب كبار، وفي مقدمتهم ابن رشد وابن سعيد المغربي، فكان ابن رشد من أعظم المفكرين العرب - المسلمين الذين اعترضوا على رأي بطلميوس القائل باستحالة العمار خلف خط الاستواء، حيث تتكفل الشمس اللاهبة بإحراق أي كائن حي، وكذلك معاصره الرحالة والجغرافي الكبير ابن سعيد المغربي الذي روى أن بعض الأحباش زعموا "أنهم يصل إليهم من الجنوب قوم كالترك بيض ولهم شعور، يقاتلونهم.. وإن صح هذا تكون الأقاليم بالجنوب مرتبطة بالأقاليم بالشمال"[١١٣٤]، ويدل ذلك على أن الإقليم الجنوبي عامر، ويتصل عمارة بالشمال، وذلك استناداً على افتراض أن الأرض كروية الشكل. إلا أن رسوخ النظرة البطلميوسية جعلت مفكراً في الاجتماع السياسي والحضاري ومؤرخاً كابن خلدون يتجشم عناء الرد على ابن رشد وآرائه، حول إمكانية العيش في الجنوب السحيق، مستنداً في ذلك على نظرية المناخ وتأثيره ليدحض فكرة احتمال وجود حياة في أقصى الجنوب، مشيراً إلى أن قول ابن رشد ولو لم يمتنع عقلاً إنما هو ممتنع من جهة أن الجنوب مغمور بالماء، فضلاً عن شدة الحرارة[١١٣٥].

وتحدث أبو الفداء عن استحالة الحياة في الجنوب وفي بحاره، دامجاً رأيه برأي الإدريسي "أن ماء البحر المحيط الذي بجهة الجنوب غليظ، قال: لأن الشمس بسبب مسامتتها له، وقربها منه، حللت الأجزاء اللطيفة من الماء، فغلظ ماؤه واشتدت ملوحته وسخونته، ولذلك لا يعيش فيه حيوان ولا يسلك فيه مركب"[١١٣٦].

وهكذا تضافر الجهل والغموض مع حضور صورة نمطية مبسطة وجاهزة، لملء الفراغ المعرفي، لتسهّل على أغلب المصنفين العرب الأخذ بفكرة انعدام الحياة في أقصى جنوب القارة السوداء، وإن اختلفوا في تحديد نقطة النهاية، والتي تفاوتت عندهم ما بين الدرجة (١٦) تحت خط الاستواء إلى (٢٤) درجة، ولتجعلهم أيضاً أسرى لمرويات شفوية متداولة سمعوها هنا أو هناك، أو تحت سلطة بعض الملاحظات السريعة للجغرافيين الفلكيين العرب المتأثرين ببطلميوس وجالينوس.

(١١٣٣) كراتشكوفسكي، ج١، ص١٠١.

(١١٣٤) المغربي، ص٩٨.

(١١٣٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص٥١-٥٣.

(١١٣٦) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢١.

وبما أن حافة العمران الجنوبية أحاطته صور المخيلة - المتراكمة عبر التأليف أو عبر المروي - المتصفة بالغرابة والعجائبية، طالما أن يقع في مكان استثنائي على التخوم التي تمتزج بها قابلية الموت مع قابلية ضعيفة للحياة، حيث لا يتبقى لنا في هذا الطقس الجنوبي والقاتل، إلاَّ أن نتصور الناس الذين قدروا على العيش فيه، أنهم خارقون للعادة، يتجلى فيهم الوحشي - البدائي، وكل مترادفات الأنثروبولوجيا البدائية المعاصرة، فيصبح هذا المكان - التخم الذي تتواشج به الحياة والموات وتتساوى، هو المكان الذي تصبح فيه الظواهر الطبيعية: بحراً وبراً، أقرب إلى الظواهر الخارقة للعادة، مثلما رأينا في سردية أبو الفداء عن البحار الجنوبية، وتبدي الجبال والنبات على غير ما هي عليه عادة في عالمنا، وتبدو فيه الحيوانات أكثر وحشية وضخامة، أما الإنسان فيقترب من حالة الوحشية ذاتها، وكيف لا طالما أن عالمه المحيط به لا يسمح للعيش إلاَّ للأشداد والأكثر قوة! فكل ما يحيط بهذه البلاد التخومية القفراء يجعلها تقع كلها تحت تسميات: العجيب والغريب والخارق والوحشي.

فتأخذ كل ظاهرة موقعها العجائبي والخارق، داخل هذا البرزخ الفاصل بين الحياة والموت، فأمام عالم غير معروف وغامض تأخذ المخيلة دورها الممتاز لملء الفجوات، ليصبح العماء أكثر قرباً من الفهم بإسباغ المعقولية السردية على العجيب، لذا يصبح وجود جزر الواق واق في هذا المناخ الغرائبي قابلاً للفهم بإخضاعه لقانونه الخاص العجائبي، بتحويل الواقع إلى رواية فنتازية عنه، وهكذا فقد تصوروا وجود جزائر الواق واق في البحار الجنوبية الغامضة، فيها ظواهر تمزج الإنساني بالحيواني بالنباتي، وكما يقول المسعودي "ومما يشبه خلق الإنسان أمَّة يقال لها الواق واق، وهي حمل شجر عظام لشعورها، ولها أيدي وفروج مثل فروج النساء.. ولا يزلن يصحن: واق واق، فإذا قطعت إحداهن سقطت ميتة لا تنطق"[(١١٣٧)]. ويشير الدمشقي إلى أن الواق واق جزائر تقع في المحيط خلف جبل يسميه (اصطفون)، وهو "شجر صيني شبيه بشجر الجوز، وخيار الشنبر، ويحمل حملاً كصورة الإنسان، فإذا انتهت الثمرة منه سمع السامع منه: واقواق مرات ثم يسكت"[(١١٣٨)]. ويضع الإدريسي بلاد الواق واق على اتصال مباشر في الجنوب بأرض سفالة[(١١٣٩)]، وتحديد المكان يساعد في إضفاء المعقولية على الواقعة المتخيلة تلك. ويحدثنا برزك بن شهريار رواية عن محمد بن بابشار "عمّن حدثه ممن دخل الواقواق، هناك شجراً كباراً له ورق مدور، ومنه ما هو إلى الطول يحمل حملاً على مثل القرع إلا أنه أكبر منه، وصورته صورة الناس تحركه الرياح فيخرج منه صوت.."[(١١٤٠)].

ومما يمكن ملاحظته على تلك الروايات جميعها أنها لا تتشابه في التفاصيل، إذ تحمل كل رواية طابعاً شخصياً، إلاَّ أن الرواة يحرصون على ذكر أنهم لم يشاهدوا ذلك بل سمعوه، وذلك للتخفف من مسؤولية المطابقة بين السرد التخيلي وبين نثر الواقع نفسه، ويساعدهم في الاطمئنان غرابة ذلك العالم المتخيل نفسه، الذي يجعل "البحر الزنجي (بحر موزامبيق) هو بحر لا يكون فيه شيء من الحيوان لشدة حرارة مائه وغلظه"[(١١٤١)].

أما إن وجد ما يجعل للحياة إمكانية للبقاء، فإن الجهات الجنوبية تلك لن تسمح للبقاء إلاَّ للخارق، فينوه ابن رستة "فإننا نجد الحيوانات العجيبة الخلقة، وذات القرون في أنفها، والطير العظام التي لا يظن طير أعظم منها، فقد أتى بعض التجار من البحرين اللذان وراء بلاد الكوسانيين، أعني الزنج، ببيض أنعام يشبه بيض النعام. فلم نر فيما دون معدل النهار مثل هذا الطائر، ولا حتى ذلك عند المتقدمين، ولا رؤي شيء من الفيلة ولا ذوات القرون في الأنف، فيما دون

(١١٣٧) المسعودي، أخبار الزمان، مجلد١، ص٣٩.

(١١٣٨) الدمشقي، ص١٤٩.

(١١٣٩) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٨٠.

(١١٤٠) ابن شهريار، ص٧٢.

(١١٤١) ابن رستة، ص١٠٠.

معدل النهار (أي فوق خط الاستواء)..."[١١٤٢]، وينوه المسعودي "والفيلة لا تنتج ولا تولد إلاَّ بأرض الزنج والهند"[١١٤٣].

ويشرح لنا الدمشقي الظروف المحيطة بنشأة الغريب والخارق في بلاد الجنوب القصية "أن الجهة الجنوبية خراب لا يحدث فيها نبات معهود لنا، وأن المعمور فيها هو خلف خط الاستواء، كما قال بطلميوس إحدى عشر درجة ونصف وربع درجة، أو كما قال غيره من المعتنين بالعلم بذلك، أنه ست عشر درجة، أو ثلاث عشرة درجة... والحضيض أقرب بعدها (= الشمس)... إلى الأرض، استولت على جهة الجنوب بحرارتها وناريتها، فأحرقتها، ثم تفتت ترابها رمالاً، وانسبك حصاؤها ياقوتاً وجوهراً، وتكونت معادنها ذهباً وزبرجداً، وانعقدت مياهها في بقاعها أنواعاً معدنية، وأفرط الحر على النبات والحيوان فلم يتكون منها إلاَّ ما فيه صبر واحتمال وجلَد لذلك الجزء المحرّق، كما يقال عن السمندر والحيوان الشبيه بسام أبرص المخلوق في أتون مسابك الزجاج إن صح ذلك. وكان الإنسان المخلوق هناك جاهلاً شديد سواد البشرة، محترق الشعر عاتي الخلقة منتن العرق منحرف المزاج، أشبه في أخلاقه بالوحش والبهائم"[١١٤٤].

فالإقليم الأول حسب ما يقول الدمشقي "معتدل للمعادن دون النبات ودون الحيوان والإنسان لإفراط الحر واليبس، والتهاب الجو بالنار الشمسية، بينما الإقليم الثاني معتدل للإنسان والمعدن دون الحيوان والنبات، والإقليم الثالث معتدل للإنسان والنبات والحيوان دون المعادن إلاَّ لبعض منه، والرابع معتدل للأربع دون اليسير من المعدن"[١١٤٥]. فالإفراط في الحر واليبس في أقصى الجنوب يناسب تكوين الذهب والزبرجد، والجواهر الأخرى كالياقوت، بينما يظهر فيه الشاذ والغريب والمفرط في الضخامة والقوة من النبات والحيوان، ويروي برزك أنه قد روى له أحد البحارة أنه رأى عند أحد ملوك الزنج ريشة لأحد الطيور، ربما الطير الرخ الخرافي "يسع خمس وعشرين قربة ماء"[١١٤٦]. وأنه سمع من أحد الربانية البحريين "أن بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخاليبه، ويحمله إلى الهواء ثم يرمي به"[١١٤٧]، كما سمع "أن في بلاد الزنج طائراً ينقض على السلحفاة الكبيرة فيخطفها، ويرفعها إلى الجو، ويرمي بها إلى الأرض"[١١٤٨]. وسمع أن في جنوب بلاد الزنج فرخاً من فراخ الطيور قد اقتنص فيلاً وكسره، وبدأ يأكل فيه..[١١٤٩].

تحدث الكثير من الجغرافيين والرحالة العرب عن (تجارة صامتة) جرت بين بلاد أقصى الجنوب الغامضة في مناطق الغابات الاستوائية، التي حباها الله الظروف الطبيعية والمناخية: الحرارة واليبوسة لإنضاج المعادن النفيسة للغاية، وفي مقدمتها الذهب، وبين بلاد الشمال ومن جملتها بلاد السودان نفسها الواقعة جنوب الصحراء الكبرى وجنوب مصر، يقوم بهذه التجارة التجار الشماليون من العرب، باستقدام السلع اللازمة للجنوبيين وفي مقدمتها الملح لمبادلتها بالذهب، ولكن دون أن يحتك أي من الطرفين ببعضهما، أو يقابل أحدهما الآخر، وذلك بأن يضع التجار الشماليون-وربما بواسطة السودان- بضاعتهم ويتراجعون، إلى أن يأتي الجنوبيون فيضع كل من يرغب في هذه البضاعة أو تلك كمية من الذهب قبالتها، ثم يتراجع؛ فإن راق للشماليين الأمر تركوا بضاعتهم وأخذوا ما يقابلها من الذهب وانصرفوا، وهكذا تحدث القزويني عن هذه التجارة الصامتة ما بين التجار الشماليين وأهل جنوب سفالة الزنج، حيث "يحمل التجار إليها الأمتعة ويضعونها في أرض قريبة منهم ويرجعوا، ثم

صورة الشعوب السوداء –م٢٥

(١١٤٢) المصدر نفسه، ص١٠٠.
(١١٤٣) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٦.
(١١٤٤) الدمشقي، ص١٦-١٧.
(١١٤٥) المصدر نفسه، ص٣٠.
(١١٤٦) ابن شهريار، ص٦٩.
(١١٤٧) المصدر نفسه، ص٧٠.
(١١٤٨) المصدر نفسه، ص٧٠.
(١١٤٩) المصدر نفسه، ص١٦٨.

يوازي قيمة المتاع من الذهب بجانبه"[١١٥٠]، إلى أن تتم الصفقة، ويتحدث ياقوت الحموي عن "آخر مدينة تُعرَف بأرض الزنج... من أنهم يجلب إليهم الأمتعة، ويتركها التجار ويمضون، ثم يجيئون، وقد تركوا ثمن كل شيء عنده، والذهب السفالي معروف عند تجار الزنج"[١١٥١].

ويسرد القزويني بطريقة أكثر تفصيلاً لآليات هذه التجارة الصامتة وسلعها الداخلة في عمليات التبادلات، مع وصفه لشعوب الجنوب، إذ يذكر أن التجار الشماليين من سلجماسة يحملون معهم الملح وخشب الصنوبر وخشب الأرز وخرز الزجاج والأساور والخواتم والحلق النحاسية، ويذهب باتجاه الجنوب "حتى قدموا الموضع الذي يحجز بينهم وبين أصحاب التبر، فعند ذلك ضربوا طبولاً ليعلم القوم وصول القفل (القافلة)، يقال: أنهم في مكان.. من الحر، وعراة كالبهائم لا يعرفون الستر، وقيل: يلبسون شيئاً من جلود الحيوان، فإن علم التجار أنهم سمعوا صوت الطبل، أخرجوا ما معهم من البضائع المذكورة، فوضع كل تاجر بضاعته في جهة منفردة عن الأخرى، وذهبوا وعادوا مرحلة، فيأتي السودان بالتبر، ووضعوا بجنب كل متاع شيئاً من التبر وانصرفوا. ثم يأتي التجار بعدهم، فيأخذ كل واحد ما وجد بجنب بضاعته من التبر ويترك البضاعة، وضربوا الطبول وانصرفوا، ولا يذكر أحد من هؤلاء التجار أنه رأى أحد منهم"[١١٥٢].

ولقد أتى مصنفونا كثيراً على ذكر بلاد لملم وونقارة، باعتبارهما بلاد الذهب في أقصى الجنوب والمناطق التي تجري فيها التجارة الصامتة، وإن كانوا قد وضعوا خطأ ونقارة شرق بلاد لملم، بينما هي جنوبها، وكانت تلك البلاد هي المناطق الأصلية للماندنغو، أي القبائل الأصلية التي أسست بالنهاية مالي، إلاَّ أن مصنفينا نظروا إليها على أنها في أقصى المعمور من الأرض، وأجمعوا على وحشية شعوبها، وغناها بالذهب، وعلى أن شعوبها هي التي كانت تمارس التجارة الصامتة لتبقي ذهبها لغزاً وسراً لا تتكشف أمكنته الحقيقية، وقد أطلق مؤلفونا على تلك الشعوب اسم (دمدم) أو الدمادم أو لملم أو تمتم، كما أنهم أجمعوا على تكفيرها، وتوحشها؛ وحافظوا على أحكامهم هذه حتى بعد أن أصبحت مالي، بما فيها قسم من شعوب الماندينغ: لملم وونقارة، شعوباً مسلمة، وذلك نتيجة (السلطة) التي امتلكتها الصورة النمطية للملم في مخيلتهم.

وقامت بالفعل (تجارة صامتة) بين بلاد لملم والبلاد الشمالية أو تجار الشمال، وتحدث عنها الكثير من الرحالة والجغرافيين العرب؛ وقد ذكر العمري على لسان سلطان مالي منسا موسى "أن من أمم السودان الداخلة مَن لا يظهر، بل إذا جاء التجار وضعوا الملح ثم غابوا، فيضع السودان إزاءه الذهب، فإذا أخذ التجار الذهب أخذوا هم الملح"[١١٥٣]، وقد شبّه منساموسى موقع الجنوبيين الدمادم، قياساً بمالي كموقع التتر من العرب المسلمين، أي كعلاقة الهمجية بالحضارة، إذ يشير أن "لنا عدو شديد، هم في السودان، كالتتار مناسبة (= تشابه) من جهات أنهم وساع الوجوه، فطس الأنوف، يجيدون الرمي بالنشاب، وخيولهم أكاديش مسققة الأنوف، ولنا ولهم وقائع، ولهم بأس شديد بإصابة رميهم بالنشاب.. والحروب بيننا تارات"[١١٥٤]، فيستنتج العمري من وصف السلطان لعدوه، أنه يقصد به (الدمادم) أو الدمدم، لأن قول منسا موسى ذكّر العمري بقول ابن سعيد المغربي في "أن طائفة الدمادم الذين خرجوا على أصناف السودان فأهلكوا بلادهم؛ وهم يُشبّهون بالتتر"[١١٥٥].

ولقد قال عنهم ابن سعيد من قبل "ومعظم مجالات لملم، وهم يأكلون الناس، وصاحبها (أي صحاب التكرور) يسبي رقيق لملم، وهم بواد، ولهم في الكتب مدينة كالقرية اسمها مويّة، وفيها بيت دكاكيرهم"[١١٥٦]. وأشار إليهم الإدريسي من قبل بقوله "وجميع من يكون في بلاد لملم موسومون بالنار في وجهه، وهي لهم علامة"[١١٥٧]. كما يعطيهم البكري المواصفات نفسها "وإذا سار الساير (السائر) من بلاد كوكو على شاطئ البحر غرباً انتهى إلى مملكة

(١١٥٠) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٤٤.

(١١٥١) الحموي، مجلد٣، ص٢٤. راجع أيضاً، القزويني، المصدر السابق، ص٥٩.

(١١٥٢) القزويني، ص١٩.

(١١٥٣) العمري، الباب العاشر، ص٦٩.

(١١٥٤) المصدر نفسه، ص٥٩.

(١١٥٥) المصدر نفسه، ص٥٩.

(١١٥٦) المغربي، ص٩١.

(١١٥٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢.

يقـال لهـا الدمـدم، يـأكلون مـن وقـع إلـيهم... وفـي بلـدهم قلعـة عظيمـة عليهـا صـنم فـي صـورة امـرأة يتـألهون لـه ويحجونه"[١١٥٨].

فأهل لملم ينتسبون إلى الأقاليم المتاخمة لنهاية العالم المعمور، لذا يشوب صورتها الغموض والإبهام، فأسقط عليها المؤلف العربي- تبعاً لذلك - مخاوفه من المجهول الذي يكتنف علاقته بنهاية العالم المعمور، فضلاً عن تأثره بما هو متداول شفهياً عن هؤلاء الشعوب في أوساط التجار والمغامرين، الذين حاولوا عبثاً معرفة أمكنة الذهب الجنوبي، الذي لم يعرف أماكنه الحقيقية إلا ما ندر من الغرباء.

لقد تحدث منسا موسى في مصر عن (التجارة الصامتة) التي تجريها بلاده مع الجنوبيين، ولعلهم لملم، فيذكر لمتحدثه "أن رجلاً دخل بملح، ووصل إلى مدينة من مدن كفار السودان، فقال: فأهديت إلى ملكها شيئاً من الملح فقبله، وبعث إلي بجاريتين من أحسن السودان صورة، ثم حضرت عنده بعد أيام، فقال: بعثنا إليك بتلك الجاريتين فاذبحهما وكلهما، فإن لحمهما أطيب ما يؤكل عندنا، فقلت: ما يحل هذا عندنا... فبعث ببقر وغنم"[١١٥٩]، ويعلق العمري على هذه الحكاية الدموية بقوله "كثر القول عمن يأكل من السودان لحوم الناس، وهم الذين بلادهم موغلة في غابة الجنوب"[١١٦٠].
الجنوب"[١١٦٠].

وكانت (التجارة الصامتة) شائعة في العصر الوسيط في إفريقيا، لا سيما فيما يخص الوصول إلى "الذهب"، وكان من عادة التجار الشماليين أن يذهبوا إلى المناطق التي يوجد فيها الذهب، ويضعون كمية البضائع التي يريدون بيعها، وينتظرون السكان المحليين أن يضعوا المقدار المناسب من الذهب، إلى أن تتم الصفقة، ولعل التفسير المعقول لهذه الظاهرة كما يقول بانيكار "هو أن السكان المحليين لم يكونوا يرغبون في الكشف عن مصدر الذهب، وأن أفضل طريقة اعتقدوا أنها تحقق لهم ذلك هي تجنب كل اتصال.... وكانت التجارة بأكملها في أيدي العرب، وتسيطر عليها شركات تجارية"[١١٦١]، وكان من أشهر البيوتات العربية آنئذ هو بيت إخوان المقري، ومركزه الرئيسي في سجلماسة، وتحدث ابن بطوطة عن جالية عربية كبيرة وجدها أثناء رحلته إلى مدينة مالي، يترأسها "محمد بن الفقيه الجزولي، وهو مراكشي تزوج بابنة عم منسا سليمان"، وكان يرأس الجالية العربية، ويقوم بالدور التجاري الأهم. ولقد كان المركز الرئيسي للتجارة الصامتة هي بلاد الذهب في الجنوب، الذي اعتقد العرب أنها تقع على تخوم العالم المعمور، حيث نظروا إلى (لملم) و(ونقارة) كأهم شعوب التخوم تلك.

وفيما عدا تلك (التجارة الصامتة) التي هي بالنهاية لم تقترب أطرافها معرفياً، افتقر المؤلفون العرب إلى الشعور بأنهم على صلة بتلك الشعوب الغامضة، مع أنهم ذهبوا بعيداً في الساحل الموزمبيقي أو جنوباً في السودان الغربي، واحتكوا هناك بالشعوب السوداء، فقد ظل في مخيلتهم وجود شعوب أخرى مختلفة لم يعرفوها بعد ومن المتعذر عليهم معرفتها، لأنها تقع في مناطق لا يمكنهم الوصول إليها أو العيش فيها لما تتسم به من شذوذ وغموض، لأن البشر الذين يعيشون هناك شبه متوحشة لتقدر على الصمود أمام شدة الحر ويبوسة الجو واختلال ظواهر الطبيعة حولهم. من هنا أتى وصفهم مليئاً بالأحكام التبخيسية لتلك الشعوب، وتزداد أحكامهم هذه صرامة بمقدار ما يتخيلون أن موقع الشعوب التي يتحدثون عنها موغلة أكثر في الجنوب.

ولقد أطلق بطلميوس من قبل على سكان الجزر الجنوبية غير المعروفة من الساحل الشرقي اسم (سكان المغاور) الذين يعتقد أنهم (أقزام)، أو البوشمن، ويتكلم عن الشعوب الجنوبية على أنهم يأكلون (لحوم البشر) في طقوسهم الدينية، ربما كانوا الموجات الأولى لهجرات البانتو[١١٦٢].

يتخيل الإدريسي في آخر سفالة الزنج وجود قرية (دغوطة) التي يوجد الذهب بأرضها، ويصف أهلها بأنهم "عراة، لا يستترون بشيء من الثياب لكنهم يستترون بأيديهم عند التقائهم بالتجار الداخلين إليهم من سائر

(١١٥٨) البكري، ص١٨٣.

(١١٥٩) العمري، الباب العاشر، ص٦٩.

(١١٦٠) المصدر نفسه، ص٦٩.

(١١٦١) بانيكار، ص٣٩١.

(١١٦٢) زيربو، ج١، ١٥٤.

الجزائر المجاورة لهم"[١١٦٣]، أما نساؤهم فهن لا يدخلن الأسواق ولا المحافل، وذلك "لأنهن عراة، لذلك يلزمن أمكنتهن اللائي يأوين إليها"[١١٦٤].

أما جزيرة جالوس الموغلة جنوباً في المحيط "فأهلها زنج سود عراة، يأكلون من سقط في أيديهم.. وعندهم جبل ترابة فضة"[١١٦٥]، ويذكر الإدريسي أيضاً وجود أناس في أقصى الجنوب، بالكاد يعرفون اللغة، ناهيك عن قباحتهم، فعلى أرض الواق واق (المتصلة بأرض سفالة) توجد مدينتان ضئيلتان الواحدة منها تسمى (دروا) والثانية (بنهنة)، وتليهم قرية ثالثة اسمها (دغرغة) "وهم سود قباح الصور، ومشوهو الخلقة، وكلامهم نوع من الصفير، وهم عراة لا يستترون بشيء، والداخل إليهم قليل، وأكلهم الحوت والصدف ولحوم السلاحف، وتتصل بهم جزائر الواق واق"[١١٦٦].

وهكذا يستبعد المؤلف العربي في تصنيفه لتلك الشعوب، الواقعة على حافة العماء، كل مظاهر الحضارة والقيم الدينية والخلقية (التعري) والسلوك الحضاري (النظافة)، والأشكال السياسية: قانون ودولة، لتقرب من تلك الصورة التي نسجها الأنثربولوجيون الأوائل، في العصر الحديث، عن الشعوب التي سموها بدائية. وعلى هذا وفي السياق نفسه، روى برزك حكاية عن بعض (الربانية) "إن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج، فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس... وبين قنبلة وبين الموضع الذي فيه الزنج الذي يأكلون الناس نحو ألف وخمسمائة فرسخ"[١١٦٧].

وقد أشار المسعودي أن وراء علوة في الحبشة أمة من السودان "تدعى بكنة، وهم عراة كالزنج، وأرضهم تنبت الذهب"[١١٦٨]. ويكرر بعده الدمشقي المعلومة ذاتها، مع بعض الإضافات "وخلف بلاد علوة من السودان بلاد يسكنها قوم عراة مثل الزنج، متوحشون جهلة لا يدينون بدين"[١١٦٩]، ويأتي المقريزي على سيرة الجنس، فيذكر أن في طرف علوة القبلي "جنساً يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس، ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة"[١١٧٠]. وتبلغ الصورة ذروة قسوتها عند القزويني عندما يتحدث عما يسميه (جزيرة تكسار)، يصفها بأنها "جزيرة بعيدة عن العمران في بحر الجنوب"، فيشير إلى أن (يعقوب بن إسحاق السراج) حكى له، أنه قد رأى رجلاً في وجهه خموش، فسأله عن سبب ذلك، فروى له أنه خرج مع رفاقه في مركب، فألقتهم الرياح إلى جزيرة، فأتاهم "قوم وجوههم وجوه الكلاب وسائر بدنهم كبدن الناس، فسبق إلينا واحد منهم، ووقف الآخرون، فساقنا إلى منازلهم، فإذا فيها جماجم الناس وأسوقهم وأذرعهم، فأدخلنا بيتاً، فإذا فيه إنسان أصابه مثل ما أصابنا، فجعلوا يأتونا بالفواكه والمأكول، فقال لنا الرجل: إنما يطعمونكم لتسمنوا، فمن سمن أكلوه"[١١٧١].

ويعمم الدمشقي الأمر على الشعوب الزنجية في أقصى الجنوب بقوله "والزنوج الواغلون منهم في هذه النواحي يحددون الأسنان، ويأكلون الناس لشدة توحشهم، وليس للكفار منهم ملة ولا نحلة، وإنما لهم رسوم تضعها لهم ملوكهم، واسم ملكهم الكبير توقليم: معنى الاسم دين الرب"[١١٧٢].

أما في جنوب السودان الغربي، في الجنوب السحيق، فالصورة تتكرر ويعاد إنتاجها أيضاً بالتوليفة ذاتها: المؤلف لا يتحدث عما شاهده، بل عما سمعه عن غيره من الرواة، ويتصف الإنسان المنسحق جنوباً: بانعدام لغة القيم وأيضاً الدين والسلطة الرادعة، والافتقاد إلى انتظام العمران، والفوضى، مع مظاهر من الوحشية تلف مظاهر سلوكه في

(١١٦٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٧٩.

(١١٦٤) المصدر نفسه، ص٧٩.

(١١٦٥) المصدر نفسه، ص٨٠.

(١١٦٦) المصدر نفسه، ص٨٠.

(١١٦٧) ابن شهريار، ص١٦٧.

(١١٦٨) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٣٥٢.

(١١٦٩) الدمشقي، ص٢٦٩.

(١١٧٠) المقريزي، كتاب المواعظ والاعتبار، ج١، ص١٩٢.

(١١٧١) القزويني، ص٣١.

(١١٧٢) الدمشقي، ص٢٦٩.

الطعام والسكن، وأيضاً احتمال أكله اللحم البشري، فضلاً عن الافتقار إلى العفة بالعلاقة مع المرأة، فنسمع من الإدريسي عن "أمم كثيرة سوداء" جنوب مالي، أمم "عراة لا يستترون بشيء، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق، وهم أكثر الناس نسلاً، ولهم إبل ومعز يعيشون من ألبانها، ويأكلون الحيتان المصيَّدة ولحوم الإبل المقددة"[(١١٧٣)]، ويشير ابن سعيد المغربي إلى الناس في "المعمور خلف خط الاستواء" على أنهم "العراة المهملين"، ويسترجع أقوال ابن فاطمة في وصفه للمناطق الواقعة على حافتي خط الاستواء، فيقول بمناسبة حديثه عن كانم "ولم أر مَن رأى جانبها، إنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي، ويحدق بهم من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة، الذين يأكلون الناس، ولا دين يذكرهم بسكان الجانب الشمالي، ومنهم (بدي)، ومدينتهم تعرَف بهم، ومن تحتها يخرج نهر غانة؛ وهم يبردون أسنانهم، وإذا مات له ميت دفعوه إلى جيرانهم، وكذلك يفعل جيرانهم"[(١١٧٤)].

وعلى مشارف القرن الخامس عشر الميلادي، يختم ابن خلدون المتخيل العربي عن سكان القفر والعماء الموغلين في الذهاب إلى الجنوب سحيقاً، وهو ما يضعه تحت بند "الإقليم الأول"، حيث تتحكم في ابن خلدون هنا معايير التنظيم الإقليمي للعالم المعمور، وأثر المناخ والبيئة في نشوء العمران، وفي التأثير على معاش الإنسان وسلوكه، وفي قدرته على بناء الحضارة، فيصف تبعاً لذلك حال تلك الشعوب القاطنة جنوب خط الاستواء، في الأقاصي الجنوبية للإقليم الأول؛ فبعد أن يحدثنا عن لملم باعتبارهم يسكنون جنوب ممالك السودان المتسمة بالحضارة والعمران، قائلاً "وفي جنوب هذا النيل من السودان يقال لهم لملم، وهم كفار، ويكتوون في وجوههم وأصداغهم، وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم، ويبيعونهم للتجار، فيجلبونهم إلى المغرب"[(١١٧٥)]، ثم يستأنف القول معرجاً على شعوب أقصى الجنوب المحاذية للقسم غير القابل للعمران "وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلاَّ أناس أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق، يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب، والحبوب غير مهيأ، وربما يأكل بعضهم بعضاً وليسوا في عداد البشر"[(١١٧٦)].

المراجع

- إبراهيم، د.عبد العزيز عبد الغني: جذور الإسلام التاريخية في الحبشة، الدار السودانية للكتاب، الخرطوم ١٩٩٤.
- ابن أبي زرع، (علي الفاسي): الأنس المغرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، دار المنصور للطباعة، الوراقة ١٩٧٣.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله اللواتي: رحلة ابن بطوطة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، دار الشرق العربي، بيروت، دون تاريخ.
- ابن الجوزي، الشيخ الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي: تنوير الغبش في فضل السودان والحبش، (مخطوط)، ورقة ١٣٩.
-ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (٨٥٢هـ-١٤٥٦م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دون تاريخ.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي: صورة الأرض، منشورات مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩.
- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت ١٩٨٦.

(١١٧٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢.
(١١٧٤) المغربي، ص٩٤.
(١١٧٥) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص٥٣.
(١١٧٦) المصدر نفسه، ص٥٣.

- ابن رستة، أحمد بن عمر: الجزء السابع من "الأعلاق النفيسة"، تحقيق دي خويه، مطبعة بريل ١٨٩٢م.
- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى: كتاب الجغرافية، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠.
- ابن الصغير، المالكي: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر وإبراهيم نجار، دار الغرب، بيروت ١٩٨٥م.
- ابن عبد الحكيم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن، سنة ١٩٢٢.
- ابن عذاري، أحمد بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار أئمة الأندلس والمغرب، ط٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣.
- ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل - ليدن ١٣٠١هـ، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
- ابن الوردي، أبو البركات محمد بن أحمد: تاريخ ابن الوردي، نشر هيلاندرة، لندن (نسخة مصورة في المكتبة الوطنية بحلب).
- ابن الوردي، سراج الدين أبي حفص عمر بن مظفر: فريدة العجائب وفريدة الغرائب، أعده عمر فاخوري، دار الشرق العربي، بيروت- حلب، دون تاريخ.
- أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس: كتاب الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.
- أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، جزء من كتاب المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر: كتاب تقويم البلدان، طبع مدينة باريس ١٨٥٠، دار صادر - بيروت، دون تاريخ.
- إخوان الصفا وخلان الوفاء، رسائل إخوان الصفا، (أربعة أجزاء)، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٢٨.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني: كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، دون مكان، ودون تاريخ.
- الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ليدن ١٨٩٤، (صورة في المكتبة الوطنية بحلب).
- الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي: المسالك والممالك، تحقيق د.محمد جابر عبد العال الحسيني، دار الفكر، القاهرة ١٩٦١.
- أفاية، محمد نور الدين: الغرب المتخيل - صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٠.
- الإفريقي، ليون (الحسن محمد الوزان الزياتي): وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، راجعه علي عبد الواحد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٩هـ.
- بدوي، د.عبدو: السود في الحضارة العربية، دار قبا للطباعة، القاهرة ٢٠٠١.
- بدوي، فؤاد: ابن بطوطة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، دون تاريخ.
- برزك بن شهريار، الناخذاة الرامهرمزي: كتاب عجائب الهند برها وبحرها وجزائرها، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، المجمع الثقافي-أبو ظبي ٢٠٠٠.
- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد: القانون المسعودي، منشورات مجلس دار المعارف العثمانية بالهند، حيدر آباد، دون تاريخ.
- البيروني، أبو ريحان محمد بن أحمد: كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد- الدكن، الهند ١٣٧٧-١٩٥٨.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر: رسائل الجاحظ، ج١، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦٤م.
- حريتاني، د.سليمان: الجواري والقيان، دار الحصاد، دمشق ١٩٩٧.
-حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي الديني والثقافي الاجتماعي، (٤ أجزاء)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٦٠.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، (٥ أجزاء)، دار صادر، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧.
- حميدة، د.عبد الرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق ١٩٨٤.
-الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خير الأقطار، حققه إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، ط٢، بيروت ١٩٨٠.
- الخربوطلي، علي حسني: المسعودي، سلسلة نوابغ الفكر العربي ٢٨، ط٢، دار المعارف، مصر ١٩٨٠م.
- خصباك، د.شاكر: الجغرافية عند العرب، موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥.
- الخضري، محمد: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، القاهرة ١٩١٠.
- خورشيد، فاروق: أديب الأسطورة عند العرب، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت - أغسطس ٢٠٠٢.

- دافيدسون، بازل: إفريقيا تحت أضواء جديدة، ترجمة جمال حمدان، بيروت، دون تاريخ.
- الدمشقي، محمد بن أبي طالب الأنصاري (شيخ الربوة): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبع في مدينة بطرسبورغ المحروسة، مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية ١٢٨١هـ-١٨٦٥م.
- الزهري، أبو عبد الله محمد: كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٥٨.
- زيادة، نقولا: إفريقيات - دراسات في المغرب العربي والسودان الغربي، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩١.
- زيادة، نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٢.
- زيربو، جوزيف كي: تاريخ إفريقيا السوداء، جزءان، ترجمة يوسف شلب الشامات، وزارة الثقافة ١٩٩٤.
- ستودارد، لوثروب (Lothrop Stoddoud): (شكيب أرسلان) حاضر العالم الإسلامي، نقله إلى العربية عجاج نويهض، بقلم الأمير شكيب أرسلان، (٤ مجلدات)، دار الفكر، بيروت ١٩٧١.
- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله: تاريخ السودان، باعتناء هوداس باريس ١٩٦٤.
- سهراب، أبو الحسن بن بهلول (القرن التاسع الميلادي): كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة، مطبعة فيينا، ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م، بإشراف مزيك.
- سوسة، د.أحمد: الشريف الإدريسي، نقابة المهندسين العراقيين، مكتبة جهري، بغداد ١٩٧٤.
- السيرافي، أبو زيد الحسن: رحلة السيرافي، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٩.
- السيوطي، عبد الرحمن أبو بكر جلال الدين: أزهار العروش في أخبار الحبوش، تحقيق عبد الله محمد عيسى الغزال، منشورات مركز مخطوطات التراث والوثائق (٥٦)، الكويت ١٩٩٥.
- السيوطي، عبد الرحمن أبو بكر جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، القاهرة ١٣٢٧.
-شاخت، وبوزورث: تراث الإسلام، جزءان، ترجمة محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٧٨م.
- الشكري، أحمد: الإسلام والمجتمع السوداني - إمبراطورية مالي، المجمع الثقافي، أبو ظبي ١٩٩٩.
- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد: طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، دار الطليعة، بيروت ١٩٨٥.
- صغير، بشير: الجغرافيون العرب، تعريب وتقديم حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٤م.
- ضرار، محمد صالح: تاريخ السودان-البحر الأحمر-إقليم البجة، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥.
- ضيف، شوقي: الرحلات، ط٤، دار المعارف، مصر ١٩٨٧م.
- الطبري، أبو جعفر بن جرير (ت ٣٠٠هـ-٩١٣م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ١٩٦١.
- طرخان، إبراهيم علي: دولة غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
- طرخان، إبراهيم علي: دولة مالي الإسلامية، دراسات في التاريخ الغربي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
- عثمان، د.شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي-عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت (١٥١)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٩٠.
- العظمة، عزيز: العرب والبرابرة-المسلمون والحضارات الأخرى، رياض الريس، لندن ١٩٩١.
- عمارة، د.محمد: ثورة الزنج، دار الوحدة، بيروت، بدون تاريخ.
- العمري، شهاب الدين بن فضل الله: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٤.
- العمري، شهاب الدين بن فضل الله: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الأبواب (٨-١٤)، تحقيق أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء ١٩٨٨.
- الغرناطي، أبو حامد عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي: تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، دار الجيل - بيروت، ط٢، والآفاق الجديدة - المغرب، ١٩٩٣.
- فهيم، حسين محمد: أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة-١٣٨)، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٩.
- قدامة بن جعفر: نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، (يلي كتاب المسالك والممالك، لابن خرداذبة)، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ١٩٦٠.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، دار الشرق العربي، بيروت - حلب، دون تاريخ.

- القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد علي بن أحمد: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (١٤ جزءاً)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٣.
- كحالة، عمر رضا: التاريخ والجغرافية في العصور الوسطى، المطبعة التعاونية، دمشق ١٩٧٢م.
- كراتشكوفسكي، إغناطيوس بوليانوفتش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٧م.
- الكعتي، محمود كعت بن الحاج المتوكل: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش، باعتناء هوداس باريس ١٩١٣.
- لوبون، غوستاف: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٥٦.
- لومبار، موريس: الإسلام في عظمته الأولى، ترجمة ياسين الحافظ، دار الطليعة، بيروت ١٩٧٧م.
- مادهو، بانيكار.ك: الوثنية والإسلام، ترجمة أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة، ط٢، القاهرة ١٩٩٨.
- مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين الأندلسيين، ط٢، مكتبة مدبولي، القاهرة ١٩٨٦م.
- متز، آدم: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، جزءان، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، القاهرة ١٩٤٨.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي التميمي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وجمعه محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٤٩م.
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: التنبيه والإشراف، جزءان، إعداد قاسم وهب، وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٠٠م.
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، ج١، تحقيق عبد الله الصاوي، بيروت ١٩٨٠م.
- المسعودي، أبو الحسين علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، جزءان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط٤، مصر ١٩٦٤.
- المقدسي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ١٩٠٦، دار صادر-بيروت، دون تاريخ.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨.
- المقريزي، تقي الدين: كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (خطط المقريزي)، مكتبة المثنى، بغداد، دون تاريخ.
- المقريزي، تقي الدين: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، في "رسائل المقريزي"، تحقيق رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة ١٩٩٨م.
- المقريزي، تقي الدين: كتاب السلوك لمعرفة دور الملوك، تحقيق جمال شيال، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤١م.
- المقريزي، تقي الدين: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، نشر الدكتور جمال الشيال، مصر ١٩٥٥.
- مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: كتاب تجارب الأمم، نشر هـ.ف.أمروز، القاهرة ١٩١٤-١٩١٥.
- المناوي، محمد حمدي: نهر النيل في المكتبة العربية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦م.
- موسى، د.عز الدين عمر: دراسات إسلامية - غرب إفريقيا - تأثير الغزو المراكشي على السنغي، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٩٩.
- ميكيل، أندريه: الإسلام وحضارته، ترجمة د.زينب عبد العزيز، بيروت ١٩٨١.
- ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية، (٤ أجزاء)، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣-١٩٩٥.
- نصار، حسين: أدب الرحلة، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة ١٩٩١.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، (١٨ جزء)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، دون تاريخ.
- هارون، عبد السلام: تهذيب سيرة بني هشام، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب: تاريخ اليعقوبي، جزءان، دار العراق، بيروت ١٩٥٥.
- (ندوة)، صورة الآخر العربي، ناظراً ومنظوراً، تحرير طاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩م.
- (ندوة)، "العرب وإفريقيا"، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت ١٩٨٧.

فهرس

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٨

عدد الطبع ١٠٠٠نسخة

الآخر في الثقافة العربية
صورة الشعوب السوداء عند العرب في العصر الوسيط

يهدف هذا الكتاب إلى

التعرّف بعمق على موقف العرب الإدراكي، والأخلاقي والُتخيلي والمعرفي من الآخر في القارة السوداء، ومعرفة مدى تختزنه الثقافة العربية الإسلامية الوسيطة من اعترافا صريح بأخوة الآخر الأسود، والمساواة معه والاعتراف به كند في الإيمان والحضارة والخلق ، وذلك بالرجوع إلى ما يزخر به الإسلام من مفاهيم المساواة، والأخوة الإنسانيين، وأن لا مفاضلة بين البشر على الصعيد الروحي،ثم الرجوع ثانياً إلى متن التأليف العربي بكل تلويناته: الرحلة والجغرافية والتاريخ، وانتهاء بالأدب الموسوعي ،والعجائبي ،فيتعرض في قسمه الأول إلى (المعايير) التي حكمت بها الثقافة العربية ـ الإسلامية على الآخر: المعيار الديني، المعيار الحضاري، والتأثير الكواكبي ، و الإقليمي/البيئي، والمعيار السلالي ،و يتفحص في قسمه الثاني في المُتخيل العربي عن موقع الشعوب السوداء في العالم المعمور . ويضيء في قسمه الثالث الصورة التي كونها العرب عن القارة الإفريقية (السوداء) وعن موقع الشعوب السوداء فيها.ويعرض في الرابع للتأليف العربي، بكل غناه، وتنوعه عن الشعوب السوداء في ممالكهم وإمبراطورياتهم، وفي المجالّين الجغرافيين،اللذين تصور المؤلف العربي أنهما مكانين لعيشهم،: في شرق أفريقيا: النوبة، البجة، الحبشة، سفالة الزنج، وغرب أفريقية: التكرور، غانا، مالي، السنغي، البورينور كانم، فقدم المثقفون العرب المسلمون صورة عن تلك الشعوب في ممالكها ،وعاين القسم الخامس خلاصة المُتخيل العربي عن الحدود القصوى لبلاد السودان بسكانها، وبنيانها وحيواتها، وبحارها، بكل ما تحمل ما غريب وعجيب، تبعاً لحدود المعرفة العربية آنئذ .فيكشف هذا الكتاب عن حدود المعرفة العربية بإفريقية السوداء وشعوبها وحضاراتها ، في العصر الوسيط، وما رافقها من تخيُّل وتصورات وأحكام ، انعكست داخل أروقة الثقافة العربية ـ الإسلامية،في جوانبها المعرفية ، والقيمية (المعايير الأخلاقية والسلوكية)، والتخيُّلية، ليضيء بالنهايى طريقة معرفة العرب-المسلمين، وماهية أحكامهم، وتخيلاتهم عن الشعوب السوداء، و(موقفهم) منهم .

شمس الدين الكيلاني

سيرة ثقافية

صدر للمؤلف شمس الدين الكيلاني

١- مصير الجماعة العربية. دار عشتروت. دمشق. ١٩٩٧م .
٢- من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي. الأسطورة. الدين. الأيديولوجيا. العلم. دار الكنوز الأدبية. بيروت. ١٩٩٨م .
٣- أزمة الماركسية. (التاريخ والمصير). دار الحصاد. دمشق . ١٩٩٨م .
٤- باحث مشارك في مشروع "مصير الحزب السياسي العربي" لـ(المركز العربي للدراسات الاستراتيجية ـ دمشق"، والتي صدر منها:
أ. الأحزاب والحركات الإسلامية في الوطن العربي . جزءان . ١٩٩٩م .
ب. الأحزاب والحركات القومية في الوطن العربي . جزءان . ٢٠٠١م .
ج. الأحزاب والحركات اليسارية في الوطن العربي . جزءان . ٢٠٠٣م .
٥- مشارك في الكتاب الجماعي: الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية. عام ٢٠٠٢مـ حقوق الإنسان في الفكر العربي.
٦- الإمام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥). دار الأهالي . دمشق. ٢٠٠١م .
٧- الحزب الشيوعي السوري: البدايات والنهايات،دار الأهالي، دمشق.٢٠٠٢

٨- الطريق إلى القدس. إصدار المجمع الثقافي أبو ظبي، ومركز الشرق والغرب - برتا. ٢٠٠٠م.
٩- المثقف العربي والتحول إلى الديمقراطية . دار السوسن، والحصاد . دمشق . ٢٠٠٤م
١٠- مفاهيم حقوق الإنسان والدولة عند الإسلاميين.دار السوسن والحصاد.دمشق. ٢٠٠٤م
١١- سورية بين عهدين .. دار سندباد . عمان . ٢٠٠٤م
١٢- صورة أوربا عند العرب في العصر الوسيط (الآخر في الثقافة العربية الإسلامية) وزارة الثقافة. دمشق٢٠٠٤(ويترجم إلى الإنكليزية. مركز الشرق والغرب - برتا) .
١٣- رمزية القدس الروحية،اتحاد الكتاب العرب ،دمشق،٢٠٠٥
١٤- الإسلام وأوربا المسيحية (ما بين القرنين ١١ - ١٦) . وزارة الثقافة .٢٠٠٧.
١٥- صورة الشرق الأقصى في ألف ليلة وليلة، اتحاد الكتاب العرب دمشق،٢٠٠٧